

الكتاب: في ظلال التوحيد
المؤلف: الشيخ جعفر السبحاني

الجزء:

الوفاء: معاصر

المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية

تحقيق:

الطبعة:

سنة الطبع: ١٤١٢

المطبعة:

الناشر: معاوية شؤون التعليم والبحوث الإسلامية في الحج

ردمك:

ملاحظات:

في ظلال التوحيد
تأليف: آية الله الشيخ جعفر السبحاني

تمهيد

كلمة الناشر:

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد رسله وخاتم أنبيائه وآله

ومن سار على خطاهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لقد اهتم المسلمون - ومنذ صدر الإسلام - اهتماما بالغاً بالتوحيد لأنه يشكل

حجر الزاوية في سلوكهم ومنازلهم ويزداد لمعادهم.

ولهذا كرس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جهوده في الفترة المكية من حياته

الرسالية

لإرساء أسس التوحيد الخالص، ومكافحة الشرك والوثنية، ثم بنى عليها في الفترة

المدنية صرح النظام الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

ولهذا - ونظراً للحاجة المتزايدة - رأينا أن نقدم للأمة الإسلامية الكريمة

دراسات عقائدية - حول التوحيد والشرك - مستمدة من كتاب الله العزيز، والسنة

الشريفة الصحيحة، والعقل السليم، وما اتفق عليه علماء الأمة الكرام، والله الموفق.

معاونة شؤون التعليم والبحوث الإسلامية في الحج

في ظلال التوحيد ونبذ الشرك
مقدمة المؤلف:

بسم الله الرحمن الرحيم

في ظلال التوحيد ونبذ الشرك

التوحيد ونبذ الشرك من أهم المسائل الاعتقادية التي تصدرت المفاهيم
والتعاليم السماوية، ويعد أساسا للمعارف العليا التي جاء بها سقراؤه سبحانه
وأنبياؤه.

إن للتوحيد مراتب متعددة النظر:

أ: التوحيد في الذات: إنه واحد لا ثاني ولا نظير له.

ب: التوحيد في الخالقية: إنه لا خالق للكون إلا الله سبحانه.

ج: التوحيد في الربوبية: إنه لا مدبر للعالم سواه.

د: التوحيد في العبادة: إنه لا معبود إلا هو.

إلى غير ذلك من مراتب التوحيد المطروحة في كتب العقائد.

وقد أولى الذكر الحكيم مزيدا من الاهتمام بالمرتبة الرابعة، أعني: التوحيد في

العبادة، ولذلك نجد المسلمين يشهدون خلال صلواتهم اليومية بالتوحيد في

العبادة، حيث يتلون قوله سبحانه: {إياك نعبد} وبالتالي أصبح التوحيد في العبادة
شعارا للمسلمين، ولا يدخل أحد حظيرة الإسلام إلا بالاعتقاد به، وتطبيق العمل

على وفقه، فمن رفضه اعتقاداً أو خالفه عملاً فهو مشرك وليس بمسلم.
إنه سبحانه يركز على أن الهدف من وراء بعث الأنبياء هو دعوة الناس إلى
التوحيد في العبادة، ونبذ عبادة الطاغوت، يقول سبحانه: {ولقد بعثنا في كل أمة
رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (١).
إنه سبحانه جعل التوحيد في العبادة أصلاً مشتركاً بين الشرائع السماوية التي
أنزلها على المصطفين من عباده، وأمر النبي (صلى الله عليه وآله) أن يدعو أهل الكتاب
إلى كلمة
سواء بينه وبينهم ألا وهي التوحيد في العبادة، وقال: {قل يا أهل الكتاب تعالوا
إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا
بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} (٢).
إن الحد الفاصل بين الموحّد والمشرك هو أن الموحّد يستبشر بذكر الله سبحانه
خلافاً للمشرك الذي يستبشر بذكر غيره.
قال سبحانه: {وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة
وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون} (٣).
نعم هذا هو حال المشرك فهو يستكبر عن عبادته سبحانه، كما يقول تعالى:
{إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} (٤).
فعلى ضوء ذلك فلا اختلاف بين المسلمين في التوحيد في العبادة، وهو أصل
اتفقت عليه كافة مذاهبهم، غير أن هناك موضوعات ربما يتصور أنها من مقولة
العبادة لغيره سبحانه أو من مصاديق البدعة، فهذا وذاك دعانا إلى طرح

(١) النحل: ٣٦.

(٢) آل عمران: ٦٤.

(٣) الزمر: ٤٥.

(٤) الصافات: ٣٥.

الموضوعات التالية على طاولة البحث.

١ - العبادة حدها ومفهومها.

٢ - البدعة وآثارها الموبقة.

٣ - الزيارة في الكتاب والسنة.

٤ - صيانة الآثار الإسلامية.

٥ - الحياة البرزخية.

٦ - الشفاعة في الكتاب والسنة.

٧ - التوسل مفهومه وأقسامه وحكمه.

وفي الختام، أود أن أشير إلى نقطة جديرة بالاهتمام وهي أن الفهم الخاطئ للمسائل المطروحة بات مانعا أمام وحدة المسلمين، ورض صفوفهم، وتوحيد كلمتهم، التي هي أمنية كل المصلحين الذين يحملون هموم الأمة. وانطلاقا من ذلك، فقد آثرنا دراستها على ضوء الكتاب والسنة بعبارات واضحة لا لبس فيها يفهمها الجميع، وبلغت هادئة من دون أن تثير حفيظة الآخرين، وأظن أن القارئ الكريم يشاطرنى الرأي في ذلك شريطة أن يتجرد عن كل رأي مسبق، وأن ينشد الحقيقة التي هي أولى بالاتباع. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جعفر السبحاني

قم - مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)

٢٤ صفر المظفر من شهر عام ١٤١٢ هـ. ق.

الفصل الأول:
العبادة
حدها ومفهومها

تمهيد

العبادة من الموضوعات التي تطرق إليها الذكر الحكيم كثيرا. وقد حث عليها في أكثر من سورة وآية وخصها بالله سبحانه وقال: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا} (١) ونهى عن عبادة غيره من الأنداد المزعومة والطواغيت والشياطين، وجعلها الأصل الأصيل بين الشرائع السماوية وقال: {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله} (٢) كما جعلها الرسالة المشتركة بين الرسل فقال سبحانه: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} (٣).

فإذا كان لهذا الموضوع تلك العناية الكبيرة فجدير بالباحت المسلم أن يتناولها بالبحث والتحقيق العلمي، حتى يتميز هذا الموضوع عن غيره تميزا منطقيا.

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) آل عمران: ٦٤.

(٣) النحل: ٣٦.

والذي يضفي على الدراسة أهمية أكثر، هو أن التوحيد في العبادة أحد مراتب التوحيد التي لا محيص للمسلم من تعلمه، ثم عقد القلب عليه، والتحرر عن أي لون من ألوان الشرك. فلا تنال تلك الأمنية في مجالي العقيدة والعمل إلا بمعرفة الموضوع معرفة صحيحة، مدعمة بالدليل حتى لا يقع في مغبة الشرك، وعبادة غيره سبحانه.

ورغم المكانة الرفيعة للموضوع لم نعر على بحث جامع حول مفهوم العبادة يتكفل بيان مفهومها، وحدها الذي يفصله عن التكريم والتعظيم أو الخضوع والتذلل، وكأن السلف (رضوان الله عليهم) تلقوها مفهوما واضحا، واكتفوا فيها بما توحى إليهم فطرتهم.

ولو صح ذلك فإنما يصح في الأزمنة السالفة، دون اليوم الذي استفحل عند بعض الناس أمر ادعاء الشرك في العبادة، فيما درج عليه المسلمون منذ قرون إلى أن ينتهي إلى عصر التابعين والصحابة فأصبح - بادعائهم - كل تعظيم وتكريم للنبي، عبادة له، وكل خضوع أمام الرسول شركا، فلا يلتفت الزائر يمينا وشمالا في المسجد الحرام والمسجد النبوي إلا وتوقر سمعه كلمة " هذا شرك يا حاج " وكأنه ليس لديهم إلا تلك اللفظة، أو لا يستطيعون تكريم ضيوف الرحمن إلا بذلك. فاللازم على هؤلاء - الذين يعدون مظاهر الحب والود، والتكريم والتعظيم شركا وعبادة - وضع حد منطقي للعبادة، يميز بها، مصاديقها عن غيرها حتى يتخذه الوافدون من أقاصي العالم وأدانيه، ضابطة كلية في المشاهد والمواقف، ولكن - وللأسف - لا تجد بحثا حول مفهوم العبادة وتبينها في كتبهم ونشرياتهم ودورياتهم.

فلأجل ذلك قمنا في هذا الفصل، بمعالجة هذا الموضوع، بشرح مفهومها لغة وقرآنا، حيث بينا أن حقيقة الشرك في تعاليم الأنبياء أخص مما ورد في المعاجم وكتب اللغة.

تخصيص العبادة والاستعانة بالله سبحانه
إن المسلم في شرق الأرض وغربها، يخص العبادة والاستعانة بالله سبحانه في
كل يوم في صلواته الخمس فيقول: {إياك نعبد وإياك نستعين} (١) ولا خلاف بين
المسلمين في هذه الضابطة الكلية، أي أن العبادة مختصة بالله سبحانه، ولا يصح
إصدار هوية إسلامية لشخص إلا بعد الاعتراف بهذه الكبرى، وإنما الخلاف بينهم
في بعض الأمور والأحوال الخارجية، فهل هي عبادة أو لا؟ فلو صحت كونها
عبادة، فلا يجوز الإتيان بها لغيره سبحانه وإن أتى بها لغيره يعد مشركا.
مثلا تقبيل الأضرحة هل هو عبادة لصاحب القبر أو تكريم وتعظيم له؟
وهكذا الصلاة في المشاهد وعند قبور الأنبياء، فهل هي عبادة لصاحب القبر (وإن
كانت الصلاة لله) أو هي عبادة لله ولكن تتضمن التبرك بصاحب القبر؟
ومثل ذلك مسألة الاستعانة في نفس الآية، فمع الاعتراف بحصر الاستعانة
بالله سبحانه، فلا شك عند العقلاء عامة أنه تجوز الاستعانة بالأحياء في الأمور
الدنيوية، ولكن إذا استعان بإنسان حي فيما يرجع إلى الأمور الغيبية، كرد ضالته

(١) سورة الفاتحة: ٦.

وبرء مرضه، فهل هو استعانة تخالف الحصر المذكور في الآية أو لا؟
وهناك صورة ثالثة أبهم من الصورة الثانية وهي: إذا استعان بميت بنحو من
الأنحاء كما إذا طلب منه الدعاء والاستغفار في حقه، فهل هي استعانة تخالف
الحصر أو لا؟ وقس على ذلك بعض ما يرد عليك من الصور المرددة بين العبادة
والتكريم، أو بين الاستعانة الجائزة والمحرمة.
ولأجل أن يكون البحث أكثر علمية وموضوعية علينا أولاً البحث في
مسألتين:

- ١ - تحديد مفهوم العبادة حتى تتميز عن التكريم والتبجيل والتبرك.
- ٢ - تحديد الاستعانة المختصة بالله وفصلها عن الاستعانة الجائزة.
كل ذلك في ضوء القرآن الكريم.

المسألة الأولى:

مفهوم العبادة وحدها

بالرغم من عناية اللغويين والمفسرين بتفسير لفظ العبادة وتبيينها، لكن لا تجد في كلماتهم ما يشفي الغليل، وذلك لأنهم فسروه بأعم المعاني وأوسعها وليس مرادفا للعبادة طردا وعكسا.

١ - قال الراغب في المفردات: " العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحق إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...} "

٢ - قال ابن منظور في لسان العرب: " أصل العبودية: الخضوع والتذلل "

٣ - قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: " العبادة: الطاعة "

٤ - قال ابن فارس في المقاييس: " العبد: الذي هو أصل العبادة، له أصلان متضادان، والأول من ذينك الأصلين، يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ "

هذه أقوال أصحاب المعاجم ولا تشذ عنها أقوال أصحاب التفاسير وهم يفسرونه بنفس ما فسر به أهل اللغة، غير مكثرين بأن تفسيرهم، تفسير لها

بالمعنى الأعم.

١ - قال الطبري في تفسير قوله: {إياك نعبد} اللهم لك نخشع ونذل ونستكين إقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك. إن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة وإنها تسمى الطريق المذل الذي قد وطئته الأقدام وذلتته السابلة معبدا، ومن ذلك قيل للبعير المذل بالركوب للحوائج: معبد، ومنه سمي العبد عبدا، لذتته لمولاه (١).

٢ - قال الزجاج: معنى العبادة: الطاعة مع الخضوع، يقال: هذا طريق معبد إذا كان مذكلا لكثرة الوطاء، وبعير معبد إذا كان مطليا بالقطران، فمعنى {إياك نعبد}: إياك نطيع، الطاعة التي نخضع منها (٢).

٣ - وقال الرمخشري: العبادة: أقصى غاية الخضوع والتذل، ومنه ثوب ذو عبدة، أي في غاية الصفاقة، وقوة النسج، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع (٣).

٤ - قال البغوي: العبادة: الطاعة مع التذل والخضوع وسمي العبد عبدا لذتته وانقياده يقال: طريق معبد، أي مذل (٤).

٥ - قال ابن الجوزي: المراد بهذه العبادة ثلاثة أقوال:

أ - بمعنى التوحيد {إياك نعبد} عن علي وابن عباس.

ب - بمعنى الطاعة كقوله تعالى {لا تعبد الشيطان} (٥).

ج - بمعنى الدعاء (٦).

(١) تفسير الطبري ١: ٥٣، ط دار المعرفة، بيروت.

(٢) معاني القرآن ١: ٤٨.

(٣) الكشاف ١: ١٠.

(٤) تفسير البغوي ١: ٤٢.

(٥) سورة مريم: ٤٤.

(٦) زاد المستنير ١: ١٢.

٦ - قال البيضاوي: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه الطريق المعبد، أي مذلل، وثوب ذو عبدة، إذا كان في غاية الصفاقة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى (١).

وسياتي أن تفسير العبادة بغاية الخضوع ربما يكون تفسيراً بالأخص، إذ لا تشترط في صدقها غاية الخضوع، ولذلك يعد الخضوع المتعارف الذي يقوم به أبناء الدنيا أمام الله سبحانه عبادة، وإن لم يكن بصورة غاية التعظيم، وربما يكون تفسيراً بالأعم، فإن خضوع العاشق لمعشوقه ربما يبلغ نهايته ولا يكون عبادة.

٧ - وقال القرطبي: {نعبد}، معناه نطيع، والعبادة: الطاعة والتذلل، وطريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين (٢).

٨ - وقال الرازي: العبادة عبارة عن الفعل الذي يؤتى به لغرض تعظيم الغير، وهو مأخوذ من قولهم: طريق معبد (٣).

وإذا قصرنا النظر في تفسير العبادة، على هذه التعاريف وقلنا بأنها تعاريف تامة جامعة للأفراد وموانعة للأغيار، لزم رمي الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصدّيقين بالشرك، وأنهم - نستعيد بالله - لم يتخلصوا من مصائد الشرك، ولزم ألا يصح تسجيل أحد من الناس في قائمة الموحدين. وذلك لأن هذه التعاريف تفسر العبادة بأنها:

١ - إظهار التذلل.

٢ - إظهار الخضوع.

٣ - الطاعة والخشوع والخضوع.

(١) أنوار التنزيل ١ : ٩.

(٢) جامع أحكام القرآن ١ : ١٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب ١ : ٢٤٢، في تفسير قوله تعالى: * (إياك نعبد) *.

٤ - أقصى غاية الخضوع.
وليس على أديم الأرض من لا يتذلل أو لا يخشع ولا يخضع لغير الله سبحانه
وإليك بيان ذلك:

ليست العبادة نفس الخضوع أو نهايته
إن الخضوع والتذلل حتى إظهار نهاية التذلل لا يساوي العبادة ولا يعد حدا
منطقيًا لها، بشهادة أن خضوع الولد أمام والده، والتلميذ أمام أستاذه، والجندي
أمام قائده، ليس عبادة لهم وإن بالغوا في الخضوع والتذلل حتى ولو قبل الولد قدم
الوالدين، فلا يعد عمله عبادة، لأن الله سبحانه يقول: {واخفض لهما جناح الذل
من الرحمة} (١).

وأوضح دليل على أن الخضوع المطلق وإن بلغ النهاية لا يعد عبادة هو أنه
سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم وقال: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم} (٢)
وآدم كان مسجودًا له ككونه سبحانه مسجودًا له، مع أن الأول لم يكن عبادة وإلا
لم يأمر بها سبحانه، إذ كيف يأمر بعبادة غيره وفي الوقت نفسه ينهى عنها بتاتا في
جميع الشرائع من لدن آدم (عليه السلام) إلى الخاتم (صلى الله عليه وآله)، ولكن الثاني
- أي الخضوع لله -
عبادة.

والله سبحانه يصرح في أكثر من آية بأن الدعوة إلى عبادة الله سبحانه، والنهي
عن عبادة غيره، كانت أصلا مشتركا بين جميع الأنبياء، قال سبحانه: {ولقد بعثنا
في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} (٣) وقال سبحانه: {وما

(١) الإسراء: ٢٤.

(٢) البقرة: ٣٤.

(٣) النحل: ٣٦.

أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون { (١) وفي موضع آخر من الكتاب يعد سبحانه التوحيد في العبادة: الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية، إذ يقول: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً} (٢)، ومعه كيف يأمر بسجود الملائكة لآدم الذي هو من مصاديق الخضوع النهائي؟ وهذا الإشكال لا يندفع إلا بنفي كون الخضوع عبادة، ببيان أن للعبادة مقوماً لم يكن موجوداً في سجود الملائكة لآدم. ولم يكن آدم فحسب هو المسجود له بأمره سبحانه، بل يوسف الصديق كان نظيره، فقد سجد له أبواه وإخوته، وتحقق تأويل رؤياه بنفس ذلك العمل، قال سبحانه حاكياً عن لسان يوسف (عليه السلام): {إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين} (٣). كما يحكي تحققه بقوله سبحانه: {ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً} (٤) ومعه كيف يصح تفسير العبادة بالخضوع أو نهايته؟ إنه سبحانه أمر جميع المسلمين بالطواف بالبيت الذي ليس هو إلا حجراً وطنياً، كما أمر بالسعي بين الصفا والمروة، قال سبحانه: {وليطوفوا بالبيت العتيق} (٥) وقال سبحانه: {إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما} (٦).

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) آل عمران: ٦٤.

(٣) يوسف: ٤.

(٤) يوسف: ١٠٠.

(٥) الحج: ٢٩.

(٦) البقرة: ١٥٨.

فهل ترى أن الطواف حول التراب والجبال والحجر عبادة لهذه الأشياء بحجة أنه خضوع لها؟!

إن شعار المسلم الواقعي هو التذلل للمؤمن والتعزز على الكافر، قال سبحانه: {فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين} (١).

فمجموع هذه الآيات وجميع مناسك الحج يدلان بوضوح على أن مطلق الخضوع والتذلل ليس عبادة. ولو فسرها أئمة اللغة بالخضوع والتذلل، فقد فسروها بالمعنى الأوسع، فلا محيص حينئذ عن القول بأن العبادة ليست إلا نوعا خاصا من الخضوع. ولو سمي في بعض الموارد مطلق الخضوع عبادة، فإنما سمي من باب المبالغة والمجاز، يقول سبحانه: {أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا} (٢) فكما أن إطلاق اسم الإله على الهوى مجاز فكذا تسمية متابعة الهوى عبادة له، ضرب من المجاز.

ومن ذلك يعلم مفاد قوله سبحانه: {ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين} * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم} (٣). فإن من يتبع قول الشيطان فيتساهل في الصلاة والصيام، ويترك الفرائض أو يشرب الخمر ويرتكب الزنا، فإنه بعمله هذا يقترف المعاصي، لا أنه يعبده كعبادة الله، أو كعبادة المشركين للأصنام، ولأجل ذلك لا يكون مشركا محكوما عليه بأحكام الشرك، وخارجا عن عداد المسلمين، مع أنه من عبدة الشيطان لكن بالمعنى الواسع الأعم من الحقيقي والمجازي.

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) الفرقان: ٤٣.

(٣) يس: ٦٠ - ٦١.

وربما يتوسع في إطلاق العبادة فتطلق على مطلق الإصغاء لكلام الغير، وفي الحديث: " من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله، وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان " (١).

توجيه غير سديد

إن بعض من يفسر العبادة بالخضوع والتذلل عندما يقف أمام هذه الدلائل الوافرة، يحاول أن يجيب ويقول: إن سجود الملائكة لآدم أو سجود يعقوب وأبنائه ليوסף، لم يكن عبادة له ولا ليوסף، لأن ذلك كان بأمر الله سبحانه ولولا أمره لانقلب عملهم عبادة لهما.

وهذا التوجيه بمعزل عن التحقيق، لأن معنى ذلك أن أمر الله يغير الموضوع، ويبدل واقعه إلى غير ما كان عليه، مع أن الحكم لا يغير الموضوع.

فلو نفترض أنه سبحانه أمر بسب المشرك والمنافق فأمره سبحانه لا يخرج السب عن كونه سباً، فلو كان مطلق الخضوع المتجلي في صورة السجود لآدم أو ليوסף عبادة، لكان معنى ذلك أنه سبحانه أمر بعبادة غيره، مع أنها فحشاء بتصريح الذكر الحكيم لا يأمر بها سبحانه، قال تعالى: {إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون} (٢).

وهناك تعاريف للعبادة لجملة من المحققين نأتي بها واحداً بعد الآخر:

١ - نظرية صاحب المنار في تفسير العبادة

إن صاحب المنار لما وقف على بعض ما ذكرناه حاول أن يفسر العبادة بشكل يبعده عن بعض ما ذكرناه، لذلك أخذ في التعريف قيوداً ثلاثة:

(١) الكافي ٦: ٤٣٤.

(٢) الأعراف: ٢٨.

- أ - العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية.
- ب - ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود، لا يعرف منشأها.
- ج - واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها (١).
- يلاحظ على هذا التعريف:
- أولاً: أن التعريف غير جامع، وذلك لأنه إذا كان مقوم العبادة، الخضوع البالغ حد النهاية فلا يشمل العبادة الفاقدة للخشوع والخضوع التي يؤديها أكثر المتساهلين في أمر الصلاة، وربما يكون خضوع الجندي لقائده أشد من هؤلاء المتساهلين الذين يتصورون الصلاة عبادة وجهداً.
- وثانياً: ماذا يريد من قوله: " عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها "؟ فهل يعتقد أن الأنبياء كانوا يستشعرون عظمة المعبود ولكن لا يعرفون منشأها. مع أن غيرهم يستشعر عظمة المعبود ويعرف منشأها، وهو أنه سبحانه: الخالق البارئ، المصور، أو أنه سبحانه هو الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر.
- وثالثاً: ماذا يريد من قوله: " واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها "؟
- فإن أراد شرطية هذا الاعتقاد في تحقق العبادة، فلازم ذلك عدم صدقها على عبادة الأصنام والأوثان، فإن عباد الأوثان يعبدونها وكانوا يعتقدون بكونهم شفعاء عند الله سبحانه فقط لا أن لهم سلطة لا يدرك كنهها وماهيتها.
- ٢ - نظرية الشيخ شلتوت، زعيم الأزهر
- وقد عرف شيخ الأزهر الأسبق العبادة بنفس ما عرفها صاحب المنار، ولكنه يختلف عنه لفظاً ويتحد معه معنى، فقال: العبادة خضوع لا يحد، لعظمة لا تحد (٢).

(١) تفسير المنار ١: ٥٧.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ٣٧.

وهذا التعريف يشترك مع سابقه نقدا وإشكالا، وذلك أن العبادة ليست منحصرة في خضوع لا يحد بل الخضوع المحدد أيضا ربما يعد عبادة، كما إذا كان الخضوع بأقل مراتبه. وكذلك لا يشترط كون الخضوع لعظمة لا تحدد، إذ ربما تكون عظمة المعبود محدودة في زعم العابد كما هو الحال في عبادة الأصنام، الذي كان الدافع إلى عبادتها كونها شفعا عند الله.

٣ - تعريف ابن تيمية

وأكثر التعاريف عرضة للإشكال هو تعريف ابن تيمية إذ قال:
" العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنية والظاهرية كالصلاة والزكاة والصيام، والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين وصلة الأرحام " (١).
وهذا الكاتب لم يفرق - في الحقيقة - بين العبادة والتقرب، وتصور أن كل عمل يوجب القربى إلى الله، فهو عبادة له تعالى أيضا، في حين أن الأمر ليس كذلك، فهناك أمور توجب رضا الله، وتستوجب ثوابه لكنها قد تكون عبادة كالصوم والصلاة والحج، وقد تكون موجبة للتقرب إليه دون أن تعد عبادة، كالإحسان إلى الوالدين، وإعطاء الزكاة، والخمس، فكل هذه الأمور (الأخيرة) توجب القربى إلى الله في حين لا تكون عبادة. وإن سميت في مصطلح أهل الحديث عبادة، فيراد منها كونها نظير العبادة في ترتب الثواب عليها.
وبعبارة أخرى: أن الإتيان بهذه الأعمال يعد طاعة لله ولكن ليس طاعة عبادة.

وإن شئت قلت: إن هناك أمورا عبادية، وأمورا قربية، وكل عبادة

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٢: ١٨٧، نقلا عن كتاب العبودية: ٣٨.

مقربة، وليس كل مقرب عبادة، فدعوة الفقير إلى الطعام، والعطف على اليتيم - مثلا - توجب القرب، ولكنها ليست عبادة بمعنى أن يكون الآتي بها عابدا بعمله لله تعالى.

وإذا وقفت على قصور هذه التعاريف هنا نذكر في المقام تعريفين، كل يلزم الآخر.

التعريف الأول:

العبادة هي الخضوع للشيء بما أنه إله

إن لفظ العبادة من المفاهيم الواضحة، وربما يكون ظهور معناها الواضح مانعا عن التحديد الدقيق لها، غير أنه يمكن تحديدها من خلال الإمعان في الموارد التي تستعمل فيها تلك اللفظة، فقد استعملها القرآن في مورد الموحدين والمشركين، وقال سبحانه في الدعوة إلى عبادة نفسه: {ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم} (١) وقال سبحانه: {قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين} (٢).

وقال في النهي عن عبادة غيره: {إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا} (٣) وقال: {أتعبدون ما تنحتون} (٤)، فعلى الباحث أن يقتنص معنى العبادة بالدقة في أفعال العباد، وعقائدهم من غير فرق بين عبادة الموحدين وعبادة المشركين فيجعله حدا منطقيا للعبادة.

إن الإمعان في ذلك المجال يدفعنا إلى القول بأن العبادة عندهم عبارة عن الفعل

(١) يونس: ١٠٤.

(٢) الزمر: ١١.

(٣) العنكبوت: ١٧.

(٤) الصافات: ٩٥.

الدال على الخضوع المقترن مع عقيدة خاصة في حق المخضوع له، فالعنصر المقوم للعبادة حينئذ أمران:

١ - الفعل المنبئ عن الخضوع والتذلل.

٢ - العقيدة الخاصة التي تدفعه إلى عبادة المخضوع له.

أما الفعل، فلا يتجاوز عن قول أو عمل دال على الخضوع والتذلل بأي مرتبة من مراتبها، كالتكلم بكلام يؤدي إلى الخضوع له أو بعمل خارجي كالركوع والسجود بل الانحناء بالرأس، أو غير ذلك مما يدل على ذلته وخضوعه أمام موجود.

وأما العقيدة التي تدفعه إلى الخضوع والتذلل فهي عبارة عن:

١ - الاعتقاد بالوهيته.

٢ - الاعتقاد بربوبيته.

أما الأول فالألوهية منسوبة إلى الله، وهو ليس بمعنى المعبود - وإن اشتهر في الألسن - بل كونه معبودا من لوازم كونه إلها لا أنه نفس معناه، بل الإله - كما يشهد عليه الذكر الحكيم - مرادف، للفظ الجلالة ويختلف معه في الكلية والجزئية، فالإله كلي ولفظ الجلالة علم جزئي.

وتوضيح ذلك أن الموحدين عامة والوثنيين كلهم، وعبدة الشمس والكواكب يعتقدون بالوهية معبوداتهم، إما لكون المعبود إلها كبيرا أو إلها صغيرا، إما إلها صادقا أو إلها كاذبا، فالاعتقاد بالوهية المعبود بهذا المعنى هو المقوم لصدق العبادة. ولأجل أنه لا يستحق العبادة إلا من كان إلها لذلك يؤكد القرآن بأنه لا إله إلا الله ومع ذلك فكيف تعبدون غيره؟

يقول سبحانه: {الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون} (١).

(١) الحجر: ٩٦.

{والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر} (١).
 {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا} (٢).
 {أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى} (٣).
 وحاصل الآيات أن غيره سبحانه لا يستحق العبادة، لأنها من شؤون
 الألوهية، وهي من خصائص الله سبحانه لا غير، فيتحصل من ذلك أن العبادة
 عبارة عن الخضوع أمام موجود للاعتقاد بأنه إله حقيقي أو مجازي، ولولا ذلك
 الاعتقاد لا يوصف الخضوع بالعبادة، والشاهد عليه أن العاشق الولهان إذا خضع
 لمعشوقته، خضوعاً بالغاً لا يعد عبادة لها، لأنه لم يصدر عن الاعتقاد بألوهيتها
 وأنها إله، وإنما صدر عن اعتقاد بأنها جميلة تجذب الإنسان بنفسيتها وجمالها.
 ويدل على ما ذكرنا من أن دعوة المشركين وخضوعهم ونداءهم وسؤالهم
 كانت مصحوبة بالاعتقاد بالوهية أصنامهم، أنه سبحانه يفسر الشرك في بعض
 الآيات باتخاذ إله مع الله.
 ويقول: {وأعرض عن المشركين * إنا كفييناك المستهزئين * الذين
 يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون} (٤).
 وفي بعض الآيات يندد بالمشركين بأنه ليس لهم إله غير الله فكيف يعبدون
 غيره، ويقول: {أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون} (٥).
 والإمعان في هذه الآيات ونظائرها يؤكد أن اندفاع المشركين إلى عبادة
 الأصنام أو اندفاع الموحدين إلى عبادة الله هو اعتقادهم بكونهم آلهة أو كونه إلهاً،

(١) الفرقان: ٦٨.

(٢) مريم: ٨١.

(٣) الأنعام: ١٩.

(٤) الحجر: ٩٤ - ٩٦.

(٥) الطور: ٤٣.

فهذا الاعتقاد كان يدفعهم إلى العبادة، ولأجل ذلك كانوا يقدمون لمعبوداتهم النذور والقرايين وغيرهما من التقاليد والسنن. ولما كانت كلمة التوحيد تهدم عقيدتهم بالوهية غيره سبحانه لذلك كانوا يستكبرون عند سماعها، كما قال سبحانه: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} (١).

ثم إن الاعتقاد بالوهية الأصنام لا يلازم الاعتقاد بكون المعبود خالقا للعالم حتى يقال بأن المشركين في الجاهلية كانوا موحدين في الخالقية، كما يدل على ذلك أكثر من آية. قال سبحانه:

{ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم} (٢).

إذ للألوهية شؤون عندهم يقوم ببعضها الإله الأعلى كخلق السماوات والأرض، وبعضها الآخر الآلهة المزعومة المتخيلة عندهم، كغفران الذنوب والشفاعة المطلقة المقبولة بلا قيد وشرط، وبما أن هذين الأمرين الأخيرين من شؤون الإله الأعلى أيضا وليس للآلهة المزعومة فيها حظ ولا نصيب، يركز القرآن على إثباتهما لله سبحانه فقط ويقول: {ومن يغفر الذنوب إلا الله} (٣). ويقول: {قل لله الشفاعة جميعا} (٤).

وفي ضوء ذلك فالمشركون كانوا معتقدين بالإله الأعلى الأكبر، وفي الوقت نفسه يعتقدون بآلهة شتى ليس لهم من الشؤون ما للإله الأعلى منها، وفي الوقت نفسه كانت الآلهة عندهم مخلوقة لله سبحانه، مفوضة إليهم بعض الشؤون كما عرفت.

(١) الصافات: ٣٥.

(٢) الزخرف: ٩.

(٣) آل عمران: ١٣٥.

(٤) الزمر: ٤٤.

ترادف الإله ولفظ الجلالة

إن الدليل الواضح على أن الإله يرادف لفظ الجلالة ولكن يفترق عنها بالجزئية والكلية الأمور التالية:

- أ - وحدة المادة، إذ الأصل للفظ الجلالة هو الإله، فحذفت الهمزة وعوض اللام، ولذلك قيل في النداء: " يا الله، بالقطع كما يقال: يا إله " (١).
- ب - الآيات التي استدلت فيها على وحدة الإله صريحة في أن المراد من الإله هو المتصرف المدبر، أو من بيده أزمة الأمور أو ما يقرب من ذلك، ولا يصح تفسير الإله بالمعبود وإلا لفسد الاستدلال، وإليك الآيات الواردة في ذلك المجال:
- ١ - { لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا } (٢) فإن البرهان على نفي تعدد الآلهة لا يتم إلا إذا جعلنا " الإله " في الآية بمعنى المتصرف المدبر أو من بيده أزمة الأمور أو ما يقرب من هذين، ولو جعلنا الإله بمعنى المعبود لانتقض البرهان لبداهة تعدد المعبودين في هذا العالم، مع عدم فساد النظام الكوني وقد كانت الحجاز يوم نزول هذه الآية مزدحمة بالآلهة بل ومركزها مع انتظام العالم وعدم فساده.
- وعندئذ يجب على من يجعل " الإله " بمعنى المعبود أن يقيده بلفظ " بالحق " أي لو كان فيهما معبودات - بالحق - لفسدتا، ولما كان المعبود بالحق مدبرا أو متصرفا لزم من تعدده فساد النظام، وهذا كله تكلف لا مبرر له.
- ٢ - { ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض } (٣).
- ويتم هذا البرهان أيضا لو فسرنا الإله بما ذكرنا من أنه كلي ما يطلق عليه لفظ

(١) الكشاف ١: ٣٠.

(٢) الأنبياء: ٢٢.

(٣) المؤمنون: ٩١.

الجلالة.

وإن شئت قلت: إنه كناية عن الخالق أو المدير المتصرف أو من يقوم بأفعاله وشؤونه، والمناسب في هذا المقام هو الخالق، ويلزم من تعدده ما رتب عليه في الآية من ذهاب كل إله بما خلق واعتلاء بعضهم على بعض. ولو جعلناه بمعنى المعبود لانتقض البرهان، ولا يلزم من تعدده أي اختلال في الكون. وأدل دليل على ذلك هو المشاهدة، فإن في العالم آلهة متعددة، وقد كان في أطراف الكعبة المشرفة ثلاثمائة وستون إلها ومع ذلك لم يقع أي فساد أو اختلال في الكون.

فيلزم من يفسر (الإله) بالمعبود ارتكاب التكلف بما ذكرناه في الآية المتقدمة.

٣ - {قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا} (١) فإن ابتغاء السبيل إلى ذي العرش من لوازم تعدد الخالق المدير المتصرف، أو من بيده أزمة أمور الكون أو غير ذلك مما يرسمه في ذهننا معنى الألوهية، وأما تعدد المعبود فلا يلزم ذلك إلا بالتكلف الذي أشرنا إليه فيما سبق.

٤ - {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون* لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها} (٢) والآية تستدل بورود الأصنام والأوثان في النار، على بطلان كونها آلهة، إذ لو كانت آلهة ما وردوا النار.

والاستدلال إنما يتم لو فسرنا الآلهة بما أشرنا إليه، فإن خالق العالم أو مدبره والمتصرف فيه أو من فوض إليه أفعال الله أجل من أن يحكم عليه بالنار وأن يكون حصب جهنم.

وهذا بخلاف ما إذا جعلناه بمعنى المعبود فلا يتم البرهان، لأن المفروض أنها كانت معبودات وقد جعلت حصب جهنم. ولو أمعنت في الآيات التي ورد فيها لفظ

(١) الإسراء: ٤٢.

(٢) الأنبياء: ٩٨ - ٩٩.

الإله والآلهة لقدرت على استظهار ما اخترناه.
حصيلة البحث: أن العبادة عبارة عن الخضوع الصادر لمن يتخذه الخاضع
إلها، وما ذكرناه على وجه التفصيل هو الذي أفرغه الشيخ جواد البلاغي في قالب
التعريف وقال: العبادة ما يرونها مشعرا بالخضوع لمن يتخذه الخاضع إلها، ليوفيه
بذلك ما يراه له من حق الامتياز بالألوهية (١).
التعريف الثاني:

العبادة عبارة عن الخضوع للشيء على أنه رب
واللغويون وإن ذكروا للرب معاني مختلفة كالخالق والمالك والصاحب
والمصلح، ولكن الظاهر أن أكثر هذه المعاني من لوازم المعنى الواحد، ويمكن
تصويره بأنه من فوض إليه أمر الشيء من حيث الإصلاح والتدبير والتربية، فلو
أطلق الرب على الخالق فلأنه يقوم بإصلاح مخلوقه وتدبيره، وتربيته. ولو أطلق
على صاحب المزرعة رب الضيعة، أو على سائس القوم أنه ربهم، فلأن الأول يقوم
بإصلاح أمور المزرعة، والثاني بتدبير أمور القوم وشؤونهم، وقس على ذلك سائر
الأمر، فالله سبحانه رب العالمين، و {رب السماوات والأرض} (٢) و {هو رب
الشعري} (٣) فلأجل أنه سبحانه مدبر ومدير ومتصرف في شؤونها والقائم عليها.
فلو أطلق الرب على مالك الدابة فلأجل أنه فوض إليه إصلاح المملوك.
هذا من جانب، ومن جانب آخر نرى الله سبحانه يعلل في بعض الآيات

(١) آلاء الرحمن: ٥٧، ط صيدا.

(٢) الصفات: ٥.

(٣) النجم: ٤٩.

حصر العبادة في الله سبحانه حيث حصر الربوبية به دون غيره، فتدل بصراحة على أن العبادة من شؤون الربوبية، وإليك بعض الآيات: وقال المسيح:

{ يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم } (١). { إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون } (٢). { إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم } (٣). وإذا عرفت هذين الأمرين:

١ - الرب من فوض إليه تدبير الشئ وإصلاحه وتربيته.

٢ - إن الآيات تعلق حصر العبادة في الله بكونه ربا.

فستعرف أن اتسام الخضوع، والسؤال والدعاء بالعبادة من شؤون الاعتقاد بكون المخضوع له ربا بيده مسير الخاضع ومصيره، وإن شئت قلت: بيده شأن أو شؤون من حياته الدنيوية أو الأخروية بيده، فالخضوع المقرون بهذا الاعتقاد يضيف عليه عنوان العبادة.

وليعلم أن المراد من كون الرب مالكا لشأن من شؤون حياته ليس المراد هو المالكية القانونية والوضعية التي تعطى للإنسان حيناً وتسلب عنه حيناً آخر، بل المراد المالكية التكوينية المستمدة من الخالقية كما في الإله الأعلى أو من تفويض الإله الأعلى لها، كما هو الحال عند آلهة المشركين - على زعمهم - الذين يعتقدون بأنه سبحانه فوض إليهم بعض شؤون حياتهم، كغفران الذنوب والشفاعة، بل يظهر مما نقله ابن هشام في سيرته أن الشرك دخل مكة في صورة الشرك في الربوبية فيما يرجع إلى الاستمطار، يقول ابن هشام:

(١) المائدة: ٧٢.

(٢) الأنبياء: ٩٢.

(٣) آل عمران: ٥١.

" كان عمرو بن لحي " أول من أدخل الوثنية إلى مكة ونواحيها، فقد رأى في سفره إلى البلقاء من أراضي الشام أناسا يعبدون الأوثان وعندما سألهم عما يفعلون قائلًا:

ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟
قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا!
فقال لهم: أفلا تعطوني منها فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟
وهكذا استحسن طريقتهم واستصحب معه إلى مكة صنما كبيرا باسم " هبل " ووضع على سطح الكعبة المشرفة، ودعا الناس إلى عبادتها (١).
إذن فاستمطار المطر من هذه الأوثان والاستعانة بها يكشف عن أن بعض المشركين كانوا يعتقدون بأن لهذه الأوثان دخلا في تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.

نتيجة البحث

إذا عرفنا أن مقوم العبادة عبارة عن اعتقاد السائل والخاضع والداعي أو المنادي بأن المسؤول والمخضوع له " إله " و " رب " يملك شيئا مما يرجع إليه في عاجله أو آجله، في مسيره ومصيره، وإنه يقوم بذلك لكونه خالقا أو مفوضا إليه من قبل الخالق، فيقوم على وجه الاستقلال والأصالة، تستطيع أن تقضي في الأعمال التي يقوم بها أشياع الأنبياء ومحبوهم، بأنها ليست عبادة أبدا وإنما هي من مصاديق التكريم والاحترام وإن بلغت نهاية التذلل، لأنها لا تنطلق من اعتقاد الخاضع بألوهية النبي، ولا ربوبيته بل تنطلق عن الاعتقاد بكونهم عباد الله الصالحين، وعباده المكرمين الذين لا يعصون الله وهم بأمره يعملون، نظير:

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٧٩.

١ - تقبيل الأضرحة وأبواب المشاهد التي تضم أجساد الأنبياء والأولياء، فإن ذلك ليس عبادة لصاحب القبر والمشهد، لفقدان عنصر العبادة فيما يفعله الإنسان من التقبيل واللمس وما شابه ذلك.

٢ - إقامة الصلاة في مشاهد الأولياء تبركا بالأرض التي تضمنت جسد النبي أو الإمام، كما تبرك بالصلاة عند مقام إبراهيم اتباعا لقوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ (١).

٣ - التوسل بالنبي سواء كان توسلا بذاته وشخصه، أو بمقامه وشخصيته أو بدعائه في حال حياته ومماته، فإن ذلك كله لا يكون عبادة، لعدم الاعتقاد بألوهية النبي ولا ربوبيته، ويعد من التوسل بالأسباب، سواء كان المدعو قادرا على إنجاز العمل أو عاجزا، غاية الأمر يكون التوسل في صورة العجز غير مفيد، لا متسما بالشرك، فلو افترضنا أن الأنبياء والأئمة في حال الممات غير قادرين على شئ فالدعاء والتوسل بهم مع كونهم عاجزين لا يجعل العمل شركا، بل يجعله لغوا، مع أن أصل المبنى باطل، أي أنهم غير قادرين في حال الممات.

٤ - طلب الشفاعة من الأنبياء أو النبي الأكرم ليس شركا، لأنه يطلبها منه بقيد أنه عبد مأذون لا أنه مفوض إليه أمرها، وفي الواقع إما أن يكون مأذونا فيشفع، وإما أن يكون الطلب لغوا.

٥ - الاستغاثة بالأرواح المقدسة ليس إلا كاستغاثة بهم في حال حياتهم، فهي على وجه تتسم بالشرك من غير فرق بين حالي الحياة والممات ولا تتسم به على وجه آخر، كذلك فلو استغاث به بما أنه عبد أقدره الله تعالى على الإجابة حيا وميتا، يكون من قبيل التوسل بالأسباب، وإن استغاث به بما أنه إله أو رب يقوم بالاستغاثة أصالة واستقلالاً، وأنه فوض إليه حياة المستغيث عاجلا وآجلا، فهو

(١) البقرة: ١٢٥.

شرك من غير فرق بين الحالتين.
هذا خلاصة البحث حول حصر العبادة بالله سبحانه، وإذا أمعنت فيما ذكرنا
يمكنك الإجابة على بعض ما أثارته بعض المناهج الفكرية في الأوساط الإسلامية
حول هذه الأمور، التي نسبت جل المسلمين إلى الشرك في العبادة مع أنهم بمنأى
عن الشرك.

الفوضى في التطبيق بين الإمام والمأموم
لقد ترك الإهمال في تفسير العبادة تفسيراً منطقياً، فوضى كبيرة في مقام
التطبيق بين الإمام والمأموم فنرى أن إمام الحنابلة أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١ هـ)
صدر عن فطرة سليمة في تفسير العبادة، وأفتى بجواز مس منبر النبي (صلى الله عليه
 وآله) والتبرك

به وبقبره وتقبيلهما عندما سأله ولده عبد الله بن أحمد، وقال: سألته عن الرجل
يمس منبر النبي (صلى الله عليه وآله) ويتبرك بمسه، ويقبله، ويفعل بالقبر مثل ذلك،
يريد بذلك

التقرب إلى الله عز وجل، فقال: " لا بأس بذلك " (١).

هذه هي فتوى الإمام - الذي يفتخر بمنهجه أحمد بن تيمية، وبعده محمد بن
عبد الوهاب - ولم ير بأساً بذلك، لما عرفت من أن العبادة ليست مجرد الخضوع،
فلا يكون مجرد التوجه إلى الأجسام والجمادات عبادة، بل هي عبارة عن الخضوع
نحو الشيء، باعتبار أنه إله أو رب، أو بيده مصير الخاضع في عاجله وآجله، وأما
مس المنبر أو القبر وتقبيلهما، كل ذلك لغاية التكريم والتعظيم لنبي التوحيد، وإن
كان لغاية التبرك، فلا يتجاوز التبرك في المقام عن تبرك يعقوب بقميص ابنه
يوسف، ولم يخطر بخلد أحد من المسلمين إلى اليوم الذي جاء فيه ابن تيمية بالبدع
الجديدة، أنها عبادة لصاحب القميص والمنبر والقبر أو لنفس تلك الأشياء.

(١) العلل ومعرفة الرجال ٢: ٤٩٢ / ٣٢٤٣، تحقيق الدكتور وصي الله عباس، ط بيروت ١٤٠٨.

ولما كانت فتوى الإمام ثقيلة على محقق الكتاب، أو من علق عليه لأنها تتناقض مع ما عليه الوهابية وتبطل أحلام ابن تيمية، ومن لف لفه، حاول ذلك الكاتب أن يوفق بين جواب الإمام وما عليه الوهابية في العصر الحاضر، فقال: "أما مس منبر النبي فقد أثبت الإمام ابن تيمية في الجواب الباهر (ص ٤١) فعله عن ابن عمر دون غيره من الصحابة، وروى أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف (٤ / ١٢١) عن زيد بن الحباب قال: حدثني أبو مودود قال: حدثني يزيد بن عبد الملك بن قسيط قال: رأيت نفرا من أصحاب النبي إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى زمانة المنبر القرعاء فمسحوها، ودعوا قال: ورأيت يزيد يفعل ذلك. وهذا لما كان منبره الذي لامس جسمه الشريف، أما الآن بعد ما تغير لا يقال بمشروعية مسحه تبركا به".

ويلاحظ على هذا الكلام: بعد وجود التناقض بين ما نقل عن ابن تيمية من تخصيص المس بمنبر النبي با بن عمر، وما نقله عن المصنف لابن أبي شيبة من مسح نفر من أصحاب النبي رمانة المنبر:

أولا: لو كان جواز المس مختصا بالمنبر الذي لامسه جسم النبي الشريف دون ما لا يمس كان على الإمام المفتي أن يذكر القيد، ولا يطلق كلامه، حتى ولو افترضنا أن المنبر الموجود في المسجد النبوي في عصره كان نفس المنبر الذي لامسه جسم النبي الأكرم، وهذا لا يغيب عن ذهن المفتي، إذ لو كان تقبيل أحد المنبرين نفس التوحيد، وتقبيل المنبر الآخر عين الشرك، لما جاز للمفتي أن يغفل التقسيم والتصنيف. وثانيا: أن ما يفسده هذا التحليل أكثر مما يصلحه، وذلك لأن معناه أن لجسمه الشريف تأثيرا في المنبر وما تبرك به، وهذا يناقض التوحيد الربوبي من أنه لا مؤثر في الكون إلا الله سبحانه، فكيف يعترف الوهابي بأن لجسمه الشريف في الجسم الجامد تأثيرا وأنه يجوز للمسلمين أن يتأثروا به عبر القرون.

ثم إن المعلق استثنى مس قبر النبي (صلى الله عليه وآله) والتبرك به، ومنعهما وقال في وجهه:

"وأما جواز مس قبر النبي والتبرك به فهذا القول غريب جدا لم أر أحدا نقله عن الإمام، وقال ابن تيمية في الجواب الباهر لزوار المقابر (ص ٣١): اتفق الأئمة على أنه لا يمس قبر النبي ولا يقبله، وهذا كله محافظة على التوحيد، فإن من أصول الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد" (١).

لكن يلاحظ عليه: كيف يقول: لم أجد أحدا نقله عن الإمام، أوليس ولده أبو عبد الله راوية أبيه وكتبه يروي هذه الفتوى؟ وهو ثقة عند الحنابلة!

وأما التفريق بين مس المنبر والقبر بجعل الأول نفس التوحيد، والثاني أساس الشرك، فمن غرائب الأمور، لأن الأمرين يشتركان في التوجه إلى غير الله سبحانه، فلو كان هذا محور الشرك، فالموضوعات سيان، وإن فرق بينهما بأن الماس ينتفع بالأول دون الثاني لعدم مس جسده بالثاني فلازمه كون الأول نافعا والثاني أمرا باطلا دون أن يكون شركا.

ولو رجع المحقق إلى الصحاح والمسانيد وكتب السيرة والتاريخ، لوقف على أن التبرك بالقبر ومسه، كان أمرا رائجا بين المسلمين في عصر الصحابة والتابعين، ولأجل إيقاف القارئ على صحة ما نقول نذكر نموذجين من ذلك:

١ - إن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بنت رسول الله حضرت عند قبر أبيها (صلى الله عليه وآله) وأخذت قبضة من تراب القبر تشمه وتبكي وتقول:

ماذا علي من شم تربة أحمد * ألا يشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو أنها * صبت على الأيام صرن لياليا (٢)

(١) تعليقة المحقق، نفس الصفحة.

(٢) لقد ذكر هذه القضية جمع كثير من المؤرخين، منهم: السمهودي في وفاء الوفا ٢: ٤٤٤، والخالدي

في صلح الإخوان: ٥٧، وغيرهما.

إن هذا التصرف من السيدة الزهراء المعصومة (عليها السلام) يدل على جواز التبرك بقبر

رسول الله وترتبه الطاهرة.

٢ - إن بلالا - مؤذن رسول الله - أقام في الشام في عهد عمر بن الخطاب، فرأى في منامه النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يقول:

" ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني يا بلال؟ "

فانتبه حزينا وجلا خائفا، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي (صلى الله عليه وآله)،

فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين (عليهما السلام) فجعل يضمهما

ويقبلهما... إلى آخر الخبر (١).

(١) أسد الغابة ١: ٢٨، وغيره من المصادر.

المسألة الثانية:

حصر الاستعانة في الله

هذه هي المسألة الثانية التي طرحنا في صدر المقال وقلنا: إن المسلمين في أقطار العالم يحصرون الاستعانة في الله سبحانه ومع ذلك يستعينون بالأسباب العادية، جريا على القاعدة السائدة بين العقلاء، ولا يرونه مخالفا للحصر، كما أن المتوسلين بأرواح الأنبياء يستعينون بهم في مشاهدتهم ومزاراتهم، ولا يرون ذلك تعارضا مع حصر الاستعانة بالله سبحانه، وذلك لأن الاستعانة بغير الله يمكن أن تتحقق بصورتين:

١ - أن نستعين بعامل - سواء أكان طبيعيا أم غير طبيعي - مع الاعتقاد بأن عونه مستند إلى الله، بمعنى أنه قادر على أن يعين العباد ويزيل مشاكلهم بقدرته المكتسبة من الله وإذنه.

وهذا النوع من الاستعانة - في الحقيقة - لا ينفك عن الاستعانة بالله ذاته، لأنه ينطوي على الاعتراف بأنه هو الذي منح تلك العوامل ذلك الأثر، وأذن بها، وإن شاء سلبها وجردها منه.

فإذا استعان الزارع بعوامل طبيعية كالشمس والماء وحرث الأرض، فقد

استعان بالله - في الحقيقة - لأنه تعالى هو الذي منح هذه العوامل القدرة على إنماء ما أودع في بطن الأرض من بذر ومن ثم إنباته والوصول به إلى حد الكمال.

٢ - وإذا استعان بإنسان أو عامل طبيعي مع الاعتقاد بأنه مستقل في وجوده، أو في فعله عن الله، فلا شك أن ذلك الاعتقاد يصير شركا، والاستعانة به عبادة. فإذا استعان زارع بالعوامل المذكورة وهو يعتقد بأنها مستقلة في تأثيرها أو أنها مستقلة في وجودها ومادتها كما في فعلها وقدرتها، فالاعتقاد شرك، والطلب عبادة. وبذلك يظهر أن الاستعانة المنحصرة في الله المنصوص عليها في قوله تعالى {وإياك نستعين} هي الاستعانة بالمعونة المستقلة النابعة من ذات المستعان به، غير المتوقفة على شيء، فهذا هو المنحصر في الله تعالى، وأما الاستعانة بالإنسان الذي لا يقوم بشيء إلا بحول الله وقوته وإذنه ومشيتته، فهي غير منحصرة بالله سبحانه، بل إن الحياة قائمة على هذا الأساس، فإن الحياة البشرية مليئة بالاستعانة بالأسباب التي تؤثر وتعمل بإذن الله تعالى.

وعلى ذلك لا مانع من حصر الاستعانة في الله سبحانه بمعنى، وتجويزها بغيره بمعنى آخر وهو ما له نظر في الكتاب العزيز.

ولإيقاف القارئ على هذه الحقيقة نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونية في الله تارة، مع أنها تنسب نفس الأفعال في آيات أخرى إلى غير الله أيضا، وما هذا إلا لعدم التنافي بين النسبتين لاختلاف نوعيتهما فهي محصورة في الله سبحانه مع قيد الاستقلال، ومع ذلك تنسب إلى غير الله مع قيد التبعية والعرضية. الآيات التي تنسب الظواهر الكونية إلى الله وإلى غيره:

١ - يقول سبحانه: {وإذا مرضت فهو يشفين} (١). بينما يقول سبحانه في

(١) الشعراء: ٨٠.

- العسل: {شفاء للناس} (١).
- ٢ - يقول سبحانه: {إن الله هو الرزاق} (٢) بينما يقول: {وارزقوهم فيها} (٣).
- ٣ - يقول سبحانه: {أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون} (٤). بينما يقول سبحانه: {يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار} (٥).
- ٤ - يقول تعالى: {والله يكتب ما يبيتون} (٦). بينما يقول سبحانه: {بلى ورسلنا لديهم يكتبون} (٧).
- ٥ - يقول تعالى: {ثم استوى على العرش يدبر الأمر} (٨). بينما يقول سبحانه: {فالمدبرات أمرا} (٩).
- ٦ - يقول سبحانه: {الله يتوفى الأنفس حين موتها} (١٠). بينما يقول: {الذين تتوفاهم الملائكة طيبين} (١١).
- إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الظواهر الكونية تارة إلى الله، وتارة إلى غيره تعالى.
- والحل أن يقال: إن المحصور بالله تعالى هو انتساب هذه الأمور على نحو

-
- (١) النحل: ٦٩.
- (٢) الذاريات: ٥٨.
- (٣) النساء: ٥.
- (٤) الواقعة: ٦٤.
- (٥) الفتح: ٢٩.
- (٦) النساء: ٨١.
- (٧) الزخرف: ٨٠.
- (٨) يونس: ٣.
- (٩) النازعات: ٥.
- (١٠) الزمر: ٤٢.
- (١١) النحل: ٣٢.

الاستقلال، وأما المنسوب إلى غيره فهو على نحو التبعية، وبإذنه تعالى، ولا تعارض بين النسبتين، ولا بين الاعتقاد بكليهما. فمن اعتقد بأن هذه الظواهر الكونية مستندة إلى غير الله على وجه التبعية لا الاستقلال لم يكن مخطئاً ولا مشركاً، وكذا من استعان بالنبي أو الإمام على هذا الوجه.

هذا مضافاً إلى أنه تعالى الذي يعلمنا أن نستعين به فنقول: {إياك نعبد وإياك نستعين} يحثنا في آية أخرى على الاستعانة بالصبر والصلاة فيقول: {واستعينوا بالصبر والصلاة} (١) وليس الصبر والصلاة إلا فعل الإنسان نفسه. حصيلة البحث:

إن الآيات الواردة حول الاستعانة على صنفين: الصنف الأول: يحصر الاستعانة في الله فقط ويعتبره الناصر والمعين الوحيد دون سواه.

والصنف الثاني: يدعونا إلى سلسلة من الأمور المعينة (غير الله) ويعتبرها ناصرة ومعينة، إلى جانب الله.

أقول: اتضح من البيان السابق وجه الجمع بين هذين النوعين من الآيات، وتبين أنه لا تعارض بين الصنفين مطلقاً، إلا أن فريقاً نجدهم يتمسكون بالصنف الأول من الآيات فيخطئون أي نوع من الاستعانة بغير الله، ثم يضطرون إلى إخراج (الاستعانة بالقدرة الإنسانية والأسباب المادية) من عموم تلك الآيات الحاصرة للاستعانة بالله بنحو التخصيص، بمعنى أنهم يقولون: إن الاستعانة لا تجوز إلا بالله إلا في الموارد التي أذن الله بها، وأجاز أن يستعان

(١) البقرة: ٤٥.

فيها بغيره، فتكون الاستعانة بالقدرة الإنسانية والعوامل الطبيعية - مع أنها استعانة بغير الله - جائزة ومشروعة على وجه التخصيص، وهذا مما لا يرتضيه الموحد.

في حين أن هدف الآيات هو غير هذا تماما، فإن مجموع الآيات يدعو إلى أمر واحد وهو: عدم الاستعانة بغير الله، وأن الاستعانة بالعوامل الأخرى يجب أن تكون بنحو لا يتنافى مع حصر الاستعانة في الله، بل تكون بحيث تعد استعانة بالله لا استعانة بغيره.

وبتعبير آخر: إن الآيات تريد أن تقول: بأن المعين والناصر الوحيد والذي يستمد منه كل معين وناصر قدرته وتأثيره، ليس إلا الله سبحانه، ولكنه - مع ذلك - أقام هذا الكون على سلسلة من الأسباب والعلل التي تعمل بقدرته وأمر باستمداد الفرع من الأصل، ولذلك تكون الاستعانة به كاستعانة بالله، ذلك لأن الاستعانة بالفرع استعانة بالأصل.

وإليك فيما يلي إشارة إلى بعض الآيات من الصنفين:

{وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم} (١).

{إياك نعبد وإياك نستعين} (٢).

{وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم} (٣).

هذه الآيات نماذج من الصنف الأول، وإليك فيما يأتي نماذج من الصنف الآخر الذي يدعونا إلى الاستعانة بغير الله من العوامل والأسباب:

{واستعينوا بالصبر والصلاة} (٤).

(١) آل عمران: ١٢٦.

(٢) الحمد: ٥.

(٣) الأنفال: ١٠.

(٤) البقرة: ٤٥.

{وتعاونوا على البر والتقوى} (١).
{ما مكني فيه ربي خيرا فأعينوني بقوة} (٢).
{وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر} (٣).
ومفتاح حل التعارض بين هذين الصنفين من الآيات هو ما ذكرناه،
وملخصه:

إن في الكون مؤثرا تاما، ومستقلا واحدا، غير معتمد على غيره لا في وجوده
ولا في فعله وهو الله سبحانه، وأما العوامل الأخر فجميعها مفتقرة - في وجودها
وفعلها - إليه وهي تؤدي ما تؤدي بإذنه ومشئته وقدرته، ولو لم يعط سبحانه تلك
العوامل ما أعطها من القدرة ولم تجر مشيئته على الاستمداد منها لما كانت لها أية
قدرة على شيء.

فالمعين الحقيقي في كل المراحل - على هذا النحو تماما - هو الله، فلا يمكن
الاستعانة بأحد باعتباره معينا مستقلا. لهذه الجهة حصر هنا الاستعانة في الله
وحده، ولكن هذا لا يمنع بتاتا من الاستعانة بغير الله باعتباره غير مستقل (أي
باعتباره معينا بالاعتماد على القدرة الإلهية) ومعلوم أن استعانة - كهذه - لا تنافي
حصر الاستعانة في الله سبحانه لسببين:

أولا: لأن الاستعانة المخصوصة بالله هي غير الاستعانة بالعوامل الأخرى،
فالاستعانة المخصوصة بالله هي: ما تكون باعتقاد أنه قادر على إيعانتنا بالذات،
وبدون الاعتماد على غيرها، في حين أن الاستعانة بغير الله سبحانه إما هي على نحو
آخر أي مع الاعتقاد بأن المستعان قادر على الإعانة مستندا على القدرة الإلهية،

(١) المائدة: ٢.

(٢) الكهف: ٩٥.

(٣) الأنفال: ٧٢.

لا بالذات، وبنحو الاستقلال، فإذا كانت الاستعانة - على النحو الأول - خاصة بالله تعالى، فإن ذلك لا يدل على أن الاستعانة بصورتها الثانية مخصوصة به أيضا. ثانيا: إن استعانة - كهذه - غير منفكة عن الاستعانة بالله، بل هي عين الاستعانة به تعالى، وليس في نظر الموحد (الذي يرى أن الكون كله من فعل الله ومستندا إليه) مناص من هذا.

وأخيرا نذكر القارئ الكريم بأن مؤلف المنار حيث إنه لم يتصور للاستعانة بالأرواح إلا صورة واحدة لذلك اعتبرها ملازمة للشرك فقال: "ومن هنا تعلمون: إن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم، وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح هم عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر الله معرضون" (١).

ويلاحظ عليه: أن الاستعانة بغير الله (كالاستعانة بالعوامل الطبيعية) على نوعين:

إحداهما عين التوحيد، والأخرى موجبة للشرك، إحداهما مذكرة بالله، والأخرى مبعدة عن الله.

إن حد التوحيد والشرك ليس هو كون الأسباب ظاهرة أو غير ظاهرة، وإنما هو استقلال المعين وعدم استقلاله. وبعبارة أخرى المقياس: هو الغنى والفقير، هو الأصالة وعدم الأصالة.

إن الاستعانة بالعوامل غير المستقلة المستندة إلى الله، التي لا تعمل ولا تؤثر إلا بإذنه تعالى غير موجبة للغفلة عن الله، بل هو خير موجه، ومذكر بالله. إذ معناها: انقطاع كل الأسباب وانتهاء كل العلل إليه.

(١) تفسير المنار ١: ٥٩.

ومع هذا كيف يقول صاحب المنار: " أولئك عن ذكر الله معرضون "؟ ولو كان هذا النوع من الاستعانة موجبا لنسيان الله والغفلة عنه للزم أن تكون الاستعانة بالأسباب المادية الطبيعية هي أيضا موجبة للغفلة عنه.
على أن الأعجب من ذلك هو شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت الذي نقل - في هذا المجال - نص كلمات عبده دون زيادة ونقصان، وختم المسألة بذلك، وأخذ بالحصص في {إياك نستعين} غافلا عن حقيقة الآية وعن الآيات الأخرى المتعرضة لمسألة الاستعانة (١).

إجابة على سؤال

إذا كانت الاستعانة بالغير على النحو الذي بيناه جائزة فهي تستلزم نداء أولياء الله والاستغاثة بهم في الشدائد والمكاره، وهي غير جائزة، وذلك لأن نداء غير الله في المصائب والحوادث تشريك الغير مع الله، يقول سبحانه: {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} (٢) ويقول تعالى: {والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون} (٣) ويقول عز من قائل: {والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير} (٤). إلى غير ذلك من الآيات التي تخص الدعاء لله ولا تسبيغ دعوة غيره.

وقد طرح هذا السؤال الشيخ الصنعاني حيث قال: وقد سمي الله الدعاء عبادة بقوله: {ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي} (٥) فمن هتف

(١) راجع تفسير شلتوت: ٣٦ - ٣٩.

(٢) الجن: ١٨.

(٣) الأعراف: ١٩٧.

(٤) فاطر: ١٣.

(٥) سورة غافر: ٦٠.

باسم نبي أو صالح بشئ فقد دعا النبي والصالح، والدعاء عبادة بل مخها، فقد عبد غير الله وصار مشركا (١).

الجواب:

إن النقطة الحاسمة في الموضوع تكمن في تفسير الدعاء وهل كل دعاء، عبادة وبينهما من النسب الأربع هي التساوي حتى يصح لنا أن نقول كل دعاء عبادة، وكل عبادة دعاء، أو أن الدعاء أعم من العبادة وأن قسما من الدعاء عبادة وقسما منه ليس كذلك؟ والكتاب العزيز يوافق الثاني لا الأول، وإليك التوضيح:

لقد استعمل القرآن لفظ الدعاء في مواضع عديدة، ولا يصح وضع لفظ العبادة مكانه، يقول سبحانه حاكيا عن نوح: {رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا} (٢) وقال سبحانه حاكيا عن لسان إبليس في خطابه للمذنبين يوم القيامة: {وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} (٣) إلى غيرهما من الآيات التي ورد فيها لفظ الدعاء، أفصح القول بأن نوحا دعا قومه أي عبدهم، أو أن الشيطان دعا المذنبين أي عبدهم؟ كل ذلك يحفزنا إلى أن نقف في تفسير الدعاء وقفة تمعن حتى نميز الدعاء الذي هو عبادة عما ليس كذلك.

والإمعان فيما تقدم في تفسير العبادة يميز بين القسمين، فلو كان الداعي والمستعين بالغير معتقدا بألوهية المستعان ولو ألوهية صغيرة كان دعاؤه عبادة، ولأجل ذلك كان دعاء عبدة الأصنام عبادة، لا اعتقادهم بألوهيتها، قال سبحانه: {فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء} (٤).

(١) تنزيه الاعتقاد كما في كشف الارتباب: ٢٨٤.

(٢) نوح: ٥.

(٣) إبراهيم: ٢٢.

(٤) هود: ١٠١.

وما ورد من الآيات في السؤال كلها من هذا القبيل، فإنها وردت في حق المشركين القائلين بألوهية أصنامهم وأوثانهم باعتقاد استقلالهم في التصرف والشفاعة وتفويض الأمور إليهم ولو في بعض الشؤون. ففي هذا المجال يعود كل دعاء عبادة، ويفسر الدعاء في الآيات الماضية والتالية بالعبادة، قال تعالى: {إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم} (١). {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً} (٢). {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة} (٣). {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك} (٤). {إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم} (٥). وما ورد في الأثر من أن الدعاء مخ العبادة، أريد منه دعاء الله أو دعاء الآلهة لا مطلق الدعاء وإن كان المدعو غير إله لا حقيقة أو اعتقاداً.

وفي روايات أئمة أهل البيت إلماع إلى ذلك، يقول الإمام زين العابدين في ضمن دعائه: "... فسميت دعاءك عبادة وتركه استكباراً وتوعدت على تركه دخول جهنم داخرين" (٦) وهو يشير في كلامه هذا إلى قوله سبحانه: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (٧). هذا هو الدعاء المساوي للعبادة، وهناك قسم آخر منه لا صلة بينه وبين

(١) الأعراف: ١٩٤.

(٢) الإسراء: ٥٦.

(٣) الإسراء: ٥٧.

(٤) يونس: ١٠٦.

(٥) فاطر: ١٤.

(٦) الصحيفة السجادية، دعاؤه برقم ٤٥.

(٧) غافر: ٦٠.

العبادة، وهو فيما إذا دعا شخصا بما أنه إنسان وعبد من عباد الله غير أنه قادر على إنجاز طلبه بإقدار منه تعالى وإذن منه، فليس مثل هذه الدعوة عبادة، بل سنة من السنن الإلهية في الكون، هذا هو ذو القرنين يواجه قوما مضطهدين يطلبون منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا فعند ذلك يخاطبهم ذو القرنين بقوله: { ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما } (١) وها هو الذي من شيعة موسى يستغيث به، يقول سبحانه: { فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه } (٢) وهذا هو النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يدعو

قومه للذب عن الإسلام في غزوة أحد وقد تولوا عنه، قال سبحانه: { إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم } (٣) فهذا النوع من الدعاء قامت عليه الحياة البشرية، فليس هو عبادة، وإنما هو توسل بالأسباب، فإن كان السبب قادرا على إنجاز المطلوب كان الدعاء أمرا عقلائيا وإلا يكون لغوا وعبثا. ثم إن القائلين بأن دعاء الصالحين عبادة، عند مواجهتهم لهذا القسم من الآيات وما تقتضيه الحياة الاجتماعية، يتشبثون بكل طحلب حتى ينجيهم من الغرق ويقولون إن هذه الآيات تعود على الأحياء ولا صلة لها بدعاء الأموات، فكون القسم الأول جائزا وأنه غير عبادة، لا يلزم جواز القسم الثاني وكونه غير عبادة.

ولكن عزب عن هؤلاء أن الحياة والموت ليسا حدين للتوحيد والشرك ولا ملاكين لهما، بل هما حدان لكون الدعاء مفيدا أو لا، وبتعبير آخر ملاكان للجدوائية وعدمها.

(١) الكهف: ٩٥.

(٢) القصص: ١٥.

(٣) آل عمران: ١٥٣.

فلو كان الصالح المدعو غير قادر لأجل موته مثلا تكون الدعوة أمرا غير مفيد لا عبادة له، ومن الغريب أن يكون طلب شيء من الحي نفس التوحيد ومن المميت نفس الشرك.

كل ذلك يوقفنا على أن القوم لم يدرسوا ملاكات التوحيد والشرك، بل لم يدرسوا الآيات الواردة في النهي عن دعاء غيره، فأخذوا بحرفية الآيات من دون تدبر مع أنه سبحانه يقول: {كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب} (١).

ثم إن الكلام في أن دعاء الصالحين بعد انتقالهم إلى رحمة الله مفيد أو لا؟ يتطلب مجالا آخر، وسوف نستوفي الكلام عنه في بحث خاص حول وجود الصلة بيننا وبين أولياء الله في ضوء الكتاب والسنة.

(١) ص: ٢٩.

الفصل الثاني:
البدعة
وآثارها الموبقة

تمهيد

تعد البدعة في الدين من المعاصي الكبيرة والمحرمات العظيمة، التي دل على حرمتها الكتاب والسنة، كما وأعد صاحبها النار على لسان النبي الأكرم، وذلك لأن المبتدع ينازع سلطان الله تبارك وتعالى في التشريع والتقنين، ويتدخل في دينه ويشرع ما لم يشرعه، فيزيد عليه شيئاً وينقص منه شيئاً في مجالي العقيدة والشريعة، كل ذلك افتراء على الله.

وقد بعث النبي الأكرم بحبل الله المتين، وأمر المسلمين بالاعتصام به، ونهى عن التفرق، وقال: {واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً} (١).

ولكن المبتدع يستهدف حبل الله المتين، ليوهنه ويخرجه من متانته بما يزيد عليه أو ينقص منه، وبالتالي يجعل من الأمة الواحدة أمماً شتى، يبغض بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، فيتحولون إلى شيع وطوائف متفرقين، فرائس للشيطان وأذنابه، وعلى شفا حفرة من النار، على خلاف ما كانوا عليه في عصر الرسالة.

(١) آل عمران: ١٠٣.

إن المسلمين بعد رحيل الرسول تفرقوا إلى أمم ومذاهب مختلفة، ولم يكن ذلك إلا إثر تلاعب المبتدعين في الدين والشريعة، بإدخال ما ليس من الدين، في الدين. وكان عملهم تحويرا لصميم العقيدة الإسلامية وشريعتها، فلولا البدعة والمبتدعون وانتحال المبطلين، لكانت الأمة الإسلامية أمة واحدة، لها سيادتها على جميع الأمم والشعوب في أنحاء المعمورة، وما أثنى ظهورهم إلا ديب المبتدع بينهم، فشتتهم وفرقهم بعدما كانوا صامدين كالجبل الأشم. والحروب الدموية - التي خاضها المسلمون في عصر الخلافة وبعدها، وخضبت الأرض بالدماء الطاهرة، وسل المسلمون سيوفهم في وجه بعضهم، فسقط منهم آلاف القتلى والجرحى على الأرض - هي من جراء البدع النابعة عن الأهواء والميول النفسانية، حيث كانوا يتحاربون باسم الدين، والحال أن الدين كان في جانب واحد، لا في جوانب متكثرة. إن صراط النجاة في الإسلام هو صراط واحد مستقيم دعا إليه المؤمنون عامة وقال: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} (١). وأمر المسلمين أن يدعوا الله سبحانه، أن يثبتهم على هذا الصراط كي لا ينحرفوا يمينا وشمالا كما يقول سبحانه تعليما لعباده: {اهدنا الصراط المستقيم} (٢) ولكن المبتدع يسوق الناس إلى سبل منحرفة لا تنتهي إلى السعادة التي أراد الله سبحانه لعباده. فحق التشريع والتقنين لله تبارك وتعالى، وقد استأثر به وقال: {إن الحكم

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) الفاتحة: ٦.

إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه} (١). والمراد من الحكم هو التشريع بقريظة قوله:
{أمر ألا تعبدوا إلا إياه}. فالبدعة هو تشريك الناس في ذلك الحق المستأثر،
ودفع زمام الدين إلى أصحاب الأهواء، كي يتلاعبوا في الشريعة كيفما شاءوا،
وكيفما اقتضت مصلحتهم ومصلحة أسيادهم وأربابهم، فذلك الحق المستأثر
يقتضي ألا يتدخل أحد في سلطان الله وحظيرته، قال سبحانه: {وما كان لمؤمن
ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن
يعص الله ورسوله فقد ضللا مبينا} (٢).

والمبتدع يتصرف في التشريع الإسلامي فيجعل منه حلالا وحراما بدون إذن
منه سبحانه في ذلك. يقول تعالى:

{قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل أالله
أذن لكم أم على الله تفترون} (٣) فالآية واردة في عمل المشركين، حيث جعلوا ما
أنزل الله لهم من الرزق بعضه حراما وبعضه حلالا، فحرموا السائبة والبحيرة
والوصيلة ونحوها، لذا يرد عليهم سبحانه: {أالله أذن لكم أم على الله تفترون}
أي أنه لم يأذن لكم في شيء من ذلك، بل أنتم تكذبون على الله، ثم يهددهم بالعذاب
فيقول: {وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل
على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون} (٤). ويؤكد عليه في آية أخرى ويقول:
{ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله
الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون} (٥).

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) يونس: ٥٩.

(٤) يونس: ٦٠.

(٥) النحل: ١١٦.

إن أصحاب الأهواء في كل زمان حتى في عصر الرسالة، كانوا يقترحون على النبي الأكرم أن يغير دينه، ويأتي بقرآن غير هذا، لكي يكون مطابقا لما تستهويه أنفسهم، فأمر الله سبحانه أن يرد اقتراحهم بقوله: {قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم} (١).

وكان في عصر الرسالة من يتقدم على الله ورسوله، لا مشيا وإنما يقدم رأيه على الوحي فنزل الوحي منددا بهم وقال: {يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم} (٢). والكذب من المحرمات الموبقة التي أوعدها الله عليها النار، والبدعة من أفحش الكذب، لأنها افتراء على الله ورسوله، قال سبحانه: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون} (٣). فالمبتدع يظهر بزي المحقق عند المسلمين، فيفتري على الله تعالى دون أن يكشفه الناس فيضلهم عن الصراط المستقيم.

ومن المسلم به أن لله في كل واقعة حكما إلهيا لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة، فإذا حكم الحاكم وفق ذلك الحكم فهو حاكم عادل معتمد على منصة الحق، إلا أن المبتدع يحكم على خلاف ذلك الحق، لذلك يصفه سبحانه بكونه كافرا وظالما وفاسقا، قال تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} وقال عز من قائل: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون} وقال تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} (٤).

(١) يونس: ١٥.

(٢) الحجرات: ١.

(٣) الأنعام: ٢١.

(٤) المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٦.

فما حال إنسان يحكم عليه القرآن بالكفر تارة، والظلم ثانياً والفسق ثالثاً؟
فهل ترجى له النجاة بعد أن أضل كثيراً من الناس، وشق صفوف المسلمين،
وجعل السبيل الواحد سبلاً كثيرة تضلهم إلى مهاوي الهالكين.
ولعل هذا القدر من التقديم يكفي في بيان موضع البدعة وموقف الله تعالى من
المبتدع، ولأجل ذلك نرى أن النبي الأكرم قد شدد على البدعة أو ندد بالمبتدع
بأفصح العبارات وأبلغها كما سيتضح ذلك في الروايات الآتية.
وقد ألف العلماء قديماً وحديثاً كتباً ورسائل حول البدعة نذكر بعضها:

- ١ - البدع والنهي عنها، لابن وضاح القرطبي.
- ٢ - الحوادث والبدع، للطرطوشي.
- ٣ - الباعث، لأبي شامة.
- ٤ - الإعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي الغرناطي في جزءين وقد أسهب الكلام فيها.
- ٥ - البدعة أنواعها وأحكامها، لصالح بن فوزان بن عبد الله فوزان طبع الرياض.
- ٦ - البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها، تأليف الدكتور عبد الملك السعدي طبع بغداد.
- ٧ - البدعة في مفهومها الإسلامي الدقيق، تأليف الدكتور عبد الملك السعدي طبع بغداد.
- ٨ - البدع، تأليف أبي الحسين محمد بن بحر الرهني الشيباني، ذكرها النجاشي في رجاله برقم ١٠٤٤.
- ٩ - البدع المحدثه، للشريف أبو القاسم الكوفي المتوفى بفسا سنة ٣٥٢ هـ وطبع باسم الاستغاثة، في النجف الأشرف.

١٠ - البدع، تأليف الدكتور الشيخ جعفر الباقر، وهي دراسة موضوعية لمفهوم البدعة وتطبيقاتها على ضوء منهج أهل البيت. ومع احترامنا وتكريمنا لجهودهم، إلا أن أغلب هؤلاء الكتاب نظروا إلى المسألة على أساس إمام مذهبهم. فالأول والثاني من هذه الكتب اعتمدا على رأي الإمام مالك (رضي الله عنه) كما أن الكتاب الخامس اتخذ من مذهب ابن تيمية مقياسا في

حكمه، فخرج بنفس النتيجة التي خرج بها إمام مذهبه. وأما الإمام الشاطبي فقد أطنب وأسهب كثيرا في تأليفه ولم يركز على نفس البدعة تحديدا ومصداقا.

ودراسة البدعة تتوقف على دراسة منهجية غير منحازة لمذهب خاص، وهذا يتوقف على الاجتهاد الحر، من دون أن يتخذ رأي إمام محورا، ورأي إمام آخر مسندا، بل ينظر إلى الكتاب والسنة وسيرة المسلمين نظرة عامة شمولية فاحصة.

نعم لا تفوتنا الإشارة إلى الميزة الموجودة فيما كتبه الدكتور السعدي، فقد أفاض الكلام في الجزئيات التي ربما وصفت بالبدعة، وأثبت بدليل قاطع كونها غير بدعة، كما لا تفوتنا الإشادة بمنهجية البحث في كتاب الدكتور عزت علي عطية، والذي نال به درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى، ولكنه في بعض المواضيع افتقد الشجاعة الأدبية ولم يتجرأ على تجاوز الخطوط الحمراء التي فرضتها عليه البيئة، فتراه يتوقف في التوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) مع تضافر الروايات على جوازه.

وللجميع منا الشكر الجزيل، ولكن الحقيقة بنت البحث فلا عتب علينا إذا ناقشنا بعض آرائهم نتيجة الاجتهاد الحر، رزقنا الله توحيد الكلمة كما رزقنا كلمة التوحيد.

المبحث الأول

نصوص البدعة في الكتاب والسنة

اتفقت الأدلة الشرعية على حرمة البدعة، وقد ذكرنا في المقدمة قسماً وافراً من الآيات الكريمة وسنأتي بذكر ما تبقى منها:
البدعة في الكتاب

١ - قال سبحانه: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} (١).

فالآية تعتبر الرهبانية من مبتدعات الرهبان التي لم تكن مفروضة عليهم من قبل، وإنما تكلفوها من عند أنفسهم وسيوافيك تفسير الاستثناء في مبحث تحديد البدعة.

٢ - {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون} (٢).

(١) الحديد: ٢٧.

(٢) الأنعام: ١٥٩.

وقد فسرت الآية بأهل الضلالة وأصحاب الشبهات والبدع من هذه الأمة. قال الطبرسي: " ورواه أبو هريرة وعائشة مرفوعا، وهو المروي عن الباقر (عليه السلام)،

جعلوا دين الله أديانا لإكفار بعضهم بعضا وصاروا أحزابا وفرقا، ويخاطب سبحانه نبيه بقوله: {لست منهم في شيء} وإنه على المباحة التامة من أن يجتمع معهم في معنى من مذاهبهم الفاسدة، وليس كذلك بعضهم مع بعض، لأنهم يجتمعون في معنى من معانيهم الباطلة، وإن افرقوا في شيء فليس منهم في شيء، لأنه برئ من جميعهم " (١).

٣ - {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض} (٢).
والآية بعموم لفظها تبين أنواع النذر التي أنذر الله بها عباده، فتبدأ من بعث العذاب من فوق، إلى بعثه من تحت الأرجل، وتنتهي بتمزيق الجماعة إلى شيع، فتفرق الأمة إلى فرق وشيع يعادل إنزال العذاب عليها من كل جهاتها. قال الحسن البصري: " التهديد بإنزال العذاب والخسف يتناول الكفار، وقوله: {أو يلبسكم شيئا} يتناول أهل الصلاة " (٣).

وقال مجاهد وأبو العالية: إن الآية لأمة محمد (صلى الله عليه وآله)، أربع، ظهر اثنتان بعد وفاة

رسول الله فألبسوا شيئا وأذيق بعضكم بأس بعض وبقيت اثنتان (٤).

٤ - {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون} (٥).

(١) مجمع البيان ٢: ٣٨٩.

(٢) الأنعام: ٦٥.

(٣) المصدر نفسه ٢: ٣١٥.

(٤) الإعتصام ٢: ٦١.

(٥) التوبة: ٣١.

يظهر مما رواه الطبري وغيره أنهم كانوا مشركين في مسألة التقنين، روي عن الضحاك: { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم } أي قراءهم وعلماءهم { أربابا من دون الله } يعني سادة لهم من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله، فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم، ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم. وروي أيضا عن عدي بن حاتم قال: انتهيت إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يقرأ في سورة

براءة: { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله } قال: قلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم، فقال: " أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ " قال: قلت: بلى، قال: " فتلك عبادتهم " (١).
البدعة في السنة

روى الفريقان عن النبي (صلى الله عليه وآله) حول البدعة والتشديد عليها روايات كثيرة
نقتبس منها ما يلي:

١ - روى الإمام أحمد عن جابر قال: خطبنا رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ثم قال: " أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة " (٢).

٢ - روى أيضا عن جابر قال: كان رسول الله يقوم فيخطب فيحمد الله ويثني عليه بما هو أهل له ويقول: " من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، إن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد (صلى الله عليه وآله) وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة " (٣).

٣ - روى أيضا عن عرباض بن سارية قال: صلى بنا رسول الله الفجر ثم أقبل

(١) الطبري، التفسير ١٠: ٨٠ - ٨١.

(٢) مسند أحمد ٣: ٣١٠ بيروت، دار الفكر.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧١.

علينا فوعظنا موعظة بينة، قال: " أوصيكم بتقوى الله... وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة " (١).

٤ - روى ابن ماجة عن جابر بن عبد الله: كان رسول الله إذا خطب احمرت عيناه ثم يقول: " أما بعد فإن خير الأمور كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة " (٢).

٥ - روى مسلم في صحيحه: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا خطب احمرت عيناه وعلا

صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: " صبحكم ومساكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه: السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك

مالا فلاهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وعلي " (٣).

٦ - روى النسائي قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في خطبته: " نحمد الله ونشني عليه بما هو أهله، ثم يقول: من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، ثم يقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، وكان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه، وعلا صوته، واشتد غضبه، كأنه نذير جيش، يقول: صبحكم ومساكم، ثم قال: من ترك مالا فلاهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى، (أو علي) وأنا أولى بالمؤمنين " (٤).

(١) المصدر نفسه ٤: ١٢٦، ولاحظ أيضا ص ١٢٧، ولاحظ البحار ٢: ٢٦٣ فقد جاءت فيها نفس النصوص

وفي ذيلها: وكل ضلالة في النار.

(٢) سنن ابن ماجة ج ١، الباب ٧، باب اجتناب البدع، الحديث ٤٥، ط دار إحياء التراث العربي ١٣٩٥ .٥

(٣) جامع الأصول ٥: الفصل الخامس، الخطبة رقم ٣٩٧٤.

(٤) المصدر نفسه.

- ٧ - روى ابن ماجة: قال رسول الله: " لا يقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا صدقة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا " (١).
- ٨ - قال رسول الله: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " (٢).
- قال الشاطبي: وهذا الحديث عده العلماء ثلث الإسلام، لأنه جمع وجوه المخالفة لأمره (عليه السلام) ويستوي في ذلك ما كان بدعة أو معصية (٣).
- ٩ - روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا " (٤).
- ١٠ - روى مسلم عن جرير بن عبد الله: " من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجرهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب له مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء " (٥).
- ١١ - روى مسلم عن حذيفة أنه قال: يا رسول الله هل بعد هذا الخير شر؟ قال: " نعم، قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هداي... " (٦).
- ١٢ - روى مالك في الموطأ من حديث أبي هريرة: أن رسول الله خرج إلى المقبرة فقال: " السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون - إلى أن قال: - فلينادن رجال عن حوضي كما يناد البعير الضال، أناديهم ألا هلم! ألا

(١) ابن ماجة، السنن ١: ١٩.

(٢) مسلم، الصحيح ٥: ١٣٣ كتاب الأقضية الباب ٨، مسند أحمد ٦: ٢٧٠.

(٣) الإعتصام ١: ٦٨.

(٤) مسلم، الصحيح ٨: ٦٢ كتاب العلم، ورواه البخاري في الصحيح ج ٩: كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة.

(٥) مسلم، الصحيح ٨: ٦١ كتاب العلم.

(٦) مسلم، الصحيح ٥: ٢٠٦ كتاب الإمارة.

هلم! ألا هلم! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول: فسحقا! فسحقا! فسحقا! " (١). وعموم اللفظ يشمل أهل البدع أيضا. وإن لم يرتدوا عن الدين. نكتفي بهذا القدر من الأحاديث التي رواها الحفاظ من المحدثين من هذا الطريق، وأما ما رواه أصحابنا عن النبي الأكرم أو عن أئمة أهل البيت فكثير وربما تكون هناك وحدة في المعنى واختلاف جزئي في التعبير:

١٣ - روى الكليني عن محمد بن جمهور رفعه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إذا

ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله " (٢).
١٤ - وبهذا الإسناد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من أتى ذا بدعة فعظمه فإنما

يسعى في هدم الإسلام " (٣).
١٥ - وبهذا الإسناد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أبى الله لصاحب البدعة التوبة "

قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: " إنه قد اشرب قلبه حبها " (٤).
١٦ - روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: خطب أمير المؤمنين (عليه السلام)

الناس فقال: " أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن، أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، يتولى فيها رجال رجالا، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث، فيمزجان فهناك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى " (٥).

١٧ - روى الحسن بن محبوب رفعه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: " إن من

(١) الموطأ، كتاب الطهارة، الحديث ٢٨، باب جامع الوضوء، مسلم، الصحيح ١: ١٥٠ كتاب الطهارة.
(٢) الكافي ١: ٥٤ - ٥٥ ح ٢ و ٣ و ٤ و ١ باب البدع. ولفظ الأخير مطابق لما في نهج البلاغة الخطبة ٥٠،
دون الكافي لكونه أتم.

أبغض الخلق إلى الله عز وجل لرجلين: رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل، مشغوف بكلام بدعة، قد لهج بالصوم والصلاة فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد موته، حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته " (١).

١٨ - روى عمر بن يزيد عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: " لا تصحبوا أهل البدع ولا تجالسوهم فتصيروا عند الناس كواحد منهم، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

المراء على دين خليله وقرينه " (٢).

١٩ - وروى داود بن سرحان عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: " قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم،

وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقوع... " (٣).

٢٠ - قال أمير المؤمنين (عليه السلام): " ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة " (٤).

٢١ - وقال (عليه السلام): " ما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة، فاتقوا البدع وألزموا المهيبة، إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها " (٥).

٢٢ - قال الإمام الصادق (عليه السلام): " من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه " (٦).

٢٣ - قال (عليه السلام): " من مشى إلى صاحب بدعة فوقره فقد مشى في هدم الإسلام " (٧). وقد روي أيضا باختلاف يسير " مضى " (تحت رقم ١٤).

(١) الكافي ١: ٥٥ ح ٦ باب البدع.

(٢) الكافي ٢: ٣٧٥.

(٣) الكافي ٢: ٣٧٥.

(٤) البحار ٢: ٢٦٤ الحديث ١٤ و ١٥، ولاحظ أيضا ٣٦: ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٥) البحار ٢: ٢٦٤ الحديث ١٤ و ١٥، ولاحظ أيضا ٣٦: ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٦) البحار ٨: ٢٣ الطبعة القديمة و ٤٧: ٢١٧.

(٧) البحار ٢: ٣٠٤ ح ٤٥.

- ٢٤ - روي مرفوعا عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: " عليكم بسنة، فعمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة " (١).
- ٢٥ - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إذا رأيتم صاحب بدعة فاكفروا في وجهه، فإن الله ليبغض كل مبتدع، ولا يجوز أحد منهم على الصراط، ولكن يتهافتون في النار مثل الجراد والذباب " (٢).
- ٢٦ - وقال (صلى الله عليه وآله): " من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " قالوا: يا رسول الله وما الغش؟ قال: " أن يتدع لهم بدعة فيعملوا بها " (٣).
- وللإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة وراء ما نقلناه كلمات درية في ذم البدعة، نقتبس ما يلي:
- ٢٧ - " فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدي وهدى فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة مجهولة... وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به، فأمات سنة مأخوذة وأحیی بدعة متروكة " (٤).
- ٢٨ - وقال: " أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة وأماتوا البدعة " (٥).
- ٢٩ - وقال أيضا: " وإنما الناس رجلان: متبع شرعة، ومبتدع بدعة " (٦).
- ٣٠ - وقال: " طوبى لمن ذل في نفسه وطاب كسبه - إلى أن قال: - وعزل عن

(١) البحار ٢: ٢٦١ ح ٣.
(٢) جامع الأصول ٩: ٥٦٦، كنز العمال ١: ٢٢١ / ١١١٨ ويشتمل الأخير على أحاديث لم نذكرها وقد بثها في الأجزاء التالية من كتابه: ٨، ١٥، ٧، ١١، ٢، ٣ فلاحظ.
(٣) جامع الأصول ٩: ٥٦٦، كنز العمال ١: ٢٢١ / ١١١٨ ويشتمل الأخير على أحاديث لم نذكرها وقد بثها في الأجزاء التالية من كتابه: ٨، ١٥، ٧، ١١، ٢، ٣ فلاحظ.
(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٤.
(٥) المصدر نفسه: الخطبة ١٨٢.
(٦) المصدر نفسه: الخطبة ١٧٦.

الناس شره ووسعته السنة ولم ينسب إلى البدعة " (١).
هذا قسم مما وقفنا عليه من الروايات، وهي كثيرة يفوتنا حصرها. وقد نقل
الشاطبي قسما وافرا من كلمات الصحابة والتابعين ومن أراد فليرجع إلى كتابه
الاعتصام ونكتفي بهذا المقدار.

(١) المصدر نفسه: الحكمة ١٢٣.

المبحث الثاني

البدعة لغة واصطلاحاً

لقد مضت نصوص الكتاب والسنة في حرمة البدعة وآثارها الهدامة، ولأجل تحديد مفهومها تحديداً دقيقاً يلزمنا نقل أقوال أهل اللغة وكلمات الفقهاء والمحدثين في تفسير البدعة، حتى تلقي ضوءاً على ما نتبناه من الوقوف على مفهوم البدعة. البدعة في لغة العرب:

قال الخليل: البدع، إحداث شيء لم يكن له من قبل خلق ولا ذكر ولا معرفة... البدع: الشيء الذي يكون أولاً في كل أمر كما قال الله: ﴿ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي لست بأول مرسل، والبدعة اسم ما ابتدع من الدين وغيره، والبدعة ما استحدث بعد رسول الله من الأهواء والأعمال (١). وقال ابن فارس: البدع له أصلان، ابتداء الشيء وصنعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلال (٢).

(١) ترتيب كتاب العين: ص ٧٢.
(٢) المقاييس ١: ٢٠٩ مادة " بدع " .

والمقصود في المقام هو المعنى الأول.
وقال الراغب: الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء ولا اقتداء، والبدعة في المذهب إيراد قول لم يستن قائلها وفاعلها فيه بصاحب الشريعة وأمائلها المتقدمة وأصولها المتقنة (١).

وقال الفيروزآبادي: البدعة - بالكسر - الحدث في الدين بعد الإكمال أو ما استحدث بعد النبي من الأهواء والأعمال (٢).
إلى غير ذلك من الكلمات المماثلة للغويين، ولا نطيل الحديث بنقل غير ما ذكر.

والإمعان في هذه الكلمات يثبت بأن البدعة في اللغة وإن كانت شاملة لكل جديد لم يكن له مماثل سواء أكان في الدين، أم العادات، كالأطعمة والألبسة والأبنية والصناعات وما شاكلها، ولكن البدعة التي ورد النص على حرمتها هي ما استحدثت بعد رسول الله من الأهواء والأعمال في أمور الدين، وينص عليه الراغب في قوله: "البدعة في المذهب إيراد قول لم يستن قائلها وفاعلها فيه"، ونظيره قول القاموس: "الحدث في الدين بعد الإكمال".
كل ذلك يعرب عن أن إطار البدعة المحرمة، هو الإحداث في الدين، ويؤيده قوله سبحانه في نسبة الابتداء إلى النصارى بإحداثهم الرهبانية وإدخالهم إياها في الديانة المسيحية، قال سبحانه: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} (٣).
فقوله سبحانه: {ما كتبناها عليهم} يعني ما فرضناها عليهم ولكنهم نسبوها

(١) المفردات: ص ٣٨ و ٣٩.

(٢) القاموس المحيط ٣: ٦.

(٣) الحديد: ٢٧.

إلينا عن كذب.

وأما التطوير في ميادين الحياة وشؤونها فإن كان بدعة لغة فليس بدعة شرعا بل يتبع التطوير في الحياة جوازا ومنعا الحكم الشرعي بعناوينه، فإن حرمه الشرع ولو تحت عنوان عام فهو محرم، وإلا فهو حلال، لحاكمية أصل البراءة ما لم يرد دليل على الحرمة. وسيوافيك تفصيلها في المستقبل.

البدعة في اصطلاح العلماء

لا ريب أن البدعة حرام، ولا يشك في حرمتها مسلم واع، لكن المهم في الموضوع تحديدها وتعيين مفهومها بشكل دقيق، حتى تكون قاعدة كلية يرجع إليها عند الشك في المصاديق، فإن واجب الفقيه تحديد القاعدة، وواجب غيره تطبيقها على موارد، وهذا الموضوع من أهم المواضيع فيها. وقد عرفت البدعة بتعاريف مختلفة، بين متشدد لا يتسامح فيها، وبين متسامح في تعريفها، وإليك بعضها:

- ١ - البدعة: ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا، وإن كان بدعة لغة (١).
 - ٢ - البدعة: أصلها ما أحدث على غير مثال سابق، وتطلق في الشرع في مقابل السنة فتكون مذمومة (٢).
- ويقول ابن حجر في موضع آخر: المحدثات جمع محدثة، والمراد بها أي في

(١) جامع العلوم والحكم: ص ١٦٠ ط الهند.
(٢) فتح الباري ٥: ١٥٦.

حديث " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد "، ما أحدث وليس له أصل في الشرع يسمى في عرف الشرع بدعة، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس بدعة (١).

٣ - البدعة لغة: ما كان مخترعا، وشرعا: ما أحدث على خلاف أمر الشرع ودليله الخاص أو العام (٢).

٤ - البدعة في الشرع موضوعه: الحادث المذموم (٣).

٥ - إن البدعة الشرعية هي: التي تكون ضلالة، ومذمومة (٤).

٦ - البدعة: طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية.

وعرفه الشاطبي أيضا في مكان آخر بنفس ذلك وأضاف في آخره: " يقصد بالسلوك عليها: المبالغة في التعبد لله تعالى " (٥). وما أضافه ليس أمرا كليا كما سيوافيك عند البحث عن أسباب نشوء البدعة ودواعيها. وهذه التعاريف، تحدد البدعة تحديدا، وتصور لها قسما واحدا. والمحدود في هذه التعاريف هو البدعة في الشرع والدين الإسلامي، والتدخل في أمر التقنين والتشريع.

وهناك من حددها ثم قسمها إلى: محمودة ومذمومة، منهم:

١ - عن حرملة بن يحيى، قال: سمعت الشافعي (رحمه الله) يقول: " البدعة بدعتان:

(١) فتح الباري ١٧: ٩.

(٢) التبيين بشرح الأربعة: ص ٢٢١.

(٣) الإبداع: ٢٢.

(٤) أحسن الكلام: ص ٦.

(٥) الإعتصام ١: ٣٧.

بدعة محمودة وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود وما خالف السنة فهو مذموم " .

٢ - وقال الربيع: قال الشافعي (رحمه الله): " المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما يخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا، فهذه البدعة الضلالة. والثاني: ما أحدث من الخبر لا خلاف فيه لواحد من هذا، فهي محدثة غير مذمومة " (١).

٣ - قال ابن حزم: " البدعة في الدين، كل ما لم يأت في القرآن، ولا عن رسول الله، إلا أن منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد إليه من الخير، ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسنا وهو ما كان أصله الإباحة، كما روي عن عمر (رضي الله عنه):

" نعمت البدعة هذه - إلى أن قال: - ومنها ما يكون مذموما، ولا يعذر صاحبه، وهو ما قامت الحجة على فساده فتمادى القائل به " (٢).

٤ - وقال الغزالي: " وما يقال: إنه أبدع بعد رسول الله، فليس كل ما أبدع منهيا بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة، وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيرت الأسباب " (٣).

٥ - وقال الشيخ عبد الحق الدهلوي في شرح المشكاة: " اعلم أن كل ما ظهر بعد رسول الله بدعة، وكل ما وافق أصول سنته وقواعدها أو قيس عليها فهو بدعة حسنة، وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة " (٤).

٦ - وقال ابن الأثير: " البدعة بدعتان: بدعة هدى، وبدعة ضلال، فما كان في

(١) فتح الباري ٧: ١٠.

(٢) الفصل في الملل والنحل كما في البدعة للدكتور عزت: ١٦١.

(٣) الإحياء ٢: ٣ ط الحلبي.

(٤) الكشف لاصطلاحات الفنون كما في البدعة للدكتور عزت: ١٦٢.

خلاف ما أمر الله به ورسوله (صلى الله عليه وآله) فهو في حيز الذم والإنكار، وما كان واقعا تحت

عموم ما ندب الله إليه، وحث عليه الله أو رسوله فهو في حيز المدح. وما لم يكن له مثال موجود، كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهو من الأفعال المحمودة، ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) قد جعل له في

ذلك ثوابا فقال: " من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها " وقال في ضده: " ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها " وذلك إذا كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله (صلى الله عليه وآله).

ومن هذا النوع قول عمر (رضي الله عنه): " نعمت البدعة هذه (التراويح) لما كانت من

أفعال الخير وداخله في حيز المدح " سماها بدعة ومدحها، إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يسنها

لهم وإنما صلاحها ليالي ثم تركها ولم يحافظ عليها، ولا جمع الناس لها، ولا كانت في زمن أبي بكر، وإنما عمر (رضي الله عنه) جمع الناس عليها وندبهم إليها، فبهذا سماها بدعة،

وهي على الحقيقة سنة، لقوله (صلى الله عليه وآله): " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من

بعدي " وقوله: " اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر " وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر: " كل محدثة بدعة " إنما يريد ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة. وأكثر ما يستعمل المبتدع عرفا في الذم " (١).

هذه كلمات أعلام السنة وإليك ما ذكره أصحابنا في الموضوع مقتصرًا على نماذج منها:

٧ - قال السيد المرتضى: " البدعة: الزيادة في الدين أو نقصان منه من إسناد إلى الدين " (٢).

(١) النهاية ١: ٧٩ وكلامه صريح في أن النبي لم يصلها جماعة إلا ليال وتركها، وإن أقامتها جماعة كانت من

سنة عمر، إذ للخليفين - حسب الرواية - حق التسنين الذي يعبر عنه بسنة الصحابي.
(٢) الشريف المرتضى، الرسائل ٢: ٢٦٤.

٨ - قال العلامة في المختلف: " إن الأذان عبادة متلقاة من الشرع، فالزيادة عليها بدعة كالنقصان، وكل بدعة حرام " (١).

٩ - قال الشهيد السعيد محمد بن مكي العاملي (ت ٧٨٦ هـ): " محدثات الأمور بعد عهد النبي (صلى الله عليه وآله) تنقسم أقساماً، لا يطلق اسم البدعة عندنا إلا على ما هو محرم منها " (٢).

ومع ذلك كله فقد خالف الشهيد كلامه في كتاب الذكرى، وقال:

١٠ - " إن لفظ البدعة غير صريح في التحريم، فإن المراد بالبدعة ما لم يكن في عهد النبي (صلى الله عليه وآله) ثم تجدد بعده، وهو ينقسم إلى: محرم ومكروه ".

١١ - قال الطريحي (ت ١٠٨٦ هـ): " البدعة: الحدث في الدين وما ليس له أصل في كتاب ولا سنة. وإنما سميت بدعة، لأن قائلها ابتدع هو نفسه، والبدع - بالكسر والفتح - جمع بدعة ومنه الحديث " من توضع ثلاثاً فقد أبدع " أي فعل خلاف السنة، لأن ما لم يكن في زمنه (صلى الله عليه وآله) فهو بدعة " (٣).

١٢ - وقال المجلسي (ت ١١١٠ هـ): " البدعة في الشرع: ما حدث بعد الرسول ولم يرد فيه نص على الخصوص، ولا يكون داخلاً في بعض العمومات، أو ورد نهي عنه خصوصاً أو عموماً، فلا تشمل البدعة ما دخل في العمومات مثل بناء المدارس وأمثالها، الداخلة في عمومات إيواء المؤمنين وإسكانهم وإعانتهم، وإنشاء بعض الكتب العلمية، والتصانيف التي لها مدخل في العلوم الشرعية، وكالألبسة التي لم تكن في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) والأطعمة المحدثّة، فإنها داخلة في

(١) المختلف ٢: ١٣١.

(٢) القواعد والفوائد ٢: ١٤٤ - ١٤٥ القاعدة ٢٠٥. وقد ذكر الأقسام الخمسة غير واحد من الفقهاء منهم القرافي في الفروق ٤: ٢٠٢ - ٢٠٥. وسيوافيك الكلام في عدم صحة هذا التقسيم.

(٣) مجمع البحرين ج ١: مادة " بدع " لاحظ " ترتيب المجمع ".

عمومات الحلية، ولم يرد فيها نهي. وما يفعل منها على وجه العموم إذا قصد كونها مطلوبة على الخصوص كان بدعة، كما أن الصلاة خير موضوع ويستحب فعلها في كل وقت. ولو عين ركعات مخصوصة على وجه مخصوص في وقت معين صارت بدعة، وكما إذا عين أحد سبعين تهليلة في وقت مخصوص على أنها مطلوبة للشارع في خصوص هذا الوقت بلا نص ورد فيها كانت بدعة، وبالجملة إحداث أمر في الشريعة لم يرد فيه نص بدعة، سواء كانت أصلها مبتدعة أو خصوصيتها مبتدعة " ثم ذكر كلام الشهيد عن قواعده (١).

١٣ - وقال المحدث البحراني (ت ١١٨٦ هـ): "الظاهر المتبادر من البدعة لا سيما بالنسبة إلى العبادات إنما هو المحرم، ولما رواه الشيخ الطوسي عن زرارة ومحمد بن مسلم والفضيل عن الصادقين (عليهما السلام): "ألا وإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة سبيلها إلى النار" (٢).

١٤ - وقال المحقق الآشتياني (ت ١٣٢٢ هـ): البدعة، "إدخال ما علم أنه ليس من الدين في الدين ولكن يفعله بأنه أمر به الشارع" (٣).

١٥ - وقال أيضا: "البدعة: إدخال ما لم يعلم أنه من الدين في الدين" (٤).

١٦ - وقال السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١ هـ): "البدعة: إدخال ما ليس من الدين في الدين كإباحة محرم أو تحريم مباح، أو إيجاب ما ليس بواجب أو ندبة، أو نحو ذلك سواء كانت في القرون الثلاثة أو بعدها، وتخصيصها بما بعد القرون الثلاثة

(١) البحار ٧٤: ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) الحدائق ١٠: ١٨٠، وسائل الشيعة ٥: ١٩٢ ذ ح ١.

(٣) بحر الفوائد: ٨٠ وترى قريبا من هذه الكلمات في فرائد الشيخ الأنصاري: ٣٠ وفوائد الأصول للمحقق النائيني ٢: ١٣٠.

(٤) بحر الفوائد: ٨٠ وترى قريبا من هذه الكلمات في فرائد الشيخ الأنصاري: ٣٠ وفوائد الأصول للمحقق النائيني ٢: ١٣٠.

لا وجه له، ولو سلمنا حديث " خير القرون قرني " فإن أهل القرون الثلاثة غير معصومين بالاتفاق. وتقسيم بعضهم لها إلى حسنة وقبيحة، أو إلى خمسة أقسام ليس بصحيح، بل لا تكون إلا قبيحة. ولا بدعة فيما فهم من إطلاق أدلة الشرع أو عمومها أو فحواها أو نحو ذلك، وإن لم يكن موجودا في عصر النبي " (١).
تلك ستة عشر نصا من كلمات مشاهير علماء الإسلام، فمنهم من خص بالتعريف بالبدعة في الدين فجعله قسما واحدا، ومنهم عممها فقسّمها إلى ممدوحة ومذمومة، والحافز الوحيد إلى ذلك، هو اقتفاء قول عمر في صلاة التراويح، ولولا صدور ذلك لما خطر ببال هؤلاء هذا التقسيم.
ويبدو أن أوضح التعاريف ما نقلناه عن العلمين: الآشتياني والسيد الأمين، فإنهما (قدس سرهما) أتيا باللب، وحذفا القشر، فمقوم البدعة هو التصرف في الدين عقيدة وتشريعا، بإدخال ما لم يعلم أنه من الدين فيه، فضلا عما علم أنه ليس منه قطعا. والذي يؤخذ على تعريفهما أنه لا يشمل البدعة بصورة النقص كحذف شيء من أجزاء الفرائض.

(١) كشف الارتباب: ١٤٣.

المبحث الثالث

تحديد مفهوم البدعة ومقوماتها

إن الأمر المهم بعد الوقوف على النصوص، هو تحديد مفهوم البدعة التي وقعت موضوعاً للحكم الشرعي كسائر الموضوعات الواردة في المصدرين الرئيسيين، فما لم تحدد ولم نقف على مفهومها الدقيق وعلى ما هو معتبر في صميمها عند الشرع، لا يمكن لنا تطبيق الحكم الكلي على مصاديقها ومواضيعها. وقد اتضح بعد دراسة الأدلة أن قيود البدعة التي هي الموضوع لدى الشرع ثلاثة، نذكرها بالتدرج:

الأول: التدخل في الدين عقيدة وحكما، بزيادة أو نقيصة.

الثاني: أن تكون هناك إشاعة ودعوة.

الثالث: أن لا يكون هناك دليل في الشرع يدعم جوازها لا بالخصوص ولا بالعموم.

وإليك دراسة هذه القيود المكونة لمفهوم البدعة التي اتخذها الكتاب والسنة موضوعاً للحكم.

١ - التدخل في الدين بزيادة أو نقيصة

هل إن الموضوع في المصدرين هو نفس البدعة أو خصوص البدعة في الدين؟ فلو قلنا بأن الموضوع نفس البدعة بسيطا، سواء كان الإحداث والإبداع راجعا إلى صميم الدين أو غيره، فيكون الحكم بحرمة ذلك الموضوع الواسع أمرا غير ممكن، ولأجل ذلك لجأ أصحاب ذلك القول إلى تقسيمها إلى أقسام خمسة حسب انقسام الأحكام.

وأما إذا كان الموضوع هو الأمر المركب، أي البدعة في الدين، فذلك له حكم واحد لا يقبل التخصيص. إلا أن صحة إحدى النظرتين متوقعة على دراسة الآيات والروايات. وقد اتضح مما سبق، عند استعراض النصوص، أن الموضوع في الكتاب والسنة هو البدعة في الدين لا مطلقها، فلو كان الكتاب والسنة يتكلمان فيها فإنما يتكلمان فيها باسم الدين والشريعة وعن البدعة فيهما، لأن كل متكلم إنما يتكلم في إطار اختصاصه ومقامه وحسب شأنه، فالكتاب العزيز كتاب إلهي جاء لهداية الناس وإلى ما فيه مرضاة الله بتشريعه القوانين والسنن، والنبى الأكرم مبعوث لتبيان ذلك الكتاب بأقواله وأفعاله وتقريراته، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ (١).

وعلى ضوء ذلك فإن الكتاب والسنة يتكلمان بتلك الخصوصية التي يمتلكانها، فإذا تكلمنا عن البدعة فإنما يتكلمان عن البدعة الواردة في حوزتهما، وقيد الدين والشريعة وإن لم يذكر في متون النصوص غالبا، لكنهما مفهومان من القرائن الموجودة فيها، فلا عبرة بالإطلاق بعد القرائن الحافة على الكلام، هذا ما نستنبطه

(١) النحل: ٤٤.

من مجموع الخطابات الواردة في الأدلة. وإليك بيان ودراسة تلك الأدلة تفصيلا:
١ - تضافرت الآيات على ذم عمل المشركين حينما كانوا يقسمون رزق الله إلى ما هو حلال وحرام فحاء الوحي منددا بقوله: {قل أالله أذن لكم على الله تفترون} (١) وفي آية أخرى يعد عملهم افتراء على الله كما يقول: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب} (٢) ومن المعلوم أن المشركين كانوا ينسبون الحكمين إلى الله سبحانه، وأنه سبحانه قد جعل منه حلالا وحراما، فكان عملهم بدعة في الدين.

٢ - وقفت في التمهيد، أنه سبحانه يصف من لم يحكم بما أنزل الله، بكونه كافرا وظالما وفاسقا ومن المعلوم أن أحبار اليهود كانوا يحرفون الكتاب فيصفون ما لم يحكم به الله، بكونه حكم الله، قال سبحانه: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون} (٣) فقلوه {هذا من عند الله} صريح في أنهم كانوا يتدخلون في الشريعة الإلهية فيعرفون ما ليس من عند الله على أنه من عند الله، وهذا يؤكد بأن الموضوع في هذه الآية وأمثالها هو البدعة في الدين لا مطلقها.

٣ - ذم الله سبحانه الرهبان لابتداعهم ما لم يكتب عليهم، قال سبحانه: {ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها} (٤) ومعنى الآية أنهم كانوا ينسبون الرهبانية إلى شريعة المسيح مدعين بأنه هو الذي شرع لهم ذلك العمل، والقرآن يردهم بقوله: {ما كتبناها عليهم}.
٤ - أنه سبحانه وصف أهل الكتاب بأنهم اتخذوا رهبانهم وأحبارهم أربابا

(١) يونس: ٥٩.

(٢) النحل: ١١٦.

(٣) البقرة: ٧٩.

(٤) الحديد: ٢٧.

من دون الله، وقد فسره النبي الأكرم بأنهم كانوا يحرمون ما أحل الله فيتبعونهم أتباعهم، أو يحللون ما حرم الله عليهم فيقبلونه بلا تردد، ومن المعلوم أن الأحبار والرهبان كانوا يعرفون ما تخيلوه من الحرام والحلال على أنه حكم الله سبحانه، وليس هذا إلا بدعة في الشرع، وتدخل في أمر الشريعة. وإذا تدبرت في هذه الآيات وأمثالها يتضح لك أن الآيات تدور حول محور واحد هو البدعة في الدين لا مطلقها، ولا يضر عدم ذكر القيد في اللفظ، إذ هو مفهوم من القرائن القطعية.

ثم إن في قوله: {إلا ابتغاء رضوان الله} وجهين: فمنهم من يجعله استثناء منقطعاً، أي ما كتبنا عليهم الرهبانية وإنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، ومنهم من يجعله استثناء متصلًا، بمعنى أنه سبحانه كتب عليهم أصل الرهبانية، لأجل كسب رضوان الله، ولكنهم لم يراعوا حقها، فتكون البدعة على الأول نفس الرهبانية وعلى الثاني الخروج عن حدودها. هذا كله حول الآيات، وأما السنة، ففيها قرائن كثيرة تعطي نفس المفهوم الذي أعطته الآيات، وإليك تلك القرائن.

١ - ففي الرواية الأولى يتدئ النبي كلامه بقوله: "أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدى هدى محمد" وهذا يدل على أن ما اتخذته النبي موضوعاً للبحث هو ما يرجع إلى كتاب الله وهدى نبيه، فإذا قال بعده: "وشر الأمور محدثاتها" يكون المراد ما دخل في الشريعة من أمور، وإذا قال: "كل بدعة ضلالة"، أي البدعة فيما يتكلم عنه، ومن المعلوم أنه يتكلم عن دعوته وشريعته، فتحوير كلامه إلى مطلق البدعة، وإن لم يمسه الكتاب والسنة، تأويل للظاهر بلا دليل.

٢ - ثم إنه (صلى الله عليه وآله) يحكم على كل بدعة بالضلال، ومن المعلوم أنه لا يصدق إلا على البدعة في الشريعة، وأما غيرها فهي على أقسام كما قالوا.

- ٣ - روى مسلم في صحيحه أن رسول الله إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش ثم يقول: " أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد... " ومن المعلوم أن الأرضية الصالحة لثوران غضبه ليس إلا تدخل المبتدع في شريعته، لا مطلق التدخل في شؤون الحياة وإن لم تمس دينه، خصوصا إذا كان في مصلحة الإنسان.
- ٤ - إنه (صلى الله عليه وآله) وصف البدعة بالضلالة وقال: " إن صاحبها في النار " ولا تصدق تلك القاعدة إلا على صاحب البدعة في الشريعة.
- ٥ - إنه (صلى الله عليه وآله) عندما رأى أن رجالا يذادون عن حوضه فأخذ يناديهم بقوله:
- " ألا هلم ألا هلم ألا هلم " فإذا ينادي المنادي بقوله: " إنهم قد بدلوا بعدك " فيقول النبي: " فسحقا! فسحقا! فسحقا! " ومن المعلوم أنه قد بدلوا دين الرسول وشريعته وإلا لما كانوا مستحقين دعاءه بقوله: " فسحقا... ".
- ٦ - دلت الروايات السابقة على أنه إذا ظهرت البدع في الأمة فعلى العالم أن يظهر علمه وإلا فعليه لعنة الله.
- ٧ - كما دلت على أن صاحب البدعة لا تقبل توبته.
- ٨ - وإن من زار ذا بدعة فقد سعى في هدم الإسلام.
- ٩ - وأوضح من الكل خطاب الإمام علي (عليه السلام) حيث قال: " إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تتبدع يخالف فيها كتاب الله ".
- ١٠ - وفي رواية أخرى: " ما أحدثت بدعة إلا تركت فيها سنة، فاتركوا البدع والزموا المهيع إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها " (١).
- ١١ - هذا ما تعطيه نصوص الكتاب والسنة، وتليهما نصوص لفيف من أهل اللغة التي سبق ذكرها، مثل:

(١) قد سبقت مصادرها في نصوص البدعة في الكتاب والسنة فلاحظ.

قول الخليل: والبدعة ما استحدثت بعد الرسول.
وقول الراغب: البدعة في المذهب إيراد قول لم يستن قائلها وفاعلها فيه
بصاحب الشريعة.

وقول الفيروزآبادي: البدعة: الحدث في الدين بعد الإكمال أو ما استحدث
بعد النبي من الأهواء والأعمال.

وتليه نصوص لفيف من الفقهاء، نظير قول ابن رجب الحنبلي: البدعة ما
أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه.

وقول ابن حجر العسقلاني: البدعة ما أحدث وليس له أصل في الشرع.

وقول ابن حجر الهيتمي: البدعة ما أحدث على خلاف أمر الشارع ودليله
الخاص.

وقول الزركشي: البدعة الشرعية هي التي تكون ضلالة (١).

ومن يدرس هذه النصوص جليلها ودقيقها يقف على أن موضوع البحث في
جميع الأدلة هو الأمر الذي يمت إلى الشريعة بصلة، وأن الله سبحانه ونبيه الصادق
بالحق يهييان بالمجتمع الإسلامي عن البدعة والكذب على الله، والتدخل في
الكتاب والسنة، والتلاعب بما أنزل الله في مجالي العقيدة والشريعة، وهذا أمر
واضح لا غبار عليه، وبذلك يختلف اتجاهنا في تفسير النصوص عن غيرنا.
فإذا ثبت ذلك اتضح أن البدعة ليس لها إلا قسم واحد، ولها حكم واحد لا
يخصص ولا يقيد بل هو بمثابة لا يقبل التخصيص، وهذا نظير قوله سبحانه: {إن
الشرك لظلم عظيم} (٢) فإن تلك القاعدة لا تقبل التخصيص أي يمتنع تجويز الظلم
والشرك في مكان دون مكان، نظير قوله سبحانه: {أفجعل المسلمين

(١) قد مضت النصوص في مواضعها.

(٢) لقمان: ١٣.

كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون} (١).
ثم إن النتيجة التي توصلنا إليها قد توصل إليها الشاطبي بطريقة أخرى هذا
موجزها:

" قال: الباب الثالث: في أن ذم البدع والمحدثات عام لا يخص محدثة دون
غيرها - إلى أن قال: - فاعلموا - رحمكم الله - أن ما تقدم من الأدلة حجة في عموم
الذم من أوجه:

أحدها: أنها جاءت مطلقة عامة على كثرتها لم يقع فيها استثناء البتة، ولم يأت
فيها ما يقتضي، أن منها ما هو هدى، ولا جاء فيها: كل بدعة ضلالة إلا كذا وكذا.
ولا شيء من هذه المعاني فلو كان هنالك محدثة يقتضي النظر الشرعي فيها
الاستحسان، أو أنها لاحقة بالمشروعات، لذكر ذلك في آية أو حديث، لكنه لا
يوجد، فدل على أن تلك الأدلة بأسرها على حقيقة ظاهرها من الكلية التي لا
يتخلف عن مقتضاها فرد من الأفراد.

الثاني: أنه قد ثبت في الأصول أن كل قاعدة كلية أو دليل شرعي كلي إذا
تكررت في مواضع كثيرة وأتى بها شواهد على معان أصولية أو فروعية، ولم يقترن
بها تقييد ولا تخصيص، مع تكررها وإعادة تقررها، فذلك دليل على بقائها على
مقتضى لفظها من العموم، كقوله تعالى: {ألا تزر وازرة وزر أخرى} * وأن ليس
للإنسان إلا ما سعى} (٢)، فما نحن بصدده من هذا القبيل إذ جاء في الأحاديث
المتعددة أن كل بدعة ضلالة، وأن كل محدثة بدعة، وما كان نحو ذلك من العبارات
الدالة على أن البدع مذمومة، ولم يأت في آية ولا حديث، تقييد ولا تخصيص، ولا
ما يفهم منه خلاف ظاهر الكلية فيها.

(١) القلم: ٣٥.

(٢) النجم: ٣٨ - ٣٩.

الثالث: إجماع السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم على ذمها كذلك، وتقييحها والهروب عنها - إلى أن قال: - فهو بحسب الاستقراء، إجماع ثابت، فدل على أن كل بدعة ليست بحق، بل هي من الباطل.
الرابع: أن متعلل البدعة يقتضي ذلك بنفسه، لأنه من باب مضادة الشارع وإطراح الشرع، وكل ما كان بهذه المثابة فمحال أن ينقسم إلى حسن وقبيح (١) وأن يكون منه ما يمدح ومنه ما يذم، إذ لا يصح في معقول ولا منقول استحسان مشافة الشارع " (٢).

إلى هنا تم الكلام في تحديد البدعة من حيث كون الموضوع بسيطاً ومركباً، ويترتب عليه أنه لا تعم البدعة غير الشريعة، كالعادات والصناعات والأعلام وغيرها، بل يستخرج حكمها من الكتاب والسنة بنفس عناوينها، لا بما هي بدعة، فربما تكون حلالاً وأخرى حراماً، لكن ليس كل حرام بدعة. كما سيأتي.
٢ - البدعة إشاعة ودعوة

إذا كانت البدعة هي إدخال ما ليس في الدين فيه أو نقصه منه في مجال العقيدة والشريعة، فهل يتحقق مفهومها بقيام الشخص بذلك العمل، وحده في بيته ومنزله، كأن يزيد في صلاته ما ليس فيها أو ينقص منها شيئاً، أو أنه ليس ببدعة وإن كان عمله باطلاً وبفعله عاصياً؟ بل البدعة تتوقف على إشاعة فكرة خاطئة في العقيدة، أو عمل غير مشروع في المجتمع ودعوتهم إليه بعنوان أنه من الشرع، ولك أن تستظهر ذلك القيد من الآيات والروايات، فإن عمل المشركين في التحليل

(١) لا يخفى أن الإمام الشاطبي يقول في كلمته هذه بالحسن والقبح العقليين مع أنه خلاف مذهبه، لاحظ الصفحة ١١٤ من الإعتصام.

(٢) الإعتصام ١: ١٤١ - ١٤٢.

والتحريم لم يكن عملا شخصيا في الخفاء، بل إن المبتدع الأول قد أحدث فكرة وأشاعها ودعا الناس إليها، كما كان الحال كذلك في الرهبان والأحبار، ويشهد على ذلك بوضوح ما رواه مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا " (١).

ويدل عليه قول القائل يوم القيامة: " إنهم قد بدلوا بعدك " فإن تبديل الدين، ليس عملا شخصيا بل هو عمل جماعي، إلى غير ذلك من القرائن الموجودة في الروايات.

إلى هنا خرجنا بنتيجتين:

الأولى: إن مصب البدعة في الأدلة هو الدين والشرع.

الثانية: إن البدعة لا تنفك عن الدعوة إلى الباطل.

وإليك بيان القيد الثالث.

٣ - عدم وجود أصل لها في الدين

العنصر الثالث المقوم لمفهوم البدعة هو فقدان الدليل على جواز العمل بها، لا في الكتاب ولا في السنة، وذلك ظاهر، إذ لو كان هناك دعم من الشارع للعمل، لما كان أمرا جديدا في الدين أو تدخلا في الشرع، ولأجل ذلك قلنا: إن أفضل التعاريف هو قولهم: " إدخال ما ليس من الدين في الدين " أو " إدخال ما لم يعلم من الدين في الدين " .

(١) لاحظ المبحث الأول: نصوص البدعة في الكتاب والسنة، الحديث التاسع.

وبعبارة واضحة: البدعة في الشرع: ما حدث بعد الرسول، ولم يرد فيه نص على الخصوص، ولم يكن داخلا في بعض العمومات. وإن شئت قلت: إحداث شيء في الشريعة لم يرد فيه نص، سواء كان أصله مبتدعا، كصوم عيد الفطر، أو خصوصيته مبتدعة كالإمساك إلى غسق الليل ناويا به الصوم المفروض، معتقدا بأنه الواجب في الشرع. وفي النصوص السابقة للعلماء تصريح بذلك.

قال ابن حجر العسقلاني: " والمراد بالبدعة، ما أحدث وليس له أصل في الشرع، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة ".
قال ابن رجب الحنبلي: " البدعة: ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، أما ما كان له أصل في الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة " (١).

وقال العلامة المجلسي: " البدعة في الشرع: ما حدث بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ولم يرد فيه نص على الخصوص ولا يكون داخلا في بعض العمومات، أو ورد نهي عنه خصوصا أو عموما " (٢).

وعلى ضوء ذلك تنحل هنا عويصة المصاديق التي ربما تعد من البدعة، لعدم ورود نص خاص فيها ولكن تشملها العمومات بصورة كلية، فهذه لا تكون بدعة، وذلك لأنه لو كان هناك نص خاص، لأخرجه عن البدعة وهذا واضح جدا، أما إذا لم يكن هناك نص خاص، ولكن العمومات تشملها بعمومها فهذا ما نوضحه بالمثال التالي:

إن الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده عن الأعداء

(١) مضت النصوص في محلها.

(٢) البحار ٧٤: ٢٠٢.

أصل ثابت في القرآن الكريم، قال سبحانه: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم} (١) فإن قوله: {من قوة} مفهوم كلي يشمل كيفية الدفاع، ونوعية السلاح، وشكل الخدمة العسكرية المتبعة في كل عصر ومصر، فالجميع برمته هو تطبيق لهذا المبدأ، وتجسيد لهذا الأصل، فالتسلح بالغواصات والأساطيل البحرية والطائرات المقاتلة إلى غير ذلك من أدوات الدفاع، ليس بدعة بل تجسيد لهذا الأصل ومن خلاله.

وإن من يعد التجنيد العسكري بدعة فهو غافل عن حقيقة الحال، فإن الإسلام يأمر بالأصل ويترك الصور والأشكال لمقتضيات العصور. إلى هنا خرجنا بلزوم وجود قيود ثلاثة في تحقق البدعة وصدقها:

- ١ - أن يكون تدخلا في الشريعة وتصرفا فيها عقيدة وحكما.
- ٢ - أن تكون هناك إشاعة بين الناس.
- ٣ - أن لا يكون هناك أصل على المشروعية لا خاصا ولا عاما.

ويجمع الكل " القول في الدين بغير علم على الأغلب، بل مع العلم بالخلاف ولكن يقدم رأيه عليه، بظن الإصلاح أو غيره من الحوافز ".

هذا هو تحديد البدعة بمفهومها الدقيق الذي نتخذه قاعدة كلية، ونستكشف به حال الموضوعات التي تضاربت فيها الأقوال والأفكار بين موسع ومضيق. وسيوافيك شرحها.

(١) الأنفال: ٦٠.

المبحث الرابع

الابتداع في تفسير البدعة

لقد ارتحل النبي الأكرم إلى الرفيق الأعلى بعد أن أكمل الشريعة وبين جليلها ودقيقها وما تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة، قال سبحانه: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (١) وحفاظاً على دينه وصيانه من التحريف والتبديل، أمر التمسك بالثقلين. ولم يرض للأمة غيرهما لئلا يكون الدين ألعوبة بأيدي المغرضين والطامعين. والمقياس في تمييز البدعة عن السنة هو الرجوع إلى الثقلين سواء أفسر بالكتاب والعترة، كما هو المتضافر، أم بالكتاب والسنة، كما رواه الإمام مالك في الموطأ بسند مرسل (٢)، والحديثان متقاربا المضمون، لأن العترة لا تنشأ إلا السنة النبوية، التي أخذوها كابر عن كابر إلى أن تصل إلى النبي الأكرم، فما وافقهما فهو سنة وما خالفهما فهو بين معصية وبدعة، مع الفرق الواضح بينهما، فلو أذيعت الفكرة أو شاع العمل بين الناس بها فتصير بدعة، وإن اكتفي بها من دون دعوة وإشاعة فهي معصية.

(١) المائدة: ٣.

(٢) الموطأ: ٦٤٨ / ١٦١٩.

بدعة " ما لم يكن في القرون الثلاثة " ومن العجب أن أناسا صاروا إلى تحديد البدعة وتمييزها عن السنة، ولكنهم جاءوا حين تحديدها ببدعة وفرية جديدة لا دليل عليها في الكتاب والسنة، وهي أن المقياس في تمييز البدعة عن السنة هو القرون الثلاثة الأولى بعد رحيل الرسول. فما حدث فيها فهو سنة، وما حدث بعدها فهو بدعة، وإن تعجب فإليك نص القائل:

" ومما نحن عليه، أن البدعة - وهي ما حدثت بعد القرون الثلاثة - مذمومة مطلقة خلافا لمن قال: حسنة وقبيحة، ولمن قسمها خمسة أقسام إلا إن أمكن الجمع بأن يقال: الحسنة ما عليها السلف الصالح شاملة للواجبة والمندوبة والمباحة، وتكون تسميتها بدعة مجازا، والقبيحة ما عدا ذلك شاملة للمحرمة والمكروهة فلا بأس بهذا الجمع " (١).

وهذه النظرية الشاذة عن الكتاب والسنة نظرية خاصة استنتجها القائل مما رواه الشيخان في باب فضائل أصحاب النبي وإليك نصهما:
روى البخاري قال: سمعت عمران بن الحصين يقول: قال رسول الله: " خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم "، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، " ثم إن بعدكم قوما، يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن ".
وروى أيضا عن عبد الله (رضي الله عنه) أن النبي قال: " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته "، قال: قال

(١) الهدية السننية، الرسالة الثانية: ص ٥١.

إبراهيم: وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار (١).
إن الاحتجاج بهذه الرواية على أن الميزان في تمييز البدعة عن السنة، هو أن كل ما حدث في القرون الثلاثة الأولى ليس ببدعة، وأما الحادث بعدها فهو بدعة، باطل بوجوه:

الأول: إن القرن في اللغة هو النسل (٢) وهو الأمة بعد الأمة وبهذا المعنى استعمل في القرآن الكريم، قال سبحانه: {فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين} (٣) وبما أن المتعارف في عمر كل نسل هو الستون أو السبعون، يكون المراد، مجموع تلك السنين التي تتراوح بين ١٨٠ و ٢١٠ وأين هذا من تفسير الحديث بثلاثمائة سنة؟!

الثاني: على الرغم من اختلاف شراح الحديث في تفسير الرواية، إلا أن جميعها لا يستفاد منها ما يتبناه الكاتب، فبعض قال: إن المراد من القرن في قوله: "قرني" هو أصحابه، ومن "الذين يلونهم" أبناءهم ومن "الثالث" أبناء أبناءهم. وقال آخر: بأن قرنه ما بقيت عين رأته، ومن الثاني ما بقيت عين رأته من رآه، ثم كذلك.

وثالث قال: إن قرنه الصحابة، والثاني التابعون، والثالث تابعوهم (٤). وعلى كل تقدير تكون المدة أقل من ثلاثة قرون، حتى لو أخذنا بالقول الأخير الذي هو أعم الأقوال وأوسعها. فإن آخر من مات من الصحابة هو أبو الطفيل، وقد اختلفوا في تاريخ وفاته على أقوال: فقيل: أنه توفي سنة ١٢٠ أو

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٧: ٦ باب فضائل أصحاب النبي، صحيح مسلم بشرح النووي ٨: ٨٤ - ٨٥.

(٢) لسان العرب ١٣: ٣٣٣ مادة "قران".

(٣) الأنعام: ٦.

(٤) صحيح مسلم، شرح النووي ١٦: ٨٥.

دونها أو فوقها بقليل، وأما قرن التابعين فأخر من توفي منهم كان عام ١٧٠ أو ١٨٠ وآخر من عاش من أتباع التابعين ممن يقبل قوله، من توفي حدود ٢٢٠، فيقل عن ثلاثة قرون بثمانين سنة، وهذا كثير جدا، ولأجل عدم انطباقه على ثلاثة قرون قال ابن حجر العسقلاني: " وفي هذا الوقت ٢٢٠ هـ ظهرت البدع فاشيا، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتنح أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوال تغيرا شديدا ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن " (١). ولو افترضنا أن القرن يستعمل في مائة سنة فلا يصح تفسير الحديث به، لأن المحور في الحديث في تمييز قرن عن قرن آخر هو الأشخاص حسب أعمارهم، فعلى ذلك يجب أن يكون الملاك في تبادل القرون وتمايزها ملاحظة من كانوا يعيشون فيه حيث قال: " خير أمتي قرني " ولم يقل القرن الأول، ثم قال: " ثم الذين يلونهم " فلم يقل ثم القرن الثاني، وقال: " ثم الذين يلونهم " ولم يقل القرن الثالث، فلا محيص عند حساب السنين ملاحظة الأشخاص الذين كانوا يعيشون في قرنه والقرنين اللذين يليانه.

الثالث: ماذا يراد من عبارة خير القرون وشرها، وما هو الملاك في الوصف بالخير والشر؟

هناك ثلاثة ملاكات للاتصاف بالخير والشر، كلها محتمل:

- ١ - إن أهل القرن الأول كانوا خير القرون، وذلك لأنهم لم يدب فيهم ديب الخلاف في الأصول والعقائد، وكانوا متماسكين في الأصول، متحددين في العقائد.
- ٢ - كونهم خير القرون وذلك لسيادة الطمأنينة فيهم، وكان الجميع متظلل بظل الصلح والسلم إخوانا.

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٧: ٤.

٣ - كونهم خير القرون وذلك لتمسكهم بأهداف الدين في مقام العمل وتطبيق الشريعة.

وأي واحد أريد من هذه الملاكات، فالقرآن والسنة والتاريخ القطعي لا يدعمه بل يكذبه، وإليك البيان:

فإن كان الملاك هو العقائد الصحيحة والباطلة، وأن المسلمين كانوا متمسكين جملة واحدة بمعتقد واحد صحيح في القرون الثلاثة الأولى ثم ظهرت رؤوس الشياطين، ودبت فيهم المناهج الكلامية الفاسدة، - فإن كان الملاك هذا - فتاريخ الملل والنحل لا يؤيد ذلك بل ويكذبه، فإن الخوارج ظهوروا بين الثلاثين والأربعين من القرن الأول، وكانت لهم ادعاءات وشبهات وعقائد سخيصة خضبوا في طريقها وجه الأرض، ولم يتم القرن الأول إلا وظهرت المرجئة، الذين دعوا المجتمع الإسلامي إلى التحلل الأخلاقي، رافعين عقيرتهم بأنه لا تضر مع الإيمان معصية، فقد ضلوا وأضلوا كثيرا حتى دب الإرجاء بين المحدثين وغيرهم في القرن الثاني، وقد ذكر أسماءهم جلال الدين السيوطي في تدريب الراوي (١). حيث كان الإرجاء يقود المجتمع الإسلامي إلى التحلل الأخلاقي، والفوضى في جانب العمل. إلى أن ظهرت المعتزلة في أوائل القرن الثاني عام ١٠٥ هـ قبل وفاة الحسن البصري بقليل، فتوسع الشقاق بين المسلمين، وانقسموا إلى فرق كثيرة، حيث كان النزاع قائما على قدم وساق منذ أن ظهر الاعتزال على يد واصل بن عطاء حتى أواسط القرن الخامس الذي قضى فيه على هذه الفرقة.

وأما القرن الثاني فكان عصر ازدهار المذاهب الكلامية، وكانت الأمصار ميدانا لتضارب الأفكار.

فمنهم من تمزمت يقتصر في وصفه الله سبحانه على الألفاظ الواردة في الكتاب

(١) تدريب الراوي ١: ٣٢٨.

والسنة، ويفسرها بمعانيها الحرفية، من دون إمعان وتدبر، ويرفع صوته بأن لله يدا
ووجهها ورجلا وأنه مستقر على عرشه.
ومنهم مرجئي يكتفي بالإيمان بالقول، ويقدمه ويؤخر العمل ويسوق المجتمع
إلى التحلل الخلقي وترك الفرائض.
وآخر محكم يكفر كل الطوائف الإسلامية غير أهل نحلته، الذين كانوا
يغضون الخليفين عثمان وعلياً، وكانوا يكفرون الصديق الأعظم علي (عليه السلام).
ومعتزلي يؤول الكتاب والسنة بما يوافق معتقده وعقليته.
وجهمي ينفي صفات الله كلها، وينفي الاستطاعة والقدرة عن الإنسان، ويحكم
بفناء الجنة والنار، وقد هلك جهم بن صفوان عام ١٢٨ هـ.
وكرامي يقول: الإيمان قول باللسان، وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن، وإنه
سبحانه جسم لا كالأجسام وقد هلك " كرام " عام ٢٥٥ هـ.
إلى غير ذلك من المناهج الرجعية التي أفسدت المسلمين والمجتمع الإسلامي
بعقائدها الفاسدة، فكيف يمكن - من هذا الجانب - وصف هذه القرون خيراً؟!
وأما إذا كان الملاك هو صفاء المجتمع من حيث السلم والصلح وسيادة
الطمأنينة على المسلمين، فهذا ما يكذبه التاريخ، فإن القرن الأول كان صحيفة
سوداء في التاريخ الإسلامي، وكان قرناً دمويًا لم ير التاريخ مثله. فكيف يكون خير
القرون؟! وأي يوم فيه كان يوم الصفاء والصلح؟!
أم يوم قتل فيه الخليفة عثمان بن عفان في عقر داره بمرآى ومسمع من
المهاجرين والأنصار؟
أم يوم فتنة الجمل الذي قتلت فيه عشرات الآلاف من الطرفين بين صحابي
وتابعي، وقد عقب ذلك ترميل النساء وإيتام الأطفال، وحدوث الأزمة والشدة؟
أم يوم صفين الذي خرج فيه أمير الشام بوجه الإمام علي (عليه السلام)، الذي بايعه

المهاجرون والأنصار بيعة لم ير لها نظير في التاريخ، فوقع صدام بين طائفتين من المسلمين كانت نتيجته إراقة دماء عشرات الألوف، إلى أن انتهى إلى التحكيم؟ أم يوم ظهر الخوارج على الساحة الإسلامية يغيرون ويقتلون الأبرياء إلى أن انتهت فنتهم بقتل مشايخهم في النهروان؟

أم يوم أغير على آل رسول الله بكرلاء، حيث قتل فيه أبناء المصطفى، وفيهم سبطه وريحانته سيد شباب أهل الجنة، وسبيت بنات الزهراء ومن معهن من نساء أهل البيت حتى لم يبق بيت له برسول الله صلة إلا وقد ضجت فيه النوائح وعمته الآلام والأحزان؟

أم يوم أبيضت فيه مدينة رسول الله في وقعة الحرة الشهيرة فقتل الأصحاب والتابعون، ونهبت الأموال، وبقرت بطون الحوامل وهتكت الأعراض حتى ولدت الأبقار دون أن يعرفن أولادهن؟ (١)

أم يوم حاصر جيش بني أمية مكة المكرمة والبيت العتيق ورموه بالحجارة، لأجل القضاء على عبد الله بن الزبير؟

أم يوم تسلم عبد الملك بن مروان منصة الخلافة، وقد عين الحجاج بن يوسف عاملاً على العراق، فسفك دماء طاهرة، وقتل الأبرياء، وزج بالسجون رجالاً ونساءً من دون أن تظلمهم مظلة تقيهم حر الشمس وبرد الليل القارص؟

فكل تلك الحوادث الدموية قد وقعت ولما ينقضي القرن الأول، فكيف يمكن أن يكون خير القرون وأفضلها؟!

وإن كان صاحب القرن هو الرسول الأعظم أفضل الخلق؟ إلا أن سيرته،

(١) منهج في الانتماء المذهبي: ص ٢٧٧.

تختلف عن سيرة أمته التي وقفت على صورة مجملة من أفعالها الدموية (١). وإن كان الملاك هو تمسكهم بالدين في مجال الأحكام والفروع فهو أيضا لم يتحقق، وإن شئت فارجع إلى ما حدث بعد رحيل النبي في نفس عام الرحلة، فإن كثيرا ممن رأى النبي الأكرم وأدركه وسمع حديثه أصبح يمتنع عن أداء الزكاة، بل وارتد بعض عن دين الإسلام، لولا أن يجمعهم الخليفة الأول ويرد عاديتهم. لكن لا ندري هل نصدق هذا الحديث أم نؤمن بما حدث القرآن الكريم، حيث يعتبر قوما أعرف بمواقع الإسلام ويفضلهم على من كان في حضرة النبي من الصحابة الكرام وقد ارتد، يقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} (٢) قل لي من هؤلاء الذين يعتز الله بهم سبحانه ويفضلهم على أصحاب النبي؟ فلاحظ التفاسير (٣).

لا ندري هل نؤمن بهذا الحديث الذي رواه الشيخان أم نؤمن بما رواه أنفسهما في باب آخر، قالوا: قال رسول الله: " يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيهلون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري " (٤).

هل نؤمن بهذا الحديث أم نؤمن بما رواه المؤرخون في حياة الوليد بن عقبة وهو الذي وصفه سبحانه بكونه فاسقا وقال: {إن جاءكم فاسق بنبأ

(١) للوقوف على هذه الحوادث المرة، لاحظ تاريخ الطبري، تاريخ يعقوبي، مروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الكامل للجزري، والإمامة والسياسة لابن قتيبة إلى غير ذلك من المعاجم التاريخية المعتمدة.

(٢) المائدة: ٥٤.

(٣) مفاتيح الغيب ٣: ٤٢٧، تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٦: ١٦٥.

(٤) جامع الأصول ١١: ١٢٠: ٧٩٧٣.

فتبينوا { (١) وقد أطبق المفسرون في نزولها في الوليد بن عقبة.
هذا وقد ولي الكوفة أيام خلافة الخليفة الثالث فشرّب الخمر، وقام
يصلي بالناس صلاة الفجر فصلّى أربع ركعات، وكان يقول في ركوعه وسجوده:
اشربي واسقني، ثم قاء في المحراب ثم سلم وقال: هل أزيدكم إلى آخر
ما ذكره (٢).

وليس الوليد شخصا وحيدا بين من عاصر النبي الأكرم، بل كان فيهم أصناف
مختلفة لا يمكن الحكم باستقامتهم فضلا عن الحكم بعدالتهم.
فقد كان فيهم المنافقون المعروفون بالنفاق (٣)، والمختفون به (٤)، ومرضى
القلوب (٥)، والسماعون كالريشة في مهب الرياح (٦)، وخالطوا العمل الصالح
بالسيئ (٧)، والمشرفون على الارتداد (٨)، والمسلمون غير المؤمنين (٩)، والمؤلفة
قلوبهم (١٠)، والمولون أمام الكفار (١١)، والفاسق (١٢).
نحن نترك تفسير الحديث إلى آونة أخرى، ولعل المحققين يجدون له تفسيراً
ينطبق على التاريخ القطعي المشهود والملموس.

-
- (١) الحجرات: ٦.
(٢) الكامل ٢: ٥٢، أسد الغابة ٥: ٩١ إلى غيرهما من المصادر الكثيرة.
(٣) المنافقون: ١ - ٨.
(٤) التوبة: ١٠١.
(٥) الأحزاب: ١٢.
(٦) التوبة: ٤٥ - ٤٧.
(٧) التوبة: ١٠٢.
(٨) آل عمران: ١٥٤.
(٩) الحجرات: ١٤.
(١٠) التوبة: ٦٠.
(١١) الأنفال: ١٦.
(١٢) الحجرات: ٦.

بدعة " جعل السلف معيارا للحق والباطل " إن من البدعة في تفسيرها، هو جعل السلف معيارا للحق والباطل والإصرار عليه، فترى أن كثيرا ممن ينتمون إلى السلفية يصفون كثيرا من الأمور بالبدعة بحجة أنها لم تكن في عصر الصحابة والتابعين، وهذا ابن تيمية يصف " الاحتفال في مولد النبي بدعة بحجة أنه لم يفعله السلف، مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه، ولو كان هذا خيرا محضا أو راجحا، لكان السلف - رضي الله عنهم - أحق منا فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله وتعظيما له منا وهم على الخير أحرص " (١). ويقول في حق القيام للمصحف وتقيله: " لا نعلم فيه شيئا ماثورا عن السلف " (٢).

وقد ورث هذه الفكرة كثير ممن يؤمن بمنهجه. وهذا هو عبد الله بن سليمان بن بليهد الذي قام باستفتاء علماء المدينة بتخريب قباب الصحابة وأئمة أهل البيت في بقيع الغرقد عام ١٣٤٤ هـ وقد نشر مقالا في جريدة أم القرى في عدد جمادى الآخر سنة ١٣٤٥ هـ جاء فيه: لم نسمع في خير القرون أن هذه البدعة (البناء على القبور) حدثت فيها بل بعد القرون الخمسة (٣).

وبدورنا نشكر الشيخ ابن بليهد حيث وسع الأمر على المسلمين وأدخل عليها قرنين آخرين بعدما قصر مؤلف الهدية السنوية العصمة على أهل القرون الثلاثة الأولى، ولكن نهيب بصاحب المقال بأن المسلمين وفي مقدمتهم عمر بن

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٢٧٦.

(٢) الفتاوى الكبرى ١: ١٧٦.

(٣) كشف الارتباب: ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

الخطاب (رضي الله عنه) قد فتحوا القدس، وفيها مقابر الأنبياء ومقام إبراهيم ويعقوب وأولادهم، وعليها قباب وأبنية ولم يدر بخلد أحد حتى الخليفة بأنها بدعة كي يهدموها بمعاولهم.

إن هناك كلاما جميلا للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، فقد ألف كتابا باسم " السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي " وقد أدى فيه حق المقال، نفتطف منه ما يأتي:

إن من الخطأ بمكان أن نعمد إلى كلمة (السلف) فنصوغ منها مصطلحا جديدا، طارئا على تاريخ الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي، ألا وهو " السلفية " فنجعله عنوانا مميزا تدرج تحته فئة معينة من المسلمين، تتخذ لنفسها من معنى هذا العنوان وحده مفهوما معينا، وتعتمد فيه على فلسفة متميزة، بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك جماعة إسلامية جديدة في قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة والمتعارضة بشكل مؤسف في هذا العصر، تمتاز عن بقية المسلمين بأفكارها وميولاتها بل تختلف عنهم حتى بمزاجها النفسي ومقاييسها الأخلاقية كما هو الواقع اليوم فعلا.

بل إنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا: إن اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها، بدعة طارئة في الدين، لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأمة ولا الخلف الملتزم بنهجه.

فإن السلف - رضوان الله عليهم -، لم يتخذوا من معنى هذه الكلمة بحد ذاتها مظهرا لأي شخصية متميزة، أو أي وجود فكري أو اجتماعي خاص بهم، يميزهم عن سواهم من المسلمين، ولم يضعوا شيئا من يقينهم الاعتقادي أو التزاماتهم السلوكية والأخلاقية في إطار جماعة إسلامية ذات فلسفة وشخصية فكرية مستقلة. بل كان بينهم وبين من نسميهم اليوم بالخلف منتهى التفاعل وتبادل الفهم

والأخذ والعطاء تحت سلطان ذلك المنهج الذي تم الاتفاق عليه، والاحتكام إليه، ولم يكن يخطر في بال السابقين منهم ولا اللاحقين بهم أن حاجزا سيختلق ليرتفع ما بينهما بصنع طائفة من المسلمين فيما بعد، وليقسم سلسلة الأجيال الإسلامية إلى فريقين، يصبغ كلا منهما بلون مستقل من الأفكار والتصورات والاتجاهات، بل كانت كلمتا السلف والخلف في تصوراتهم لا تعني - من وراء الانضباط بالمنهج الذي ألمحنا إليه - أكثر من ترتيب زمني كالذي تدل عليه كلمتا: (قبل وبعد) (١). إن ما ذكره هذا المحقق هو الحق القراح الذي لا يرتاب فيه من له إمام بالكتاب والسنة وسيرة المسلمين وتاريخهم، وأين هذا مما ذكره الدكتور سيد الجميلي حيث جعل للسلفية والسلف حقيقة شرعية وقال: كلمة السلفية والسلف مصطلحان شرعيان (٢) وليس هذا الاشتباه منه ببعيد لضالة علمه بالتاريخ وإن كنت في شك فانظر كيف فسر الأشاعرة بقوله: هم أتباع أبي موسى الأشعري المتوفى سنة ٤٤ هـ مع أنهم من أتباع أبي الحسن الأشعري المولود عام ٢٦٠ هـ والمتوفى عام ٣٢٤ هـ وهو من أحفاد أبي موسى الأشعري، فهذا مبلغ علمه ويريد أن يقضي بين الفقهاء والمجتهدين والمحدثين!!

(١) السلفية مرحلة زمنية لا مذهب إسلامي: ص ١٣ - ١٤.
(٢) مناظرات ابن تيمية مع فقهاء عصره: ١٠٣.

المبحث الخامس

أسباب نشوء البدعة

البدعة عمل اختياري للمبدع ولها - كسائر الأفعال الاختيارية - أسباب وغايات يعد الجميع مناشئ لها ولا توجد البدعة إلا في ظل أسباب وغايات ومن خلال عرض النصوص الدينية وما دخل في التاريخ من بدع، يمكن التوصل إلى ما نتبناه في هذا الفصل.

١ - المبالغة في التعبد لله تعالى

هذا العنوان ذكره الشاطبي لدى تعريفه للبدعة، حيث قال: " طريقة مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تبارك وتعالى " (١). وهذا وإن لم يكن أمراً كلياً صادقاً في جميع مواردنا لكنه أحد أسباب نشوء البدع، كما يشهد له التاريخ ولعل من هذا المنطلق استأذن عثمان بن مظعون النبي في الإخصاء، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): " ليس منا من خصي أو اختصى، إن اختصاء أمتي

(١) الإعتصام ١: ٣٧.

الصيام " إلى أن قال: ائذن لي في الترهيب، قال: " إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة " (١).

فإن المبتدع ربما يتصور أن ما اخترعه من طريقة توصله إلى رضا الله سبحانه أكثر مما رسمه صاحب الشريعة، فلأجل ذلك يترك قول الشارع ويعمل طبق فكرته، ويذيع ذلك بين الناس باسم الشرع، ولهذا أيضا شواهد في التاريخ نقتطف منها ما يلي:

١ - روى جابر بن عبد الله: أن رسول الله كان في سفر فرأى رجلا عليه زحام قد ظلل عليه فقال: " ما هذا؟ " قالوا: صائم، قال (صلى الله عليه وآله): " ليس من البر الصيام في السفر " (٢).

٢ - روى الكليني عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج من المدينة إلى مكة في شهر رمضان ومعه الناس وفيهم المشاة، فلما انتهى إلى كراع الغميم دعا بقدر من ماء فيما بين الظهر والعصر فشرب وأفطر ثم أفطر الناس معه وشم أناس على صومهم فسامهم رسول الله العصاة وإنما يؤخذ بآخر أمر رسول الله (٣).

فإن الإنسان المتمتت يتخيل أنه لو سافر صائما يكون عمله أكثر قبولا عند الله تبارك وتعالى، ولكنه غافل عن مناسبات التشريع وملاكاتهما العامة، التي توجب الإفطار في السفر، ليكون الدين رفقا بالإنسان، يجذب الناس إليه، قال سبحانه: {وما جعل عليكم في الدين من حرج} (٤).

٣ - روى مالك في الموطأ: أن رسول الله رأى رجلا قائما في الشمس فقال: " ما

(١) الإعتصام ١: ٣٢٥.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند ٣: ٣١٩ و ٣٩٩، ولاحظ الفقيه ٢: ٩٢ / ٢.

(٣) الكافي ٤: ١٢٧ / ٥ باب كراهية الصوم في السفر.

(٤) الحج: ٧٨.

بال هذا؟ " قال: نذر ألا يتكلم ولا يستظل من الشمس ولا يجلس ويصوم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " مره فليتكلم وليستظل وليجلس وليتم صيامه " (١).
٤ - روى البخاري عن قيس بن أبي حازم: دخل أبو بكر على امرأة فرأها لا تتكلم فقال: " ما لها لا تتكلم؟ " فقيل: حجت مصممة، قال لها: " تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية " فتكلمت (٢).

٥ - إن متعة الحج مما نص عليها الكتاب العزيز فقال: { فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى } (٣) والمقصود من متعة الحج هو حج التمتع، وهو أن ينشئ المتمتع بها إحرامه في أشهر الحج من الميقات، فيأتي مكة ويطوف بالبيت ثم يسعى بين الصفا والمروة، ثم يقصر ويحل من إحرامه، فيقيم بعد ذلك محلاً حتى ينشئ في تلك السنة نفسها إحراماً آخر للحج من مكة ويخرج إلى عرفات، ثم يفيض إلى المشعر الحرام ثم يأتي بأفعال الحج على ما هو مبين في محله. هذا هو التمتع

بالعمرة إلى الحج وهو فرض من بعد عن مكة بثمانية وأربعين ميلاً من كل جانب، وإنما أضيف الحج بهذه الكيفية إلى التمتع (حج التمتع) أو قيل عنه: بالتمتع بالحج، لما فيه من المتعة أي اللذة بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخللة بين الإحرامين. ولكن كان بين صحابة النبي من يستكره ذلك، فقد روى الدارمي قال: سمعت عام حج معاوية يسأل سعد بن مالك: كيف تقول بالتمتع بالعمرة إلى الحج؟ قال: حسنة جميلة، فقال: قد كان عمر ينهى عنها فأنت خير من عمر؟! قال: عمر خير مني وقد فعل ذلك النبي هو خير من عمر (٤).

(١) الموطأ ٢: ٤٧٥ / ٦ كتاب الأيمان والندور.

(٢) البخاري، الصحيح ٥: ٤١ - ٤٢ باب أيام الجاهلية.

(٣) البقرة: ١٩٦.

(٤) الدارمي، السنن ٢: ٣٦ كتاب المناسك.

وروى الترمذي قال: حدثنا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، أنه سمع سعد بن أبي وقاص والضحاك ابن قيس عام حج معاوية بن أبي سفيان وهما يذكران التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال الضحاك بن قيس: لا يصنع ذلك إلا من جهل أمر الله تعالى. فقال سعد: بئس ما قلت يا بن أخي! فقال الضحاك: فإن عمر بن الخطاب قد نهى عن ذلك. فقال سعد: قد صنعها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصنعناها معه. هذا حديث صحيح (١).

وروى ابن إسحاق عن الزهري عن سالم قال: إني لجالس مع ابن عمر في المسجد إذ جاءه رجل من أهل الشام فسأله عن التمتع بالعمرة إلى الحج، فقال ابن عمر: حسن جميل. قال: فإن أباك كان ينهى عنها. فقال: ويلك! فإن كان أبي نهى عنها وقد فعله رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأمر به، أفبقول أبي آخذ، أم بأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟! قم عني (٢).

ولأجل ذلك كان هذا الصحابي يحرم بإحرام واحد للعمرة والحج، مع أن النبي أمر الإحرام بإحرامين: الإحرام للعمرة ثم يتحلل ويتمتع بمحظورات الإحرام ثم يحرم للحج، وما هذا إلا لزعم أن ترك التمتع بين العملين أكثر قربة إليه تعالى، وقد برر فتواه بعد الاعتراف بأن عمرة التمتع سنة رسول الله بقوله: ولكنني أخشى أن يعرسوا بهن تحت الأراك ثم يروحوا بهن حجاجا (٣).

هذه بعض النماذج التي تعرض لها التاريخ في شتى المناسبات، والجامع لذلك هو المبالغة في التعبد لله - حسب زعمه - وهي ناشئة عن قلة استيعاب المبتدع لما يجب أن يعرفه، فإن الله سبحانه أعرف بمصالح العباد ومفاسدهم، وبأسباب السعادة

(١) الترمذي، السنن ٣: ١٨٥، كتاب الحج، ط دار الفكر - بيروت.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٨٨.

(٣) أحمد بن حنبل، المسند ١: ٤٩.

والشقاء، ولا يشذ عن علمه شيء. وكم في التاريخ الإسلامي من شواهد واضحة على هذا السبب (١).

٢ - اتباع الهوى

إن استعراض تاريخ المتنبئين الذين ادعوا النبوة عن كذب ودجل، يثبت بأن الأهواء وحب الظهور والصدارة كان له دور كبير في نشوء هذه الفكرة وظهورها على صعيد الحياة، والمبتدع وإن لم يكن متنبئا، إلا أن عمله شعبة من شعب التنبؤ، وفي الروايات إشارات وتصريحات إلى ذلك. فقد خطب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)

الناس فقال: " أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، يتولى فيها رجال رجالا... (٢).

إن لحب الظهور دورا كبيرا في الحياة الإنسانية، فلو كانت هذه الغريزة جامحة لأدت بالإنسان إلى ادعاء مقامات ومناصب تختص بالأنبياء، ولعل بعض المذاهب الظاهرة بين المسلمين في القرون الأولى كانت ناشئة عن تلك الغريزة.

روى ابن أبي الحديد في شرح النهج أن عليا مر بقتلى الخوارج فقال: " بؤسا لكم لقد ضركم من غركم "، فقيل: ومن غركم؟ فقال: " الشيطان المضل، والنفس الأمارة بالسوء، غركم بالأمانى وفسحت لهم في المعاصي ووعدتهم الاظهار فاقتحمت بهم النار " (٣).

(١) لاحظ السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٣١٦ - ٣١٧، صلح الحديبية.

(٢) الكافي ١: ٤٥ / ١ باب البدع.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٩: ٢٣٥.

٣ - حب الاستطلاع إلى ما هو دونه

إن حب الاستطلاع من نعم الله سبحانه، إذ في ظله يقف الإنسان على مجاهيله ويكتشف معلومات تهمه في حياته، ولولا ذلك الحب لكان الإنسان اليوم في أوليات حياته في العلم والمعرفة، قال سبحانه: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون} (١) ومع اشتراك الكل في تلك النعمة المعنوية إلا أن الطاقات الكامنة لدى الإنسان تختلف من واحد إلى آخر، فليس لكل إنسان قابلية التطلع إلى كل شئ واستعراض جميع المجاهيل، ولهذا ربما أدى ذلك العمل إلى الزلة في الفكر والمعتقد، ولذلك ترى عليا (عليه السلام) ينهى عن الغور في القدر فيقول: " طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق

فلا تلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه " (٢). ولكن الإمام نفسه تكلم في مواضيع أخر عن القضاء والقدر حينما كان يجد إنسانا قادرا على درك المفاهيم الغامضة. إن القرون الثلاثة الأولى، كانت قرون ظهور المذاهب الكلامية والفقهية، وكانت الأمصار وحواضرها الكبرى ميدانا لمطارحات الفرق المختلفة، وقد ظهرت في تلك القرون أكثر المذاهب والفرق، مع أن الحق في طرف واحد، فلو أنهم توحدوا في العقائد، لما أدى بهم الأمر إلى شق العصى وإيجاد الفرقة، وبالتالي ذهاب الوحدة الإسلامية في مهب الريح ضحية البحوث الكلامية والفقهية وغير ذلك. كان للخوض في الآيات المتشابهات دور كبير في ظهور البدع في الصفات الخبرية، وفي تفسير اليد والرجل والوجه لله سبحانه الواردة في الكتاب والسنة،

(١) النحل: ٧٨.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة ٢٨٧.

فقد كان البسطاء يخوضون في تفسيرها من دون إرجاعها إلى المحكمات التي هي أم الكتاب وما هذا إلا لقصور أفهامهم وقلة بضاعتهم العلمية، فكان واجبهم السكوت وسؤال الراسخين في العلم، دون الخوض فيها. إن للشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا نصيحة لطلاب الفلسفة والحكمة، يحثهم على عدم إذاعة ذلك العلم بين أناس ليس لهم قابلية التفكير الواسع، فيقول في آخر كتاب الإشارات:

"أيها الأخ إني قد مخضت لك في هذه الإشارات عن زبدة الحق، وألقتك قفي (١) الحكم في لطائف الكلم. فصنه عن الجاهلين والمبتدلين ومن لم يرزق الفطنة الوقادة والدربة والعادة وكان صغاه (٢) مع الغاغة، أو كان من ملحدة هؤلاء الفلاسفة ومن همجهم، فإن وجدت من تثق بنقاء سيرته واستقامة سيرته وبتوقفه عما يتسرع إليه الوسواس، وينظر إلى الحق بعين الرضا والصدق فآته ما يسألك منه مدرجا مجزءا مفرقا تستفرس مما تسلفه لما تستقبله. وعاهده بالله وبأيمان لا مخارج لها ليجري فيما يأتيه مجراك متأسيا بك فإن أذعت هذا العلم أو أضعته فالله بيني وبينك وكفى بالله وكيفا" (٣).

٤ - التعصب الممقوت

وهناك سبب آخر لا يقل تأثيره عما سبق من الأسباب وهو تقليد الآباء والأجداد، وصيانة كياناتهم وسننهم، فإن اتباع الأهواء القبلية والقومية وما شاكل فإنها من أعظم سدود المعرفة وموانعها، وهي التي منعت الأمم عبر التاريخ من

(١) القفي: الشئ الذي يؤثر به للصنف.

(٢) صغاه: ميله.

(٣) كتاب الإشارات ٣: ٤١٩.

الخشوع للأنبياء والرسل رغم البراهين الواضحة كما يقول سبحانه: { وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون } (١).

ومن هذا المنطلق، اقترح تميم بن جراشة على النبي - عندما جاء على رأس وفد من الطائف يخبره بإسلام قومه - أن يكتب لهم كتابا، بأن يفي لهم بأمور، يقول: قدمت على النبي (صلى الله عليه وآله) في وفد ثقيف فأسلمنا وسألناه أن يكتب لنا كتابا فيه شروط

فقال: اكتبوا ما بدا لكم ثم إيتوني به، فسألناه في كتابه أن يحل لنا الربا والزنا، فأبى علي (رضي الله عنه): أن يكتب لنا، فسألنا خالد بن سعيد بن العاص، فقال له علي: تدرى ما

تكتب؟ قال: أكتب ما قالوا، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) أولى بأمره، فذهبنا بالكتاب إلى

رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال للقارئ: اقرأ، فلما انتهى إلى الربا قال: " ضع يدي عليها في

الكتاب "، فوضع يده فقال: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا } (٢) الآية، ثم محاها، وألقيت علينا السكينة فما راجعناه، فلما بلغ الزنا وضع يده عليها (وقال: { ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة } (٣) الآية، ثم محاها وأمر بكتابتنا أن ينسخ لنا (٤).

ورواه ابن هشام بصورة أخرى قال: وقد كان مما سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يدع

لهم الطاغية، وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذلك عليهم

فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يتسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذرائعهم، ويكرهون أن يروعا قومهم بهدمها حتى

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) البقرة: ٢٧٨.

(٣) الإسراء: ٣٢.

(٤) أسد الغابة ١: ٢١٦ مادة تميم و ٣: ٤٠٦.

يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها، وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه. فقالوا: يا محمد، فسئؤتيكها، وإن كانت دناءة (١).
انظر إلى التعصب المميت للعقل يسأل رسول الله - الذي بعث لكسر الأصنام وتحطيم كل معبود سوى الله - أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين....
وكان هذا الاقتراح نابعا عن العصبية لطرق الآباء وسلوكهم، وكان المقترح في حضرة النبي (صلى الله عليه وآله).
هذه هي الأسباب العامة، وهناك أسباب خاصة لظهور البدع في المجتمع الإسلامي لا تخفى على القارئ الكريم منها.
٥ - التسليم لغير المعصوم
إن من أسباب نشوء البدع التسليم لغير المعصوم، فلا شك أنه يخطأ وربما يكذب، فالتسليم لقوله سبب للفرية على الله سبحانه والتدخل في دينه عقيدة وشريعة.
فإذا كان النبي الأكرم خاتم النبيين وكتابه خاتم الكتب وشريعته خاتمة الشرائع، فلا حكم إلا ما حكم به، ولا سنة إلا ما سنه، والخروج عن هذا الإطار تمهيد لطريق المبتدعين. وفي ضوء ذلك لا معنى معقول لتقسيم السنة إلى سنة النبي

(١) السيرة النبوية ٢: ٥٣٧ - ٥٤٣.

وسنة الصحابة، وتلقي الأخيرة حجة شرعية وإن لم تسند إلى المصدرين الرئيسيين. وهذه كتب الحديث والفقه تطفح بسنة الصحابة، فهناك سنن تنسب إلى الخليفة الأول والثاني والثالث، فما معنى هذه السنن إذا لم تستند إلى الكتاب والسنة؟! ولو أسندت فلا معنى لإضافتها إليهم. كما أن الإفتاء بمضمون تلك السنن بدعة في الشريعة.

وهناك كلام للدكتور عزت علي عطية، جعل فيه الاقتداء بأئمة أهل البيت تسليماً لغير المعصوم ثم قال: نتساءل عن الصلة بين هذا الإمام وبين الله جل جلاله، هل هي وحي، أم إلهام أم حلول؟ إن كانت وحيًا فقد نفوه، وإن كانت حلولاً فهو الكفر بعينه، وإن كانت إلهاماً فما الذي يفرق بينه وبين وساوس الشيطان وخطرات النفوس (١).

إن الدكتور عطية لم يدرس عقائد الإمامية حقها وإنما اكتفى بكتاب صغير كتب في بيان العقائد لا في البرهنة عليها، ولو أنه رجع إلى علمائهم ومؤلفاتهم لوقف على أدلة عصمة الأئمة، فإن أحد تلك الأدلة هو حديث الثقلين الذي أطبق المحدثون على نقله، وهو أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: "إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي

أهل بيتي لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما". فإن كانت العترة عدلاً للكتاب وقريناً له فتوصف بوصفه، فالكتاب معصوم عن الخطأ {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} (٢) فتكون العترة مثله.

وأما مصدر علومهم، فغالب علومهم مأخوذ من الكتاب والسنة إذ أخذ علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله)، وأخذ الحسن (عليه السلام) عن أبيه، وهكذا كل إمام يأخذ عن أبيه، علم يتناقل ضمن هذه السلسلة الطاهرة المعروفة، ولم يأخذ أحد منهم (عليهم السلام) عن

(١) البدعة: ٢٤٥.

(٢) فصلت: ٤٢.

صحابي ولا تابعي أبدا، بل أخذ الجميع عنهم، ومنهم انتقلت العلوم إلى الآخرين كما تلقاها رسول الله (صلى الله عليه وآله) من لدن حكيم خبير. قال الإمام الباقر (عليه السلام): " لو كنا نحدث الناس برأينا وهوانا لهلكنا، ولكن نحدثهم بأحاديث نكنزها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم ".

وهناك مصدر آخر لعلومهم وهو أنهم محدثون كما أن مريم كانت محدثة، وكما كان عمر بن الخطاب محدثا حسب ما رواه البخاري، روى أبو هريرة قال: قال النبي: " لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن كان من أمتي أحد فعمر " (١). لكن الدكتور خلط بين التحديث والوحي. وأما أنهم بماذا يميزون الإلهام من وساوس الشيطان، فليس بأمر عسير، فإن الوسواس تدخل القلب بتردد والإلهام يرد النفس بصورة علم قاطع ولأجل ذلك تلقت مريم وأم موسى ما ألهمتا به، كلاما إلهيا، لا وسوسة شيطانية.

(١) البخاري، الصحيح ٢: ١٩٤ باب مناقب عمر بن الخطاب.

المبحث السادس

تقسيمات البدعة

١ - تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة

إذا كانت البدعة بمعنى التدخل في أمر الشرع بزيادة أو نقيصة في مجالي العقيدة والشريعة، من غير فرق بين العبادات والمعاملات والإيقاعات والسياسات، فليس لها إلا قسم واحد لا يثنى ولا يتكثر ولكن ربما تقسم البدعة إلى تقسيمات نذكر منها ما يلي:

أصل نشوء هذا التقسيم:

لقد جاء هذا التقسيم في كلمات الإمام الشافعي، وابن حزم والغزالي والدهلوي وابن الأثير (١) وغيرهم، والأصل في ذلك قول الخليفة عمر بن الخطاب، وقد ظهر على لسانه في السنة الرابعة عشرة من الهجرة، عندما جمع الناس للصلاة بإمامة أبي بن كعب في شهر رمضان ووصف الجماعة بقوله: " نعم البدعة هذه " والأصل في ذلك ما رواه البخاري وغيره.

(١) النهاية ١ : ٧٩.

قال عبد الرحمن بن عبد القارئ: خرجت مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ليلة رمضان

إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجال فيصلون بصلاته الرهط فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: " نعم البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون " يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله (١).

إن إقامة صلاة التراويح جماعة لا تخلو من صورتين: الأولى: إذا كان لها أصل في الكتاب والسنة، فعندئذ يكون عمل الخليفة إحياء لسنة متروكة سواء أراد إقامتها جماعة أو جمعهم على قارئ واحد، فلا يصح قوله: " نعم البدعة هذه " إذ ليس عمله تدخلا في الشريعة.

الثانية: إذا لم يكن هناك أصل في المصدرين الرئيسيين، لا لإقامتها جماعة أو لجمعهم على قارئ واحد، وإنما كره الخليفة تفرق الناس، ولأجل ذلك أمرهم بإقامتها جماعة، أو بقارئ واحد، وعندئذ تكون هذه بدعة قبيحة محرمة. توضيح ذلك أن البدعة التي تحدث عنها الكتاب والسنة هي التدخل في أمر الدين بزيادة أو نقيصة، والتصرف في التشريع الإسلامي، وهي بهذا المعنى لا يمكن أن تكون إلا أمرا محرما ومذموما ولا يصح تقسيمه إلى حسنة وقبيحة، وهذا شيء واضح لا يحتاج إلى استدلال.

نعم، البدعة بالمعنى اللغوي التي تعم الدين وغيره تنقسم إلى قسمين، فكل شيء محدث مفيد في حياة المجتمعات من العادات والرسوم، إذا أدى به من دون الإسناد إلى الدين ولم يكن محرما بالذات شرعا، كان بدعة حسنة، أي أمرا جديدا مفيدا للمجتمع، كما إذا احتفل الشعب بيوم استقلاله في كل عام، أو اجتمع

(١) البخاري، الصحيح ٣: ٥٨ كتاب الصوم، باب فضل من قام رمضان.

للبراءة من أعدائه أو أقام الأفراح لمولد بطل من أبطاله، وبالجملة ما هو حلال بالذات لا مانع من أن تتفق عليه الأمة، وتتخذ عادة متبعة في المناسبات، ويكون بدعة لغوية.

وأما ما كان محرما بالذات فهو محرم ليس من باب البدعة. فلو اتخذ أمرا مرسوما ورائجا، مثل دخول النساء سافرات متبرجات في مجالس الرجال في الاستقبالات والضيافات، فهذا أمر حرام بالذات أولا، وليس بمحرم من باب البدعة الشرعية، بمعنى التدخل في أمر الدين والتسنين فيه والتشريع على خلاف ما شرعه الشارع، وإنما هو عمل محرم اتخذ راجعا لا باسم الدين ولا باسم الشريعة، وأقصى ما يعتذر بأنه مقتضى الحضارة العصرية، مع الاعتراف بكونه مخالفا للشرع، ولو قيل إنه بدعة قبيحة أو مذمومة، فإنما هو بحسب معناها اللغوي.

وبذلك يظهر أن أكثر من أطب الكلام في تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة فقط خلط البدعة في مصطلح الشرع بالبدعة اللغوية، فأسهبوا في الكلام وأتوا بأمثلة كثيرة زاعمين أنها من البدع الشرعية مع أن أمرها يدور بين أمرين: إما أنها عمل ديني يؤتى بها باسم الدين والشريعة، ولكن يوجد لها أصل فيهما، فتخرج بذلك عن عنوان البدعة، كتدوين الكتاب والسنة إذا خيف عليهما التلف من الصدور، وبناء المدارس والربط (١) وغيرهما. وقد مثلوا بالتدوين للبدعة الواجبة، وبناء المدارس والربط بالبدعة المستحبة، مع أنهما ليسا ببدعة لوجود أصل صالح لهما في الشريعة.

أو أنها عمل عادي لا يؤتى بها باسم الدين بل يؤتى بها لأجل تطوير الحياة وطلب الرفاه، فتكون خارجا عن موضوع البدعة في الشرع، كنخل الدقيق، فقد

(١) جمع رباط، وهو ما بينى للفقراء، مولد (المصباح المنير: ص ٢١٥ ط دار الهجرة)

ورد أن أول شيء أحدثه الناس بعد رسول الله، اتخاذ المناخل ولين العيش من المباحات.

وإنما يصح إطلاق البدعة عليها بالمعنى اللغوي، بمعنى الشيء الجديد، سواء كان عملاً دينياً أو عادياً. وقد وافقنا على نفي ذلك التقسيم لفيف من المحققين: منهم: أبو إسحاق الشاطبي في كلام مسهب نذكر منه ما يلي:

إن متعلل البدعة يقتضي ذلك بنفسه لأنه من باب مضادة الشارع واطراح الشرع، وكل ما كان بهذه المثابة فمحال أن ينقسم إلى حسن وقبيح، وأن يكون منه ما يمدح ومنه ما يذم، إذ لا يصح في معقول ولا منقول استحسان مشاققة الشارع. وأيضا فلو فرض أنه جاء في النقل استحسان بعض البدع أو استثناء بعضها عن الذم لم يتصور، لأن البدعة طريقة تضاهي المشروعة من غير أن تكون كذلك. وكون الشارع يستحسنها دليل على مشروعيتها، إذ لو قال الشارع "المحدثة الفلانية حسنة" لصارت مشروعة.

ولما ثبت ذمها، ثبت ذم صاحبها، لأنها ليست بمذمومة من حيث تصورها فقط، بل من حيث اتصف بها المتصف، فهو إذن المذموم على الحقيقة، والذم خاصة التأثيم، فالمبتدع مذموم آثم، وذلك على الإطلاق والعموم (١).
ومنهم: العلامة المجلسي قال: "إحداث أمر لم يرد فيه نص بدعة، سواء كان أصله مبتدعا أو خصوصياته مبتدعة فلربما يقال: إن البدعة منقسمة بانقسام الأحكام الخمسة أمر باطل، إذ لا تطلق البدعة إلا على ما كان محرما، كما قال رسول الله: "كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة سبيلها إلى النار" (٢).
ومنهم: الشهيد في قواعده قال: محدثات الأمور بعد النبي (صلى الله عليه وآله) تنقسم أقساما:

(١) الموافقات ١: ١٤٢.

(٢) البحار ٧٤: ٢٠٣.

لا يطلق اسم البدعة عندنا إلا على ما هو محرم منها (١).
سؤال وجواب:

وهناك سؤال يطرح نفسه، وهو أنه إذا كانت البدعة قسما واحدا وأمرًا محرما مقابل السنة، لا تقبل التقسيم إلى غيره فما معنى قوله (صلى الله عليه وآله): " من سن في الإسلام سنة

حسنة فعمل بها بعده، كتب له أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم من شيء، ومن سن سنة سيئة فعمل بها بعده كتب له مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء " (٢).

والجواب: أن الشق الأول راجع إلى المباحات العامة المفيدة للمجتمع، كإنشاء المدارس والمكتبات وسائر الأعمال الخيرية، فلو أن رجلا قام - برفض الأمية - بإنشاء مدرسة أو مكتبة وصار عمله أسوة للغير، فقام الآخرون بإنشاء مدارس في سائر الأماكن، فهو سنة حسنة.

وأما الشق الثاني: فهو راجع إلى الأمور المحرمة بالذات، فلو قام أحد بضيافة أشرك فيها النساء السافرات المتبرجات، ثم صار عمله قدوة للآخرين، فعلى هذا المسنن وزر عمله ووزر من عمل بسنته.

وعلى ضوء ذلك فالحديث لا يمت بصلة إلى البدعة المصطلحة، ولم يكن ببال أحد من الشخصين التدخل في أمر الشرع بالزيادة والنقيصة، بل كل قام بعمل خاص حسب دواعيه وحوافزه النفسية، فالإنسان العاطفي يندفع إلى القسم الأول الذي ربما يكون مباحا أو مسنونا، ومن حسن الحظ، يكون عمله قدوة، والإنسان الإجرامي يندفع إلى القسم الثاني، فيعصي الله سبحانه لا باسم البدعة بل

(١) القواعد والفوائد ٢: ١٤٤ - ١٤٥ القاعدة ٢٠٥. ونعلق على كلامه أن القسم إنما يكون بدعة إذا أتى

باسم

الدين، وإلا يكون محرما ومعصية لا بدعة.

(٢) مسلم، الصحيح ٨: ٦١ كتاب العلم.

بارتكاب عمل محرم، ومن سوء الحظ يكون عمله قدوة. فكلتا العمليين لا صلة لهما بالبدعة الشرعية أصلاً، ولو أطلقت فإنما تطلق عليهما بالمعنى اللغوي، أي إبداع أمر لم يكن، سواء أكان مباحاً أم حراماً، ومن المعلوم أنه ليس كل محرم بدعة وإن كانت كل بدعة محرمة.

٢ - تقسيم البدعة إلى عادية وشرعية

قد عرفت أن للبدعة تقسيمات باعتبارات مختلفة، وعرفت مدى صحة تقسيمها إلى حسنة وسيئة، ومنها أنها تنقسم إلى عادية وشرعية، وهذا العنوان أوضح مما ذكره الشاطبي حيث قال:

تقسيمها إلى العادية والتعبدية (١)، وذلك لأن الأمور التعبدية قسم من الأحكام الشرعية التي يعتبر في صحة امتثالها قصد القربة، والإتيان بها لأجل التقرب وكسب الرضا وامتثال الأمر، وهي منحصرة بالطهارات الثلاث: الوضوء والتيمم والغسل بأقسامه، والصلاة والزكاة والصوم والحج والذبح وما ضاهاها، ولكن الأمور الشرعية هي التي للشارع فيها دور، أوسع من التعبديات. ولذلك قسم الفقهاء الأحكام الشرعية إلى أربعة:

١ - العبادات، ويدخل فيها ما ذكرناه من الأصناف.

٢ - العقود، وتدخل فيها عامة المعاملات مما تحتاج إلى إيجاب وقبول، كالبيع والرهن والوديعة والصلح والشركة والمضاربة والمساقاة والمزارعة إلى غير ذلك مما هو مذكور في محله.

٣ - الإيقاعات وهي ما تقوم بجانب واحد، كالطلاق بأقسامه والإيلاء

(١) الإعتصام ٢: ٧٩.

والظهار، وتدخل فيها الموارد إلحاقاً حكماً.
٤ - السياسات، ويدخل فيها القضاء والحدود والديات وما شابهها.
فلو كان هناك شيء خارج عن الأبواب الأربعة موضوعاً، فهو بوجه ما
ملحق بواحد منها، فهذه كلها أمور شرعية وللشارع فيها دور، إما تأسيساً
واختراعاً كالعبادات والحدود والديات، أو إمضاء واعترافاً لما في يد العقلاء، لكن
مع تحديدها بشروط مذكورة في الفقه. فالتدخل في هذه الأبواب الأربعة بزيادة أو
نقيصة كالنكاح بلا صداق، أو البيع بلا ثمن، والإجارة بلا أجر، والطلاق في أيام
الحيض أو تجويز الربا وبيع الكلب والخنزير، أو تحويل الأحكام الشرعية في باب
السياسات، كلها بدعة في أمور شرعية.

كل هذا يلزمنا أن نعبر بالشرعية مكان التعبدية إلا أن يراد منها ما يرادف
مطلق الأحكام والأمور الشرعية فإذا لا مشاحة في الاصطلاح.
وأما العادية: فهي إما تدور مدار تقاليد وأعراف الناس، سواء أكانت لها
جذور تاريخية أم كانت أمراً محدثاً. وإما تطوير لمظاهر الحياة العامة، الصناعية أو
الثقافية أو الزراعية أو غير ذلك. وكل ذلك أمور عادية تركها الشارع إلى الناس،
وجعل الأصل فيها الإباحة، لكنه حددها بأطر عامة، ولم يتدخل في جزئياتها،
وما لم تخالف الضوابط العامة فالناس فيها أحرار يفعلون ما يشاءون، ويعملون ما
يريدون.

فعلى ذلك هل يقع البحث في صدق البدعة في الأمور العادية مقابل الأمور
الشرعية التي تعرفت على معناها الواسع، أو لا يقع؟ وبما أنك وقفت على حدود
البدعة، وأنها عبارة عن الزيادة أو النقيصة في الشريعة والتدخل في الأمور
الدينية، فلا تصدق في مورد الأمور العادية بأي نحو كانت، إذ ليست هي أموراً
تمت إلى الشرع، فأمرها يدور بين الجائز والحرام لا بين البدعة والسنة. وليس كل

حرام بدعة، وإليك التوضيح:
إن لكل قوم آداباً خاصة في لقاءاتهم السنوية، وأمورهم العمرانية، وفي كيفية استغلال الطبيعة، فمثلاً ربما تقتضي مصلحتهم تخصيص يوم واحد لتكريم زعيمهم، أو يوم واحد للبراءة من عدوهم، أو توجب المصالح تطوير خدماتهم العمرانية وما ضاهاها، أو استخدام أجهزة حديثة لاستغلال الطبيعة، فقد ترك الشارع هذه الأمور إلى الناس، ولم يتدخل فيها إلا بوضع الأطر العامة لها، وهي أن لا يكون العمل مخالفاً للقواعد والضوابط العامة، ولولا هذه المرونة لما كان الإسلام ديناً عالمياً سائداً، ولتوقفت حركته منذ أقدم العصور، ونأتي بمثال لمزيد من التوضيح: قد حدثت في العصور الأخيرة عدة تقاليد في ميدان الألعاب الرياضية، ككرة القدم، والسلة، والطائرة، والمصارعة، والملاكمة، وغير ذلك فيما أنها أمور عادية محدثة فلا تعد بدعة في الدين. ولو صح إطلاق البدعة فإنما هو باعتبار المعنى اللغوي، أي الشيء الجديد في ميادين الحياة، لا في الأمور الشرعية، غاية الأمر يجب أن تحدد شرعيتها بالضوابط الكلية، بأن لا يكون هناك اختلاط بين الرجال والنساء من اللاعبين، وأن لا يكون هناك ضرر وإضرار كما هو المحتمل في الملاكمة.

والحاصل: أن الأصل في الأمور العادية هو البراءة حتى يدل دليل على خلافه. وقد صرح بذلك لفيف من العلماء منهم ابن تيمية، يقول: إن أعمال الخلق تنقسم إلى قسمين:

١ - عبادات (١): يتخذونها ديناً ينتفعون بها في الآخرة أو في الدنيا والآخرة، والأصل أن لا يشرع منها إلا ما شرع الله.

(١) يريد من العبادات: الأمور الشرعية من دون أن تختص بما يعتبر في امتثالها قصد القربة.

٢ - عادات: ينتفعون بها في معاشهم، والأصل فيها أن لا يحظر فيها إلا ما حذر الله " (١).

ثم إنه لو أتى في العادات بما حذر الله لا تعد بدعة بل يكون محرماً، لأن المفروض أنه يأتي به ويحدثه باسم التقاليد لا باسم الدين، وربما يعترف بكونه على خلاف الدين، كماشارك النساء السفارات في الضيافة مع الرجال. حتى وإن صار الأمر العادي المحرم رائجاً بينهم.

نعم شد قول الدكتور عزت علي في المقام حيث يقول: " فيما حذر الله منها إذا كان من الأمور المحدثه كان بدعة " (٢).

لكن يلاحظ عليه، بما ذكرناه في تحديد البدعة بتضافر الكتاب والسنة على كونه التدخل في أمر الشريعة بالزيادة أو النقيصة وتنسيبه إلى الشارع، وهذا لا يصدق على كل محدث في الأمور العادية، وإن كان محرماً، نعم هو بدعة بالمعنى اللغوي، حتى لو صار عمله الإجرامي سنة سيئة يكون عليه وزر كل من عمله بها، لكن لا بما أنه أبداع في الدين، وتدخل في الشريعة، وقد مر نص في تفسير قوله (صلى الله عليه وآله): " من سن سنة حسنة... " ما يفيدك في المقام. قال الشيخ شلتوت: " التكاليف الشرعية تنقسم إلى عقائد وعبادات ومحرمات (٣)، ثم قال: أما ما لم يتعبدنا (٤) الله بشيء منه، وإنما فوض لنا الأمر فيه باختيار ما نراه موافقاً لمصلحتنا، ومحققاً لخيرنا بحسب العصور والبيئات، فإن التصرف فيه بالتنظيم أو التغيير، لا يكون من الابتداع الذي يؤثر على تدين

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١٢٩.

(٢) البدعة: ٢٦٥.

(٣) لا يخفى ما من المسامحة في هذا الحصر، لأن التكاليف الشرعية أوسع من الثلاثة كالأحوال الشخصية.

(٤) يريد من التعبد، ما للشارع فيه دور، فيعم جميع أبواب الفقه والأقسام الأربعة.

الإِنسان وعلاقته بربه، بل أن الابتداع فيه من مقتضيات التطور الزمني الذي لا يسمح بالوقوف عند حد الموروث من وسائل الحياة عن الآباء والأجداد (١).
الإسلام بين التزمّت والتحلل من القيود الشرعية
إن بين المسلمين من يريد حصر الأمور السائغة بما هو موجود في عصر الرسول الأكرم، لذا يعد نخل الدقيق بدعة، بحجة أنه لم يكن في عصره (صلى الله عليه وآله) أي منخل (٢). وبين من يريد التحلل من كل قيد ديني في مجال العمل، فلا يلتزم في حياته بشيء مما جاء به الإسلام.
فالإسلام لا هذا ولا ذلك، فهو يرفض التزمّت إذا كان العمل غير خارج عن الأطر العامة الواردة في الكتاب والسنة، كما يرفض التحلل من كل قيد. فأفة الدين ليست منحصرة بالثاني بل آفة الأول ليست بأقل منه.
فإن حصر الجائز من الأمور العادية بما كان رائجا في عصر النبي أو عصر الصحابة كبت للعقول، وتقييد للحركة الحضارية عن التقدم نحو الكمال. وإظهار الإسلام بأنه غير قابل للتطبيق في جميع الأعصار المتقدمة فضلا عن عصر الذرة. علما أن من الأسباب التي أوجبت خلود الدين الإسلامي، وأعطته الصلاحية للبقاء مع اختلاف الظروف وتعاقب الأجيال كونه دينا جامعا بين الدعوة إلى المادة والدعوة إلى الروح، ودينا وسطا بين المادية البحتة والروحية المحضة، فقد آلف بتعاليمه القيمة بينهما، مؤلفة تفي بحق كل منهما، بحيث يتيح للإنسان أن يأخذ قسطه من كل منهما بقدر ما تقتضيه المصلحة.
وذلك أن المسيحية غالت في التوجه إلى الناحية الروحية، حتى كادت أن

(١) الفتاوى: ١٦٣.

(٢) الإعتصام ٢: ٧٣.

تجعل كل مظهر من مظاهر الحياة المادية خطيئة كبرى، فدعت إلى الرهبانية، وترك ملاذ الحياة، والانعزال عن المجتمع، والعيش في الأديرة وقلل الجبال، وتحمل الظلم والرفق مع المعتدين، كما غالت اليهودية في الانكباب على المادة حتى نسيت كل قيمة روحية وجعلت الحصول على المادة بأي وسيلة كانت، المقصد الأسمى، ودعت إلى القومية العاشمة والطائفية المقيتة.

وهذه المبادئ سواء أصحت عن الكليم والمسيح (عليهما السلام) أم لم تصح (ولن تصح إلا

أن يكون لإنقاذ الشعب الإسرائيلي من ملاذ الحياة يوم ذاك وإنجائهم عن التوغل في الماديات، وسحبهم إلى المعنويات بشدة وعنف.

وإن شئت قلت: كانت تعاليمه إصلاحاً مؤقتاً لإسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسدوا أخلاقهم، وآثروا دنياهم على دينهم) هذه المبادئ لا تتماشى مع الحضارات الإنسانية التقدمية ولا تسعدها في معترك الحياة، ولا تتلاءم مع حكم العقل ولا الفطرة السليمة.

لكن الإسلام جاء لينظر إلى واقع الإنسان، بما هو كائن، لا غنى له عن المادة، ولا عن الحياة الروحية، فأولاهما عنايته، ودعا إلى المادة والالتذاذ بها بشكل لا يضر بالحياة الروحية، كما دعا إلى حياة روحية لا تصطدم مع الفطرة وطبيعتها. هذه هي حقيقة الإسلام ومرونته وسبب تماشيه مع الحضارات المختلفة حتى حضارة اليوم الصناعية، فلو حصرنا الجائز من العاديات بما في عصر النبي تكون النتيجة حياد الإسلام عن الساحة، وبطلانه، مع أنه خاتم الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبيه خاتم النبيين.

والآن هلم معي ندرس آراء المتمزتين في الأمور العادية ثم نبكي على الإسلام وأهله:

١ - يقول الشاطبي: إن من السلف من يرشد كلامه إلى أن العاديات كالعبادات، فكما أننا مأمورون في العبادات بأن لا نحدث فيها فكذلك العاديات،

وهو ظاهر كلام محمد بن أسلم، حيث كره في سنة العقيدة مخالفة من قبله في أمر العاديين، وهو استعمال المناخل، مع العلم بأنه معقول المعنى نظرا - والله أعلم - إلى أن الأمر باتباع الأولين على العموم غلب عليه جهة التعبد، ويظهر أيضا من كلام من قال: أول ما أحدث الناس بعد رسول الله المناخل (١).

٢ - يحكى عن الربيع بن أبي راشد، أنه قال: لولا أنني أخاف من كان قبلي لكانت الجبانة مسكني إلى أن أموت، إذ السكنى أمر عادي بلا إشكال، ثم يقول: وعلى هذا الترتيب يكون قسم العاديات داخلا في قسم العباديات، فدخول الابتداء فيه ظاهر والأكثر على خلاف هذا (٢).

٣ - روى الغزالي: أن رجلا قال لأبي بكر بن عياش: " كيف أصبحت ؟" فما أجابه، قال: دعونا عن هذه البدعة (٣).

٤ - روى الشاطبي عن أبي مصعب صاحب مالك أنه قال: " قدم علينا ابن مهدي - يعني المدينة - فصلى ووضع رداءه بين يدي الصف، فلما سلم الإمام رmqه الناس بأبصارهم ورمقوا مالكا - وكان قد صلى خلف الإمام - فلما سلم قال: من هاهنا من الحرس؟ فجاءه نفسان، فقال: خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه.

فحبس، فقيل له: إنه ابن مهدي، فوجه إليه وقال: أما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك في الصف وشغلت المصلين بالنظر إليه، وأحدثت في مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله): " من أحدث في مسجدنا حدثا

فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ؟" فبكى ابن مهدي، وآلى على نفسه أن لا يفعل ذلك أبدا في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) ولا في غيره " (٤).

(١) الإعتصام ٢ : ٧٩.

(٢) الإعتصام ٢ : ٧٩.

(٣) إحياء العلوم ٢ : ٢٥١ كتاب العزلة.

(٤) الإعتصام ٢ : ٦٨.

٥ - حكى ابن وضاح قال: ثوب المؤذن بالمدينة في زمان مالك. فأرسل إليه مالك فجاءه، فقال له مالك: ما هذا الذي تفعل؟ فقال: أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر فيقوموا. فقال له مالك: لا تفعل، لا تحدث في بلدنا شيئاً لم يكن فيه، قد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) بهذا البلد عشر سنين وأبو بكر وعمر وعثمان فلم يفعلوا هذا،

فلا تحدث في بلدنا ما لم يكن فيه، فكف المؤذن عن ذلك وأقام زماناً، ثم إنه تنحنح في المنارة عند طلوع الفجر، فأرسل إليه مالك، فقال له: ما الذي تفعل؟ قال: أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر، فقال له: ألم أنهك أن لا تحدث عندنا ما لم يكن؟

فقال: إنما نهيتني عن التثويب. فقال له: لا تفعل. فكف زماناً. ثم جعل يضرب الأبواب، فأرسل إليه مالك.

فقال: ما هذا الذي تفعل؟ فقال: أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر، فقال له مالك: لا تفعل، لا تحدث في بلدنا ما لم يكن فيه (١).

ومراده من التثويب هو ما يقوله المؤذن بين الأذان والإقامة " قد قامت الصلاة " أو " حي على الصلاة " أو " حي على الفلاح " أو قوله " الصلاة يرحمكم الله " .

والعجب أن الشاطبي مع إمامته في الفقه ربما يتأثر أحياناً بهذه الكلمات فيقول: فتأمل كيف منع مالك من إحداث أمر يخف شأنه عند الناظر فيه بيادي الرأي، وجعله أمراً محدثاً، وقد قال في التثويب أنه ضلال وأنه بين، لأن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، ولم يسامح المؤذن في التنحنح ولا في ضرب الأبواب، لأن ذلك جدير بأن يتخذ سنة، كما منع من وضع رداء عبد الرحمن بن مهدي خوفاً من أن يكون حدثاً أحدثه.

(١) الإعتصام ٢: ٦٩.

٦ - يقول الشاطبي: وقد أحدث في المغرب المسمى بالمهدي تثويبا عند طلوع الفجر وهو قولهم " أصبح ولله الحمد " إشعارا بأن الفجر قد طلع، لإلزام الطاعة، وحضور الجماعة، وللغد ولكل ما يؤمرون به فيخصه هؤلاء المتأخرون تثويبا بالصلاة كالأذان، ونقل أيضا إلى أهل المغرب فصار ذلك كله سنة في المساجد إلى الآن. فإنا لله وإنا إليه راجعون (١).

هذه نماذج مما ذكره الشاطبي وغيره فتخيّلوها بدعة في الدين، وأين هذه من البدعة في الدين؟ أفترى هل يقوم أحد بهذه الأعمال الماضية باسم الدين، أو يقوم باسم الأمور العادية لتسهيل الأمور؟ ولو كان الجاهل يتلقاها أمرا دينيا فوباله على جهله لا على الفاعل. وقد اتفقنا مع الشاطبي في تحديد البدعة، وقد جعلها هو خاصة بالأمور الشرعية، ومع ذلك نسي هنا ما ذكره في مقام التحديد. نحن نفترض أن هذه الأعمال تتخذ سنة حسب مرور الأيام، ولكنها تكون سنة عادية، لا دينية، ولا يمنع عنها إذا كانت مصلحة ولم ينطبق عليها عنوان محرم. ولو تخيله الجاهل سننا دينية، فعلى العالم إرشاده، لا إعمال الضغط على المجتمع حتى يتنفر عن الإسلام وأهله ويوادعهما.

والسبب الوحيد لهذه الزلات والاشتباكات التي تشوش سمعة الإسلام، وتعرفه دينا متمزتا لا يقبل المرونة إنما هو جعل سيرة السلف وجودا وعدما معيارا للحق والباطل مكان الكتاب والسنة في ذلك، فأين هذه الغلظة من المرونة الملموسة من الكتاب والسنة، يقول سبحانه:

{وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل} (٢).

(١) الإعتصام ٢: ٧٠.

(٢) الحج: ٧٨.

{ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج } (١).
 { يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر } (٢).
 { ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا } (٣).
 فهذه الآيات تصرح بأن الله تعالى رفع عن أمة محمد الإصر، ولم يفرض عليهم حكما حرجا صعبا كما كان في الأمم الماضية.
 وقد ورد في حديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: " مما أعطى الله أمتي وفضلهم على سائر الأمم، أعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلا لنبي، وذلك أن الله تبارك وتعالى كان إذا بعث نبيا قال له: اجتهد في دينك ولا حرج عليك، وإن الله تبارك وتعالى أعطى ذلك لأمتي حيث يقول: { ما جعل عليكم في الدين من حرج } (٤).
 وظاهر هذا الحديث أن رفع الحرج الذي من الله به على هذه الأمة المرحومة كان في الأمم الماضية خاصا بالأنبياء، وأن الله أعطى هذه الأمة ما لم يعط إلا الأنبياء الماضين صلوات الله عليهم أجمعين.
 وسئل علي (عليه السلام): أيتوضأ من فضل وضوء جماعة المسلمين (أحب إليك) أو يتوضأ من ركو أبيض مخمر؟ فقال: " لا، بل من فضل وضوء جماعة المسلمين، فإن أحب دينكم إلى الله الحنيفية السمحة السهلة " (٥).
 واشتهر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: " بعثت بالحنيفية السمحة السهلة " (٦).
 إن الإسلام دين عالمي لا إقليمي، ودين خاتم ليس بعده دين. وقد انتشر

(١) المائدة: ٦.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) البقرة: ٢٨٦.

(٤) البرهان ٣: ١٠٥.

(٥) الوسائل ١: باب ٨ من أبواب الماء المضاف والمستعمل، ح ٣.

(٦) الكافي ١: ١٦٤.

الدين في المجتمعات البشرية بصورة سريعة وكانت لذلك أسباب وعلل، منها: يسر التكاليف وسهولة الشريعة، فلو كان الإسلام خاضعا لهذا النوع من التزم ولما يتغناه ابن الحاج (١) من سمادير الأهازيج في كتابه المدخل، لقرئ السلام على الإسلام من أول يومه، فهذا الرجل أخذ يحدث ألوانا من شتى الأباطيل ويفترها ويسميتها بدعة مع أنها لا تمت لها بصلة، بل تدور بين كونها إما أمورا عادية خارجة عن موضوع البدعة بتاتا، وإما أمورا شرعية لها دليلها العام وإن لم يكن لها دليل خاص، وسيوافيك توضيح القسم الأخير في الفصل القادم. يقول ابن الحاج:

١ - المرواح في المساجد من البدع وقد منعها علماؤنا رحمة الله عليهم، إذ أن اتخاذها في المساجد بدعة (٢).

٢ - إن فرش البسط والسجادات قبل مجئ أصحابها من البدع المحدثه وينبغي لإمام المسجد أن ينهى الناس عما أحدثوه من إرسال البسط والسجادات وغيرها قبل أن يأتي أصحابها (٣).

٣ - إلى أن جاء ابن الحاج يحدد ثمن اللباس الذي يجوز لبسه ويقول: أثمان أثوابهم القمص من الخمس إلى العشر وما بينهما من الأثمان، وكان جمهور العلماء وخيار التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين والثلاثين، وكان بعض العلماء يكره أن يكون على الرجل من الثياب ما يجاوز قيمته أربعين درهما وبعضهم إلى المائة ويعده إسرافا فيما جاوزها، وعلى ذلك فهو من البدع الحادثة بعدهم (٤).

(١) المدخل: أبو عبد الله العبدري المالكي المتوفى سنة ٧٣٧ ومع ذلك له كلمة قيمة في زيارة القبور، لاحظ ١: ٢٥٤.

(٢) المدخل ٢: ٢١٢، ٢٢٤.

(٣) المدخل ٢: ٢١٢، ٢٢٤.

(٤) المدخل ٢: ٢٣٨.

٤ - لا بد من ترك فرش السجادة على المنبر لأنها ليست موضعا للصلاة (١).
هذه نماذج من أفكار الرجل حول البدعة، أفترى أن الإسلام الذي يعرفه هذا
الرجل المتزمت مما يصلح نشره في العالم، ويصلح لدعوة المثقفين والمفكرين إليه،
وهل هذا هو الإسلام الذي يصفه النبي (صلى الله عليه وآله) بالحنيفية السمحة
السهلة؟!!

الأصل في العادات الإباحة

كان على هؤلاء الذين يتحدثون باسم الإسلام أن يدرسوا الكتاب والسنة
ويقفوا على أن الأصل في العادات الإباحة ما لم يدل دليل على خلافها، فإن كل ما
ذكره من الأمور عادية حتى سكب ماء الورد على قبر الميت احتراماً له، من هذه
الأمور التي يتصورها ابن الحاج من البدعة والأصل فيها الإباحة لا الحظر، فإن
الحكم بالحظر بدعة، صدر من القائل (٢).

يقول سبحانه: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} (٣) ويقول: {وما كان
ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا} (٤) ومعنى الآيتين أنه ليس من
شأن الله أن يعذب الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث رسولا، وليست لبعث الرسول
خصوصية وموضوعية. ولو أنيط جواز العذاب ببعثهم فإنما هو لأجل كونهم
وسائط للبيان والإبلاغ، والملاك هو عدم جواز التعذيب بلا بيان وإبلاغ، فتكون
النتيجة أنه لا يحكم على حرمة شيء قبل بيان حكمه ووصوله إلى يد المكلف.
وهذه الأمور التي أضفى ابن الحاج عليها اسم البدعة، كلها أمور عادية ما ورد
النهي عنها، مثلاً:

(١) المدخل ٢: ٢٦٤.

(٢) أنظر الإعتصام ٢: ٧٩ - ٨٢.

(٣) الإسراء: ١٥.

(٤) القصص: ٥٩.

إذا شككنا أن لعبة كرة القدم أو الاستماع إلى الإذاعة هل هما جائزان أو لا؟
فالأصل بعد التبع وعدم العثور على الدليل المحرم، هو الحلية. فبذلك علم أن جميع العادات من قول أو فعل فهو محكوم بالإباحة ما لم نجد نصاً على تحريمه في الكتاب والسنة، سواء أكان حادثاً أم غير حادث، سواء أصارت سنة أم لا، ما لم ينطبق عليه عنوان خاص أو أحد العناوين الكلية المحرمة كـ "الإسراف" و "الإعانة على الإثم" و "تقوية شوكة الكفار" و "الإضرار بالمسلمين" و "الإضرار بالنفس والنفيس"، تعد أمراً مباحاً. وعلى أساس ذلك فإن جميع المصنوعات الحديثة التي هي من نتائج التقدم الحضاري التكنولوجي، مثل الهاتف والتلغراف والتلفزيون والسيارة والطائرة وما شابهها، واستخداماتها المتعارفة، محكومة بالحلية والإباحة لعدم وجود نص خاص على تحريمها في الكتاب والسنة، ولعدم انطباق أحد العناوين العامة المحرمة عليها.

وقد كان معظم المشايخ المتزمتمين يحرمون كل ذلك في بدء حركتهم ودعوتهم أيام "عبد العزيز" ولكنهم عندما أزيحوا عن منصة الحكم، وحل الآخرون محلهم أباحوه وصاروا يتحدثون في الإذاعة والتلفزيون، ويستخدمون كل معطيات الحضارة الحديثة، ويحللون كل أشيائها واستخداماتها.

فإذا كان قول الرجل "كيف أصبحت" وإدخال المراوح إلى المساجد، وفرش البسط في المساجد وعلى المنابر ولبس ما زادت قيمته على ما حدده، وسكب ماء الورد على القبر من البدع، فعلى الإسلام السلام.

ثم إن بعض ما عده ابن الحاج من الأمور الدينية من البدع يتصور أنه لم يكن بين السلف، مردود بوجود دليل عليه في الشرع وهذا ما سندرسه في المبحث القادم.

٣ - تقسيم البدعة إلى حقيقية وإضافية
هذا التقسيم ذكره الشاطبي في كتابه، وعرف البدعة الحقيقية: بأنها ما لم يدل
عليها دليل شرعي لا من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا استدلال معتبر عند أهل
العلم، لا في الجملة ولا في التفصيل. وإن ادعى مبتدعها ومن تابعه أنها داخلة فيما
استنبط من الأدلة، لأن ما استند إليه شبه واهية لا قيمة لها.
أما البدعة الإضافية فقد عرفها بأنها ما لها شائبتان:
إحدهما: لها من الأدلة متعلق فلا تكون من تلك الجهة بدعة.
والأخرى: ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية، أي أنها بالنسبة
لإحدى الجهتين سنة لاستنادها إلى دليل، وبالنسبة للجهة الأخرى بدعة لأنها
مستندة إلى شبهة، لا إلى دليل، أو لأنها غير مستندة إلى شيء.
وسميت إضافية لأنها لم تتخلص لأحد الطرفين: (المخالفة الصريحة) أو
(الموافقة الصريحة) (١).
أقول: قد تقدم البحث عن البدعة الحقيقية فلا حاجة إلى إيضاها من جديد،
فإن تحريم الحلال أو تحليل الحرام استنادا إلى شبه واهية أو بلا شبهة بدعة
حقيقية، وقد مرت الأمثلة فيما سبق، والمهم إيضاح المقصود من البدعة الإضافية
التي لها شائبتان، التي من جهة تشبه السنة ومن جهة تشبه البدعة، وتتضح
بالأمثلة التالية التي ذكرها الشاطبي نفسه:
١ - تخصيص يوم أو أيام، غير ما نهى الشارع عن صومه أو ندب إلى صومه،
بالصوم والمداومة عليه.

(١) الإعتصام ١: ٢٨٦ - ٢٨٧.

٢ - تخصيص الأيام الفاضلة بأنواع من العبادات لم تشرع لها خصوصا، كتخصيص اليوم الفلاني بكذا وكذا من الركعات، أو بصدقة كذا وكذا، أو الليلة الفلانية بكذا وكذا من الركعات، أو قراءة القرآن أو الذكر، فإن ذلك التخصيص والعمل به إذا لم يكن بحكم الوفاق، أو بقصد يقصد مثله أهل العقل والفراغ والنشاط، كان تشريعا زائدا.

٣ - ومن ذلك تحري ختم القرآن في بعض ليالي رمضان أو قراءة القرآن أو الدعاء بهيئة الاجتماع في عشية يوم عرفة في المسجد تشبها بأهل عرفة ونحو ذلك.

٤ - ومن ذلك الأذان والإقامة في صلاة العيدين.

والسبب في كون هذه الأمور بدعا وجوه ذكرها الشاطبي:

أولا: أن فيها تخصيصا بغير مخصص من الشرع، وقد أصبحت بهذا التخصيص غير ما كانت عليه بدونه، فكما أن الصلاة المفروضة لا تصح قبل الوقت مع كونها هي هي، لوقوعها في غير وقتها المخصص لها، فكذلك ما تقدم من الأمثلة بما انضم إليها من الأوصاف غير الواردة تصير غير مشروعة. ثانيا: أن مثل هذه الأمور عمل اشتبه أمره، أهو بدعة فينهى عنه أم غير بدعة فيعمل به؟ ومثل هذا جاء الأمر بالتوقي فيه، والاحتراز منه، كما يجب التوقف عن تناول اللحم المشتبه فيه.

ثالثا: مخالفة السنة، حيث ترك مثل هذا العمل مع ظهور ما يقتضي فعله في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، وعلى فرض أنه وقع في بعض الأحيان فالأمر الأشهر

والأكثر عدم فعله، كما في سجود الشكر، حيث لم يداوم الرسول (صلى الله عليه وآله) وأصحابه عليه وإن ورد.

رابعا: أن العمل بمثل هذه الأمور قد يؤدي إلى اعتقاد ما ليس بسنة سنة،

وكذلك فالمداومة على فعل لم يداوم عليه الرسول (صلى الله عليه وآله) قد تؤدي إلى اعتقاد النافلة

سنة، وهذا فساد عظيم، لأن اعتقاد ما ليس بسنة سنة، والعمل به على حد العمل بالسنة نحو من تبديل الشريعة، وعلى ذلك كان قطع عمر للشجرة التي يتبرك بها الصحابة، ونهيه الصحابي عن الإحرام من بلده، ونحو ذلك، ونهيه عن إتيان المساجد التي صلى فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله). ولذلك كان مالك بن أنس وغيره من علماء

المدينة يكرهون إتيان تلك المساجد وتلك الآثار للنبي (صلى الله عليه وآله) ما عدا قباء وحده،

وأيضاً كان مالك يكره المجيء إلى بيت المقدس خيفة أن يتخذ ذلك سنة، وكان يكره مجيء قبور الشهداء، ويكره مجيء قباء خوفاً من ذلك (١).

يلاحظ على هذا التقسيم: إنه لا طائل فيه، ويعلم ذلك ببيان أمرين:

١ - شمول الدليل لجميع الحالات والكيفيات

إن مورد النقاش في ما إذا كان الدليل العمل العبادي إطلاقاً يعم جميع الصور والكيفيات، بأن كانت جميع الحالات والصور المتصورة له أمراً مسوغاً يشملها الدليل بإطلاقه أو عمومته وسعة دلالاته، مثلاً إذا دل الدليل على استحباب قراءة القرآن مطلقاً من غير تقييد بحالة خاصة فيعم جميع الحالات سواء أكانت بهيئة الانفراد أم بهيئة الاجتماع.

أو دل على استحباب قراءة الدعاء مطلقاً من يقين خاص فعم جميع الكيفيات.

وبعبارة أخرى: دل الدليل بإطلاقه بتسوية جميع الأقسام من غير تخصيص بتلاوة القرآن بصورة الانفراد أو بهيئة الاجتماع ومثله دليل الدعاء. ومثل ذلك إقامة الصلاة في المساجد، فالدليل يشمل جميع المساجد سواء

(١) الإعتصام ج ١، الباب الخامس.

أصلى فيها النبي (صلى الله عليه وآله) أو لم يصل، وسواء أقيمت الصلاة فيها يوما أو أياما أو طول السنة أو لا، وهكذا سائر الأمثلة، فلو نفترض عدم وجود إطلاق للدليل فهو خارج عن حريم البحث.

٢ - التداوم على هيئة أو فرد لا يرجع إلى تخصيص التشريع إن اختيار كيفية خاصة، كالدعاء بهيئة الاجتماع أو تخصيص يوم في الأسبوع للصوم، لا يعني تخصيص التشريع بالفرد المختار وإن السائغ هو لا غير، بل العامل يعتقد أن جميع الصور والكيفيات، سائغة، وفي الوقت نفسه يختار كيفية أو فردا خاصا لأجل أنه أوفق بنشاطه وبالعوامل المحيطة به. وبعبارة أخرى: لا يلتزم بكيفية خاصة إلا لأجل أن يتلاءم مع نشاطه ويساعده على تحقيق غرضه، مع الاعتراف بأن جميع الكيفيات من حيث الفضيلة سواء.

إذا تعرفت على الأمرين تقف على أن الأمثلة التي قدمها الشاطبي مثلا للبدعة الإضافية هي إما بدعة حقيقية أو سنة حقيقية، فلو افترضنا عدم إطلاق الدليل للكيفية التي اختارها العامل أو كان له إطلاق، ولكنه يخصص التشريع بمختاره، وينفي غيره فيكون عمله هذا مصداقا للبدعة الحقيقية.

وأما إذا لم يكن هناك قصور في سعة الدليل، أو لم يكن في نيته أي تخصيص وتدخل في أمر الشريعة، وإنما كان الاختيار لملاكات اتفاقية، فلا يعد العمل بدعة، إذ لم يكن تدخلا في أمر الشارع. وبذلك يظهر حكم الأمثلة، كتخصيص يوم أو أيام - غير ما نهى عن صيامه - بالصوم، أو كتخصيص يوم بنوع من العبادة، كقضاء الصلوات الواجبة التي فاتت منه، أو ختم القرآن بهيئة الاجتماع مطلقا، أو في يوم عرفة، فإن سعة رقعة الدليل كافية في كونها سنة إذا لم يكن من قصده نفي

سائر الكيفيات بل كان التخصيص تابعا لعوامل داخلية في حياة الإنسان.
وأما الأسباب التي اتخذها ذريعة للحكم بالبدعة فإليك دراستها:
أما السبب الأول: أعني قوله: " إن فيها تخصيصا بغير مخصص من الشرع " فغير مضر، إذ التخصيص إنما يكون بدعة إذا نسبه إلى الشرع، دون ما كان نتيجة ظروف فرضت عليه اختيار هذا الفرد مع الاعتراف بأنه مثل سائر الأفراد.
وأما السبب الثاني: أعني قوله: " إن مثل هذه الأمور عمل اشتبه أمره... " فهو مثل الأول، فإنه مشتبه لمن لم يدرس البدعة حقها دون من درسها.
وأما السبب الثالث: أعني قوله: " مخالفة السنة حيث ترك مثل هذا العمل... " فذلك لأن تركهم لا يكون حجة على كون العمل بدعة بعد افتراض سعة رقعة الدليل، وتركهم فردا خاصا لا يدل على عدم مشروعيته، إذ لم يكونوا يعانون من الإتيان بسائر الأفراد فلأجله تركوا ذلك الفرد، بخلاف الإنسان الذي فرضت الظروف عليه مداومة هذا الفرد أو كان نشاطه محفوظا فيه دون سائر الأفراد. ولو صح ما ذكره يجب ترك المسنونات أحيانا، لئلا يتخيل الجاهل أنها فريضة، فعلى من يرى القبض في الصلاة سنة، تركه في حين بعد حين، دفعا لعادية الجهل.

وعلى من يقيم صلاة التراويح جماعة تركها والإتيان بها فرادى، لئلا يعتقد الجاهل أن التشريع مختص بالجماعة. إلى غير ذلك من المضاعفات التي لا يلتزم بها الشاطبي وغيره.

فجهل الجاهل، لا يكون سببا لترك المسنون، لأنه لو قصر في التعليم فما ذنب من يريد الإتيان به وإنما علينا دفع عاديته. وبذلك يظهر حسن إتيان المساجد التي صلى النبي فيها، وذلك لعموم الدليل الشامل لتمام المساجد التي صلى فيها أم لم يصل، وإنما يختار ذلك لأجل التبرك الذي تضافر النص بجوازه، وليس تخصيصها

بالعبادة، بمعنى ورود النص بها بالخصوص، وإنما يختارها لغرض آخر وهو التبرك. وأما كراهة مالك المجيء إلى بيت المقدس، فهو على خلاف السنة، حيث رخص النبي السفر إليه، كما سيوافيك عند البحث عن شد الرحال إلى زيارة قبر النبي.

ومنه تظهر حال كراهة زيارة قبور الشهداء، أو المجيء إلى مسجد قباء، فإنه إعراض عن السنة التي رسمها النبي، حيث أمر بزيارة القبور، وكان يجيء إلى مسجد قباء كل أسبوع مرة ويصلي فيه.

وما أجمل قول الإمام الصادق: " إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق " (١). قال التفتازاني: " ومن الجهلة من يجعل كل أمر لم يكن في زمن الصحابة بدعة مذمومة، وإن لم يقم دليل على قبحه تمسكا بقوله (عليه السلام): " إياكم ومحدثات الأمور "

ولا يعلمون أن المراد بذلك هو أن يجعل في الدين ما ليس منه. عصمنا الله من اتباع الهوى، وثبتنا على اقتفاء الهدى بالنبي وآله " (٢).

وأما السبب الرابع: أعني قوله: " انتهاء هذا العمل إلى اعتقاد ما ليس بسنة سنة " فهو أيضا مثله، فإنه يجب على العالم إرشاد الجاهل لا ترك العمل الذي دل الشرع على جوازه بالإطلاق والعموم.

(١) الكافي ٢: ١٦ / ١.
(٢) شرح المقاصد ٥: ٢٣٢.

المبحث السابع
لا بدعة فيما فيه الدليل نصا أو إطلاقا
عرفت أن حقيقة البدعة هي الافتراء على الله والفرية عليه، بإدخال شيء في
دينه أو نقضه منه، ونسبته إلى الله ورسوله. فإذا كان هذا هو الملاك فكل مورد يدل
عليه الدليل يكون خارجا عن البدعة موضوعا.
والدليل على قسمين:

الأول: أن يكون هناك نص في القرآن يشخص المورد وحدوده وتفصيله
وجزئياته، كالاحتفال بعيدي الفطر والأضحى، والاجتماع في عرفة ومنى، فعندئذ
لا يكون هذا الاحتفال والاجتماع بدعة، بل سنة قد أمر بها الشارع بالخصوص،
فيكون إتيان العمل امتثالا، لا ابتداعا.

الثاني: أن يكون هناك دليل عام في المصدرين الرئيسيين يشمل بعمومه
المصداق الحادث، وإن كان الحادث يتحد مع الموجود في عهد الرسالة حقيقة
وماهية، ويختلف معه شكلا، ولكن الدليل العام يعم المصداقين ويشمل المورد
ويكون حجة فيهما. وإليك بعض الأمثلة:

١ - قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

ترحمون} (١) والآية تأمر باستماع القرآن عند قراءته والإنصات له، والمصداق الموجود لها في ظرف الرسالة هو استماع القرآن مباشرة من فم القارئ الذي يقرأ القرآن في المسجد أو في البيت، ولكن الحضارة الصناعية أحدثت مصداقا آخر لم يكن موجودا في ظرف الرسالة، كقراءة القرآن من خلال المذياع والإذاعة المرئية، فالآية حجة في كلا الموردین، وليس لنا ترك الاستماع والإنصات في القسم الثاني، بحجة أنه لم يكن في ظرف الرسالة، وذلك لأن العربي الصميم عندما يتدبر في مفهوم الآية لا يرى فرقا بين القراءتين، فلو قلنا حينئذ بوجوب الاستماع أو ندبه فليس هذا قولاً بغير دليل، أو بدعة في الدين.

٢ - قال النبي الأكرم: " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (٢) ومن الواضح أن العلوم حتى ما يمت إلى الشرع، كانت في ظرف صدور الحديث محدودة، ولكن المحدودية لا تمنع عن شمول الحديث للعلوم التي ابتكرها المسلمون لفهم الكتاب والسنة، كعلم اللغة والصرف والنحو والبلاغة، بل والفقهاء المدون عبر العصور، وذلك لأن الحديث بصدد تأسيس قاعدة كلية، فليس لمسلم أن يصف هذه العلوم بالبدعة بحجة أنها لم تكن في عصر الرسالة، لأن شأن الشارع الصادق إلقاء الأصول وبيان القواعد والضوابط لا بيان المصايق، وبالأخص ما لم يكن في عصره.

٣ - لا شك أن من واجب المسلمين حفظ القرآن والسنة النبوية من الضياع، لأن الإسلام ليس ديناً إقليمياً بل ديناً عالمياً وليس ديناً مؤقتاً بل خاتماً، فطبيعة ذلك الدين تقتضي لزوم حفظ نصوصه وسنته حتى ترجع إليها الأجيال اللاحقة.

(١) الأعراف: ٢٠٤.

(٢) مجمع الزوائد ١: ١٩.

وعندما التحق النبي بالرفيق الأعلى ورأى المسلمون أن من واجبه حفظ القرآن من الضياع خصوصا بعدما لحقت بالمسلمين في الحروب خسارة كبيرة باستشهاد مجموعة كبيرة من القراء، فصار الحكم الكلي (لزوم حفظ القرآن) مبدأ لإجراء عمليات مختلفة عبر الزمان، وكلها أمور دينية مستمدة من الحكم الكلي، أي لزوم حفظ القرآن والسنة، فعمدوا إلى كتابة القرآن وتنقيطه وإعراب كلمه وجمله، وعد آياته وتمييزها بالنقاط الحمراء، وأخيرا طباعته ونشره، وتشجيع حفاظه وقراءه وتكريمهم في احتفالات خاصة، إلى غير ذلك من الأمور التي تعتبر كلها دعما لحفظ القرآن وتثبيته، وإن لم يفعل بعضها رسول الله ولا أصحابه ولا التابعون، إذ يكفينا وجود أصل له في الأدلة.

٤ - إن من واجب المسلمين الاستعداد الكامل أمام هجمات الكفار، وأخذ الحيطة والحذر في كل ما يحتمل خطره عليهم، يقول سبحانه: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم} (١) ففي الآية نوعان من الدليل: خاصان في مورد رباط الخيل، فلو جهزت الحكومة الإسلامية جندها بالخيل فقد امتثلت الأمر الإلهي، كما إذا تسلحت بالغواصات والأساطيل البحرية والطائرات المقاتلة إلى غير ذلك من وسائل الدفاع، فقد جسدت الآية وطبقته على مصاديقها التي لم تكن موجودة في عصر النبي، وإنما حدثت بعده. فهذه الموارد كلها أمور شرعية غير عادية، بشهادة أن الإنسان يقوم بها بنية امتثال ما ورد في الشرع، وليس للمتمزم أن يرفضها بحجة أنه ليس هنا دليل خاص عليها، وذلك لأن اللازم في نفي البدعة لزوم الدليل عاما أو خاصا، لا وجود دليل خاص، فالدليل العام بعمومه حجة في جميع الأجيال على جميع الناس في كل

(١) الأنفال: ٦٠.

الموارد التي تجسد الضابطة الكلية.

٥ - قال رسول الله: " إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه " (١).
وغير خفي على القارئ النابه أن كيفية التعليم في عصر الرسالة تختلف كثيرا
عن عصرنا، فكلا العاملين يعدان تعليما وتجسيدا لكلام الرسول يقصد به رضا الله
سبحانه وتقربه إليه، وليس للمتمزمت رفض الأساليب الحادثة لتعلم الكتاب
والسنة.

والحق أن هذا الموقف موضع زلة لأكثر من يصف عمل المسلمين في بعض
الموارد بالبدعة، بحجة عدم وجود دليل خاص عليه، فقد ضلوا ولم يميزوا بين
الدليل الخاص والدليل العام. وخصوا الدليل بالأول، مع أن الكتاب والسنة
مليئان بالضوابط والقوانين العامة وإليك بعض الأمثلة:

أ - قال سبحانه: {لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا} (٢) فالآية
تنفي أي سبيل للكافر على المؤمن، ومن المعلوم أن السبيل تختلف حسب تطور
الحضارات، وكثرة المواصلات، وتشعب العلاقات بين الناس. ففي عصر الرسالة
كان السبيل السائد هو تسلط الفرد الكافر على المسلم، ككون العبد المسلم رقا
للكافر، أو تمليك المصحف منه وما قاربهما، وأما في عصرنا هذا، فحدث عن
السبيل ولا حرج، فأين هو من تدخل الكفار في مصير المسلمين حكومة وشعبا
حتى صار رؤساء الحكومات الإسلامية أسرى بيد الاستكبار العالمي.
ب - يقول سبحانه: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان} (٣) فإن التعاون الموجود في العصور السابقة كان محدودا في إطار ضيق،

(١) البخاري، الصحيح ٢: ١٥٨، لاحظ سنن الترمذي رقم ٣٠٧١ وغيرهما.

(٢) النساء: ١٤١.

(٣) المائدة: ٢.

وأكثر ما كان يتحقق منه هو اشتراك جمع من مدينة واحدة أو من قبيلة معينة على أن يتعاونوا فيما بينهم، وأين هذا من التعاون السائد في عصرنا هذا كتعاون دول المنطقة على إجراء مشروع مفيد للمنطقة، أو تعاونهم على ضرب حكومة إسلامية فتية خوفا على كراسيهم ومناصبهم.

ولو أن المتزمتين درسوا هذا البحث دراسة عميقة لربما خمدت ثورتهم ضد المسلمين الذين يعملون الخير امتثالا لحكم الدين.

لقد كان في التاريخ الإسلامي أناس يفهمون - بصفاء أذهانهم وخلوص قرائحهم - أن ما ورد في الكتاب والسنة من وصفه سبحانه بصفات الجمال والكمال أسوة لما لم يرد، فللمسلم أن يدعو ربه بأوصاف جميلة وإن لم ترد حرفيا في الكتاب والسنة.

روى الطبراني: " أن النبي عليه الصلاة والسلام مر على أعرابي وهو يدعو في صلاته ويقول: " يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل، وأشرق عليه النهار، لا توارى سماء منه سماء، ولا أرض أرضا، ولا بحر ما في قعره، ولا جبل ما في وعره، اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك " .

فوكّل رسول الله بالأعرابي رجلا، وقال: إذا صلى فأتني به، وكان قد أهدى بعض الذهب إلى رسول الله، فلما جاء الأعرابي، وهب له الذهب، وقال له: تدري لم وهبت لك؟

قال الأعرابي: للرحم التي بيني وبينك.

قال الرسول الكريم: إن للرحم حقا، ولكن وهبت لك الذهب لحسن ثنائك
على الله " (١).
وأين هذا الكلام مما روي عن الشاذلي أنه قال: " من دعا بغير ما دعا به
رسول الله فهو مبتدع " (٢).

(١) تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل: ص ١٠٢.
(٢) روح البيان ٩: ٣٨٥.

المبحث الثامن

الخطوط العامة لتحسين الدين من الابتداع
كان النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يتنبأ ديب البدعة في دينه بعد رحيله، ويعلم أن
سماسرة

الأهواء سيثون بذور البدع في المجتمع الإسلامي. ولما كان الدين أعز شيء عند
الرسول (صلى الله عليه وآله)، وقد ضحى بالنفس والنفيس لأجله، وتحمل عبئا عظيما
في طريق

دعوته، لذا اتخذ عدة إجراءات لتحسينه من البدعة، نذكر منها ما يلي:

الأول: التحذير من البدع والمبتدعين

إن الخط الدفاعي الأول الذي وضعه رسول الله لحصانة دينه تمثل في ذم البدع
والمبتدعين، وتحذير المجتمع الإسلامي منهما، من خلال خطبه وأحاديثه البليغة،
وقد تعرفت على قسم منها في التقديم وبعده، وإليك بعضها:

قال رسول الله: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " (١).

وقال: " إياكم والبدع، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة تسير إلى النار " (٢).

(١) لاحظ كنز العمال ج ١ الحديث ١١٠١.

(٢) لاحظ كنز العمال ج ١ الحديث ١١١٣.

وقال: " أصحاب البدع كلاب النار " (١).
وقال: " أهل البدع شر الخلق والخلقة " (٢).
وقال: " يحى قوم يميئون السنة ويوغلون في الدين، فعلى أولئك لعنة الله
ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين " (٣).
وقال: " من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام " (٤).
وقال: " إذا رأيتم صاحب بدعة فاكفروا في وجهه " (٥).
إلى غير ذلك من الأحاديث البليغة التي تحذر المجتمع الإسلامي من البدعة
والمبتدعين الذين سيظهرون بعد رحيله، وبذلك أعطى بصيرة لمن خلفه لكي لا
يغترروا بكلام المبتدعين ويفتتنوا به.
الثاني: الإشارة إلى وجود الكذابة على لسانه
وقف النبي الأكرم على أن هناك أناسا في حياته أو بعد رحيله يكذبون أو
سيكذبون على لسانه، فيبدلون دينه، فقال في حديث يرشد المسلمين إلى وجود
الكذابين ليأخذوا حذرهم:
" من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار " (٦).
أو " من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار " (٧).
إن التاريخ يشهد بأن الأمة الإسلامية - في عصر الخلفاء - يوم اتسعت رقعة
البلاد الإسلامية واستوعبت شعوبا كثيرة، شهدت دخول جماعات عديدة من

(١ - ٥) لاحظ كنز العمال ج ١ الحديث ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١١٢٤، ١١٠٢، ١٦٧٦.
(٦ - ٧) البخاري، الصحيح ١: ٢٧، السنن لابن ماجه ١: ١٣، صحيح مسلم بشرح النووي: ٦٦١،
الترمذي
رقم ٢٧٩٦ إلى غير ذلك من المصادر.

أحبار اليهود وعلماء النصارى في الإسلام، مثل: كعب الأحرار، وتميم الداري،
ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، الذين تسللوا إلى صفوف المسلمين، وراحوا
يدسون الأحاديث الإسرائيلية، والخرافات والأساطير النصرانية في أحاديث
المسلمين وكتبهم وأذهانهم.

وقد ظلت هذه الأحاديث المختلقة، تخيم على أفكار المسلمين ردحا طويلا من
الزمن، وتؤثر في حياتهم العملية، وتوجهها الوجهة المخالفة لروح الإسلام الحنيف،
في غفلة من المسلمين وغفوتهم، ولم ينتبه إلى هذا الأمر الخطير إلا من عصمه الله،
كعلي (عليه السلام)، الذي راح يحذر المسلمين عن الأخذ بمثل هذه الأحاديث
المختلقة فقال:

" فلو علم الناس أنه منافق كاذب، لم يقبلوا منه ولم يصدقوا، ولكنهم قالوا:
صاحب رسول الله رآه وسمع منه ولقف عنه " (١).

نماذج وأرقام عن الأحاديث الموضوعة:

وحسبك لمعرفة ما أصاب المسلمين وما تعرضت له الأحاديث، ولمعرفة
الذين لعبوا هذا الدور الخبيث في غفلة من الأمة ما كتب في هذا الصدد مثل كتاب:

ميزان الاعتدال للذهبي.

وتهذيب التهذيب للعسقلاني.

ولسان الميزان للعسقلاني.

ونظائرها من الكتب التي صنفت في هذا المجال.

ولعل فيما قاله البخاري صاحب " الصحيح " المعروف، إشارة إلى طرف من

هذه الحقيقة المرة، حيث قال ابن حجر في مقدمة فتح الباري:

إن أبا علي الغساني روى عنه قال: خرجت الصحيح من ٦٠٠ ألف حديث (٢).

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢١٠.

(٢) الهدى الساري مقدمة فتح الباري: ص ٤.

وروى عنه الإسماعيلي أنه قال:
أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح (١).
ويعرب عن كثرة الموضوعات اختيار أئمة الحديث أخبار تآليفهم (الصحاح
والمسانيد) من أحاديث كثيرة هائلة، والصفح عن غيرها، وقد أتى أبو داود في
سننه بأربعة آلاف وثمانمائة حديثا وقال: انتخبته من خمسمائة ألف حديث (٢).
ويحتوي صحيح البخاري من الخالص بلا تكرار على ألفي حديث وسبعمائة
وواحد وستين حديثا اختاره من زهاء ستمائة ألف حديث (٣).
وفي صحيح مسلم أربعة آلاف حديث أصول دون المكررات، صنفه من
ثلاثمائة ألف (٤).

وذكر أحمد في مسنده ثلاثين ألف حديث، وقد انتخبه من أكثر من سبعمائة
وخمسين ألف حديث، وكان يحفظ ألف ألف حديث (٥).
وقد قام الباحث الكبير المجاهد العلامة الأميني في موسوعته (الغدير) - الجزء
الخامس - باستخراج أسماء الكذابين والوضاعين للحديث على حسب الحروف
الهجائية فبلغ عددهم ٧٠٠، وما قام به رحمه الله، وإن كان عملا كبيرا يشكر عليه،
غير أنه لو قامت بهذا الأمر لجنة من الباحثين لعثروا على أضعاف ما ذكره ذلك
البحاث الكبير.

وكان تحذير النبي الأكرم من الدجالين الكذابين وشيوع الكذب على لسانه
سببا لقيام العلماء بوضع علم الرجال وبيان مقاييس يميز به الصحيح عن السقيم.

-
- (١) الهدى الساري مقدمة فتح الباري: ص ٥.
(٢) طبقات الحفاظ للذهبي ٢: ١٥٤، تاريخ بغداد ٩: ٥٧.
(٣) إرشاد الساري ١: ٢٠٨، صفوة الصفوة ٤: ١٤٣.
(٤) طبقات الحفاظ ٢: ١٥١، ١٥٧، شرح صحيح مسلم للنووي ١: ٣٢.
(٥) طبقات الحفاظ ٩: ١٧.

وقال: وقد تنبأ الرسول بما سيصيب سنته الشريفة ويصيب المسلمين فيما بعد على أيدي الكذابين ووضاعي الحديث وأعداء الإسلام، وفي الوقت نفسه أخبر عمن يقف في وجه هذا الخطر العظيم إذ قال: " يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحوير الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد " (١).

روى السيوطي أن عثمان بن عفان لما أراد أن يكتب المصاحف، أراد أن يحذف الواو التي في سورة براءة في قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم } (٢). قال أبي بن كعب: لتلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي (٣). فإن الخليفة كان يريد أن يقرأ قوله تعالى: { والذين يكنزون } بدون واو العطف، لتكون هذه الجملة وصفا للأحبار واليهود. وهذا مضافا إلى كونه خلاف التنزيل وتغييرا فيما نزل به الوحي كما تلاه الرسول وقرأه على مسامع القوم، فإن حذف الواو كان يعني أن آية حرمة الكنز سوف لا تشمل المسلمين بل ستبقى صفة للأحبار والرهبان. وكان يقصد من هذه إضفاء طابع الشرعية على اكتناز الأموال الطائلة.

وهذا يكشف عن مدى حفظ الأمة لنص الكتاب بهذه الصورة الدقيقة الأمانة، بيد أن حفظ الأمة كان محدودا لا يتجاوز هذا الحد، إذ كان غير شامل لجوانب أخرى من الشريعة وأصولها ومصادرها وينابيعها.

(١) الكشي، الرجال: ص ٥.

(٢) التوبة: ٣٤.

(٣) الدر المنثور ٣: ٢٣٢.

الثالث: محاولة كتابة الصحيفة
هذا هو الخط الدفاعي الثالث الذي حاول الرسول وضعه لمكافحة ديب
البدعة، وهنا نقتبس ما ذكره الإمام الشاطبي حرفياً، يقول:
لقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على ألفتنا وهدايتنا، حتى ثبت من
حديث ابن عباس (رضي الله عنه).. أنه قال: لما حضر (١) النبي (صلى الله عليه وآله)
قال: وفي البيت رجال فيهم
عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - فقال: " هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده "
فقال عمر: إن النبي (صلى الله عليه وآله) غلبه الوجد، وعندكم القرآن فحسبنا كتاب
الله!! واختلف
أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله (صلى الله عليه
وآله) لن تضلوا
بعده، وفيهم من يقول كما قال عمر، فلما كثر اللغط والاختلاف عند النبي (صلى الله
عليه وآله) قال:
" قوموا عني " فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله
وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب اختلافهم ولغظهم (٢).
الرابع: التعريف بالثقلين
إن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) نبه الأمة وبين لها المرجع والملاذ بعد رحيله
بقوله: " يا أيها
الناس، إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي " (٣).
وقال (صلى الله عليه وآله): " إني تركت ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله
حبل
ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يرده علي

(١) أي حضرته الوفاة.

(٢) الإعتصام ٢: ١٧١ - ١٧٢ ولاحظ صحيح البخاري.

(٣) كنز العمال ١: ٤٤، أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر.

الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما " (١).
وقال (صلى الله عليه وآله): " إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله حبل ممدود ما بين السماء

والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن ينفردا حتى يرده علي الحوض " (٢).
وقال (صلى الله عليه وآله): " إني تارك فيكم الثقيلين: كتاب الله، وأهل بيتي، وإنهما لن ينفردا

حتى يرده علي الحوض " (٣).
وقال (صلى الله عليه وآله): " إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقيلين: كتاب الله

عز وجل، وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن ينفردا حتى يرده علي الحوض، فانظروني بم تخلفوني فيهما " (٤).
وقال (صلى الله عليه وآله) في منصرفه من حجة الوداع ونزوله غدیر خم: " كأنني قد دعيت

فأجبت، إني تركت فيكم الثقيلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن ينفردا حتى يرده علي الحوض " (٥).
وللكاتب الإسلامي منشي المنار كلام ذكره في تعليقه على كتاب الإعتصام للشاطبي قال: رواه ابن أبي شيبة والخطيب في المتفق والمفترق عنه وهو " تركت فيكم ما لن تضلوا إن اعتصمتم به، كتاب الله وعترتي أهل بيتي: ورواه الترمذي والنسائي عنه بلفظ " يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي " والحديث مروى بلفظ العترة بدل السنة عن كثير من الصحابة، منهم: زيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وأبو سعيد الخدري، وروى عن

(١) كنز العمال ١: ٤٤، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.

(٢) مسند أحمد ٥: ٢٨٢ - ٢٨٩.

(٣) مستدرک الحاكم ٣: ١٤٨.

(٤) مسند أحمد ٣: ١٧ و ٢٦، أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري.

(٥) مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩، أخرجه عن حديث زيد بن أرقم.

أبي هريرة بلفظ " السنة " بدل العترة، وفي كلا السياقين بلفظ " لن يفترقا حتى يردا علي الحوض " والجمع بينهما في المعنى أن عترته أهل بيته يحافظون على سنته، أي لا يخلو الزمان عن قدوة منهم يقيمون سنته لا يثنيهم عنها التقليد ولا الابتداع ولا الفتن (١).

الخامس: التعريف بسفينة النجاة
إن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) شبه أهل بيته بسفينة نوح فقال: " ألا إن مثل أهل

بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق " (٢).
وفي حديث آخر يقول (صلى الله عليه وآله): " إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من

ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق. وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل، من دخله غفر له " (٣).

وفي حديث ثالث: " النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس " (٤).

ومن المعلوم أن المراد ليس جميع أهل بيته على سبيل الاستغراق، لأن هذه المنزلة ليست إلا لحجج الله، وهم ثلة منتخبة مصطفاة من أهل بيته، وقد فهمه ابن حجر فقال: يحتمل أن المراد بأهل البيت الذين هم أمان، علماؤهم، لأنهم الذين يهتدى بهم كالنجوم، والذين إذا فقدوا جاء أهل الأرض من آيات ما يوعدون.

(١) الإعتصام ٢: ١٥٦، قسم التعليقة.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن أبي ذر ٣: ١٥١.

(٣) الأربعون حديثا للنبهاني: ص ٢١٦ نقله عن الطبراني في الأوسط.

(٤) رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن ابن عباس ٣: ١٤٩.

وقال في مقام آخر: إنه قيل لرسول الله: ما بقاء الناس بعدهم؟ قال: " بقاء الحمار إذا كسر صلبه " (١).
والمراد من تشبيههم (عليهم السلام) بسفينة نوح أن من لجأ إليهم في الدين فأخذ فروعه وأصوله عنهم نجا من عذاب الله، ومن تخلف عنهم كان كمن أوى يوم الطوفان إلى جبل ليعصمه من أمر الله فما أفاده شيئا فغرق وهلك.
والوجه في تشبيههم بباب حطة هو أن الله تعالى جعل ذلك الباب مظهرا من مظاهر التواضع لجلاله والبخوع لحكمه، وبهذا كان سببا للمغفرة، وقد جعل انقياد هذه الأمة لأهل بيت نبيها وأتباعهم أيضا مظهرا من مظاهر التواضع لجلاله والبخوع لحكمه، وبهذا كان سببا للمغفرة.
وقد أوضح ابن حجر حقيقة التشبيه في الحديث الشريف فقال: " ووجه تشبيههم بالسفينة أن من أحبهم وعظمهم شكرا لنعمة مشرفهم وأخذوا بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات، ومن تخلف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم، وهلك في مفاوز الطغيان - إلى أن قال: - وبباب حطة - يعني ووجه تشبيههم بباب حطة - أن الله جعل دخول ذلك الباب الذي هو باب أريحاء أو بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سببا للمغفرة، وجعل لهذه الأمة مودة أهل البيت سببا لها " (٢).

دور أئمة أهل البيت في مكافحة البدع:
إن لأئمة أهل البيت دورا بارزا في مكافحة البدع، والرد على الأفكار الدخيلة على الشريعة عن طريق أهل الكتاب، الذين تظاهروا بالإسلام، وتزيوا بزوي

(١) الصواعق لابن حجر، الباب الحادي عشر: ٩١، ١٤٢.

(٢) لاحظ المصدر نفسه: ١٥٣.

المسلمين، نظراء: كعب الأخبار، وتميم الداري، ووهب بن منبه، ومن كان على شاكلتهم.

إن كتب الحديث، من غير فرق بين الصحاح وغيرها، مشحونة بأخبار التجسيم والتشبيه والجبر ونفي الاستطاعة المكتسبة ونسبة الكذب والعصيان إلى الأنبياء والرسول، وقد تأثر بها المحدثون السذج وحسبوا أنها حقائق راهنة فنقلوها إلى الأجيال اللاحقة، وقد حيكت العقائد على منوال هذه الأحاديث، ولم يتجرأ أحد من المفكرين الإسلاميين القدامى والجدد على نقدها إلا من شذ. وفي مقابل هذه البدع نرى أن أئمة أهل البيت يكافحون التجسيم والتشبيه والجبر وغيرهما بخطبهم ورسائلهم ومناظراتهم أمام حشد عظيم. وفي وسع القارئ الكريم مراجعة نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) وكتاب التوحيد للشيخ الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١ هـ)، وكتاب الإحتجاج للشيخ الطبرسي (ت ٥٥٠ هـ)، إلى غير ذلك من الكتب المؤلفة في هذا المضمار، وما أحلى المناظرات التي أجزاها الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في عاصمة الخلافة الإسلامية (مرو) يوم ذاك مع الماديين

والملاحدين وأخبار اليهود وقساوسة النصارى، بل ومع المتزمتين المغترين بتلك الأحاديث.

لقد كان لفكرة الإرجاء التي تدعو إلى التسامح الديني في العمل، واجهة بديعة عند السذج من المسلمين ولا سيما الشباب منهم، فقام الإمام الصادق بردها والتنديد بها، وقد أصدر بيانا فيها حيث قال: " بادروا أولادكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئة " (١).

هذا هو الإمام الثامن علي بن موسى الرضا يكافح فكرة رؤية الله تبارك وتعالى بالعين.

(١) الكافي ٦: ٤٧ / ٥، ولاحظ البحار ٦٨: ٢٩٧.

ويرد الفكرة المستوردة من اليهود والتي اغتر بها بعض المحدثين، وإليك ما جرى بينه وبين أحدهم باسم أبي قرّة.
قال أبو قرّة: إنا روينا أن الله عز وجل قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى (عليه السلام) الكلام ولمحمد (صلى الله عليه وآله) الرؤية.
فقال الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام): " فمن المبلغ عن الله عز وجل إلى الثقلين الجن والإنس { لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار } (١) و { لا يحيطون به علما } (٢) و { ليس كمثله شيء } (٣) أليس محمدا (صلى الله عليه وآله)؟ قال: بلى.

قال الإمام: " فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعا فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول: { لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار } و { لا يحيطون به علما } و { ليس كمثله شيء }. ثم يقول أنا رأيت به بعيني وأحطت به علما وهو على صورة البشر. أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتي عن الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر " (٤).
هذا نموذج من نماذج كثيرة أوردناه حتى يكون أسوة لنماذج أخرى.
وإن أردت أن تقف على مدى مكافحة الأئمة الاثني عشر للبدع المحدثّة فعليك مقارنة كتابين قد ألفا في عصر واحد بيد محدثين في موضوع واحد، وهما:
١ - التوحيد لابن خزيمة (ت ٣١١ هـ).
٢ - التوحيد للشيخ الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١ هـ).

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) طه: ١١٠.

(٣) الشورى: ١١.

(٤) التوحيد: ١١١.

قارن بينهما، تجد الأول مشحونا بأخبار التجسيم والتشبيه والجبر، وما زال المتسمون بالسلفية ينشرونه عاما بعد عام، كأن ضالتهم فيه. وأما الثاني ففيه الدعوة إلى التوحيد وتنزيه الحق ومعرفة بين التشبيه والتعطيل وتبيين الآيات التي اغتر بعضهم بطواهرها من دون التدبر بالقرائن الحافة بها.

وبذلك تبين أن النبي الأكرم قد جعل من الأئمة واجهة دفاعية لصد البدع وأفكار المبتدعين ولا تتبين تلك الحقيقة إلا بعد معرفتهم ومراجعة كلماتهم.

السادس: دعم الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر إذا كانت البدعة من أعظم الكبائر والمنكرات، فعلى السلطة التنفيذية للحكومات الإسلامية، دعم الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، للقيام بمواجهة المبتدعين وردعهم عن أعمالهم، فإن البدعة أول يومها بذرة في الأذهان، ثم يستفحل عودها عبر الزمن حتى تصير شجرة خبيثة، ولذلك دعا الذكر الحكيم إلى القيام بهذا الأمر وقال: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون} (١) وفي آية أخرى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر} (٢).

والأمة عبارة عن جماعة تجمعهم رابطة العقيدة ووحدة الفكر، غير أن الواجب على الجميع غير الواجب على جماعة خاصة، فيجب على كل مسلم ردع المنكر بقلبه ولسانه، وأما القيام بأكثر من ذلك فهو على القوي المطاع العالم

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) آل عمران: ١١٠.

بالمعروف، وبذلك يجمع بين الآيتين، حيث إن الثانية ترى الأمر بالمعروف فريضة على الجميع، والأولى تراه فريضة على أمة خاصة، فالمراتب النازلة فريضة على الكل، والمراتب العالية وظيفة الأقوياء من أبناء الأمة.

ويكفي في أهمية تلك الفريضة قوله سبحانه: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ (١).

وهذا الإمام أمير المؤمنين يعلل قيامه ونضاله، بردع البدع ويقول: " اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا، منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك " (٢).

ورد المعالم من دينه كناية عن رفض البدع التي كانت قد ظهرت على الساحة الإسلامية.

وقال الإمام الباقر (عليه السلام): " إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء، ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمين المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر " (٣).

وقد كان في العصور الماضية نشاط للآمرين بالمعروف في خصوص متابعة المساجد والمؤذنين والوعاظ والقراء، حتى لا يخرجوا عن حدود الشريعة. يقول ابن إخوة القرشي: " ومن وظائف المحتسب مراقبة المساجد والمؤذنين

(١) الحج: ٤١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

(٣) الوسائل ١١: ٣٩٥.

والوعاظ والقراء، وعدم السماح لتصدي هذه المشاغل إلا لمن اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة ويكون عالماً بالأمر والعلم الشرعية " إلى آخر ما ذكره (١).

فهذه هي الخطوط الدفاعية التي وضعها الإسلام أمام المبتدعين، وهناك أمور أخرى للقضاء على البدعة والحد من نشاط المبتدعين، نؤخر بيانها إلى مجال آخر.

(١) معالم القربة في أحكام الحسبة: ١٧٩.

كيفية التوصل إلى مكافحة البدع والقضاء عليها
خاتمة المطاف

كيفية التوصل إلى مكافحة البدع والقضاء عليها

بقي هنا أمر هام وهو، كيف نتوصل إلى مكافحة البدع ونقضي عليها؟ وهو سؤال مهم يبين موقفنا في هذا العصر أمام تيارات البدع قديما وحديثا. وفي الحقيقة أن ما نذكره في الجواب، هو واجب العلماء المفكرين الذين يتحرقون لمعرفة الحق بين منعرجات الأهواء النفسية والانتماءات العصبية.

إن القضاء على البدع ولو نسبيا يتم بالقيام بأمر هي:

الأول: دراسة العقائد الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة، والفطرة الإنسانية، والعقل السليم، ونفي الاكتفاء برسالة " الطحاوية " للإمام الطحاوي، و " الإبانة " للإمام الشيخ الأشعري، فإنهما - رضوان الله عليهما - قد أديا رسالتهما في

عصرهما بأحسن وجه، ولم يكن في وسعهما إلا ما ألفا ونشرا، وإن تأثرا بالروايات غير الصحيحة، إذ في ثنايا دينك الكتاب التلميح إلى التشبيه والتعطيل، وتعريف الإنسان بلا اختيار وإرادة، كالريشة في مهب الريح، إلى غير ذلك مما ترده الفطرة السليمة، كجواز تعذيب الطفل يوم القيامة بالنار. ومن المؤسف جدا الاكتفاء بدراسة العقائد من خلال هذين الكتابين وما شاكلهما في مقابل التشكيكات البراقة

التي تثيرها كل يوم الوسائل الإعلامية على الإطلاق في معسكر الغرب والشرق، وهل يمكن صد هذا التيار بهذه الكتب؟ كلا، ومن قال نعم، فإنما يقوله بلسانه وينكره بقلبه.

كل ذلك يسوقنا إلى أن نعطي للعقائد والمعارف قسما أوفر في دراساتها، حتى تتميز البدع عن غيرها، نعم إن من يتلقى كل ما ذكره أحمد بن حنبل في كتاب السنة والإمامين السابقين في رسالتهما لا غبار عليه، وإن كان ضد الكتاب والسنة المتواترة والعقل الفطري الصريح فلا يحس وظيفته أصلا، وكلامنا مع المفكرين الواعين العالمين بما يجري في البلاد على الإسلام والشباب، وما يثار من إشكالات حول الأصول حتى التوحيد نفسه.

الثاني: تمحيص السنة ودراستها من جديد دراسة عميقة سندنا ومضمونا مقارنة مع الكتاب والسنن القطعية عن الرسول، فإن أكثر البدع لها جذور في السنة المدونة، وهو (صلى الله عليه وآله) عنها برئ، وإنما اختلقها الوضاعون الكذابون على لسانه. غير

أن مسلمة أهل الكتاب وبما أنهم لم يروا النبي الأكرم قد نسبوها إلى أنبيائهم وكتبهم، ونسبها بعض السلف إلى نفس النبي الأكرم، وها نحن نضع أمامك حديثين رواهما الشيخان في مورد الأنبياء حتى نتخذهما مقياسا لما لم نذكره. إنه سبحانه يعرف فضله على النبي الأكرم بقوله: { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما } (١) والمراد من فضله سبحانه في ذيل الآية هو علم النبي الذي أفاضه الله عليه ووصفه بكونه عظيما، مضافا إلى ما في صدر الآية من إنزال الكتاب والحكمة عليه. ومع ذلك نرى أن الرسول في الصحيحين يعرف بصورة أنه لا علم له بأبسط الأمور وأوضح السنن الطبيعية في عالم النباتات، حيث رأى قوما يلحقون النخيل فنهاهم عن ذلك

(١) النساء: ١١٣.

قائلا بأنه لا يظن أنه يغني شيئا، فتركه الناس وواجهوا الخسارة وعدم الإثمار، فأتوا إلى النبي الأكرم، فقال ما قال، وإليك نص الرواية:
١ - روى مسلم، عن موسى بن طلحة، عن أبيه، قال: مررت ورسول الله (صلى الله عليه وآله)

يقوم على رؤوس النخل فقال: " ما يصنع هؤلاء؟ " فقالوا: يلحقونه، يجعلون الذكر في الأثنى فتلقح، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ما أظن يغني ذلك شيئا " فأخبروا بذلك،

فتركوه، فأخبر رسول الله بذلك، فقال: " إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به، فإنني لن أكذب على الله عز وجل " (١).

وروى عن رافع بن خديج، قال: قدم نبي الله المدينة وهم يأبرون (٢) النخل، يقولون: يلحقون النخل، فقال: " ما تصنعون؟ " قالوا: كنا نصنعه، قال: " لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا " فتركوه فنقضت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: " إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر " (٣).

والعجب أن مؤلف الصحيح مسلم النيسابوري ذكر الحديث في باب أسماء ب " وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره (صلى الله عليه وآله) من معاش الدنيا على سبيل

الرأي " نحن نعلق على الحديث بشيء بسيط ونترك التفصيل إلى القارئ. أولا: نفترض أن النبي الأكرم ليس نبيا، ولا أفضل الخليفة، ولا من أنزل إليه الكتاب والحكمة، ولا من وصف الله سبحانه علمه بكونه عظيما، ولكن كان عربيا صميما ولد في أرض الحجاز، وعاش بين ظهرائي قومه وغيرهم في الحضر

(١) مسلم، الصحيح ١٥: ١٢٦ الباب ٣٨، كتاب الفضائل.

(٢) أبريأبر كبندر بيدر: أدخل شيئا من طلع الذكر في طلع الأثنى فتعلق بإذن الله.

(٣) المصدر السابق: ص ١٢٧.

والبادية، وقد تكررت سفراته إلى الشام، وكل إنسان كان هذا شأنه يعرف أن النخيل لا يثمر إلا بالتلقيح، فما معنى سؤاله ما يصنع هؤلاء؟! فيجيبونه بقولهم: إنهم " يلقحونه " أفيمكن أن يكون هذا الشيء البسيط خفياً على النبي؟! ثانياً: كيف يمكن للنبي النهي عن التلقيح وهو سنة من سنن الله في عالم الحياة، وقال سبحانه: { فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً } (١) ومع ذلك فكيف يقول: " ما أظن يغني ذلك شيئاً "؟!

ثالثاً: إن الاعتذار الوارد في الرواية يسئ الظن بكل ما يقوله النبي الأكرم، فإن كان المخبر بهذه الدرجة من العلم، فكيف يمكن الاعتماد بما يخبر عن الله سبحانه؟! كل ذلك يسئ الظن بكل ما يذكره بلسانه ويخرج من شفثيه، والأسوأ من ذلك ما نسب إليه من الاعتذار بقوله: " وإذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإنني لن أكذب على الله عز وجل "، لأن فيه تلميحاً إلى أنه - والعياذ بالله - يكذب في مواضع أخرى.

فلو اعتمدنا على هذه الرواية ونظائرها في بناء العقيدة، فستكون النتيجة أن النبي ربما يكون جاهلاً بأبسط السنن الجارية في الحياة، فهل يصح التفوه بذلك؟

٢ - لو كان الحديث الأول يحط من منزلة النبي الأكرم، فالحديث الثاني يحط من مكانة الكليم موسى (عليه السلام). فقد أخرج الشيخان في صحيحيهما بالإسناد إلى أبي هريرة، قال: لما جاء ملك الموت إلى موسى (عليه السلام) فقال له: أجب دعوة ربك، فلطم

موسى عين ملك الموت ففقأها، قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، ففقأ عيني، قال: فرد الله إليه عينه، وقال: إرجع إلى عبدي فقال: الحياة تريد، فإن كنت تريد الحياة، فضع يدك على متن

(١) فاطر: ٤٣.

ثور، فما توارت بيدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة (١).
وأخرجه ابن جرير الطبري في تأريخه، وقال: " إن ملك الموت يأتي الناس
عيونا حتى أتى موسى فلطمه ففقأ عينه - إلى أن قال: - فجاء بعد ذلك إلى الناس
خفية " (٢).

والحديث غني عن التعليق ولا يوافق الكتاب ولا سنة الأنبياء ولا العقل
السليم من جهات هي:

١ - إنه سبحانه يقول: {إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون} (٣) فظاهر قوله: " أجب ربك " إنه كان ممن كتب عليه الموت وجاء
أجله ومع ذلك تأخر.

٢ - من درس حياة الأنبياء بشكل عام يقف على أنهم (عليهم السلام) ما كانوا
يكرهون

الموت كراهة الجاهلين، وهل كانت الدنيا عند الكليم أعز من الآخرة، وهل كانت
تخفى عليه نعمها ودرجاتها؟!!

٣ - ما ذنب ملك الموت؟ إن هو إلا رسول من الله مجند له، يعمل بإمرته، فهل
كان يستحق مثل هذا الضرب؟!!

٤ - كيف ترك القصاص عن موسى مع أنه سبحانه يقول: {وكتبنا عليهم فيها
أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن
والجروح قصاص} (٤).

(١) مسلم، الصحيح، ج ٧، كتاب الفضائل في باب فضائل موسى، البخاري، الصحيح ٤: ١٥٧، كتاب بدء
الخلق، باب وفاة موسى.

(٢) الطبري، التاريخ ١: ٣٠٥، باب وفاة موسى.

(٣) يونس: ٤٩.

(٤) المائدة: ٤٥.

٥ - وهل كان ملك الموت أضعف من موسى حتى غلب عليه وفقاً عينه ولم يتمكن من الدفاع، ولم يزهق روحه مع كونه مأموراً به من ربه؟ أنا لا أدري، وأظن أن القارئ في غنى عن هذه التعليقات، فإن مضمون الحديث يصرح بأعلى صوته أنه مكذوب.

فتمحيص السنة فريضة على المفكرين لكي يقضوا بذلك على البدع التي ما انفكت تتلاعب بالدين، ولا يقوم بذلك إلا من امتحن الله قلبه بالتقوى ولا تأخذه في الله لومة لائم، وإن رماه المتطرفون بأنواع التهم والأباطيل، ولا غرو فإن المصلحين في جميع الأجيال كانوا أغراضاً لنبال الجهال.

دراسة لأربع مسائل فقهية تدور بين البدعة والسنة
مقدمة

الحقيقة بنت البحث

إن الفقه الإسلامي عطاء كبير ورثه الخلف عن السلف عبر جهود جبارة، بذلها علماء الأمة وفقهاؤها المتقدمون والمتأخرون. وقد رام هؤلاء العلماء والفقهاء الوصول إلى التشريع الحقيقي الذي جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) في الكتاب والسنة، فمنهم من أصاب ومنهم من أخطأ. وهذا الجهد العظيم وإن خلف تراثا فقهيا وفكريا عظيما تعتر به الأمة، إلا أنه انتهى إلى الخلاف في جملة من المسائل بعد الاتفاق في أكثرها. وحيث لم يكن حتميا أن تبقى المسائل الخلافية خلافا إلى الأبد، فمن الممكن أن يصل الفقهاء - لو بذلوا جهودهم في دراسة الخلافات بعيدا عن تقليد أي مذهب من المذاهب - إلى وحدة النظر، واتفاق الرأي فيها. وقد أثبتت التجربة هذه الثمرة الحلوة، ولأجل ذلك عمدنا إلى طرح مسائل

أربع اختلفت فيها مواقف الفقهاء وأنظار العلماء على بساط البحث المجدد، ورائدنا في هذه الدراسة: الكتاب والسنة.
وها أنا ذا أقدم حصيلة جهودي هذه إلى فقهاء الأمة الذين يهتمهم مصير الأمة، وتشتاق نفوسهم إلى وحدتها وعزتها.

المسألة الأولى: القبض (١) بين البدعة والسنة
إن قبض اليد اليسرى باليمنى مما اشتهر ندبه بين فقهاء أهل السنة.
فقال الحنفية: إن التكتف مسنون وليس بواجب، والأفضل للرجل أن يضع
باطن كفه اليمنى على ظاهر كفه اليسرى تحت سرتة، وللمرأة أن تضع يديها على
صدرها.

وقالت الشافعية: يسن للرجل والمرأة، والأفضل وضع باطن يمينه على ظهر
يسراه تحت الصدر وفوق السرة مما يلي الجانب الأيسر.
وقالت الحنابلة: إنه سنة، والأفضل أن يضع باطن يمينه على ظاهر يسراه،
ويجعلها تحت السرة.

وشذت عنهم المالكية فقالوا: يندب إسدال اليدين في الصلاة الفرض،
وقالت به جماعة أيضا قبلهم، منهم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن المسيب،
وسعيد بن جبير، وعطاء، وابن جريج، والنخعي، والحسن البصري، وابن سيرين،
وجماعة من الفقهاء.

والمنقول عن الإمام الأوزاعي التخيير بين القبض والسدل (٢).
وأما الشيعة الإمامية، فالمشهور أنه حرام ومبطل، وشذ منهم من قال بأنه
مكروه، كالحلبي في الكافي (٣).
ومع أن غير المالكية من المذاهب الأربعة قد تصوبوا وتصعدوا في المسألة،

(١) هو التكتف، والقبض اصطلاح أهل السنة وأما الشيعة فيطلقون عليه: التكفير بمعنى التستير، الفقه على
المذاهب الخمسة: ص ١١٠.

(٢) الفقه على المذاهب الخمسة: ١١٠، ولاحظ رسالة مختصرة في السدل للدكتور عبد الحميد: ص ٥.

(٣) جواهر الكلام ١١: ١٥ - ١٦.

لكن ليس لهم دليل مقنع على جوازه في الصلاة، فضلا عن كونه مندوبا، بل يمكن أن يقال: إن الدليل على خلافهم، والروايات البيانية عن الفريقين التي تبين صلاة الرسول خالية عن القبض، ولا يمكن للنبي الأكرم أن يترك المندوب طيلة حياته أو أكثرها، وإليك نموذجين من هذه الروايات: أحدهما من طريق أهل السنة، والآخر من طريق الشيعة الإمامية، وكلاهما يبينان كيفية صلاة النبي، وليست فيهما أية إشارة على القبض فضلا عن كلفه.

كيفية صلاة النبي (صلى الله عليه وآله) في روايات الفريقين
أ - حديث أبي حميد الساعدي:

روى حديث أبي حميد الساعدي غير واحد من المحدثين، ونحن نذكره بنص البيهقي، قال: أخبرنا أبو علي عبد الله الحافظ: فقال أبو حميد الساعدي: أنا أعلمكم بصلاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قالوا: لم، ما كنت

أكثرنا له تبعا، ولا أقدمنا له صحبة؟! قال: بلى، قالوا: فأعرض علينا، فقال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يكبر حتى

يقر كل عضو منه في موضعه معتدلا، ثم يقرأ، ثم يكبر ويرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه، ثم يعتدل ولا ينصب رأسه ولا يقنع، ثم يرفع رأسه، فيقول: سمع الله لمن حمده، ثم يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه، حتى يعود كل عظم منه إلى موضعه معتدلا، ثم يقول: الله أكبر، ثم يهوي إلى الأرض فيجافي يديه عن جنبه، ثم يرفع رأسه، فيثني رجله اليسرى، فيقعد عليها، ويفتح أصابع رجله إذا سجد، ثم يعود، ثم يرفع فيقول: الله أكبر، ثم يثني برجله، فيقعد عليها معتدلا حتى يرجع أو يقر كل عظم موضعه معتدلا، ثم يصنع

في الركعة الأخرى مثل ذلك، ثم إذا قام من الركعتين كبر ورفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه كما فعل أو كبر عند افتتاح صلاته، ثم يصنع مثل ذلك في بقية صلاته، حتى إذا كان في السجدة التي فيها التسليم أخرج رجله اليسرى وقعد متوركا على شقه الأيسر، فقالوا جميعا: صدق هكذا كان يصلي رسول الله (صلى الله عليه وآله) (١).

والذي يوضح صحة الاحتجاج الأمور التالية:

١ - تصديق أكابر الصحابة (٢) وبهذا العدد لأبي حميد يدل على قوة الحديث، وترجيحه على غيره من الأدلة.

٢ - إنه وصف الفرائض والسنن والمندوبات ولم يذكر القبض، ولم ينكروا عليه، أو يذكروا خلافه، وكانوا حريصين على ذلك، لأنهم لم يسلموا له أول الأمر أنه أعلمهم بصلاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، بل قالوا جميعا: صدقت هكذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله)

يصلي، ومن البعيد جدا نسيانهم وهم عشرة، وفي مجال المذاكرة.

٣ - الأصل في وضع اليدين هو الإرسال، لأنه الطبيعي فدل الحديث عليه.

٤ - لا يقال إن هذا الحديث عام وقد خصصته أحاديث القبض، لأنه وصف وعدد جميع الفرائض والسنن والمندوبات وكامل هيئة الصلاة، وهو في معرض التعليم والبيان، والحذف فيه خيانة، وهذا بعيد عنه وعنهم.

٥ - روى بعض من حضر من الصحابة أحاديث القبض، فلم يعترض، فدل على أن القبض منسوخ، أو على أقل أحواله بأنه جائز للاعتماد لمن طول في صلاته، وليس من سنن الصلاة، ولا من مندوباتها، كما هو مذهب الليث بن سعد، والأوزاعي، ومالك (٣).

(١) البيهقي، السنن ٢: ٧٢ - ٧٣، ١٠١، ١٠٢، أبو داود، السنن: ١ / ١٩٤ باب افتتاح الصلاة، الحديث ٧٣٠ -

٧٣٦، الترمذي، السنن ٢: ٩٨ باب صفة الصلاة.

(٢) منهم أبو هريرة، وسهل الساعدي، وأبو أسيد الساعدي، وأبو قتادة الحارث بن ربيعي، ومحمد بن مسلمة.

(٣) الدكتور عبد الحميد، رسالة مختصرة في السدل: ص ١١.

هذا هو الحديث الذي قام ببيان كيفية صلاة النبي، وقد روي عن طريق أهل السنة، وقد عرفت وجه الدلالة، وإليك ما رواه الشيعة الإمامية.

ب - حديث حماد بن عيسى:

روى حماد بن عيسى عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: " ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون سنة أو سبعون سنة فما يقيم صلاة واحدة بحدودها تامة!!"، قال حماد: فأصابني في نفسي الذل، فقلت: جعلت فداك فعلمني الصلاة، فقام أبو عبد الله مستقبل القبلة منتصباً فأرسل يديه جميعاً على فخذه، قد ضم أصابعه وقرب بين قدميه حتى كان بينهما ثلاثة أصابع مفرجات، واستقبل بأصابع رجليه جميعاً لم يحرفهما عن القبلة بخشوع واستكانة، فقال: الله أكبر، ثم قرأ الحمد بترتيل، وقل هو الله أحد، ثم صبر هنيئاً بقدر ما تنفس وهو قائم، ثم قال: الله أكبر، وهو قائم، ثم ركع وملاً كفيه من ركبتيه مفرجات، ورد ركبتيه إلى خلفه حتى استوى ظهره، حتى لو صب عليه قطرة ماء أو دهن لم تزل لاستواء ظهره وتردد ركبتيه إلى خلفه، ونصب عنقه، وغمض عينيه ثم سبح ثلاثاً بترتيل وقال: سبحان ربي العظيم وبحمده، ثم استوى قائماً، فلما استمكن من القيام قال: سمع الله لمن حمده، ثم

كبر وهو قائم، ورفع يديه حيال وجهه، وسجد، ووضع يديه إلى الأرض قبل ركبتيه فقال: سبحان ربي الأعلى وبحمده ثلاث مرات، ولم يضع شيئاً من بدنه على شيء منه، وسجد على ثمانية أعظم: الجبهة، والكفين، وعيني الركبتين، وأنامل إبهامي الرجلين، والأنف، فهذه السبعة فرض، ووضع الأنف على الأرض سنة، وهو الإرغام، ثم رفع رأسه من السجود، فلما استوى جالساً قال: الله أكبر، ثم قعد على جانبه الأيسر، ووضع ظاهر قدمه اليمنى على باطن قدمه اليسرى، وقال: استغفر الله ربي وأتوب إليه، ثم كبر وهو جالس وسجد الثانية وقال كما قال في

الأولى، ولم يستعن بشئ من بدنه على شئ منه في ركوع ولا سجود، وكان
مجنحا، ولم يضع ذراعيه على الأرض، فصلى ركعتين على هذا.
ثم قال: " يا حماد هكذا صل، ولا تلتفت، ولا تعبت بيدك وأصابعك، ولا
تبزق عن يمينك ولا عن يسارك ولا بين يديك " (١).
تري أن الروايتين بصدد بيان كيفية الصلاة المفروضة على الناس،
وليست فيهما أية إشارة إلى القبض بأقسامه المختلفة، فلو كان سنة لما تركه
الإمام في بيانه، وهو بعمله يجسد لنا صلاة الرسول (صلى الله عليه وآله)، لأنه أخذها
عن أبيه الإمام
الباقر، وهو عن أبيه عن آباءه، عن أمير المؤمنين، عن الرسول الأعظم - صلوات
الله عليهم أجمعين - فيكون القبض بدعة، لأنه إدخال شئ في الشريعة وهو
ليس منها.
ثم إن للقائل بالقبض أدلة تأتي على دراستها:
أدلة القبض عند أهل السنة
إن مجموع ما يمكن الاستدلال به على أن القبض سنة في الصلاة لا يعدو عن
مرويات ثلاث:
١ - حديث سهل بن سعد. رواه البخاري.
٢ - حديث وائل بن حجر. رواه مسلم ونقله البيهقي بأسانيد ثلاثة.
٣ - حديث عبد الله بن مسعود. رواه البيهقي في سننه.
وإليك دراسة كل حديث:

(١) الوسائل الجزء ٤، الباب ١ من أبواب أفعال الصلاة، الحديث ١، ولاحظ الباب ١٧، الحديث ١ و ٢.

أ - حديث سهل بن سعد
 روى البخاري عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، قال: " كان الناس يؤمرون
 أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة " قال أبو حازم: لا أعلمه
 إلا ينمي ذلك إلى النبي (صلى الله عليه وآله) (١).
 قال إسماعيل (٢): ينمي ذلك ولم يقل ينمي.
 والرواية متكفلة لبيان كيفية القبض إلا أن الكلام في دلالتها بعد تسليم
 سندها. لكنها لا تدل عليه بوجهين:
 أولاً: لو كان النبي الأكرم هو الأمر بالقبض فما معنى قوله: " كان الناس
 يؤمرون "؟ أو ما كان الصحيح عندئذ أن يقول: كان النبي يأمر؟ أوليس هذا دليلاً
 على أن الحكم نجم بعد ارتحال النبي الأكرم، حيث إن الخلفاء وأمرأهم كانوا
 يأمرون الناس بالقبض بتخيل أنه أقرب للخشوع؟ ولأجله عقد البخاري بعده
 باباً باسم " باب الخشوع ". قال ابن حجر: الحكمة في هذه الهيئة أنه صفة السائل
 الدليل، وهو أمتع عن العبث، وأقرب إلى الخشوع، كان البخاري قد لاحظ ذلك
 وعقبه باب الخشوع.
 وثانياً: إن في ذيل السند ما يؤيد أنه كان من عمل الأمرين، لا الرسول الأكرم
 نفسه حيث قال: قال إسماعيل: " لا أعلمه إلا ينمي ذلك إلى النبي " بناء على قراءة
 الفعل بصيغة المجهول.
 ومعناه أنه لا يعلم كونه أمراً مسنوناً في الصلاة، غير أنه يعزى وينسب إلى
 النبي، فيكون ما يرويه سهل بن سعد مرفوعاً.

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٢: ٢٢٤، باب وضع اليمنى على اليسرى. ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٢: ٢٨، باب وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة.
 (٢) المراد: إسماعيل بن أبي أويس شيخ البخاري كما جزم به الحميدي. لاحظ فتح الباري ٥: ٣٢٥.

قال ابن حجر: ومن اصطلاح أهل الحديث إذا قال الراوي ينميه، فمراده: يرفع ذلك إلى النبي (١).

هذا كله إذا قرأناه بصيغة المجهول، وأما إذا قرأناه بصيغة المعلوم، فمعناه أن سهلاً ينسب ذلك إلى النبي، فعلى فرض صحة القراءة وخروجه بذلك من الإرسال والرفع، يكون قوله: " لا أعلمه إلا... " معرباً عن ضعف النسبة، وأنه سمعه عن رجل آخر ولم يسم.

ب - حديث وائل بن حجر:

وقد روي هذا الحديث بصور:

١ - روى مسلم، عن وائل بن حجر: إنه رأى النبي رفع يديه حين دخل في الصلاة كبر، ثم التحف بثوبه، ثم وضع يده اليمنى على اليسرى، فلما أراد أن يركع أخرج يديه من الثوب، ثم رفعهما، ثم كبر فركع... (٢).

والاحتجاج بالحديث احتجاج بفعل النبي وهو متوقف على تمام دلالة على ذلك، لأن ظاهر الحديث أن النبي جمع أطراف ثوبه فغطى صدره به، ووضع يده اليمنى على اليسرى، أما هل فعل ذلك لكونه أمراً مسنوناً في الصلاة، أو فعله لئلا يسترخي الثوب بل يلصق بالبدن ليقى به نفسه من البرد؟ والفعل أمر مجهول العنوان، لا يكون حجة إلا إذا علم أنه فعل به لكونه مسنوناً. ثم إن النبي الأكرم صلى مع المهاجرين والأنصار أزيد من عشر سنوات، فلو كان ذلك ثابتاً من النبي

(١) فتح الباري ٥: ٣٢٥. هامش رقم ١.

(٢) مسلم، الصحيح ١: ٣٨٢، الباب ٥ من كتاب الصلاة، باب وضع يده اليمنى على اليسرى، وفي سند الحديث " همام " ولو كان المقصود، هو همام بن يحيى فقد قال ابن عمار فيه: كان يحيى القطان لا يعبأ ب " همام " وقال عمر بن شيبه: حدثنا عفان قال: كان يحيى بن سعيد يعترض على همام في كثير من حديثه. وقال أبو حاتم: ثقة في حفظه. لاحظ هدي الساري ١: ٤٤٩.

لكثر النقل وذاع، ولما انحصر نقله بوائل بن حجر، مع ما في نقله من الاحتمالين.
نعم روي بصورة أخرى ليس فيه قوله: " ثم التحف بثوبه " وإليك صورته:
٢ - روى البيهقي بسنده عن موسى بن عمير: حدثني علقمة بن وائل، عن
أبيه: أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذا قام في الصلاة قبض على شماله بيمينه،
ورأيت علقمة
يفعله (١).

وبما أنه إذا دار الأمر بين الزيادة والنقيصة فالثانية هي المتعينة، فيلاحظ على
الرواية بما لوحظ على الأولى، وهو أن وجه الفعل غير معلوم فيها. فلو كان النبي
مقيما على هذا العمل، لاشتهر بين الناس، مع أن قوله: " ورأيت علقمة يفعله "
يعرب عن أن الراوي تعرف على السنة من طريقه.

٣ - رواه البيهقي أيضا بسند آخر عن وائل بن حجر (٢) ويظهر الإشكال فيه
بنفس ما ذكرناه في السابق.

ج - حديث عبد الله بن مسعود:

روى البيهقي مسندا عن ابن مسعود (رضي الله عنه) إنه كان يصلي فوضع يده اليسرى
على

اليمنى، فرآه النبي (صلى الله عليه وآله) فوضع يده اليمنى على اليسرى (٣).

يلاحظ عليه - مضافا إلى أنه من البعيد أن لا يعرف مثل عبد الله بن مسعود
ذلك الصحابي الجليل ما هو المسنون في الصلاة مع أنه من السابقين في الإسلام: أن

(١) سنن البيهقي ٢: ٢٨، وفي سند الحديث عبد الله بن جعفر، فلو كان هو ابن نجيح قال ابن معين: ليس
بشيء، وقال النسائي: متروك، وكان وكيع إذا أتى على حديثه جز عليه، متفق على ضعفه. لاحظ دلائل
الصدق للشيخ محمد حسن المظفر ١: ٨٧.

(٢) المصدر نفسه وفي سنده عبد الله بن رجاء. قال عمرو بن علي الفلاس: كان كثير الخلط والتصحيف،
ليس بحجة. لاحظ هدي الساري ١: ٤٣٧.

(٣) سنن البيهقي ٢: ٢٨، باب وضع اليد اليمنى على اليسرى.

في السند هشيم بن بشير، وهو مشهور بالتدليس (١).
ولأجل ذلك نرى أن أئمة أهل البيت كانوا يتحرزون عنه، ويرونه أنه من صنع
المجوس أمام الملك.
روى محمد بن مسلم عن الصادق أو الباقر (عليهما السلام) قال: قلت له: الرجل يضع
يده
في الصلاة - وحكى - اليمنى على اليسرى؟ فقال: " ذلك التكفير، لا يفعل ".
وروى زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: " وعليك بالإقبال على صلاتك، ولا
تكفر، فإنما يصنع ذلك المجوس ".
وروى الصدوق بإسناده عن علي (عليه السلام) أنه قال: وعليك بالإقبال على صلاتك،
ولا تكفر فإنما يصنع ذلك المجوس.
وروى الصدوق بإسناده عن علي (عليه السلام) أنه قال: " لا يجمع المسلم يديه في
صلاته وهو قائم بين يدي الله عز وجل يتشبه بأهل الكفر - يعني المجوس - " (٢).
وفي الختام نلفت نظر القارئ إلى كلمة صدرت من الدكتور علي السالوس:
فهو بعدما نقل آراء فقهاء الفريقين، وصف القائلين بالتحريم والإبطال بقوله:
" وأولئك الذين ذهبوا إلى التحريم والإبطال، أو التحريم فقط، يمثلون التعصب
المذهبي وحب الخلاف، تفريقا بين المسلمين " (٣).
ما ذنب الشيعة إذا هدام الاجتهاد والفحص في الكتاب والسنة إلى أن القبض
أمر حدث بعد النبي الأكرم، وكان الناس يؤمرون بذلك أيام الخلفاء، فمن زعم أنه
جزء من الصلاة فرضا أو استحبابا، فقد أحدث في الدين ما ليس منه، أفهل جزاء
من اجتهد أن يرمى بالتعصب المذهبي وحب الخلاف!؟

(١) هدي الساري ١: ٤٤٩.

(٢) الوسائل ٤: الباب ١٥ من أبواب قواطع الصلاة، الحديث ١ و ٢ و ٧.

(٣) فقه الشيعة الإمامية ومواقع الخلاف بينه وبين المذاهب الأربعة: ١٨٣.

ولو صح ذلك، فهل يمكن توصيف الإمام مالك به؟ لأنه كان يكره القبض مطلقاً، أو في الفرض، أفهل يصح رمي إمام دار الهجرة بأنه كان يحب الخلاف؟ أجل، لماذا يا ترى لا يكون عدم الإرسال ممثلاً للتعصب المذهبي وحب الخلاف بين المسلمين؟!

المسألة الثانية: صلاة الضحى

صلاة الضحى من النوافل الرواتب المشهورة في كتب الفقه والحديث لأهل السنة وإن كانت مجهولة ومتروكة عند الكثير من عامتهم. ويمكننا في هذه العجالة أن نلقي نظرة خاطفة على ما يتعلق بصلاة الضحى من قبيل: حكمها وأقوال الفقهاء حولها، ووقتها، وعدد ركعاتها، وأدلتهم على مشروعيتها، ونظر فقهاء الشيعة حولها. ما هو حكمها؟

صلاة الضحى على المشهور عندهم سنة، كما عليه الحنابلة والحنفية والشافعية. وفي مقابل المشهور هناك أقوال أخرى، وهي:

- ١ - أنها مندوبة (١) - كما عليه المالكية - فيستحب المداومة عليها.
- ٢ - لا تستحب أصلاً.
- ٣ - يستحب فعلها تارة وتركها أخرى، فلا يستحب المداومة عليها.
- ٤ - تستحب صلاتها والمحافظة عليها في البيوت.
- ٥ - لا تشرع إلا بسبب مثل الشكر وغيره.
- ٦ - أنها بدعة (٢).

(١) يفرق بين المسنون والمندوب، بأن الأول هو ما واطب عليه النبي (صلى الله عليه وآله) والخلفاء الراشدون، والثاني هو ما أمر به النبي (صلى الله عليه وآله) ولم يواظب عليه. (الفقه على المذاهب الخمسة، للشيخ محمد جواد مغنية: ٧٨).

(٢) راجع: الشرح الكبير على المغني، لشمس الدين ابن قدامي المقدسي ١: ٧٧٥، الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري ١: ٣٣٢، فقه السنة، للسيد سابق ١: ١٨٥، زاد المعاد لابن قيم الجوزية ١: ١١٦ - ١١٩، نيل الأوطار للشوكاني ٣: ٦٢.

متى وقتها؟

ووقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح، إلى زوالها، والأفضل أن يبدأها بعد ربع النهار. وعبر عن وقتها بهذه العبارة أيضا: وأفضل وقتها إذا علت الشمس واشتد حرها، ويمتد وقتها إلى زوال الشمس، وأوله حين تبيض الشمس (١).

كم عدد ركعاتها؟
أقلها ركعتان وأكثرها ثمان، وقيل اثنتا عشرة ركعة، وقال الحنفية: أكثرها ست عشرة، وذهب بعض الشافعية والطبري إلى أنه لا حد لأكثرها. وقالوا بأنه يكره أن يصلى في نفل النهار زيادة على أربع ركعات بتسليمة واحدة (٢).

أدلتها؟

لا دليل لهم على مشروعيتها إلا مجموعة أحاديث وردت في مجاميعهم الحديثية. ولكن بعد التمحيص والتنقيب يتجلى عدم نهوضها للحجج على ذلك، لأنها إما مجملة تقصر دلالتها عن الإثبات، وإما مروية عن طرق لا يصح الاحتجاج بها، مضافا إلى معارضتها بأحاديث نافية للمشروعية، راجحة عليها سندا ودلالة.

(١) راجع: الشرح الكبير على المغني، لشمس الدين ابن قدامي المقدسي ١: ٧٧٥، الفقه على المذاهب الأربعة لعبد الرحمن الجزيري ١: ٣٣٢، فقه السنة، للسيد سابق ١: ١٨٥، زاد المعاد لابن قيم الجوزية ١: ١١٦ - ١١٩، نيل الأوطار للشوكاني ٣: ٦٢.

(٢) تقدم أنفا تحت رقم ١.

وإليك نماذج من تلك الطوائف الثلاث، وعليها يمكن قياس سائر الأحاديث التي لم نذكرها هنا رعاية للاختصار.
الطائفة الأولى:

الأحاديث المجملة، منها:

١ - ما روي عن نعيم بن همار، قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: "قال الله عز وجل يا ابن آدم لا تعجزني من أربع ركعات في أول نهارك أكفك آخره" (١).

رواه أبو داود وأحمد والترمذي.

ولفظه: "ابن آدم اركع من أول النهار أربع ركعات أكفك آخره".

وليس في هذا تصريح بصلاة الضحى، ولا ظهور لاحتمال أن المقصود من الأربع هو فريضة الفجر ونافلتها، كما اختاره مثل ابن تيمية وابن قيم (٢)، واحتمله البعض الآخر مثل الشوكاني والعراقي (٣).

٢ - ما روي عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى

أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى ونوم على وتر (٤).

احتمل في هذا الحديث اختصاص الوصية بأبي هريرة وأمثاله الذين لا يستيقظون لنافلة الليل أو ينشغلون عنها، بأن يصلوها في الضحى قضاء، ويؤيده قوله: "ونوم على وتر".

قال ابن قيم: "وأما أحاديث الترغيب فيها والوصية بها فالصحيح منها،

(١) التاج الجامع للأصول ١: ٣٢١.

(٢) زاد المعاد ١: ١٢٠.

(٣) نيل الأوطار ٣: ٦٤.

(٤) صحيح البخاري ٢: ٧٣.

كحديث أبي هريرة وأبي ذر لا يدل على أنها سنة راتبة لكل أحد، وإنما أوصى
أبا هريرة بذلك، لأنه قد روي أن أبا هريرة كان يختار درس الحديث بالليل على
الصلاة، فأمره بالضحي بدلا من قيام الليل، ولهذا أمره لا ينام حتى يوتر ولم يأمر
بذلك أبا بكر وعمر وسائر الصحابة " (١).

٣ - روي عن عبيد الله بن عتيبة أنه قال: دخلت على عمر بن الخطاب
بالحاجرة، فوجدته يسبح، فقممت وراءه، فقربني حتى جعلني حذاءه عن يمينه، فلما
جاء " يرفأ " (٢) تأخرت فصففنا وراءه (٣).

ولكن عمل الخليفة مجهول العنوان، فمن أين يعلم بأنه كان يصلي الضحي؟
خاصة مع شهادة ولده كما سيأتي بأنه ما كان يصليها. ثم إن الحاجرة لغة ليست بمعنى
الضحى، بل بمعنى " نصف النهار عند زوال الشمس إلى العصر " (٤) على المشهور،
فسبحة الحاجرة تنطبق على نافلة الظهر، وبناء على ما حكى عن ابن السكيت بأن:
الحاجرة إنما تكون بالقيظ، وقبل الظهر بقليل وبعدها بقليل (٥) فالرواية محتملة، إذ كما
يحتمل فيها صلاة الضحي يحتمل نافلة الظهر، ولا مرجح للأول على الثاني.

٤ - ما روي عن أبي هريرة قال: ما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يصلي
الضحى قط إلا
مرة (٦).

فصدر الحديث ينفي صلاة الضحي وذيله مجمل، لاحتمال أن النبي (صلى الله عليه
وآله) كان قد

صلى صلاة بسبب آخر، كالحاجة أو غيرها، وخفى على أبي هريرة، فتصور أنه
صلى الضحي، إذ ليس فيه أن النبي (صلى الله عليه وآله) أعرب عن نية عمله.

(١) زاد المعاد ١: ١١٩.

(٢) " يرفأ " اسم خادم عمر.

(٣) الموطأ للإمام مالك ١: ١٤٣ باب جامع سبحة الضحي، ط. دار الجيل ودار الآفاق.

(٤) لسان العرب، مادة " هجر ".

(٥) لسان العرب، مادة " هجر ".

(٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢: ٤٤٦.

٥ - ما روي عن أنس أنه قال: رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) في سفر صلى سبحة

الضحى ثماني ركعات، فلما انصرف قال:

"إني صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته ألا يتلى أمتي بالسنين ففعل، وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم ففعل، وسألته ألا يلبسهم شيئا فأبى علي" (١).

يرد على الاستدلال به، أولا: مثل ما مضى على سابقه، وثانيا: إن ذيله يتناقض مع الواقع التاريخي للأمة الإسلامية. فكم من بلد إسلامي ابتلى بالقحط والسنين، وما أكثر البلدان الإسلامية التي وقعت تحت سيطرة أعدائها في الزمن الغابر والحاضر.

وهذا مما يطمئننا باختلافه ووضعه.

الطائفة الثانية:

الأحاديث الموضوعة:

قال ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) في تقييم أحاديث صلاة الضحى: "وعامة أحاديث الباب في أسانيدنا مقال، وبعضها موضوع لا يحل الاحتجاج به" (٢).

ثم ذكر عدة أحاديث قد صرح أعلام الرجاليين بكون نقلتها وضاعين كذبة، منها:

١ - ما روي عن أنس مرفوعا: "من داوم على صلاة الضحى ولم يقطعها إلا عن علة كنت أنا وهو في زورق من نور في بحر من نور".

(١) فقه السنة ١: ١٨٥، كنز العمال ١١: ١٧٤.

(٢) زاد المعاد ١: ١١٩.

وضعه زكريا بن دريد الكندي عن حميد.
٢ - حديث يعلى بن أشدق، عن عبد الله بن جراد، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال:

" من صلى منكم صلاة الضحى فليصلها متعبدا، فإن الرجل ليصلها السنة من الدهر ثم ينساها ويدعها، فتحن إليه كما تحن الناقة على ولدها إذا فقدته ".
ويا عجباً للحاكم كيف يحتج بهذا وأمثاله؟! فإنه يروي هذا الحديث في كتاب أفرده للضحى، وهذه نسخة موضوعة على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، يعني نسخة يعلى بن الأشدق.

وقال ابن عدي: روى يعلى بن الأشدق، عن عمه عبد الله بن جراد، عن النبي (صلى الله عليه وآله) أحاديث كثيرة منكرة، وهو وعمه غير معروفين. وبلغني عن أبي مسهر

قال: قلت ليعلى بن الأشدق: ما سمع عمك من حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: جامع

سفيان وموطأ مالك وشيئا من الفوائد، وقال أبو حاتم بن حبان: لقي يعلى عبد الله ابن جراد، فلما كبر اجتمع عليه من لا دين له فوضعوا له شبها بمائتي حديث، فجعل يحدث بها وهو لا يدري. وهو الذي قال له بعض أصحابنا: أي شيء سمعته عن عبد الله بن جراد؟ فقال: هذه النسخة، وجامع أبي سفيان، لا تحل الرواية عنه بحال.

٣ - حديث عمر بن صبيح، عن مقاتل بن حبان، عن عائشة: " كان رسول الله يصلي الضحى اثنتي عشرة ركعة ".

وهو حديث طويل ذكره الحاكم في صلاة الضحى، وهو حديث موضوع، والمتهم به عمر بن صبيح.

قال البخاري: حدثني يحيى بن علي بن جبير، قال: سمعت عمر بن صبيح يقول: أنا وضعت خطبة النبي (صلى الله عليه وسلم). وقال ابن عدي: منكر الحديث. وقال ابن

حبان: يضع الحديث على الثقات، لا يحل حديثه إلا على جهة التعجب منه. وقال

الدارقطني: متروك، وقال الأزدي: كذاب.

٤ - حديث عبد العزيز بن أبان، عن الثوري، عن حجاج بن فرافصة، عن مكحول، عن أبي هريرة مرفوعا:

" من حافظ على سبحة الضحى غفرت ذنوبه، وإن كانت بعدد الجراد وأكثر من زبد البحر "

ذكره الحاكم أيضا، وعبد العزيز هذا، قال ابن نمير: هو كذاب. وقال يحيى: ليس بشئ كذاب، خبيث يضع الحديث. وقال البخاري والنسائي والدارقطني: متروك الحديث.

٥ - حديث النهاس بن فهم، عن شداد، عن أبي هريرة يرفعه:

" من حافظ على سبحة الضحى غفرت ذنوبه وإن كانت أكثر من زبد البحر "

والنهاس، قال يحيى: ليس بشئ ضعيف، كان يروي عن عطاء، عن ابن عباس أشياء منكرة.

وقال النسائي: ضعيف. وقال ابن عدي: لا يساوي شيئا. وقال ابن حبان:

كان يروي المناكير عن المشاهير، ويخالف الثقات، لا يجوز الاحتجاج به. وقال الدارقطني: مضطرب الحديث تركه يحيى القطان (١).

الطائفة الثالثة:

الأحاديث النافية لمشروعية صلاة الضحى التي هي معارضة للأحاديث المثبتة، وباعتبار قوة دلالتها وإسنادها رجحها جماعة من علماء العامة على غيرها، كما صرح بذلك ابن قيم.

(١) راجع حول الأحاديث الموضوعية وما جاء حول روايتها، زاد المعاد ١: ١١٩ - ١٢٠.

قال: " وطائفة ثانية ذهبت إلى أحاديث الترك، ورجحتها من جهة صحة إسنادهَا وعمل الصحابة بموجبها " (١).

منها:

١ - ما رواه البخاري بسنده عن مورق قال: " قلت لابن عمر: أتصلي الضحى؟ قال: لا. قلت: فعمر؟ قال: لا. قلت: فأبو بكر؟ قال: لا. قلت: فالنبي (صلى الله عليه وآله)؟ قال: لا أخاله " (٢).

٢ - وما رواه أيضا بسنده عن عائشة، قالت: " ما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) سبح

سبحة الضحى، وإني لأسبحها " (٣).

وقد استدل بعضهم بهذه الرواية لنفي الضحى لصحة إسنادهَا. " قال أبو الحسن علي بن بطال: فأخذ قوم من السلف بحديث عائشة ولم يروا صلاة الضحى، وقال قوم: إنها بدعة " (٤).

وأما قول عائشة " بأني أسبحها "، فهو اجتهاد في مقابل النص، ولا قيمة له في سوق الاعتبار الشرعي.

٣ - وما رواه أيضا بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: ما حدثنا أحد إنه رأى النبي (صلى الله عليه وآله) يصلي الضحى غير أم هانئ، فإنها قالت: " إن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل وصلى ثماني ركعات، فلم أر صلاة قط أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود " (٥).

أقول: إن رواية أم هانئ ليست ظاهرة في صلاة الضحى، ويحتمل قويا أن

(١) زاد المعاد ١: ١١٧.

(٢) صحيح البخاري ٢: ٧٣.

(٣) المصدر نفسه، مسند أحمد بن حنبل ٦: ٢٠٩.

(٤) زاد المعاد ١: ١١٧.

(٥) صحيح البخاري ٢: ٧٣.

النبي (صلى الله عليه وآله) صلى تلك الركعات شكرا لله على ما من عليه بفتح مكة. ولذلك ذهبت

جماعة من علماء العامة " بأنها لا تشرع إلا بسبب الخ " (١).

٤ - ما رواه أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكر، قال: " رأى أبو بكر ناسا يصلون الضحى فقال: إنهم ليصلون صلاة ما صلاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)،

ولا عامة أصحابه - رضي الله عنهم - " (٢).

٥ - ما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن حفص بن عاصم قال: مرضت مرضا فجاء ابن عمر يعودني قال: وسألته عن السبحة في السفر؟ فقال: " صحبت رسول الله (صلى الله عليه وآله) في السفر فما رأيته يسبح، ولو كنت مسبحا لأتممت، وقد قال الله:

{لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} " (٣).

٦ - وما رواه البخاري بسنده عن مجاهد، قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد فإذا عبد الله بن عمر جالس إلى حجرة عائشة وإذا أناس يصلون في المسجد صلاة الضحى. قال: فسألناه عن صلاتهم، فقال: بدعة " (٤).

٧ - وروي عن الشعبي قال: " سمعت ابن عمر يقول: ما ابتدع المسلمون أفضل من صلاة الضحى " (٥).

ففي هاتين الروايتين صرح ابن عمر بكون صلاة الضحى بدعة، وإن رآها فضيلة بناء على مسلك والده في جواز الابتداع الحسن.

٨ - روي عن ابن عباس أنه قال (صلى الله عليه وآله): " أمرت بالضحى ولم تؤمروا بها " (٦).

(١) نيل الأوطار ٣: ٥٣.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥: ٤٥.

(٣) صحيح مسلم ٥: ١٩٩ كتاب المسافرين، والآية من سورة الأحزاب: ٢١.

(٤) صحيح البخاري ٣: ٣ باب العمرة.

(٥) زاد المعاد ١: ١١٨.

(٦) نيل الأوطار ٣: ٦١.

بناء على صحة الحديث فالظاهر أن المراد من الأمر هنا هو أصل التشريع لا
الوجوب، لأنه لم يثبت وجوب شيء من النوافل على النبي (صلى الله عليه وآله) خاصة
عدا نافلة الليل. وعليه فلم تشرع نافلة له وضحي للمسلمين لأنه نفى الأمر بها عليهم.

إلى هنا تبين أنه لم يوجد حديث صحيح فيه دلالة واضحة على مشروعية
صلاة الضحى. وأما ما ادعيت صحته فهو إما معارض بالراجح عليه سنداً
ودلالة، أو فيه إجمال لا يمكن أن يستدل به على المقصود.
موقف الإمامية من صلاة الضحى

إن صلاة الضحى عند فقهاء الإمامية، بدعة لا يجوز فعلها. وقد اتفقوا وأجمعوا
على هذا الرأي، كما صرح بذلك السيد الشريف المرتضى في رسائله (١)، وشيخ
الطائفة في الخلاف (٢)، والعلامة الحلي في المنتهى (٣)، والعلامة المجلسي في
البحار (٤)،

والمحدث البحراني في الحدائق الناضرة (٥).

ويدل على هذا الرأي قبل الإجماع، أولاً: عدم الدليل الشرعي المعتبر على
مشروعية صلاة الضحى، وهذا يكفي للقول بعدمها، إذ لا يطالب النافي بدليل، بل
الدليل على المدعي.

وثانياً: الأخبار المستفيضة الواردة عن طرق أهل البيت (عليهم السلام) النافية

(١) رسائل الشريف المرتضى ١: ٢٢١.

(٢) الخلاف، نقلاً عن موسوعة الينابيع الفقهية ٢٨: ٢٢٠.

(٣) البحار ٨٠: ١٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٥.

(٥) الحدائق الناضرة ٦: ٧٧.

لمشروعية صلاة الضحى، والمصرح في بعضها أن العمل بها بدعة ومعصية، منها:
١ - ما رواه الشيخ الطوسي، عن الحسين بن سعيد، عن حماد بن عيسى، عن
حريز، عن زرارة وابن مسلم والفضيل، قالوا: سألتاهما (عليهما السلام) عن الصلاة في
رمضان نافلة بالليل جماعة، فقالا:
إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلى منزله، ثم يخرج
من

آخر الليل إلى المسجد فيقوم فيصلي. فخرج في أول ليلة من شهر رمضان
ليصلي، كما كان يصلي، فاصطف الناس خلفه فهرب منهم إلى بيته وتركهم،
ففعّلوا ذلك ثلاث ليال، فقام في اليوم الرابع على منبره فحمد الله وأثنى عليه
ثم قال: "أيها الناس إن الصلاة بالليل في شهر رمضان النافلة في جماعة بدعة،
وصلاة الضحى بدعة فلا تجتمعوا ليلا في شهر رمضان، ولا تصلوا صلاة
الضحى، فإن ذلك معصية، ألا وإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة سبيها إلى
النار" ثم نزل وهو يقول: "وقليل في سنة خير من كثير في بدعة" (١).

٢ - ما حكى عن دعائم الإسلام عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه قال لرجل من
الأنصار سأله عن صلاة الضحى، فقال: "إن أول من ابتدعها قومك الأنصار،
سمعوا قول رسول الله (صلى الله عليه وآله): "صلاة في مسجدي تعدل ألف صلاة"
فكانوا يأتون
من ضياعهم ضحى فيدخلون المسجد فيصلون، فبلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله)
فنهاهم
عنه" (٢).

(١) التهذيب ٣: ٦٩ - ٧٠، ومثله في الإستبصار ١: ٤٦٧ - ٤٦٨، والفقهاء ٢: ١٣٢، والوسائل ٥:
١٩٢.

(٢) البحار ٨٠: ١٥٩، مستدرك الوسائل ٣: ٧٠. لاحظ من لا يحضره الفقيه ١: ٥٦٦ وفي الأخير زيادة
على
ما في المتن.

المسألة الثالثة: إقامة صلاة التراويح جماعة
اتفقت كلمة الفقهاء على أن نوافل شهر رمضان (صلاة التراويح) سنة مؤكدة،
وأول من سنها رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال:
" من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " (١).
إن استجلاء الحق في جواز إقامتها جماعة، أو كونها بدعة يتطلب تقديم
أمرين:

١ - هل تسن الجماعة في مطلق النوافل أو لا؟
المشهور عند أهل السنة جواز إقامة النوافل جماعة، والأفضل في بعضها
إقامتها منفرداً، وإليك تفصيل مذاهبهم:
قالت المالكية: الجماعة في صلاة التراويح مستحبة، أما باقي النوافل فإن
صلاتها جماعة تارة يكون مكروهاً، وتارة يكون جائزاً، فيكون مكروهاً إذا
صليت بالمسجد أو صليت بجماعة كثيرين، أو كانت بمكان يكثر تردد الناس عليه،
وتكون جائزة إذا كانت بجماعة قليلة، ووقعت في المنزل ونحوه من الأماكن التي
لا يتردد عليها الناس.

وقالت الحنفية: تكون الجماعة سنة كفاية في صلاة التراويح والجنابة، وتكون
مكروهة في صلاة النوافل مطلقاً، والوتر في غير رمضان، وإنما تكره الجماعة في
ذلك إذا زاد المقتدون عن ثلاثة، أما الجماعة في وتر رمضان ففيها قولان

(١) البخاري، الصحيح باب فضل من قام رمضان برقم ٢٠٠٨، مسلم، الصحيح ج ٢ باب الترغيب في قيام
رمضان، وهو التراويح: ص ١٧٦ ط دار الجيل ودار الأفاق.

مصححان، أحدهما: أنها مستحبة فيه، ثانيهما: أنها غير مستحبة، ولكنها جائزة، وهذا القول أرجح.

وقالت الشافعية: أما الجماعة في صلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والتراويح ووتر رمضان فهي مندوبة.

وقالت الحنابلة: أما النوافل فمنها ما تسن فيه الجماعة، وذلك كصلاة الاستسقاء والتراويح والعيدين، ومنها ما تباح فيه الجماعة، كصلاة التهجد ورواتب الصلاة المفروضة (١).

وقال المقدسي في الشرح الكبير: ويجوز التطوع في جماعة وفرادى، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) فعل الأمرين كليهما، وكان أكثر تطوعه منفردا، ومع ذلك اتفقوا على أن التطوع في البيت أفضل، لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): "عليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة".

وقال (عليه السلام): "إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيبا من صلاته، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيرا" رواهما مسلم.

وعن زيد بن ثابت أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: "صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة" رواه أبو داود، ولأن الصلاة في البيت أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء وهو من عمل السر، والسر أفضل من العلانية (٢).

قالت الإمامية: تشرع الجماعة في الصلوات الواجبة، ولا تشرع في المستحبة،

(١) الفقه على المذاهب الأربعة، كتاب الصلاة، حكم الإمامة في صلاة الجمعة والجنائز والنوافل: ص ٤٠٧، وفي ص ٣٤٠: هي سنة عين مؤكدة عند ثلاثة من الأئمة، وخالفت المالكية.

(٢) المغني والشرح ١: ٧٧١، دار الكتاب العربي ط أفس ١٤٠٣ / ١٩٨٣.

إلا في الاستسقاء والعيدين مع فقد الشروط (١)، وقالت المذاهب الأربعة: تشرع مطلقا في الواجبة والمستحبة (٢).

٢ - التراويح لغة واصطلاحا:

التراويح: جمع ترويحة، وهي في الأصل اسم للجلسة مطلقا، ثم سميت بها الجلسة بعد أربع ركعات في ليالي رمضان، لاستراحة الناس بها، ثم سمي كل أربع ركعات ترويحة، وهي أيضا اسم لعشرين ركعة في الليالي نفسها.

قال ابن منظور: والترويحة في شهر رمضان: سميت بذلك لاستراحة القوم بعد كل أربع ركعات. وفي الحديث: صلاة التراويح، لأنهم كانوا يستريحون بين كل تسليمتين. والتراويح جمع ترويحة، وهي المرة الواحدة من الراحة، تفعيلة منها، مثل تسليمته من السلام (٣).

عدد ركعاتها عند الفريقين

اختلف الفقهاء في عدد صلاة نوافل شهر رمضان، أما الشيعة فقد ذهبت إلى أن نوافل ليالي شهر رمضان ألف ركعة في تمام الشهر.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): "مما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يصنع في شهر رمضان،

كان يتنفل في كل ليلة ويزيد على صلاته التي كان يصليها قبل ذلك منذ أول ليلة إلى تمام عشرين ليلة، في كل ليلة عشرين ركعة، ثماني ركعات منها بعد المغرب، واثنى عشرة بعد العشاء الآخرة، ويصلي في العشر الأواخر في كل

(١) إذ عند اجتماع الشروط تكون واجبة.

(٢) الفقه على المذاهب الخمسة ١: ١٣٣.

(٣) لسان العرب، ج ٢ مادة "روح".

ليلة ثلاثين ركعة، اثنتي عشرة منها بعد المغرب، وثمانية عشرة بعد العشاء الآخرة، ويدعو ويجهد اجتهادا شديدا، وكان يصلي في ليلة إحدى وعشرين مائة ركعة، ويصلي في ليلة ثلاث وعشرين: مائة ركعة ويجهد فيهما " (١). وأما غيرهم فقد قال الخرقى في مختصره: وقيام شهر رمضان عشرون ركعة، يعني صلاة التراويح (٢).

وقال ابن قدامة في شرحه: والمختار عند أبي عبد الله " الإمام أحمد " عشرون ركعة، وبهذا قال الثوري، وأبو حنيفة والشافعي، وقال مالك: ست وثلاثون، وزعم أنه الأمر القديم، وتعلق بفعل أهل المدينة (٣).

والظاهر أنه ليس في عددها عند أهل السنة دليل معتمد عليه، يحكي عن قول الرسول أو فعله أو تقريره، والقول بالعشرين يعتمد على فعل عمر، كما أن القول بالست والثلاثين يعتمد على فعل عمر بن عبد العزيز.

وقد فصل القول في ذلك عبد الرحمن الجزيري في " الفقه على المذاهب الأربعة " وقال:

روى الشيخان أنه (صلى الله عليه وآله) خرج من جوف الليل ليالي من رمضان، وهي ثلاث

متفرقة: ليلة الثالث، والخامس، والسابع والعشرين، وصلى في المسجد، وصلى الناس بصلاته فيها، وكان يصلي بهم ثمانين ركعات، ويكملون باقيها في بيوتهم، فكان يسمع لهم أزيز، كأزيز النحل... وقال: ومن هذا يتبين أن النبي (صلى الله عليه وآله) سن لهم

التراويح والجماعة، ولكن لم يصل بهم عشرين ركعة، كما جرى عليه العمل من عهد الصحابة ومن بعدهم إلى الآن، ولم يخرج إليهم بعد ذلك، خشية أن تفرض عليهم، كما صرح به في بعض الروايات، ويتبين أن عددها ليس قاصرا على الثمانين ركعات

(١) التهذيب ٣: ٦٢ / ٢١٣.

(٢) المغني ٢: ١٣٧ - ١٣٨.

(٣) المغني ٢: ١٣٧ - ١٣٨.

التي صلاها بهم، بدليل أنهم كانوا يكملونها في بيوتهم، وقد بين فعل عمر (رضي الله عنه) أن

عددها عشرون، حيث إنه جمع الناس أخيراً على هذا العدد في المسجد، ووافقته الصحابة على ذلك. نعم زيد فيها في عهد عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) وجعلت ستاً

وثلاثين ركعة. ولكن كان القصد من هذه الزيادة مساواة أهل مكة في الفضل، لأنهم كانوا يطوفون بالبيت بعد كل أربع ركعات مرة، فرأى (رضي الله عنه) أن يصلي بدل كل طواف، أربع ركعات (١).

هذا وقد بسط شراح البخاري وغيرهم القول في عدد ركعاتها إلى حد قل نظيره في أبواب العبادات، فمن قائل أن عدد ركعاتها ١٣ ركعة، إلى آخر أنها ٢٠ ركعة، إلى ثالث أنها ٢٤ ركعة، إلى رابع أنها ٢٨ ركعة، إلى خامس أنها ٣٦ ركعة، إلى سادس أنها ٣٨ ركعة، إلى سابع أنها ٣٩ ركعة، إلى ثامن أنها ٤١ ركعة، إلى تاسع أنها ٤٧ ركعة، وهلم جرا (٢).

والأغرب من هذا تدخل عمر بن عبد العزيز في أمر الشريعة! فأدخل فيها ما ليس منها ليتساوى - في رأيه - أهل المدينة وأهل مكة، في الفضل والثواب، فإن فسح المجال لهذا النوع من التدخل يجعل الشريعة ألعوبة بيد الحكام، يحكمون فيها بآرائهم.

(١) الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٢٥١، كتاب الصلاة، مبحث صلاة التراويح. ولا يخفى أنه لو كان المقياس في الزيادة، هو عدد الطواف بعد كل أربع ركعات فعندئذ يصل عددها إلى أربعين ركعة في كل ليلة، لأنهم إذا كانوا يطوفون بعد كل أربع ركعات مرة واحدة، يكون عددها خمس مرات، فإذا كان مقابل كل مرة منه أربع ركعات، يبلغ عددها عشرين ركعة (٥ × ٤ = ٢٠) فتضاف إلى العشرين ركعة الأصلية فيصير المجموع ٤٠ ركعة. نعم ذلك يصح على ما نقله ابن قدامة المقدسي من أن الطواف كان بين كل ترويحة. (لاحظ ١: ٧٤٩)

(٢) فتح الباري ٤: ٢٠٤، إرشاد الساري ٣: ٤٢٦، عمدة القاري ١١: ١٢٦، وقد تكلفوا في الجمع بين هذه الأقوال المتشعبة، فلاحظ.

حكم إقامتها جماعة
إن الشيعة الإمامية - تبعاً للإمام علي وأهل بيته (عليهم السلام) - يقيمون نوافل شهر
رمضان بلا جماعة، ويرون إقامتها جماعة بدعة حقيقية حدثت بعد رسول الله،
بمقياس (١) ما أنزل الله به من سلطان.
قال الشيخ الطوسي: نوافل شهر رمضان تصلى انفراداً، والجماعة فيها بدعة،
وقال الشافعي: صلاة المنفرد أحب إلي منه، وشنع ابن داود على الشافعي في هذه
المسألة، فقال: خالف فيها السنة والإجماع.
واختلف أصحاب الشافعي في ذلك على قولين، فقال أبو العباس وأبو إسحاق
وعامة أصحابه: صلاة التراويح في الجماعة أفضل بكل حال، وتأولوا قول
الشافعي فقالوا: إنما قال: النافلة ضربان، نافلة سن لها الجماعة، وهي العيدان،
والخسوف، والاستسقاء ونافلة لم تسن لها الجماعة، مثل ركعتي الفجر والوتر، وما
سن له الجماعة أو كد مما لم تسن له الجماعة، ثم قال: فأما قيام شهر رمضان فصلاة
المنفرد أحب إلي منها يعني ركعات الفجر والوتر، التي تفعل على الانفراد أو كد من
قيام شهر رمضان.
والقول الثاني: منهم من قال بظاهر كلامه، فقال: صلاة التراويح على الانفراد
أفضل منها في الجماعة، بشرطين، أحدهما: أن لا تختل الجماعة بتأخره عن
المسجد، والثاني: أن يطيل القيام والقراءة فيصلي منفرداً، أو يقرأ أكثر مما يقرأ
إمامه.
وقد نص في القديم على أنه إن صلى في بيته في شهر رمضان فهو أحب إلي، وإن

(١) فتح الباري ٤: ٢٠٤، ذكره لجمع الناس على إمام واحد.

صلاها في جماعة فهو حسن، واختار أصحابه مذهب أبي العباس وأبي إسحاق. ثم استدل الشيخ الطوسي على مذهب الإمامية بإجماعهم على أن ذلك بدعة. وأيضاً روى زيد بن ثابت (١) أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: " صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة " (٢). وإذا وقفت على آراء الفقهاء فإليك دراسة الأدلة: أما أئمة أهل البيت فقد اتفقت كلمتهم على أن الجماعة في النوافل مطلقاً بدعة، من غير فرق بين صلاة التراويح وغيرها، وهناك صنفان من الروايات: أحدهما: يدل على عدم تشريع الجماعة في مطلق النوافل. ثانيهما: ما يدل على عدم تشريعها في صلاة التراويح. أما الصنف الأول فنذكر منه روايتين.

١ - قال الإمام الباقر (عليه السلام): " ولا يصلى التطوع في جماعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار " (٣).

٢ - قال الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في كتابه إلى المأمون: " ولا يجوز أن يصلى تطوع في جماعة، لأن ذلك بدعة " (٤).

وأما الصنف الثاني، فقد تحدث عنه الإمام الصادق (عليه السلام) وقال: " لما قدم أمير المؤمنين (عليه السلام) الكوفة أمر الحسن بن علي أن ينادي في الناس: لا صلاة في شهر رمضان في المساجد جماعة، فنادى في الناس الحسن بن علي بما أمره به أمير المؤمنين، فلما سمع الناس مقالة الحسن (عليه السلام) صاحوا: وا عمراه! وا عمراه!

(١) أبو داود، السنن ٢: ٦٩.

(٢) الخلاف، كتاب الصلاة، المسألة ٢٦٨.

(٣) الخصال ٢: ١٥٢.

(٤) عيون أخبار الرضا: ص ٢٦٦.

فلما رجع الحسن إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال له: ما هذا الصوت؟ قال: يا أمير المؤمنين الناس يصيحون: واعمره واعمره، فقال أمير المؤمنين: قل لهم: صلوا " (١).

وربما يتعجب القارئ من قول الإمام " قل لهم: صلوا " حيث تركهم يستمرون في الإتيان بهذا الأمر المبتدع، ولكن إذا رجع إلى سائر كلماته يتجلى له سر تركهم على ما كانوا عليه.

قال الشيخ الطوسي: إن أمير المؤمنين لما أنكر، أنكر الاجتماع، ولم ينكر نفس الصلاة، فلما رأى أن الأمر يفسد عليه ويفتن الناس، أجاز أمرهم بالصلاة على عاداتهم (٢).

ويدل عليه:

ما رواه سليم بن قيس، قال: خطب أمير المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي ثم قال:

" ألا إن أخوف ما أخاف عليكم خلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل - ثم ذكر أحداثاً ظهرت بعد رسول الله - وقال: ولو حملت الناس على تركها... لتفرق عني جندي حتى أبقى وحدي أو قليل من شيعتي... والله لقد أمرت الناس أن لا يجتمعوا في شهر رمضان إلا في فريضة وأعلمتهم أن اجتماعهم في النوافل بدعة، فتنادى بعض أهل عسكري ممن يقاتل معي: يا أهل الإسلام غيرت سنة عمر ينهانا عن الصلاة في شهر رمضان تطوعاً، وقد خفت أن يثوروا في ناحية جانب عسكري... " (٣).

(١) التهذيب ٣: ح ٢٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الكافي ٨: ٥٨.

تسبب الإمام منصة الخلافة بطوع ورغبة من جماهير المسلمين، وواجه أحداثاً ظهرت بعد رسول الله، وأراد إرجاع المجتمع الإسلامي إلى عهد رسول الله في مجالات مختلفة، ولكن حالت العوائق دون نيته، فترك بعض الأمور بحالها، حتى يشتغل بالأهم فالأهم، فلأجله أمر ابنه الحسن أن يتركهم بحالهم حتى لا يختل نظام البلاد، ولا يثور الجيش ضده.

روى أبو القاسم بن قولويه (ت ٣٦٩ هـ) عن الإمامين الباقر والصادق قالوا: " كان أمر أمير المؤمنين بالكوفة إذا أتاه الناس فقالوا له: اجعل لنا إماماً يؤمننا في رمضان، فقال لهم: لا، ونهاهم أن يجتمعوا فيه، فلما أحسوا، جعلوا يقولون أبكوا رمضان وا رمضاناه، فأتى الحارث الأعور في أناس فقال: يا أمير المؤمنين ضج الناس وكرهوا قولك، قال: فقال عند ذلك: دعوهم وما يريدون، يصل بهم من شاءوا " (١).

هذه الروايات تدلنا على موقف أئمة أهل البيت في إقامة نوافل شهر رمضان جماعة.

صلاة التراويح في حديث الرسول (صلى الله عليه وآله) تختلف روايات أئمة أهل البيت عن بعض ما رواه أصحاب السنن، فرواياتهم (عليهم السلام) صريحة في أن النبي الأكرم كان ينهي عن إقامة نوافل رمضان جماعة، وأنه (صلى الله عليه وآله) لما خرج بعض الليالي إلى المسجد ليقمها منفرداً، ائتم به الناس

فنهاهم عنه، ولما أحس إصرارهم على الإلتزام به ترك الصلاة في المسجد واكتفى بإقامتها في البيت، وإليك بعض ما روي في ذلك:

(١) السرائر ٣: ٦٣٨.

سأل زرارة ومحمد بن مسلم والفضيل الباقر والصادق (عليهما السلام) عن الصلاة في شهر رمضان نافلة بالليل جماعة فقالوا:

" إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلى منزله، ثم يخرج من

آخر الليل إلى المسجد فيقوم فيصلي، فخرج في أول ليلة من شهر رمضان ليصلي، كما كان يصلي، فاصطف الناس خلفه، فهرب منهم إلى بيته وتركهم، ففعلوا ذلك ثلاث ليال، فقام في اليوم الرابع على منبره فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة في جماعة بدعة، وصلاة الضحى بدعة، ألا فلا تجتمعوا ليلا في شهر رمضان لصلاة الليل، ولا تصلوا صلاة الضحى، فإن تلك معصية، ألا وإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة سبيلها إلى النار ثم نزل وهو يقول: قليل في سنة خير من كثير في بدعة " (١).

روى عبيد بن زرارة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال:
" كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يزيد في صلاته في رمضان، إذا صلى العتمة صلى

بعدها، فيقوم الناس خلفه فيدخل ويدعهم، ثم يخرج أيضا فيجيئون ويقومون خلفه فيدعهم ويدخل مرارا " (٢).
ولعله (صلى الله عليه وآله) قام بهذا العمل مرتين، تارة في آخر الليل - كما في الرواية الأولى،

وأخرى بعد صلاة العتمة - كما في الرواية الثانية.
لكن المروي عن طريق أهل السنة يخالف ذلك، وإليك نص الشيخين البخاري ومسلم:

روى الأول وقال: حدثني يحيى بن بكير: حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن

(١) الفقيه، كتاب الصوم ٢: ٨٧.

(٢) الكافي ٤: ١٥٤.

شهاب: أخبرني عروة أن عائشة - رضي الله عنها - أخبرته أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم، فصلى فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا فكثير أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) فصلى بصلاته، فلما كانت

الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال:

" أما بعد فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها " فتوفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأمر على ذلك (١).
وروى أيضا في باب التهجد: " أن رسول الله صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثير الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله، فلما أصبح قال:
" قد رأيت الذي صنعتم ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تفرض عليكم وذلك في رمضان " (٢).

روى مسلم قال: حدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلى في المسجد ذات ليلة فصلى

بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثير الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة (٣) فلم يخرج إليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم فلم

(١) أي على ترك الجماعة في صلاة التراويح. لاحظ البخاري، الصحيح، باب فضل من قام رمضان: ٢٠١٢ / ٦١.

(٢) البخاري، الصحيح ٢: ٦٣ باب التهجد بالليل، وبين الروایتين اختلاف فيما خرج (صلى الله عليه وآله) فيها من الليالي،

فعلى الأولى خرج ثلاث ليال، وعلى الثانية خرج ليلتين.

(٣) مسلم، الصحيح ٦: ٤١ وغيره، والظاهر وحدة الرواية الثانية للبخاري مع هذه الرواية لاتحاد الراوي والمروي عنه والمضمون.

يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم. قال: وذلك في رمضان.

وحدثني حرملة بن يحيى: أخبرنا عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، قال: أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

خرج من جوف الليل فصلى في المسجد، فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس يتحدثون بذلك فاجتمع أكثر منهم، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الليلة الثانية فصلوا

بصلاته، فأصبح الناس يذكرون ذلك، فكثرت أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله فلم يخرج إليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فطفق رجال منهم يقولون: الصلاة فلم يخرج إليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ثم تشهد فقال: " أما بعد، فإنه لم يخف علي شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل، فتعجزوا عنها " (١).

والاختلاف بين ما رواه أصحابنا عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وما رواه الشيخان

واضح، فعلى الأول، نهى النبي (صلى الله عليه وآله) عن إقامتها جماعة، وأسمائها بدعة، وعلى الثاني،

ترك النبي (صلى الله عليه وآله) الإقامة جماعة خشية أن تفرض عليهم، مع كونها موافقة للدين

والشريعة، إذا فأبي القولين أحق أن يتبع، يعلم ذلك بالبحث التالي:

إن في حديث الشيخين مشاكل جدية بالوقوف عليها:

الأولى: ما معنى قوله: " خشيت أن تفرض عليكم، فتعجزوا عنها "؟

فهل مفاده: أن ملاك التشريع هو إقبال الناس وإدبارهم، فإن كان هناك اهتمام ظاهر من قبل الناس، يفرض عليهم وإلا فلا يفرض، مع أن الملاك في الفرض هو وجود مصالح واقعية في المتعلق، سواء أكان هناك اهتمام ظاهر أم لا. فإن تشريعه

(١) مسلم، الصحيح ٦: ٤١.

سبحانه ليس تابعا لرغبة الناس أو إعراضهم، وإنما يتبع لملاكات هو أعلم بها سواء أكان هناك إقبال أم إدبار.

الثانية: لو افترضنا أن الصحابة أظهرت اهتمامها بصلاة التراويح بإقامتها جماعة أفيكون ذلك ملاكا للفرض، فإن مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) يومذاك كان مكانا

محدودا لا يسع إلا ستة آلاف نفر أو أقل، فقد جاء في الفقه على المذاهب الخمسة: " كان مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ٣٥ مترا في ٣٠ مترا ثم زاده الرسول وجعله ٥٧ مترا في ٥٠ مترا " (١).

أفيمكن جعل اهتمامهم كاشفا عن اهتمام جميع الناس بها في جميع العصور إلى يوم القيامة؟

الثالثة: وجود الاختلاف في عدد الليالي التي أقام النبي فيهما نوافل رمضان جماعة. فعلى ما نقله البخاري في كتاب الصوم أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) صلى التراويح مع

الناس أربع ليال، وعلى ما نقله في باب التحريض على قيام الليل، أنه صلاها ليلتين، ووافق مسلم على النقل الثاني، ويظهر مما ذكره غيرهما - كما مر في صدر المقال - أنه (صلى الله عليه وآله) أقامها في ليال متفرقة (ليلة الثالث، والخامس، والسابع

والعشرين). وهذا يعرب عن عدم الاهتمام بنقل فعل الرسول على ما عليه، فمن أين تظمن على سائر ما جاء فيه من أن النبي استحسّن عملهم.

الرابعة: أن الثابت من فعل النبي أنه صلاها ليلتين، أو أربعاً في آخر الليل، وهي لا تزيد على ثماني ركعات. فلو كان النبي أسوة فعلينا الاقتداء به فيما ثبت، لا فيما لم يثبت، بل ثبت عدمه بما صرح القسطلاني ووصف ما زاد عليه بالبدعة وذلك:

١ - أن النبي لم يسن لهم الاجتماع لها.

(١) الفقه على المذاهب الخمسة: ٢٨٥٠.

٢ - ولا كانت في زمن الصديق.

٣ - ولا أول الليل.

٤ - ولا كل ليلة.

٥ - ولا هذا العدد (١).

ثم التجأ في إثبات مشروعيتها إلى اجتهاد الخليفة، وسيوافيك الكلام فيه. وقال العيني: إن رسول الله لم يسنها لهم، ولا كانت في زمن أبي بكر، ثم اعتمد في شرعيته إلى اجتهاد عمر واستنباطه من إقرار الشارع الناس يصلون خلفه ليلتين (٢). وسيوافيك الكلام فيه.

الخامسة: أنه إذا أخذنا برواية أحد الثقلين، (أهل بيت النبي) تصبح إقامة النوافل جماعة بدعة على الإطلاق، وإن أخذنا برواية الشيخين، فالمقدار الثابت ما جاء في كلام القسطلاني، والزائد عنه يصح بدعة إضافية، حسب مصطلح الإمام الشاطبي، والمقصود منها ما يكون العمل بذاته مشروعاً، والكيفية التي يقام بها، غير مشروعة.

ولم يبق ما يحتج به على المشروعية إلا جمع الخليفة الناس على إمام واحد وهو ما سنشرحه في البحث التالي:

جمع الناس على إمام واحد في عصر عمر روى البخاري: توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) والناس على ذلك (يعني ترك إقامة

التراويح بالجماعة) ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر، وصدرا من

(١) إرشاد الساري ٣: ٤٢٦.

(٢) عمدة القاري ١١: ١٢٦.

خلافة عمر (١).

وروى أيضا عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلي

الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلح بصلاته الرهط (٢).

فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعم البدعة هذه. والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون - يريد آخر الليل - وكان الناس يقومون أوله.

ولكن الظاهر من شراح الصحيح أن الإتيان جماعة لم تكن مشروعة، وإنما قام التشريع لعمله. وإليك بيانه في ضمن أمرين:

١ - قوله: " فتوفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) والناس على ذلك، ثم كان الأمر على ذلك في

خلافة أبي بكر " فقد فسره الشراح بقولهم: أي على ترك الجماعة في التراويح، ولم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) جمع الناس على القيام (٣).

وقال بدر الدين العيني: والناس على ذلك (أي على ترك الجماعة) ثم قال: فإن قلت: روى ابن وهب عن أبي هريرة: خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإذا الناس في رمضان

يصلون في ناحية المسجد، فقال: " ما هذا؟ " فقليل: ناس يصلي بهم أبي بن كعب، فقال: " أصابوا ونعم ما صنعوا "، ذكره ابن عبد البر. ثم أجاب بقوله: قلت: فيه مسلم بن خالد وهو ضعيف، والمحفوظ أن عمر (رضي الله عنه) هو الذي جمع الناس على أبي

ابن كعب (رضي الله عنه) (٤).

(١) البخاري، الصحيح، باب فضل من قام رمضان: الحديث ٢٠١٠.

(٢) الرهط: بين الثلاثة إلى العشرة.

(٣) فتح الباري، ٤: ٢٠٣.

(٤) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ٦: ١٢٥، وجاء نفس السؤال والجواب في فتح الباري.

وقال القسطلاني: " والأمر على ذلك (أي على ترك الجماعة في التراويح) ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر، إلى آخر ما ذكره " (١).

٢ - قوله: نعم البدعة، إن الظاهر من قوله: " نعم البدعة هذه " أنها من سنن نفس الخليفة ولا صلة لها بالشرع، وقد صرح بذلك لفيف من العلماء.

قال القسطلاني: سماها (عمر) بدعة لأنه (صلى الله عليه وآله) لم يسن لهم الاجتماع لها، ولا

كانت في زمن الصديق، ولا أول الليل، ولا كل ليلة ولا هذا العدد - إلى أن قال: - وقيام رمضان ليس بدعة، لأنه (صلى الله عليه وآله) قال: " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر

وعمر " وإذا أجمع الصحابة مع عمر على ذلك زال عنه اسم البدعة.

وقال العيني: " وإنما دعاها بدعة، لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يسنها لهم، ولا كانت في

زمن أبي بكر (رضي الله عنه) ولا رغب رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيها " (٢).

وهناك من نقل أن عمر أول من سن الجماعة، ونذكر منهم ما يلي:

١ - قال ابن سعد في ترجمة عمر: " هو أول من سن قيام شهر رمضان - بالتراويح - وجمع الناس على ذلك، وكتب به إلى البلدان وذلك في شهر رمضان سنة أربع عشرة " (٣).

٢ - وقال ابن عبد البر في ترجمة عمر: " وهو الذي نور شهر الصوم بصلاة الاشفاع فيه " (٤).

٣ - قال الوليد بن الشحنة عند ذكر وفاة عمر في حوادث سنة ٢٣ هـ: " وهو أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد... وأول من جمع الناس على إمام يصلي

(١) إرشاد الساري ٣: ٤٢٥.

(٢) عمدة القاري ٦: ١٢٦. وقد سقط لفظة لا من قوله " رغب " كما أن كلمة بقوله - بعد هذه الجملة -

في
النسخة مصحف " قوله "، فلاحظ.

(٣) الطبقات الكبرى ٣: ٢٨١.

(٤) الإستيعاب ٣: ١١٤٥.

بهم التراويح " (١).
فإذا كان المفروض أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يسن الجماعة فيها، وإنما
سنها عمر،
فهل هذا يكفي في كونها مشروعاً؟! مع أنه ليس لإنسان حتى الرسول حق التسنين
والتشريع، وإنما هو (صلى الله عليه وآله) مبلغ عن الله سبحانه.
إن الوحي يحمل التشريع إلى النبي الأكرم وهو (صلى الله عليه وآله) الموحى إليه،
وبموته انقطع
الوحي، وسد باب التشريع والتسنين، فليس للأمة إلا الاجتهاد في ضوء الكتاب
والسنة، لا التشريع ولا التسنين، ومن رأى أن لغير الله سبحانه حق التسنين فمعنى
ذلك عدم انقطاع الوحي.
قال ابن الأثير في نهايته: ومن هذا النوع قول عمر (رضي الله عنه): " نعم البدعة هذه
(التراويح) لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدحها،
إلا أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يسنها لهم، وإنما صلاها ليالي ثم تركها، ولم
يحافظ عليها، ولا جمع
الناس لها، ولا كانت في زمن أبي بكر، وإنما عمر (رضي الله عنه) جمع الناس عليها،
وندبهم
إليها، فبهذا سماها بدعة، وهي في الحقيقة سنة، لقوله (صلى الله عليه وآله): " عليكم
بسنتي وسنة
الخلفاء الراشدين من بعدي "، وقوله: " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر " (٢).
التشريع مختص بالله سبحانه
إن هؤلاء الأكابر مع اعترافهم بأن النبي لم يسن الاجتماع، برروا إقامتها جماعة
بعمل الخليفة، ومعنى ذلك أن له حق التسنين والتشريع، وهذا يضاد إجماع الأمة،
إذ لا حق لإنسان أن يتدخل في أمر الشريعة بعد إكمالها لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت

(١) روضة المناظر عنه النص والاجتهاد: ٢١٤ ط. مؤسسة البعثة طهران.

(٢) النهاية ١: ٧٩.

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً { (١) وكلامه يخالف الكتاب والسنة، فإن التشريع حق الله سبحانه لم يفوضه لأحد، والنبى الأكرم مبلغ عنه.

أضف إلى ذلك لو أن الخليفة قد تلقى ضوءاً أخضر في مجال التشريع والتسنين، فلم لا يكون لسائر الصحابة ذلك، مع كون بعضهم أقرأ منه، كأبي بن كعب، وأفرض، كزيد بن ثابت، وأعلم وأقضى منه، كعلي بن أبي طالب (عليه السلام)؟! فلو

كان للجميع ذلك لانتشر الفساد وعمت الفوضى أمر الدين، وكان العوبة بأيدي غير المعصومين.

وأما التمسك بالحديثين، فلو صح سندهما، فإنهما لا يهدفان إلى أن لهما حق التشريع، بل يفيدان لزوم الاقتداء بهما، لأنهما يعتمدان على سنة النبى الأكرم، لا أن لهما حق التسنين.

نعم يظهر مما رواه السيوطي عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يعتقد أن للخلفاء حق التسنين، قال: قال حاجب بن خليفة: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو خليفة، فقال في خطبته: ألا إن ما سن رسول الله وصاحباؤه فهو دين نأخذ به، وننتهي إليه، وما سن سواهما فإننا نرجئه (٢).

وعلى كل تقدير نحن لسنا بمؤمنين بأنه سبحانه فوض أمر دينه في التشريع والتقنين إلى غير الوحي، وفي ذلك يقول الشوكاني: والحق أن قول الصحابي ليس بحجة، فإن الله سبحانه لم يبعث إلى هذه الأمة إلا نبينا محمداً (صلى الله عليه وآله) وليس لنا إلا رسول

واحد وكتاب واحد، وجميع الأمة مأمورة باتباع كتابه وسنة نبيه، ولا فرق بين الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فكلهم مكلفون بالتكاليف الشرعية واتباع

(١) المائدة: ٣.

(٢) أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، كما في بحوث أهل السنة: ص ٢٣٥.

الكتاب والسنة، فمن قال إنها تقوم بالحجة في دين الله عز وجل بغير كتاب الله وسنة رسوله وما يرجع إليهما فقد قال في دين الله بما لا يثبت " (١).
نعم نقل القسطلاني عن ابن التين وغيره: إن عمر استنبط ذلك من تقرير النبي (صلى الله عليه وآله) من صلى معه في تلك الليالي وإن كان كره لهم خشية أن يفرض عليهم. فلما

غاب النبي حصل الأمن من ذلك، ورجح عند عمر ذلك لما في الاختلاف من افتراق الكلمة، ولأن الاجتماع على واحد أنشط لكثير من المصلين (٢).
يلاحظ عليه أولاً: أن ما ذكره في آخر كلامه ليبرر جمع الناس على إمام واحد، مكان الأئمة المتعددة، دونما إذا كان موضع النقاش إقامتها جماعة، واحداً كان الإمام أو كثيراً.

وثانياً: أن معنى كلامه أن هناك أحكاماً لم تسن ما دام النبي حياً لمناخ خاص، كخشية الفرض، ولكن في وسع آحاد الأمة تشريعها بعد موته (صلى الله عليه وآله) ومفاده فتح باب

التشريع بملاكات خاصة في وجه الأمة إلى يوم القيامة، وهذه رزية ليست بعدها رزية، وتلاعب بالدين واستئصاله.

ثم إن لسيدنا شرف الدين العاملي هناك كلاماً نافعا نورده بنصه، قال:
" كان هؤلاء عفا الله عنهم وعنا، رأوه (رضي الله عنه) قد استدرك (بتراويحه) على الله ورسوله حكمة كانا عنها غافلين. بل هم بالغفلة - عن حكمة الله في شرائعه ونظمه - أخرى، وحسبنا في عدم تشريع الجماعة في سنن شهر رمضان وغيرها، انفراد مؤديها - جوف الليل في بيته - بربه عز وعلا يشكو إليه بثه وحزنه ويناجيه بمهمات مهمة مهمة حتى يأتي على آخرها ملحا عليه، متوسلا بسعة رحمته إليه،

(١) إرشاد العقول: ص ٢١٤.

(٢) فتح الباري ٤: ٢٠٤.

راجيا لاجئا، راهبا راغبا، منيبا تائبا، معترفا لائذا عائذا، لا يجد ملجأ من الله تعالى إلا إليه، ولا منجى منه إلا به.

لهذا ترك الله السنن حرة من قيد الجماعة، ليتزودوا فيها من الانفراد بالله ما أقبلت قلوبهم عليه، ونشطت أعضاؤهم له، يستقل منهم من يستقل، ويستكثر من يستكثر، فإنها خير موضوع، كما جاء في الأثر عن سيد البشر. أما ربطها بالجماعة فيحد من هذا النفع، ويقلل من جدواه.

أضف إلى هذا أن إعفاء النافلة من الجماعة يمسك على البيوت حظها من البركة والشرف بالصلاة فيها، ويمسك عليها حظها من تربية الناشئة على حبها والنشاط بها، ذلك لمكان القدوة في عمل الآباء والأمهات والأجداد والجدات، وتأثيره في شد الأبناء إليها شدا يرسخها في عقولهم وقلوبهم، وقد سأل عبد الله بن مسعود رسول الله (صلى الله عليه وآله): أيما أفضل الصلاة في بيتي، أو الصلاة في المسجد؟ فقال (صلى الله عليه وآله):

" ألا ترى إلى بيتي ما أقربه من المسجد، فلئن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة " رواه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه، كما في باب الترغيب في صلاة النافلة من كتاب الترغيب والترهيب للإمام زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري.

وعن زيد بن ثابت أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:

" صلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة ". رواه النسائي وابن خزيمة في صحيحه.

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

" أكرموا بيوتكم ببعض صلواتكم ".

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: " مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه

مثل الحي والميت ". وأخرجه البخاري ومسلم.

وعن جابر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):
" إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيبا من صلاته،
وإن الله جاعل في بيته من صلاته خيرا "، رواه مسلم وغيره ورواه ابن
خزيمة في صحيحه بالإسناد إلى أبي سعيد، والسنن في هذا المعنى لا يسعها هذا
الإملاء.

لكن الخليفة (رضي الله عنه) رجل تنظيم وحزم، وقد راقه من صلاة الجماعة ما يتجلى
فيها من الشعائر بأجلى المظاهر إلى ما لا يحصى من فوائدها الاجتماعية التي أشبع
القول علماءنا الأعلام ممن عالجوا هذه الأمور بوعي المسلم الحكيم، وأنت تعلم أن
الشرع الإسلامي لم يهمل هذه الناحية، بل اختص الواجبات من الصلوات بها،
وترك النوافل للنواحي الأخر من مصالح البشر: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا
قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} (١) " (٢).
خاتمة المطاف

إن عمل الخليفة، لم يكن إلا من قبيل تقديم المصلحة على النص، وليس المورد
أمرا وحيدا في حياته، بل له نظائر في عهده منها:

١ - تنفيذ الطلاق الثلاث، بعدما كان في عهد الرسول وبعده طلاقا واحدا.

٢ - النهي عن متعة الحج.

وقد مر البحث في المسألة الثانية في كتابنا " أضواء على تأريخ الشيعة الإمامية
وعقائدهم ". ونبحت الآن عن المسألة الأولى:

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) النص والاجتهاد: ١٥١ - ١٥٢.

المسألة الرابعة:

الطلاق ثلاثا دفعة أو دفعات في مجلس واحد

من المسائل التي أدت إلى تعقيد الحياة الزوجية، ومزقت وقطعت صلوات الأرحام في كثير من البلاد، هي مسألة تصحيح الطلاق ثلاثا دفعة واحدة، بأن يقول: أنت طالق ثلاث دفعات ويقول في مجلس واحد: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق. فتحسب ثلاث تطليقات حقيقة، وتحرم المطلقة على زوجها حتى تنكح زوجا غيره.

إن الطلاق عند أكثر أهل السنة غير مشروط بشروط تحول دون إيقاعه، ككون المرأة غير حائض، أو وقوع الطلاق في غير طهر الواقعة، أو لزوم حضور العدلين. فلربما يتغلب الغيظ على الزوج ويأخذه الغضب فيطلقها ثلاثا في مجلس واحد، ثم يندم على عمله ندامة شديدة تضيق عليه الأرض بما رحبت، فيطلب المخلص من ذلك ولا يجد عند أئمة المذاهب الأربعة والدعاة إليها مخلصا، فيقعده ملوما محسورا، ولا يزيده السؤال والفحص إلا نفورا عن الفقه والفتوى.

نحن نعلم علما قاطعا بأن الإسلام دين سهل وسمح، وليس فيه حرج، وهذا يدفع الدعاة المخلصين إلى إعادة دراسة المسألة من جديد دراسة حرة بعيدة عن الأبحاث الجامدة، التي أفرزها غلق باب الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وأن يبحثوا المسألة في ضوء الكتاب والسنة الصحيحة، بعد التجرد عن خلفية الفتاوى السابقة.

أما أهم تلك الأقوال فهي:

قال ابن رشد: " جمهور فقهاء الأمصار على أن الطلاق بلفظ الثلاث حكمه
حكم الطلقة الثالثة، وقال أهل الظاهر وجماعة: حكمه حكم الواحدة، ولا تأثير
للفظ في ذلك " (١).

قال الشيخ الطوسي: " إذا طلقها ثلاثا بلفظ واحد، كان مبدعا ووقعت
واحدة عند تكامل الشروط عند أكثر أصحابنا، وفيهم من قال: لا يقع شيء
أصلا، وبه قال علي (عليه السلام) وأهل الظاهر، وحكى الطحاوي عن محمد بن
إسحاق

أنه تقع واحدة كما قلناه، وروي أن ابن عباس وطاووسا كانا يذهبان إلى ما
يقوله الإمامية.

وقال الشافعي: فإن طلقها ثنتين أو ثلاثا في طهر لم يجامعها فيه، دفعة أو
متفرقة، كان ذلك مباحا غير محذور ووقع. وبه قال في الصحابة عبد الرحمن بن
عوف، ورووه عن الحسن بن علي (عليهما السلام)، وفي التابعين ابن سيرين، وفي
الفقهاء أحمد
وإسحاق وأبو ثور.

وقال قوم: إذا طلقها في طهر واحد ثنتين أو ثلاثا دفعة واحدة، أو متفرقة،
فعل محرما وعصى وأثم. ذهب إليه في الصحابة علي (عليه السلام) وعمر، وابن عمر،
وابن

مسعود، وابن عباس. وفي الفقهاء أبو حنيفة وأصحابه ومالك، قالوا: إلا أن ذلك
واقع (٢).

قال أبو القاسم الخرقى في مختصره: وإذا قال لمدخول بها: أنت طالق، أنت
طالق، لزمه تطليقتان إلا أن يكون أراد بالثانية إفهامها أن قد وقعت بها الأولى،
فتلزمه واحدة. وإن كانت غير مدخول بها بانة بالأولى، ولم يلزمها ما بعدها، لأنه

(١) بداية المجتهد ٢: ٦٢ ط بيروت.

(٢) الخلاف: ٢ كتاب الطلاق، المسألة ٣. وعلى ما ذكره، نقل عن الإمام علي رأيان متناقضان: عدم
الوقوع
والوقوع مع الإثم.

ابتداءً كلام.

وقال ابن قدامة في شرحه على مختصر الخرقى: " إذا قال لامرأته المدخول بها: أنت طالق مرتين ونوى بالثانية إيقاع طلقة ثانية، وقعت لها طلقتان بلا خلاف، وإن نوى بها إفهامها أن الأولى قد وقعت بها أو التأكد لم تطلق إلا مرة واحدة، وإن لم تكن له نية وقع طلقتان، وبه قال أبو حنيفة ومالك، وهو الصحيح من قولى الشافعى. وقال فى الآخر: تطلق واحدة "

وقال الخرقى أيضا فى مختصره: " ويقع بالمدخول بها ثلاثا إذا أوقعها، مثل قوله: أنت طالق فطالق فطالق، أو أنت طالق ثم طالق ثم طالق، أو أنت طالق ثم طالق وطاق أو فطالق "

وقال ابن قدامة فى شرحه: " إذا أوقع ثلاث طلقات بلفظ يقتضى وقوعهن معا، فوقعن كلهن، كما لو قال: أنت طالق ثلاثا " (١).

وقال عبد الرحمن الجزيرى: " يملك الرجل الحر ثلاث طلقات، فإذا طلق الرجل زوجته ثلاثا دفعة واحدة، بأن قال لها: أنت طالق ثلاثا، لزمه ما نطق به من العدد فى المذاهب الأربعة، وهو رأى الجمهور، وخالفهم فى ذلك بعض المجتهدين: كطاووس وعكرمة وابن إسحاق وعلى رأسهم ابن عباس - رضى الله عنهم - " (٢).

إلى غير ذلك من نظائر تلك الكلمات التى تعرب عن اتفاق جمهور الفقهاء بعد عصر التابعين على نفوذ ذلك الطلاق، ورائدهم فى ذلك تنفيذ عمر بن الخطاب، الطلاق الثلاث بمرأى ومسمع من الصحابة. ولكن لو دل الكتاب والسنة على خلافه فالأخذ بهما متعين.

(١) المغنى ٧: ٤١٦.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ٤: ٣٤١.

دراسة الآيات الواردة في المقام

قال سبحانه:

{والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم* الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتن ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون* فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون* وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه...} (١).

جئنا بمجموع الآيات الأربع - مع أن موضع الاستدلال هو الآية الثانية - للاستشهاد بها في ثنايا البحث. وقبل الخوض في الاستدلال نشير إلى نكات في الآيات:

١ - قوله سبحانه: {ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف} كلمة جامعة لا يؤدي حقها إلا بمقال مسهب، وهي تفيد أن الحقوق بينهما متبادلة، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وعلى الرجل عمل يقابله، فهما - في حقل المعاشرة - متماثلان

(١) البقرة: ٢٢٨ - ٢٣١.

في الحقوق والأعمال، فلا تسعد الحياة إلا بالاحترام المتبادل بين الزوجين، وقيام كل بوظيفته تجاه الآخر، فعلى المرأة القيام بتدبير المنزل وإنجاز ما به من أعمال، وعلى الرجل السعي والكسب خارجه.

هذا هو الأصل الأصيل في حياة الزوجين الذي تؤيده الفطرة، وقد قسم النبي الأمور بين ابنته فاطمة وزوجها علي (عليه السلام) فجعل شؤون البيت في عهدة ابنته، وعمل

الخارج على زوجها - صلوات الله عليهما - .

٢ - " المرة " بمعنى الدفعة للدلالة على الواحد في الفعل، و " الإمساك " خلاف الإطلاق، و " التسريح " مأخوذ من السرح وهو الإطلاق يقال: سرح الماشية في المرعى: إذا أطلقها لترعى. والمراد من الإمساك هو إرجاعها إلى عصمة الزوجية. كما أن المقصود من " التسريح " عدم التعرض لها، لتنقضي عدتها في كل طلاق، أو الطلاق الثالث الذي هو أيضا نوع من التسريح، على اختلاف في معنى الجملة. وإن كان الأقوى هو الثاني، وسيوافيك توضيحه ودفع ما أثاره الجصاص من الإشكاليين حول هذا التفسير بإذن الله سبحانه.

٣ - قيد الإمساك بالمعروف، والتسريح بإحسان، مشعرا بأنه يكفي في الإمساك قصد عدم الإضرار بالرجوع، وأما الإضرار فكما إذا طلقها حتى تبلغ أجلها فيرجع إليها ثم يطلق كذلك، يريد بها الإضرار والإيذاء، وعلى ذلك يجب أن يكون الإمساك مقرونا بالمعروف، وعندئذ لو طلب بعد الرجوع ما آتاها من قبل لا يعد أمرا منكرا غير معروف، إذ ليس إضرارا.

وهذا بخلاف التسريح، فلا يكفي ذلك بل يلزم أن يكون مقرونا بالإحسان إليها، فلا يطلب منها ما آتاها من الأموال. ولأجل ذلك يقول تعالى: {ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا} أي لا يحل للمطلق استرداد ما آتاها من المهر، إلا إذا كان الطلاق خلعا فعندئذ لا جناح عليها فيما افتدت به نفسها من زوجها.

وقوله سبحانه: {فيما افتدت به} دليل على وجود النفرة من الزوجة، فتخاف أن لا تقيم حدود الله، فتفتدي بالمهر وغيره لتخلص نفسها.
٤ - لم يكن في الجاهلية للطلاق ولا للمراجعة في العدة، حد ولا عد، فكان الأزواج يتلاعبون بزوجاتهم، يضاروهن بالطلاق والرجوع ما شاءوا، فجاء الإسلام بنظام دقيق وحدد الطلاق بمرتين، فإذا تجاوز عنه وبلغ الثالث تحرم عليه حتى تنكح زوجا غيره.

روى الترمذي: كان الناس والرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر، حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك أبدا قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك، فذهبت المرأة فأخبرت النبي فسكت حتى نزل القرآن: {الطلاق مرتان...} (١).

٥ - اختلفوا في تفسير قوله سبحانه: {الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} إلى قولين:

أ - إن الطلاق يكون مرتين، وفي كل مرة إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، والرجل منحير بعد إيقاع الطلقة الأولى بين أن يرجع فيما اختار من الفراق فيمسك زوجته ويعاشرها بإحسان، وبين أن يدع زوجته في عدتها من غير رجعة حتى تبلغ أجلها وتنقضي عدتها.

وهذا القول هو الذي نقله الطبري عن السدي والضحاك فذهبا إلى أن معنى الكلام: الطلاق مرتان فإمساك في كل واحدة منهما لهن بمعروف أو تسريح لهن بإحسان، وقال: هذا مذهب مما يحتمله ظاهر التنزيل لولا الخبر الذي رواه

(١) الترمذي، الصحيح ج ٣ كتاب الطلاق، الباب ١٦، الحديث ١١٩٢.

إسماعيل بن سميع عن أبي رزين (١).
يلاحظ عليه: أن هذا التفسير ينافيه تخلل الفاء بين قوله: {مرتان} وقوله
{فإمسك بمعروف} فهو يفيد أن القيام بأحد الأمرين بعد تحقق المرتين، لا في
أثنائهما. وعليه لا بد أن يكون كل من الإمساك والتسريح أمرا متحققا بعد المرتين،
ومشيرا إلى أمر وراء التطليقتين.

نعم يستفاد لزوم القيام بأحد الأمرين بعد كل تطليقة، من آية أخرى أعني
قوله سبحانه: {وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو
سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا} (٢).

ولأجل الحذر عن تكرار المعنى الواحد في المقام يفسر قوله: {فإمسك
بمعروف أو تسريح بإحسان} (٣) بوجه آخر سيوافيك.

ب - ينبغي على الزوج بعدما طلق زوجته مرتين، أن يفكر في أمر زوجته أكثر
مما مضى، فليس له بعد التطليقتين إلا أحد أمرين: إما الإمساك بمعروف وإدامة
العيش معها، أو التسريح بإحسان بالتطليق الثالث الذي لا رجوع بعده أبدا، إلا في
ظرف خاص، فيكون قوله تعالى: {أو تسريح بإحسان} إشارة إلى التطليق
الثالث الذي لا رجوع فيه ويكون التسريح متحققا به.

وقفه مع الجصاص في تفسير الآية:

وهنا سؤالان أثارهما الجصاص في تفسيره:

١ - كيف يفسر قوله: {أو تسريح بإحسان} بالتطليق الثالث، مع أن المراد من

(١) الطبري، التفسير ٢: ٢٧٨ وسيوافيك خبر أبي رزين.

(٢) البقرة: ٢٣١. وأيضا في سورة الطلاق: {وإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن
بمعروف} (الطلاق: ٢).

(٣) البقرة: ٢٢٩.

قوله في الآية المتأخرة: {أو سرحوهن بإحسان} هو ترك الرجعة، وهكذا المراد من قوله: {فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف} (١) هو تركها حتى ينتهي أجلها، ومعلوم أنه لم يرد من قوله: {أو سرحوهن بمعروف} أو قوله: {أو فارقوهن بمعروف}: طلقوهن واحدة أخرى (٢).

يلاحظ عليه: أن السؤال والإشكال ناشئ من خلط المفهوم بالمصداق، فاللفظ في كلا الموردین مستعمل في التسريح والطلاق، غير أنه يتحقق في مورد بالطلاق، وفي آخر بترك الرجعة، وهذا لا يعد تفكيكا في معنى لفظ واحد في موردین، ومصداقه في الآية (٢٢٩) هو الطلاق، وفي الآية (٢٣١) هو ترك الرجعة، والاختلاف في المصداق لا يوجب اختلافا في المفهوم.

٢ - أن التطليقة الثالثة مذكورة في نسق الخطاب بعده في قوله تعالى: {فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره} وعندئذ يجب حمل قوله تعالى: {أو تسريح بإحسان} المتقدم عليه على فائدة مجددة وهي وقوع البيونة بالاثنين (٣) بعد انقضاء العدة.

وأیضا لو كان التسريح بإحسان هو الثالثة لوجب أن يكون قوله تعالى: {فإن طلقها} عقيب ذلك هي الرابعة، لأن الفاء للتعقيب قد اقتضى طلاقا مستقلا بعدما تقدم ذكره (٤).

والإجابة عنه واضحة، لأنه لا مانع من الإجمال أولا ثم التفصيل ثانيا، فقوله تعالى: {فإن طلقها} بيان تفصيلي للتسريح بعد البيان الإجمالي، والتفصيل مشتمل

(١) الطلاق: ٢.

(٢) الجصاص، التفسير ٢: ٣٨٩.

(٣) الأولى أن يقول: بكل طلاق.

(٤) الجصاص، التفسير ١: ٣٨٩.

على ما لم يشتمل عليه الإجمال من تحريمها عليه حتى تنكح زوجها غيره. فلو طلقها الزوج الثاني عن اختياره فلا جناح عليهما أن يتراجعا بالعقد الجديد إن ظنا أن يقيما حدود الله، فأين هذه التفاصيل من قوله: {أو تسريح بإحسان}. وبذلك يعلم أنه لا يلزم أن يكون قوله: {فإن طلقها} طلاقا رابعا. وقد روى الطبري عن أبي رزين أنه قال: أتى النبي (صلى الله عليه وآله) رجل فقال: يا رسول

الله أرأيت قوله: {الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} فأين الثالثة؟ قال رسول الله: " {إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} هي الثالثة " (١). نعم الخبر مرسل وليس أبو رزين الأسدي صحابيا بل تابعي. وقد تضافت الروايات عن أئمة أهل البيت أن المراد من قوله: {أو تسريح بإحسان} هي التطليقة الثالثة (٢).

إلى هنا تم تفسير الآية وظهر أن المعنى الثاني لتخلل لفظ " الفاء " أظهر بل هو المتعين بالنظر إلى روايات أئمة أهل البيت.

بقي الكلام في دلالة الآية على بطلان الطلاق ثلاثا بمعنى عدم وقوعه بقيد الثلاث، وأما وقوع واحدة منها فهو أمر آخر، فنقول:

الاستدلال على بطلان الطلاق ثلاثا

إذا عرفت مفاد الآية، فاعلم أن الكتاب والسنة يدلان على بطلان الطلاق ثلاثا، وأنه يجب أن يكون الطلاق واحدة بعد الأخرى، يتخلل بينهما رجوع أو نكاح، فلو طلق ثلاثا مرة واحدة. أو كرر الصيغة فلا تقع الثلاث. وأما احتسابها

(١) الطبري، التفسير ٢: ٢٧٨.

(٢) البرهان ١: ٢٢١. وقد نقل روايات ست في ذيل الآية.

طلاقاً واحداً، فهو وإن كان حقاً، لكنه خارج عن موضوع بحثنا، وإليك الاستدلال بالكتاب أولاً، والسنة ثانياً.
أولاً: الاستدلال بالكتاب:

١ - قوله سبحانه: {فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان}.
تقدم أن في تفسير هذه الفقرة من الآية قولين مختلفين، والمفسرون بين من يجعلها ناظرة إلى الفقرة المتقدمة أعني قوله: {الطلاق مرتان...} ومن يجعلونها ناظرة إلى التطليق الثالث الذي جاء في الآية التالية، وقد عرفت ما هو الحق، فتلك الفقرة تدل على بطلان الطلاق ثلاثاً على كلا التقديرين.
أما على التقدير الأول، فواضح، لأن معناها أن كل مرة من المراتين يجب أن يتبعها أحد أمرين: إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان.
قال ابن كثير: أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح والإحسان وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها، فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها (١). وأين هذا من الطلاق ثلاثاً بلا تخلل بواحد من الأمرين - الإمساك أو تركها حتى ينقضي أجلها - سواء طلقها بلفظ: أنت طالق ثلاثاً، أو: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق.
وأما على التقدير الثاني، فإن تلك الفقرة وإن كانت ناظرة لحال الطلاق الثالث، وساكنة عن حال الطلاقين الأولين، لكن قلنا إن بعض الآيات، تدل على أن مضمونه من خصيصة مطلق الطلاق، من غير فرق بين الأولين والثالث فالمطلق يجب أن يتبع طلاقه بأحد أمرين:

(١) ابن كثير، التفسير ١: ٥٣.

١ - الإمساك بمعروف.

٢ - التسريح بإحسان.

فعدم دلالة الآية الأولى على خصيصة الطلاقين الأولين، لا ينافي استفادتها من الآيتين الماضيتين (١). ولعلهما تصلحان قرينة لإلقاء الخصوصية من ظاهر الفقرة {فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} وإرجاع مضمونها إلى مطلق الطلاق، ولأجل ذلك قلنا بدلالة الفقرة على لزوم اتباع الطلاق بأحد الأمرين على كلا التقديرين. وعلى أي حال فسواء كان عنصر الدلالة نفس الفقرة أو غيرها - كما ذكرنا - فالمحصل من المجموع هو كون اتباع الطلاق بأحد أمرين من لوازم طبيعة الطلاق الذي يصلح للرجوع.

ويظهر ذلك بوضوح إذا وقفنا على أن قوله: {فبلغن أجلهن} من القيود الغالبية، وإلا فالواجب منذ أن يطلق زوجته، هو القيام بأحد الأمرين، لكن تخصيصه بزمن خاص، وهو بلوغ آجالهن، هو لأجل أن المطلق الطاغي عليه غضبه وغيظه، لا تنطفئ سورة غضبه فوراً حتى تمضي عليه مدة من الزمن تصلح لأن يتفكر في أمر زوجته ويخاطب بأحد الأمرين، وإلا فطبيعة الحكم الشرعي {فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان} تقتضي أن يكون حكماً سائداً على جميع الأزمنة من لدن أن يتفوه بصيغة الطلاق إلى آخر لحظة تنتهي معها العدة. وعلى ضوء ما ذكرنا تدل الفقرة على بطلان طلاق الثلاث وأنه يخالف الكيفية المشروعة في الطلاق، غير أن دلالتها على القول الأول بنفسها، وعلى القول الثاني بمعونة الآيات الأخر.

٢ - قوله سبحانه: {الطلاق مرتان}

(١) الآية ٢٣١ من سورة البقرة والآية ٢ من سورة الطلاق.

إن قوله سبحانه: {الطلاق مرتان} ظاهر في لزوم وقوعه مرة بعد أخرى لا دفعة واحدة وإلا يصير مرة ودفعة، ولأجل ذلك عبر سبحانه بلفظ " المرة " ليدل على كيفية الفعل وأنه الواحد منه، كما أن الدفعة والكرة والنزلة، مثل المرة، وزنا ومعنى واعتبارا.

وعلى ما ذكرنا فلو قال المطلق: أنت طالق ثلاثا، لم يطلق زوجته مرة بعد أخرى، ولم يطلق مرتين، بل هو طلاق واحد، وأما قوله " ثلاثا " فلا يصير سببا لتكرره، وتشهد بذلك فروع فقهية لم يقل أحد من الفقهاء فيها بالتكرار بضم عدد فوق الواحد.

مثلا اعتبر في اللعان شهادات أربع، فلا تجزي عنها شهادة واحدة مشفوعة بقوله " أربعا ". وفصول الأذان المأخوذة فيها التثنية، لا يتأتى التكرار فيها بقراءة واحدة وإردافها بقوله: " مرتين ". ولو حلف في القسامة وقال: " أقسم بالله خمسين يمينا أن هذا قاتله " كان هذا يمينا واحدا. ولو قال المقر بالزنا: " أنا أقر أربع مرات أني زنيت " كان إقرارا واحدا، ويحتاج إلى ثلاثة إقرارات أخرى، إلى غير ذلك من الموارد التي لا يكفي فيها العدد عن التكرار.

قال الجصاص: {الطلاق مرتان}، وذلك يقتضي التفريق لا محالة، لأنه لو طلق اثنتين معا لما جاز أن يقال: طلقها مرتين، وكذلك لو دفع رجل إلى آخر درهمين لم يجر أن يقال: أعطاه مرتين، حتى يفرق الدفع، فحينئذ يطلق عليه، وإذا كان هذا هكذا، فلو كان الحكم المقصود باللفظ هو ما تعلق بالتطليقتين من بقاء الرجعة لأدى ذلك إلى إسقاط فائدة ذكر المرتين، إذ كان هذا الحكم ثابتا في المرة الواحدة إذا طلق اثنتين، فثبت بذلك أن ذكر المرتين إنما هو أمر بإيقاعه مرتين، ونهى عن الجمع بينهما في مرة واحدة (١).

(١) أحكام القرآن ١: ٣٧٨.

هذا كله إذا عبر عن التطليق ثلاثا بصيغة واحدة، أما إذا كرر الصيغة - كما عرفت - فربما يغتر به البسطاء ويزعمون أن تكرار الصيغة ينطبق على الآية، لكنه مردود من جهة أخرى وهي:

أن الصيغة الثانية والثالثة تقعان باطنتين لعدم الموضوع للطلاق، فإن الطلاق إنما هو لقطع علاقة الزوجية، فلا زوجية بعد الصيغة الأولى حتى تقطع، ولا رابطة قانونية حتى تصرم.

وبعبارة واضحة: إن الطلاق هو أن يقطع الزوج علاقة الزوجية بينه وبين امرأته ويطلق سراحها من قيدها، وهو لا يتحقق بدون وجود تلك العلاقة الاعتبارية الاجتماعية، ومن المعلوم أن المطلقة لا تطلق، والمسرح لا تسرح. وربما يقال: إن المطلقة ما زالت في حباله الرجل وحكمها حكم الزوجة، فعندئذ يكون للصيغة الثانية والثالثة تأثير بحكم هذه الضابطة، ولكن الإجابة عنه واضحة، وذلك لأن الصيغة الثانية لغو جدا، لأن الزوجة بعدها أيضا بحكم الزوجة، وإنما تخرج عنه إذا صار الطلاق بائنا، وهو يتحقق بالطلاق ثلاثا. والحاصل: أنه لا يحصل بهذا النحو من التطليقات الثلاث، العدد الخاص الذي هو موضوع للآية التالية، أعني قوله سبحانه: {فإن طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره} وكيف لا يكون ذلك، وقد قال (صلى الله عليه وآله): " لا طلاق إلا بعد نكاح "، وقال: " لا طلاق قبل نكاح " (١).

فتعدد الطلاق رهن تحلل عقدة الزواج بين الطلاقين، ولو بالرجوع، وإذا لم تتحلل يكون التكلم أشبه بالتكلم بكلام لغو. قال السماك: إنما النكاح عقدة تعقد، والطلاق يحلها، وكيف تحل عقدة قبل أن

(١) السنن الكبرى ٧: ٣١٨ - ٣٢١، مستدرک الحاكم ٢: ٢٤.

تعقد؟! (١)

٣ - قوله سبحانه: { فطلقوهن لعدتهن }

إن قوله سبحانه: { الطلاق مرتان }، وارد في الطلاق الذي يجوز فيه الرجوع (٢). ومن جانب آخر دل قوله سبحانه: { إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة } (٣). على أن الواجب في حق هؤلاء هو الاعتداد وإحصاء العدة، من غير فرق بين أن نقول: إن " اللام " في { عدتهن } للظرفية بمعنى " في عدتهن " أو بمعنى الغاية، والمراد لغاية أن يعتدّن، إذ على كل تقدير يدل على أن من خصائص الطلاق الذي يجوز فيه الرجوع، هو الاعتداد وإحصاء العدة، وهو لا يتحقق إلا بفصل الأول عن الثاني، وإلا يكون الطلاق الأول بلا عدة وإحصاء ولو طلق اثنتين مرة. ولو طلق ثلاثا يكون الأول والثاني كذلك.

وقد استدل بعض أئمة أهل البيت بهذه الآية على بطلان الطلاق ثلاثا:

روى صفوان الجمال عن أبي عبد الله (عليه السلام): أن رجلا قال له: إني طلق امرأتي

ثلاثا في مجلس؟ قال: " ليس بشيء "، ثم قال: " أما تقرأ كتاب الله: { يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن - إلى قوله سبحانه - لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا } ثم قال: كل ما خالف كتاب الله والسنة فهو يرد إلى كتاب الله والسنة " (٤). أضف إلى ذلك: أنه لو صح التطبيق ثلاثا فلا يبقى لقوله سبحانه: { لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا } فائدة، لأنه يكون بائنا ويبلغ الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، ولا تحل العقدة إلا بنكاح رجل آخر وطلاقه مع أن الظاهر أن المقصود حل

(١) السنن الكبرى ٧: ٣٢١.

(٢) فخرج الطلاق البائن كطلاق غير المدخولة، وطلاق اليائسة من المحيض الطاعنة في السن وغيرهما.

(٣) الطلاق: ١.

(٤) قرب الإسناد: ص ٣٠، ورواه الحر العاملي في وسائل الشيعة ج ١٥، الباب ٢٩، الحديث ٢٥، من

أبواب

مقدمات الطلاق.

المشكلة عن طريق الرجوع، أو العقد في العدة.

ثانياً: الاستدلال بالسنة:

تعرفت على قضاء الكتاب في المسألة، وأما حكم السنة، فهي تعرب عن أن الرسول كان يعد مثل هذا الطلاق لعبا بالكتاب.

١ - أخرج النسائي عن محمود بن لبيد قال: أخبر رسول الله عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: " أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟ " حتى قام رجل وقال: يا رسول الله ألا أقتله؟ (١).

إن محمود بن لبيد صحابي صغير وله سماع، روى أحمد بإسناد صحيح عنه قال: أتانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فصلى بنا المغرب في مسجدنا فلما سلم منها... (٢).

ولو سلمنا عدم سماعه كما يدعيه ابن حجر في فتح الباري (٣) فهو صحابي ومراسيل الصحابة حجة بلا كلام عند الفقهاء، أخذنا بعد التهم أجمعين.

٢ - روى ابن إسحاق عن عكرمة، عن ابن عباس قال: طلق ركانة زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً، فسأله رسول الله: " كيف طلقته؟ " قال: طلقته ثلاثاً في مجلس واحد. قال: إنما تلك طلقة واحدة فارتجعها (٤).

والسائل هو ركانة بن عبد يزيد، روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن

(١) النسائي، السنن ٦: ١٤٢، الدر المنثور ١: ٢٨٣.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند ٥: ٤٢٧.

(٣) فتح الباري ٩: ٣١٥، ومع ذلك قال: رجاله ثقات، وقال في كتابه الآخر بلوغ المرام: ص ٢٢٤: رواه موثقون، ونقل الشوكاني في نيل الأوطار ٧: ١١ عن ابن كثير أنه قال: إسناده جيد، انظر " نظام الطلاق في الإسلام " للقاضي أحمد محمد شاكر: ص ٣٧.

(٤) بداية المجتهد ٢: ٦١. ورواه آخرون كابن قيم في إغاثة اللهفان: ١٥٦، والسيوطي في الدر المنثور ١: ٢٧٩ وغيرهم.

عباس قال: طلق ركانة بن عبد يزيد أخو بني مطلب امرأته ثلاثا في مجلس واحد فحزن عليها حزنا شديدا قال: فسأله رسول الله: " كيف طلقتها؟ " قال: طلقتها ثلاثا. قال، فقال: " في مجلس واحد؟ " قال: نعم. قال: " فإنما تلك واحدة فرجعها إن شئت ". قال: فأرجعها. فكان ابن عباس يرى إنما الطلاق عند كل طهر (١).

الاجتهاد مقابل النص

التحق النبي الأكرم بالرفيق الأعلى، وقد حدث بين المسلمين اتجاهان مختلفان، وصراعان فكريان، فعلي ومن تبعه من أئمة أهل البيت، كانوا يحاولون التعرف على الحكم الشرعي من خلال النص الشرعي آية أو رواية، ولا يعملون برأيهم أصلا، وفي مقابلهم لفيف من الصحابة يستخدمون رأيهم للتعرف على الحكم الشرعي من خلال التعرف على المصلحة ووضع الحكم وفق متطلباتها. إن استخدام الرأي فيما لا نص فيه، ووضع الحكم وفق المصلحة أمر قابل للبحث والنقاش، إنما الكلام في استخدامه فيما فيه نص، فالطائفة الثانية كانت تستخدم رأيها تجاه النص، لا في خصوص ما لا نص فيه من كتاب أو سنة بل حتى فيما كان فيه نص ودلالة.

يقول أحمد أمين المصري: ظهر لي أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الرأي في أوسع من المعنى الذي ذكرناه، وذلك أن ما ذكرناه هو استعمال الرأي حيث لا نص من كتاب ولا سنة، ولكننا نرى الخليفة سار أبعد من ذلك، فكان يجتهد في تعرف المصلحة التي لأجلها نزلت الآية أو ورد الحديث، ثم يسترشد بتلك المصلحة في

(١) أحمد بن حنبل، المسند ١: ٢٦٥.

أحكامه، وهو أقرب شئ إلى ما يعبر عنه الآن بالاسترشاد بروح القانون لا بحرفيته (١).

إن الاسترشاد بروح القانون الذي أشار إليه أحمد أمين أمر، ونبذ النص والعمل بالرأي أمر آخر، ولكن الطائفة الثانية كانوا ينبذون النص ويعملون بالرأي، وما روي عن الخليفة في هذه المسألة، من هذا القبيل. وإن كنت في ريب من ذلك فنحن نتلو عليك ما وقفنا عليه:

١ - روى مسلم عن ابن عباس، قال: كان الطلاق على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)

وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر: طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن الخطاب: إن الناس قد استعجلوا في أمر قد كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيته عليهم، فأمضاه عليهم (٢).

٢ - وروى عن ابن طاووس عن أبيه: أن أبا الصهباء قال لابن عباس: أتعلم إنما كانت الثلاث تجعل واحدة على عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وثلاثا من إمارة عمر؟ فقال: نعم (٣).

٣ - وروى أيضا: أن أبا الصهباء قال لابن عباس: هات من هناتك، ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله وأبي بكر واحدة؟ قال: قد كان ذلك فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطلاق فأجازه عليهم (٤).

٤ - روى البيهقي، قال: كان أبو الصهباء كثير السؤال لابن عباس، قال: أما علمت أن الرجل كان إذا طلق امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها، جعلوها واحدة على عهد النبي (صلى الله عليه وآله) وأبي بكر (رضي الله عنه) وصدرا من إمارة عمر (رضي الله عنه) فلما رأى الناس قد

(١) فجر الإسلام: ٢٣٨، نشر دار الكتاب.

(٢) مسلم، الصحيح ٤ باب طلاق الثلاث، الحديث ١ و ٢ و ٣. وهناتك يعني أخبارك وأمورك المستغربة.

(٣) مسلم، الصحيح ٤ باب طلاق الثلاث، الحديث ١ و ٢ و ٣. وهناتك يعني أخبارك وأمورك المستغربة.

(٤) مسلم، الصحيح ٤ باب طلاق الثلاث، الحديث ١ و ٢ و ٣. وهناتك يعني أخبارك وأمورك المستغربة.

تتابعوا فيها، قال: أجزئوهن عليهم (١).
٥ - أخرج الطحاوي من طريق ابن عباس أنه قال: لما كان زمن عمر (رضي الله عنه)
قال:

يا أيها الناس قد كان لكم في الطلاق أناة، وإنه من تعجل أناة الله في الطلاق ألزمناه
إياه (٢).

٦ - عن طاووس قال: قال عمر بن الخطاب: قد كان لكم في الطلاق أناة
فاستعجلتم أناتكم، وقد أجزنا عليكم ما استعجلتم من ذلك (٣).

٧ - عن الحسن: أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري: لقد
هممت أن أجعل إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً في مجلس أن أجعلها واحدة، ولكن
أقواماً جعلوا على أنفسهم، فألزم كل نفس ما ألزم نفسه. من قال لامرأته: أنت
علي حرام، فهي حرام، ومن قال لامرأته: أنت بائنة، فهي بائنة، ومن قال: أنت
طالق ثلاثاً، فهي ثلاث (٤).

هذه النصوص تدل على أن عمل الخليفة لم يكن من الاجتهاد فيما لا نص فيه،
ولا أخذاً بروح القانون الذي يعبر عنه بتنقيح المناط وإسراء الحكم الشرعي إلى
المواضع التي تشارك المنصوص في المسألة، كما إذا قال: الخمر حرام، فيسري
حكمه إلى كل مسكر أخذاً بروح القانون، وهو أن علة التحريم هي الإسكار
الموجودة في المنصوص وغير المنصوص، وإنما كان عمله من نوع ثالث وهو
الاجتهاد تجاه النص ونبذ الدليل الشرعي، والسير وراء رأيه وفكره وتشخيصه،
وقد ذكروا هنا تبريرات لحكم الخليفة إذ إنه: لما كان الحكم الصادر عن الخليفة
يخالف نص القرآن أو ظاهره، حاول بعض المحققين تبرير عمل الخليفة ببعض

(١) البيهقي، السنن ٧: ٣٣٩، الدر المنثور ١: ٢٧٩. والتتابع: الإكثار من الشر.

(٢) عمدة القاري ٩: ٥٣٧، وقال: إسناده صحيح.

(٣) كنز العمال ٩: ٦٧٦ / ٢٧٩٤٣ و ٢٧٩٤٤.

(٤) كنز العمال ٩: ٦٧٦ / ٢٧٩٤٣ و ٢٧٩٤٤.

الوجوه حتى يبرر حكمه ويصححه ويخرجه عن مجال الاجتهاد مقابل النص، بل يكون صادرا عن دليل شرعي، ومن تلك الوجوه:
١ - نسخ الكتاب بالإجماع الكاشف عن النص:
إن الطلاق الوارد في الكتاب منسوخ، فإن قلت: ما وجه هذا النسخ وعمر (رضي الله عنه)

لا ينسخ، وكيف يكون النسخ بعد النبي (صلى الله عليه وآله)؟ قلت: لما خاطب عمر الصحابة بذلك

فلم يقع إنكار، صار إجماعا، والنسخ بالإجماع جوزه بعض مشايخنا، بطريق أن الإجماع موجب علم اليقين كالنص، فيجوز أن يثبت النسخ به، والإجماع في كونه حجة أقوى من الخبر المشهور.

فإن قلت: هذا إجماع على النسخ من تلقاء أنفسهم فلا يجوز ذلك في حقهم.

قلت: يحتمل أن يكون ظهر لهم نص أوجب النسخ ولم ينقل إلينا (١).

يلاحظ عليه أولا: أن المسألة يوم أفتى بها الخليفة، كانت ذات قولين بين نفس الصحابة، فكيف انعقد الإجماع على قول واحد، وقد عرفت الأقوال في صدر المسألة. ولأجل ذلك نرى البعض الآخر ينفي انعقاد الإجماع البتة ويقول: "وقد أجمع الصحابة إلى السنة الثانية من خلافة عمر على أن الثلاث بلفظ واحد واحدة، ولم ينقض هذا الإجماع بخلافه، بل لا يزال في الأمة من يفتي به قرنا بعد قرن إلى يومنا هذا" (٢).

وثانيا: إن هذا البيان يخالف ما برر به الخليفة عمله حيث قال: إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة، فلو أمضيها عليهم. فأمضاه عليهم، ولو كان هناك نص عند الخليفة، لكان التبرير به هو المتعين.

(١) عمدة القاري ٩: ٥٣٧.

(٢) تيسير الوصول ٣: ١٦٢.

وفي الختام نقول: أين ما ذكره صاحب العمدة مما ذكره الشيخ صالح بن محمد العمري (المتوفى ١٢٩٨ هـ) حيث قال: إن المعروف عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعند سائر العلماء المسلمين: أن حكم الحاكم المجتهد إذا خالف نص كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجب نقضه ومنع نفوذه، ولا

يعارض نص الكتاب والسنة بالاحتمالات العقلية والخيالات النفسية، والعصبية الشيطانية بأن يقال: لعل هذا المجتهد قد اطلع على هذا النص وتركه لعله ظهرت له، أو أنه اطلع على دليل آخر، ونحو هذا مما لهج به فرق الفقهاء المتعصبين، وأطبق عليه جهلة المقلدين (١).

٢ - تعزيرهم على ما تعدوا به حدود الله:

لم يكن الهدف من تنفيذ الطلاق ثلاثا في مجلس، إلا عقابهم من جنس عملهم، وتعزيرهم على ما تعدوا حدود الله، فاستشار أولي الرأي، وأولي الأمر وقال: إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيته عليهم؟ فلما وافقوه على ما اعتزم أمضاه عليهم وقال: أيها الناس قد كانت لكم في الطلاق أناة، وأنه من تعجل أناة الله ألزماه إياه (٢).

لم أجد نصا فيما فحصت في مشاورة عمر أولي الرأي والأمر، غير ما كتبه إلى أبي موسى الأشعري بقوله: "لقد هممت أن أجعل إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا في مجلس أن أجعلها واحدة... (٣) وهو يخبر عن عزمه وهمه ولا يستشير، ولو كانت هنا استشارة كان عليه أن يستشير الصحابة من المهاجرين والأنصار

(١) إيقاظ همم أولي الأبصار: ص ٩.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند ١: ٣١٤ / ح ٢٨٧٧، وقد مر تخريج الحديث أيضا. لاحظ نظام الطلاق في الإسلام لأحمد محمد شاكر: ٧٩.

(٣) كنز العمال ٩: ٦٧٦ / ٢٧٩٤٣.

القاطنين في المدينة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، وقد كان يستشيريه في مواقف خطيرة ويقتفي رأيه.

ولا يكون استعجال الناس، مبررا لمخالفة الكتاب والسنة بل كان عليه ردع الناس عن عملهم السيئ بقوة ومنعة، وكيف تصح مؤاخذتهم بما أسماه رسول الله لعبا بكتاب الله (١).

يقول ابن قيم: إن هذا القول قد دل عليه الكتاب والسنة والقياس والإجماع القديم، ولم يأت بعده إجماع يبطله، ولكن رأى أمير المؤمنين عمر (رضي الله عنه) أن الناس قد

استهانوا بأمر الطلاق وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة، فرأى من المصلحة عقوبتهم بامضائه عليهم ليعلموا أن أحدهم إذا أوقعه جملة بانت منه المرأة، وحرمت عليه، حتى تنكح زوجا غيره نكاح رغبة، يراد للدوام، لا نكاح تحليل، فإذا علموا ذلك كفوا عن الطلاق المحرم، فرأى عمر أن هذا مصلحة لهم في زمانه، ورأى أن ما كانوا عليه في عهد النبي وعهد الصديق، وصدرا من خلافته كان الأليق بهم، لأنهم لم يتابعوا فيه وكانوا يتقون الله في الطلاق، وقد جعل الله لكل من اتقاه مخرجا، فلما تركوا تقوى الله وتلاعبوا بكتاب الله وطلقوا على غير ما شرعه الله ألزمهم بما التزموه عقوبة لهم فإن الله شرع الطلاق مرة بعد مرة، ولم يشرعه كله مرة واحدة (٢).

يلاحظ عليه: أن ما ذكره من التبرير لعمل الخليفة غير صحيح، إذ لو كانت المصالح المؤقتة مبررة لتغير الحكم، فما معنى " حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة " ولو صح ما ذكره لتسرب التغيير إلى أركان الشريعة، فيصبح الإسلام ألعوبة بيد الساسة، فيأتي سائس فيحرم الصوم على

(١) الدر المنثور ١: ٢٨٣.

(٢) أعلام الموقعين ٣: ٣٦.

العمال لتقوية القوة العاملة في المعامل.
وفي الختام فقد تنبه بعض علماء أهل السنة في هذه العصور لما في تنفيذ هذا النوع من الطلاق، ولأجل ذلك تغير قانون محاكم مصر الشرعية، وخالفت مذهب الحنفية بعد استقلالها وتحريها عن سلطنة الدولة العثمانية. وللأسف فإن كثيرا من مفتي أهل السنة على تنفيذ هذا النوع من الطلاق، ولأجل ذلك يقول مؤلف المنار بعد البحث الضافي حول المسألة: " ليس المراد مجادلة المقلدين أو إرجاع القضاة والمفتين عن مذاهبهم، فإن أكثرهم يطلع على هذه النصوص في كتب الحديث وغيرها ولا يبالي بها، لأن العمل عندهم على أقوال كتبهم دون كتاب الله وسنة رسوله " (١).
اللهم إنا نسألك التوفيق لإحياء السنن، وإماتة البدع، والعمل بكتابك وسنة نبيك سيد رسلك، وأفضل خليقتك.
ونسألك الابتعاد عن أهل الزيغ والبدع، ومكافحة الرأي المخترع، والتمسك بحبلك المتين، ونبذ ما ألصق بدينك القويم.
وصلى الله على رسول الله وعلى عترته الطاهرين وصحبه المنتجبين والسائرين على دربهم إلى يوم الدين.

(١) تفسير المنار ٢: ٣٨٦ - ٣٨٧، ط الثالثة ١٣٧٦ هـ.

الفصل الثالث:
الزيارة
في الكتاب والسنة

تمهيد:

الإسلام دين الفطرة

عندما نقول إن الإسلام دين الفطرة فهذا لا يعني أن كل حكم جزئي منه يوافقها، بل يعني أن الأصول الكلية في مجالي العقائد والشريعة، تنسجم مع الفطرة وتوحي إليها بشكل واضح، ولذلك كانت تعاليم الأنبياء، وفي مقدمتهم الشريعة الإسلامية، تثير مكنون الفطرة، لذا فهم قبل أن يكونوا معلمين كانوا مذكّرين بما أودع الله سبحانه في فطرة الإنسان من ميول نحو العبودية لله سبحانه، والانشداد إلى ما وراء الطبيعة، والجنوح إلى العدل ومكارم الأخلاق، والنفور عن الظلم ومساوئ العادات. فكأن الفطرة أول مدرسة يتعلم فيها الإنسان أصول المعارف ومكارم الأخلاق وآدابها، من دون معلم، وهذا لطف وامتنان منه سبحانه لعباده ويعد الحجر الأساس لسائر الهدايات الإلهية الواصلة إليهم عن طريق أنبيائه ورسله. وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: {فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (١) فإن المراد من الدين في الآية مجموع العقيدة والشريعة، كما فسره به

(١) الروم: ٣٠.

مشاهير المفسرين، وكلمة { فطرت الله } التي نصبت على الاختصاص تفسير للدين، فالدين - بتمام معنى الكلمة - يوافق فطرة الإنسان، بالمعنى الذي عرفت، أي أن أصوله ووكلياته تنسجم مع الفطرة وليست الآية وحيدة في بابها، بل لها نظائر في الذكر الحكيم تؤكد مضمونها، وتثبت بوضوح كون معرفة المحاسن والمساوئ والفجور والتقوى والميل إلى الفضائل، والانتزاج عن الرذائل أمرا فطريا إلى حد يقول سبحانه: { ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها } (١) وفي آية أخرى: { ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين } (٢).

فالإنسان الطبيعي الذي لم يتأثر بالمناهج البشرية، يدرك المحاسن والمساوئ، والفجور والتقوى والخير والشر، كرامة من الله سبحانه إليه.

ومن روائع الكلم ما روي عن الإمام علي (عليه السلام) حول تحديد دعوة الأنبياء وأن دورهم في مجال التربية تذكيرهم بمقتضيات الفطرة، يقول (عليه السلام): " فبعث الله فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول " (٣).

فالشرائع السماوية كأنها تستنطق الفطرة، وتذكر بالنعمة المنسية بفعل الأهواء والدعايات الباطلة، وقد أمر حملتها بإثارة ما دفن في فطرة الإنسان من جواهر المعقولات في مجالي العقيدة والشريعة.

وعلى ذلك فالشريعة - وفق الفطرة - مصباح ينير الدرب لكل ساع في طلب الحق. وكل فكرة أو ميل، توحى إليهما الفطرة فهو آية كونه حقا، وكل فكرة أو

(١) الشمس: ٧ - ٨.
(٢) البلد: ٨ - ١٠.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١.

جنوح، يناقض الفطرة وترفضهما فهو آية كونه باطلا. ولأجل ذلك تخلينا عن الرهبانية والتعزب ووآد البنات، لأنها تخالف مقتضى الفطرة. إن البحث في كون الشريعة الإلهية شريعة فطرية، يتطلب مجالا واسعا لما يترتب على البحث من نتائج مشرقة تعين على حل مشاكل أثارها خصوم الإسلام في مجال خاتمية الشريعة الإسلامية، حيث إنهم يرفضون كون الدين دينا خاتما، بزعمهم أن الحياة الإنسانية حياة متغيرة ومتحولة فكيف يمكن تدبير المجتمع المتغير، بقوانين ثابتة جامدة؟ ولكنهم لعدم معرفتهم بحقيقة الشريعة الإسلامية، غفلوا عن أمر هام، وهو أن المتغير في الحياة الإنسانية هو القشر، لا اللب، وإلا فالإنسان بما له من غرائز وميول علوية وسفلية لم ولن يتغير، وبهذه الميزة والخصوصية هو محكوم بالقوانين الثابتة.

فالإنسان القديم كان يحب العدل وينفر من الظلم ويميل إلى الزواج والحياة الاجتماعية وهكذا الإنسان في العصر الحاضر، إذن فالقانون في حقهما سواء وإن تغيرت أجواء الحياة وقشورها ولباسها وظواهرها. الصلة بين الأحياء والأموات

إن زيارة الإنسان لقبر حبيبه ومن كانت له به صلة روحية أو مادية، هي مما تشتاق إليه النفوس السليمة، فكل من يعيش تحت السماء باسم الإنسان السوي إذا فارق أحبه وأقرباءه، لا يقطع علاقته بمن شغف قلبه حبا، بل هو على حبه باق، ويريد أن يجسد محبته وشوقه بصور مختلفة، فهو تارة يأوي إلى آثار حبيبه ورسوم داره وأطلاله، فيحتفظ بألبسته وأثاثه وقلمه وخطوطه، ولا

يكتفي بذلك بل يحاول أن يزور قبره وتربته حيناً بعد حين. كل ذلك بباعث ذاتي من صميم خلقتة، فلا يصح لدين أسه الفطرة أن يخالفه أو يمنعه من وصل أحبائه وتعاهدهم.

لكن للإسلام أن يحددها ويذكر آدابها ويمنع عن بعض الأمور غير الدخيلة في صميمها، لكن ليس في وسعه - بما أنه مناد لدين الفطرة - أن يقوم بقطع العلائق مع الأحبة بتاتا.

وعلى ضوء ذلك ترى أن السنة حثت على زيارة القبور وذكرت آثارها البناءة، ولو منعت في فترة خاصة - لو صح المنع - فإنما هو لمانع عن تطبيق الحكم وتنفيذه كما سيظهر لك.

هذا هو أصل الزيارة، وقضاء الفطرة على وفقه. مضافاً إلى ذلك فلها آثار تربوية وهي ما يلي:

الآثار التربوية لزيارة القبور

الآثار التربوية لزيارة القبور

إن زيارة القبور تنطوي على آثار تربوية وأخلاقية، وذلك لأن مشاهدة المقابر التي تضم في طياتها مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في هذه الحياة الدنيا، وكانوا بمكان عال من القدرة والسلطة، ثم انتقلوا إلى الآخرة، تؤدي إلى الحد من روح الطمع، والحرص على الدنيا، وربما تغير سلوك الإنسان لما يرى أن المنزل الأخير لحياته إنما هو بيت ضيق ومظلم باق فيه إلى ما شاء الله، فعند ذلك ربما يترك المظالم والمنكرات ويتوجه إلى القيم والأخلاق.

وإلى هذا الجانب من الأثر التربوي يشير النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) ويقول: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها ترق القلوب، وتدمع

العين وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجرا " (١).
وفي لفظ آخر: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهّد
في الدنيا " (٢). وفي لفظ ثالث: " وتذكر الآخرة " (٣).
وعن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وآله) زار قبر أمه ولم يستغفر لها، قال: "
أمرت بالزيارة
ونهيته عن الاستغفار، فزوروا القبور، فإنها تذكّر الموت " (٤).
وعنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: " زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة " (٥).
ويظهر من بعض الروايات أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) نهى يوما عن زيارة
القبور ثم
رخصها، وكان النهي والترخيص من الله سبحانه.
ولعل النهي كان بملاك أن أكثر الأموات يومذاك كانوا من المشركين، فنهى
النبي (صلى الله عليه وآله) عن زيارتهم، ولما كثرت المؤمنون بينهم رخص بإذن الله.
ولعل هناك ملاكا آخر للنهي وهو أن زيارة القبور تذكّر بالموتى والقتلى،
وتورث الحنين عن الجهاد، وإذ قوي الإسلام رخص في الزيارة (٦).
وعن أم سلمة عنه (صلى الله عليه وآله): " نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإن لكم
فيها
عبرة " (٧).

-
- (١) كنز العمال: ج ١٥، ح ٤٢٥٥٥ و ٤٢٩٩٨.
(٢) كنز العمال ١٥: ح ٤٢٥٥٢.
(٣) ابن ماجة، السنن ١: ٥٠١ / ١٥٧١.
(٤) مسلم، الصحيح ٢: ٦٧١ / ١٠٨، أحمد بن حنبل، المسند ١: ٤٤٤، ابن ماجة، السنن ١: ٦٧٦، أبو
داود،
السنن ٢: ٧٢، البيهقي، السنن ٤: ٧٦، النسائي، السنن ٤: ٩٠، الحاكم، المستدرک ١: ٣٧٦.
(٥) ابن ماجة، السنن ١: ٥٠٠ / ١٥٦٩.
(٦) منهج الرشاد: ص ١٤٤.
(٧) كنز العمال ١٥: ٦٤٧ / ٤٢٥٥٨.

الآثار الاجتماعية لزيارة أكابر الدين
الآثار الاجتماعية لزيارة أكابر الدين
قد تعرفت على الآثار التربوية لزيارة قبور المسلمين، وهنا آثار تختص
بزيارة أكابر المسلمين ورؤسائهم، وفي طليعتهم زيارة النبي الأكرم (صلى الله عليه
 وآله) وهي: أن في

زيارتهم نوعا من الشكر والتقدير على تضحياتهم، وإعلاما للجيل الحاضر بأن
هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى والدفاع عن المبدأ والعقيدة.
ولأجل هذا الأثر الممتاز لزيارة صلحاء الأمة، نجد أن الأمم الحية تتسابق
على زيارة مدفن رؤسائهم وشخصياتهم، الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل
إحياء الشعب واستقلاله من أيدي المستعمرين والظالمين، وقيمون الذكريات
المثوية لإحياء معالمهم، ويعدون تعظيما وتكريما لأهدافهم.
وهذا هو العالم بغربه وشرقه، فيه قبور وأضرحة لشخصياته وعظمائه
وصلحائه من غير فرق بين ديني وديني، لأن الإنسان يرى زيارتهم تكريما لهم،
وتأدية لحقوقهم، ووفاء لعهدهم، فكل ما يقوم به فهو بوحى الفطرة ودعوتها إلى
ذلك.

إن القبور التي تحظى باهتمام واحترام المؤمنين بالله في العالم - وخاصة
المسلمين - هي في الغالب قبور حملة الرسالات الإصلاحيين الذين أدوا مهمتهم
على الوجه المطلوب.

وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ - الأنبياء والقادة الدينيون الذين حملوا على عاتقهم رسالة السماء
وضحوا - من أجلها - بالنفس والمال والأحباب، وتحملوا أنواع المتاعب
والمصاعب من أجل هداية الناس.

٢ - العلماء والمفكرون الذين كانوا كالشمعة تحرق نفسها لتضيء للآخرين، وقد عاش هؤلاء حياة الزهد والحرمان، وقدموا للعالم، البحوث القيمة والتحقيقات الرائعة في مجالات العلم والفكر والطبيعة ومفاهيم السماء وعلوم الكون والمخلوقات وغير ذلك.

٣ - المجاهدون الثائرون الذين ضاقوا ذرعا بما يعيشه المجتمع من الظلم وسحق الحقوق والتمييز العنصري أو القومي، فثاروا ضد الظلم والطغيان وطالبوا بحفظ كرامة الإنسان وأداء حقوقه، وأقاموا صرح العدالة بدمائهم الغالية. إن أية ثورة أو تغيير اجتماعي لا يقدر له النجاح إلا بدفع الثمن، وإن ثمن الثورة التي تستهدف تدمير قصور الظالمين، وخنق أنفاسهم هو الدماء الزكية التي يضحى بها المقاتلون الأبطال لإعادة الحق والحرية إلى الوطن الإسلامي.

ولذا فإن الناس يزورون قبور هؤلاء ويذرفون عندها الدموع، ويتذكرون بطولاتهم وتضحياتهم، ويسعدون أرواحهم بتلاوة آيات من القرآن الحكيم هدية إليهم، وينشدون قصائد في مدحهم وثنائهم وتقدير مواقفهم المشرفة. إن زيارة مراقده هذه الشخصيات هي نوع من الشكر والتقدير على تضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأن هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى والفضيلة والدفاع عن المبدأ والعقيدة.

إن جزاءهم هو خلود الذكر الحسن والثناء الجميل، بالرغم من مرور الزمان على وفاتهم، وتعريف الناس بتلك الشخصيات الراقية وبمعتقداتهم التي ضحوا من أجلها، واحترام مراقدهم وتجنب كل ما يمس بكرامتها، لأن احترام قبورهم احترام لرسالاتهم وعقائدهم، كما أن أي نوع من الإهانة والتحقير تجاه مراقدهم هو في الحقيقة إهانة لرسالاتهم وتحقير لشخصيتهم.

ثم إن لبعض أهل المعرفة تحليلا علميا رائعا في زيارة النبي الأكرم نذكره

بنصه قال:

اعلم أن النفوس القوية القدسية، لا سيما نفوس الأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، إذا
نفضوا

أبدانهم الشريفة وتجردوا عنها، وصعدوا إلى عالم التجرد، وكانوا في غاية الإحاطة
والاستيلاء على هذا العالم يكون العالم عندهم ظاهراً منكشفاً، فكل من يحضر
مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لا سيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة
العلية، ومحال حضور أشباحهم البرزخية النورية، فإنهم هناك يشهدون {بل
أحياء عند ربهم يرزقون} (١)، وبما آتاهم الله من فضله فرحون، فلهم تمام العلم
والاطلاع بزائري قبورهم، وحاضري مراقدهم وما يصدر عنهم من السؤال
والتوسل والاستشفاع والتضرع، فتهب عليهم نسمات ألطافهم، وتفيض عليهم
من رشحات أنوارهم، ويشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، وإنجاح مقاصدهم،
وغفران ذنوبهم وكشف كربهم.

فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة النبي والأئمة (عليهم السلام) مع ما فيه من صلة
لهم، وبرهم وإجابتهم، وإدخال السرور عليهم، وتجدد عهد ولايتهم، وإحياء
أمرهم، وإعلاء كلمتهم، وتبكيك أعدائهم. وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى
عظيم أجره وجزيل ثوابه.

وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات، وأشرف الطاعات، وأن في زيارة
المؤمن - من جهة كونه مؤمناً فحسب - عظيم الأجر وجزيل الثواب، وقد ورد به
الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة، ولذلك كثر تردد الأحياء
إلى قبور أمواتهم للزيارة، وتعارف ذلك بينهم، حتى صارت لهم سنة طبيعية.
وأيضاً قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله، وثواب صلته وبره وإدخال
السرور عليه، وإذا كان الحال في المؤمن من حيث إنه مؤمن، فما ظنك بمن

(١) آل عمران: ١٦٩.

عصمه الله من الخطأ، وطهره من الرجس، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين، وجعله حجة على العالمين، وارتضاه إماماً للمؤمنين، وقدوة للمسلمين، ولأجله خلق السماوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيله، وعينه ودليله، وبابه الذي يؤتى منه، ونوره الذي يستضاء به، وأمينه على بلاده، وحبله المتصل بينه وبين عباده، من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء (١).

وفي الختام نقول: ليس الهدف من هذا التقديم تصويب بعض ما يقع عند الزيارة من محرمات الأفعال، فإنها أمور جانبية لا تمت لأصل الزيارة بصله، والذي ندعيه - وعليه يشهد عمل العقلاء في العالم دينهم وغيره - أن للإنسان علاقة بمن كان يعشقه ويحبه، فلا يقطع علاقته به بموته بل يحتفظ بها بشكل خاص بعد الفراق أيضاً، وهذا شيء يلمسه الإنسان من صميم ذاته، وليس لشريعة سماوية بما أنها تجاوب الفطرة تمنعه من ذلك، بل لها أن تعدله وتحده وتغزل عنه ما ليس منه.

وها نحن نعالج الموضوع بالبحث في الأمور التالية:

- ١ - زيارة القبور في الكتاب والسنة النبوية.
- ٢ - أعلام الأمة وزيارة النبي الأكرم.
- ٣ - زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) في الكتاب.
- ٤ - زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) في السنة.
- ٥ - شد الرحال إلى زيارة قبر النبي الأعظم.
- ٦ - شبهات وتشكيكات حول زيارة النبي الأكرم.
- ٧ - خاتمة: تذكرة وإنذار.

(١) جامع السعادات ٣: ٣٩٨ و ٣٩٩.

المبحث الأول

زيارة القبور في الكتاب والسنة

قد عرفت أن زيارة الإنسان لمن له به صلة روحية أو مادية، مما تشتاق إليه النفوس السليمة، بل هي من وحي الفطرة، ولأجل ذلك نرى أن الكتاب والسنة يدعمان أصل الزيارة بوجه خاص.

زيارة القبور في القرآن الكريم

أما الكتاب فقوله سبحانه: {ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون} (١).
إن الآية تسعى لهدم شخصية المنافق، ورفع العصا في وجوه حزبه ونظرائه. والنهي عن هذين الأمرين بالنسبة إلى المنافق، معناه ومفهومه مطلوبة هذين الأمرين (الصلاة والقيام على القبر) بالنسبة لغيره أي للمؤمن.
والآن يجب أن ننظر في قوله تعالى: {ولا تقم على قبره} ما معناه؟

(١) التوبة: ٨٤.

هل المعنى هو القيام وقت الدفن فقط، حيث لا يجوز ذلك للمنافق، ويستحب للمؤمن، أو المعنى أعم من وقت الدفن وغيره؟
إن بعض المفسرين وإن خصوا القيام نفياً وإثباتاً بوقت الدفن، لكن البعض الآخر فسروه في كلا المجالين بالأعم من وقت الدفن وغيره.
قال السيوطي في تفسيره: ولا تقم على قبره لدفن أو زيارة (١).
وقال الآلوسي البغدادي: ويفهم من كلام بعضهم أن "على" بمعنى "عند" والمراد: لا تقف عند قبره للدفن أو للزيارة (٢).
وقال الشيخ إسماعيل حقي البروسوي: {ولا تقم على قبره} أي ولا تقف عند قبره للدفن أو للزيارة والدعاء (٣).

إلى غير ذلك من المفسرين، وقد سبقهم البيضاوي في تفسيره (٤).
والحق مع من أخذ بإطلاق الآية وإليك توضيحه:

إن الآية، تتألف من جملتين:

الأولى: قوله تعالى: {ولا تصل على أحد منهم مات}.
إن لفظة "أحد" بحكم ورودها في سياق النفي تفيد العموم والاستغراق لجميع الأفراد، ولفظة "أبدا" تفيد الاستغراق الزمني، فيكون معناها: لا تصل على أحد من المنافقين في أي وقت كان.

فمع الانتباه إلى هذين اللفظين نعرف - بوضوح - أن المراد من النهي عن الصلاة على الميت المنافق ليس خصوص الصلاة على الميت عند الدفن فقط، لأنها ليست قابلة للتكرار في أزمنة متعددة، ولو أريد ذلك لم تكن هناك حاجة إلى لفظة

(١) تفسير الجلالين: سورة التوبة في تفسيره الآية.

(٢) روح المعاني ١٠: ١٥٥.

(٣) روح البيان ٣: ٣٧٨.

(٤) أنوار التنزيل ١: ٤١٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

"أبدا"، بل المراد من الصلاة في الآية مطلق الدعاء والترحم سواء أكان عند الدفن أم غيره.

فإن قال قائل: إن لفظة "أبدا" تأكيد للاستغراق الأفرادي لا الزماني.

فالجواب بوجهين:

١ - أن لفظة "أحد" أفادت الاستغراق والشمول لجميع المنافقين بوضوح، فلا حاجة للتأكيد.

٢ - أن لفظة "أبدا" تستعمل في اللغة العربية للاستغراق الزماني، كما في قوله تعالى: {ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا} (١).

فالنتيجة أن المقصود هو النهي عن الترحم على المنافق وعن الاستغفار له، سواء أكان بالصلاة عليه عند الدفن أم بغيرها.

الثانية: {ولا تقم على قبره}.

إن مفهوم هذه الجملة - مع الانتباه إلى أنها معطوفة على الجملة السابقة - هو: "لا تقم على قبر أحد منهم مات أبدا" لأن كل ما ثبت للمعطوف عليه من القيد - أعني "أبدا" - يثبت للمعطوف أيضا، ففي هذه الحالة لا يمكن القول بأن المقصود من القيام على القبر هو وقت الدفن فقط، لأن المفروض عدم إمكان تكرار القيام على القبر وقت الدفن، كما كان بالنسبة للصلاة، ولفظة "أبدا" المقدره في هذه الجملة الثانية تفيد إمكانية تكرار هذا العمل، فهذا يدل على أن القيام على القبر لا يختص بوقت الدفن.

وإن قال قائل: إن لفظة "أبدا" المقدره في الجملة الثانية معناها الاستغراق الأفرادي.

قلنا: قد سبق الجواب عليه، وأن لفظة "أحد" للاستغراق الأفرادي، لا لفظة

(١) الأحزاب: ٥٣.

" أبدا " فهي للاستغراق الزماني.
فيكون معنى الآية الكريمة: أن الله تعالى ينهى نبيه (صلى الله عليه وآله) عن مطلق
الاستغفار
والترحم على المنافق، سواء كان بالصلاة أو مطلق الدعاء، وينهى عن مطلق القيام
على القبر، سواء كان عند الدفن أو بعده. ومفهوم ذلك هو أن هذين الأمرين
يجوزان للمؤمن.
وبهذا يثبت جواز زيارة قبر المؤمن وجواز قراءة القرآن على روحه، حتى بعد
مئات السنين.
هذا بالنسبة إلى المرحلة الأولى وهي أصل الزيارة من وجهة نظر القرآن، وأما
بالنسبة إليها من ناحية الأحاديث فأليك بيانها:
زيارة القبور في السنة النبوية
إن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) جسد بعمله مشروعية زيارة القبور - مضافا إلى
أنه أمر بها
كما مر - وعلم كيفيتها، وكيف يتكلم الإنسان مع الموتى، فقد ورد في غير واحد من
المصادر، أنه (صلى الله عليه وآله) زار البقيع، وإليك النصوص:
١ - روى مسلم عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كلما
كان ليلتها من
رسول الله (صلى الله عليه وآله) يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: " السلام عليكم
دار قوم
مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم
اغفر لأهل بقيع الغرقد " (١).
٢ - وعن عائشة في حديث طويل أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال لها: " أتاني
جبرئيل فقال:
إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم " قالت: قلت: كيف أقول لهم يا

(١) مسلم، الصحيح ٣: ٦٣، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها من كتاب الجنائز.

رسول الله؟ قال: " قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين،
ورحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون " (١).

٣ - وروى ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعلمهم إذا

خرجوا إلى

المقابر فكان قائلهم يقول: - في رواية أبي بكر - " السلام على أهل الديار " وفي
رواية زهير: " السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله
للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية " (٢).

٤ - عن ابن بريدة، عن أبيه: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " نهيتكم عن زيارة
القبور

فزوروها " (٣).

٥ - ورويت في كنز العمال الروايات التالية: " السلام عليكم دار قوم
مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. ووددت أنا قد أرينا إخواننا
قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا
بعد. إلخ " (٤).

٦ - " السلام عليكم يا أهل القبور من المؤمنين والمسلمين، يغفر الله لنا
ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر " (٥).

٧ - " السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا وإياكم متواعدون غدا
ومتواكلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد " (٦).

٨ - " السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم لنا فرط، وإنا بكم لاحقون،

(١) مسلم، الصحيح ٣: ٦٤، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز، النسائي، السنن ٤: ٩١.

(٢) مسلم، الصحيح ٣: ٦٥، باب ما يقال عند دخول القبور من كتاب الجنائز.

(٣) مسلم، الصحيح ٧: ٤٦، الترمذي، السنن ٣: ٣٧٠ ح ١٠٥٤، النسائي، السنن ٤: ٨٩.

(٤) مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحصيل في الوضوء / ح ٢٤٩.

(٥) كنز العمال ١٥: ٢٤٧ - ٢٤٨ / ح ٤٢٥٦١.

(٦) كنز العمال ١٥: ٢٤٧ - ٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٢.

اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم " (١).
٩ - " إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيرا " (٢).
١٠ - " نهيتكم عن ثلاث وأنا أمركم بهن، نهيتكم عن زيارة القبور
فزوروها، فإن في زيارتها تذكرة " (٣). إلى غير ذلك من الآثار النبوية الحاثثة على
زيارة القبور، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى كنز العمال.

(١) كنز العمال ١٥: ٢٤٧ - ٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٣.

(٢) كنز العمال ١٥: ٢٤٧ - ٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٤.

(٣) كنز العمال ١٥: ٢٤٧ - ٢٤٨ / ح ٤٢٥٦٥.

المبحث الثاني
أعلام الأمة وزيارة قبر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)
إذا كانت زيارة قبور المسلمين من السنن التي دعا إليها النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وعمل بها بمرأى ومسمع من نساءه وصحابته، فزيارة قبر سيد ولد آدم ومن أنيطت إليه سعادة البشر أولى بها، لذا جرت سيرة المسلمين على زيارة قبره، وصرح بها فقهاء الأمة، وتضافرت السنة على استحبابها.
ولنقدم بعض الكلمات من أكابر الأمة التي تعرب عن موقف المسلمين طيلة القرون تجاه المسألة، فقد قيض سبحانه في كل عصر رجالا يجاهرون بالحق، وينفون غبار الباطل عن وجهه نذكر منهم شخصيتين كبيرتين من السنة والشيعنة:
١ - الإمام تقي الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة (٧٥٦ هـ) عليه سحائب الرحمة والرضوان. فقد خص في كتابه "شفاء السقام في زيارة خير الأنام" بابا لنقل نصوص العلماء على استحباب زيارة قبر سيدنا رسول الله، وقد بين أن الاستحباب أمر مجمع عليه بين المسلمين (١).

(١) شفاء السقام: ٦٥ - ٧٩ ونحن نغترف من هذا العين المعين، ونذكر كلمات المحققين من أهل السنة حول زيارة النبي (صلى الله عليه وآله).

٢ - العلامة الكبير الأميني في الغدير ٥: ١٠٩ - ١٢٥، فقد استدرك عليه بما لم يقف عليه الإمام السبكي، ونقل كلمات أعلام المذاهب الأربعة بما يتجاوز الأربعين كلمة. شكر الله مساعيها.

وقد راجعنا أكثر المصادر التي نقلنا عنها حسب ما حضرنا منها. واكتفينا بالنقل عنهما في غيره، وأضفنا بعض ما فات عنهما. ولعل المعثور عليه من الكلمات أقل مما لم يعثر عليه.

كلمات أعلام المذاهب حول الزيارة

١ - قال أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحلبي الجرجاني الشافعي (ت ٤٠٣ هـ) بعد الحث على تعظيم النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله): فأما اليوم فمن تعظيمه زيارته (١).

٢ - قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملي الشافعي (ت ٤٢٥ هـ): ويستحب للحاج إذا فرغ من مكة أن يزور قبر النبي (صلى الله عليه وآله) (٢).

٣ - قال القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري (ت ٤٥٠ هـ): ويستحب أن يزور النبي (صلى الله عليه وآله) بعد أن يحج ويعتمر (٣).

٤ - قال أفضى القضاة أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠ هـ): فإذا عاد (ولي الحاج) سار بهم على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليجمع لهم بين حج

بيت الله عز وجل وزيارة قبر رسول الله، رعاية لحرمة وقيامه بحقوق طاعته، وذلك وإن لم يكن من فروض الحج فهو من مندوبات الشرع المستحبة وعبادات

(١) المنتهاج في شعب الإيمان، كما في شفاء السقام: ص ٦٥.

(٢) التجريد، كما في شفاء السقام: ص ٦٥.

(٣) نقله عنه السبكي في شفاء السقام: ص ٦٥.

الجميع المستحسنة (١).
وقال أيضا في كتابه الحاوي: أما زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) فمأمور بها
ومندوب

إليها (٢).

٥ - حكى عبد الحق بن محمد الصقلي (ت ٤٦٦ هـ) عن الشيخ أبي عمران
المالكي أن زيارة قبر النبي واجبة، قال عبد الحق: يعني من السنن الواجبة (٣).

٦ - قال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازي الفقيه الشافعي (ت ٤٧٦ هـ):
ويستحب زيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) (٤).

٧ - وممن بسط الكلام في زيارة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) الإمام الغزالي في
كتاب الحج

من إحياء العلوم قال: الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها قال (صلى الله عليه
وآله): " من زارني

بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي ". وقال (صلى الله عليه وآله): " من وجد سعة ولم
يفد إلي

فقد جفاني " إلى أن قال: فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله (صلى الله
عليه وآله) في

طريقه كثيرا، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: اللهم هذا حرم
رسولك فاجعله لي وقاية من النار، وأمانا من العذاب وسوء الحساب، ثم ذكر
آداب الزيارة وصيغتها، كما ذكر زيارة الشيخين وزيارة البقيع بمن فيها، كزيارة قبر
عثمان وقبر الحسن بن علي، ثم قال: ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها،
ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله وقبر صفيه عمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فذلك
كله بالبقيع،

ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلي فيه لما روي أن رسول الله
(صلى الله عليه وآله)

قال: " من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان له عدل عمرة " (٥).

(١) الأحكام السلطانية: ص ١٠٩، دار الفكر، بيروت.

(٢) الحاوي، كما في شفاء السقام: ص ٦٥.

(٣) تهذيب الطالب، كما في شفاء السقام: ص ٦٨.

(٤) المهذب في فقه الإمام الشافعي ١: ٢٣٣، دار الفكر، بيروت.

(٥) إحياء علوم الدين ١: ٣٠٥ و ٣٠٦.

- ٨ - قال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوداني الفقيه البغدادي الحنبلي (ت ٥١٠ هـ): وإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) وقبر صاحبيه (١).
- ٩ - قال القاضي عياض المالكي (ت ٥٤٤ هـ): وزيارة قبره (صلى الله عليه وآله) سنة مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها، ثم ذكر عدة من أحاديث الباب فقال: قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: ومما لم يزل من شأن من حج المزور (٢) بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتبرك برؤية روضته (٣) ومنبره وقبره ومجلسه وملامس يديه ومواطن قدميه والعمود الذي استند إليه ومنزل جبرئيل بالوحي فيه عليه (٤).
- ١٠ - قال ابن هبيرة (ت ٥٦٠ هـ): اتفق مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل - رحمهم الله تعالى - على أن زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) مستحبة (٥).
- ١١ - عقد الحافظ ابن الجوزي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) في كتابه بابا في زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) وذكر حديث ابن عمر وحديث أنس اللذين سنذكرهما (٦).
- ١٢ - قال أبو محمد عبد الكريم بن عطاء الله المالكي (ت ٦١٢ هـ): إذا كمل لك حجك وعمرتك على الوجه المشروع لم يبق بعد ذلك إلا إتيان مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) للسلام على النبي (صلى الله عليه وآله) والدعاء عنده، والسلام على صاحبيه، والوصول إلى البقيع وزيارة ما فيه من قبور الصحابة والتابعين، والصلاة في مسجد الرسول، فلا ينبغي للقادر على ذلك تركه (٧).

(١) الهداية، كما في شفاء السقام: ٦٦.

(٢) قيل بكسر الميم وسكون الزاء وفتح الواو: مصدر ميمي بمعنى الزيارة (شرح الشفا للخفاجي ٣: ٥١٥).

(٣) ففي الحديث الشريف: " ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة " صحيح البخاري ٢: ١٣٧ و ج ٩:

١٨٨، مسلم ٢: ٢٠١١.

(٤) الشفاء ٢: ١٩٤ - ١٩٧، ط دار الفيحاء، عمان.

(٥) المدخل ١: ٢٥٦.

(٦) مشير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، كما في شفاء السقام: ٦٧.

(٧) المناسك، كما في الغدير ٥: ١١٠.

١٣ - قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين بن أحمد بن القاسم بن إدريس السامري الحنبلي (ت ٦١٦ هـ): وإذا قدم مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله) استحَب له أن

يغتسل لدخولها. ثم ذكر أدب الزيارة وكيفية السلام والدعاء والوداع (١).

١٤ - قال الشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي (ت ٦٢٠ هـ): يستحب زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله)، ثم ذكر حديثي ابن عمر وأبي

هريرة من طريق الدارقطني وأحمد (٢).

١٥ - قال محيي الدين النووي الشافعي (ت ٦٧٧ هـ): ويسن شرب ماء زمزم

وزيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد فراغ الحج (٣).

١٦ - قال نجم الدين بن حمدان الحنبلي (ت ٦٩٥ هـ): ويسن لمن فرغ عن نسكه زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) وقبر صاحبيه رضي الله عنهما، وله ذلك بعد فراغ حجه وإن

شاء قبل فراغه (٤).

١٧ - قال القاضي الحسين: إذا فرغ من الحج فالسنة أن يقف بالملتزم ويدعو،

ثم يشرب من ماء زمزم، ثم يأتي المدينة ويزور قبر النبي (صلى الله عليه وآله) (٥).

١٨ - قال القاضي أبو العباس أحمد السروجي الحنفي (ت ٧١٠ هـ): إذا انصرف الحاج والمعتمرون من مكة فليتوجهوا إلى طيبة مدينة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وزيارة قبره،

فإنها من أنجح المساعي (٦).

١٩ - قال الإمام القدوة ابن الحاج محمد بن محمد العبدري القيرواني

(١) المستوعب، كما في شفاء السقام: ٦٧.

(٢) المغني ٣: ٧٨٨.

(٣) المنهاج، المطبوع بهامش شرحه المغني ١: ٤٩٤ كما في الغدير ٥: ١١١.

(٤) الرعاية الكبرى في الفروع الحنبلية، كما في شفاء السقام: ص ٦٧.

(٥) نقله السبكي في شفاء السقام: ص ٦٦.

(٦) الغاية، كما في شفاء السقام: ص ٦٦.

المالكي (ت ٧٣٨ هـ) بعد أن ذكر لزوم وكيفية زيارة الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والتوسل بهم إلى الله تعالى وطلب الحوائج منهم قال: وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه فكل ما ذكر يزيد عليه أضعافه، أعني في الانكسار والذل والمسكنة، لأنه الشافع المشفع الذي لا ترد شفاعته، ولا يخيب من قصده، ولا من نزل بساحته، ولا من استعان أو استغاث به، إذ إنه عليه الصلاة والسلام قطب دائرة الكمال وعروس المملكة - إلى أن قال -: فمن توسل به أو استغاث به أو طلب حوائجه منه، فلا يرد ولا يخيب لما شهدت به المعاينة والآثار، ويحتاج إلى الأدب الكلي في زيارته عليه الصلاة والسلام، وقد قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن الزائر يشعر بنفسه بأنه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته (١).

٢٠ - وقال شمس الدين ابن قدامة الأندلسي: فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) وقبر صاحبيه - رضي الله عنهما - واستدل على ذلك بروايتي ابن عمر، وأبي هريرة (٢).

٢١ - قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المقدسي: إن ابن تيمية ذكر في مناسكه " باب زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله): إذا أشرف على مدينة النبي (صلى الله عليه وآله) قبل

الحج أو بعده، فليقل ما تقدم، فإذا دخل استحب له أن يغتسل، نص عليه الإمام أحمد، فإذا دخل المسجد بدأ برجله اليمنى وقال: بسم الله والصلاة على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك، ثم يأتي الروضة بين القبر والمنبر فيصلي بها ويدعو بما شاء، ثم يأتي قبر النبي فيستقبل جدار القبر ولا يمسه ولا يقبله، ويجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه، ليكون قائما وجاه

(١) المدخل ١: ٢٥٧.

(٢) الشرح الكبير على المقنع ٣: ٤٩٤.

النبي، ويقف متباعدة كما يقف لو ظهر في حياته بخشوع وسكون منتكس الرأس، غاض الطرف، متحضرا بقلبه جلالة موقفه ثم يقول:
السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا نبي الله وخيرته من خلقه، السلام عليك يا سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، أشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، ونصحت لأمتك، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وعبدت الله حتى أتاك اليقين، فجزاك الله أفضل ما جزى نبيا ورسولا عن أمته اللهم آته الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا... " (١).

٢٢ - ألف الشيخ تقي الدين السبكي الشافعي (ت ٧٥٦ هـ) كتابا حافلا في زيارة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) وأسماءه " شفاء السقام في زيارة خير الأنام " ردا على ابن

تيمية، ومما قال فيه: لا حاجة إلى تتبع كلام الأصحاب في ذلك مع العلم بإجماعهم وإجماع سائر العلماء عليه. والحنفية قالوا: إن زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) من أفضل

المندوبات والمستحبات، بل تقرب من درجة الواجبات، وممن صرح بذلك منهم أبو منصور محمد بن مكرم الكرمانلي في مناسكه، وعبد الله بن محمود بن بلدحي في شرح " المختار " وفي فتاوى أبي الليث السمرقندي في باب أداء الحج (٢).
ثم قال: وكيف يتخيل في أحد من السلف نهيم عن زيارة المصطفى (صلى الله عليه وآله) وهم

مجمعون على زيارة سائر الموتى، فالنبي (صلى الله عليه وآله) وسائر الأنبياء الذين ورد فيهم أنهم

أحياء كيف يقال فيهم هذه المقالة (٣) وحكى عن القاضي عياض وأبي زكريا

(١) الصارم المنكي في الرد على السبكي: ص ١٦ - ١٧، الطبعة الأولى ١٩٩٢ مؤسسة الريان - بيروت. ولو

صح ما نقله يحمل على تبدل الاجتهاد والمعروف أنه نهى عن السفر للزيارة لا عن أصلها. وسيوافيك بعض شبهاته.

(٢) شفاء السقام: ص ٦٦، طبع دار الجيل.

(٣) المصدر نفسه: ص ٧٩.

النووي إجماع العلماء والمسلمين على استحباب الزيارة (١).
وقال أيضا: وإذا استحب زيارة قبر غيره (صلى الله عليه وآله) فقبره أولى لما له من الحق

ووجوب التعظيم (٢). ثم إنه استدل في الباب السادس على أن السفر إلى الزيارة قريبة بالكتاب والسنة والإجماع - إلى أن قال -:

الرابع: الإجماع إطباق السلف والخلف، فإن الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته (صلى الله عليه وآله)، فمنهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا

شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة... ومن ادعى أن هذا الجمع العظيم مجمعون على الخطأ فهو المخطئ (٣).

٢٣ - قال زين الدين أبو بكر بن الحسين بن عمر القرشي العثماني المصري المراغي (ت ٨١٦ هـ): وينبغي لكل مسلم اعتقاد كون زيارته (صلى الله عليه وآله) قريبة عظيمة،

للأحاديث الواردة في ذلك، ولقوله تعالى: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول} الآية، لأن تعظيمه لا ينقطع بموته (٤).

٢٤ - قال السيد نور الدين السمهودي (ت ٩١١ هـ) بعد ذكر أحاديث الباب: وأما الإجماع، فأجمع العلماء على استحباب زيارة القبور للرجال كما حكاه النووي بل قال بعض الظاهرية بوجوبها، وقد اختلفوا في النساء، وقد امتاز القبر الشريف بالأدلة الخاصة به. قال السبكي: ولهذا أقول: إنه لا فرق في زيارته بين الرجال والنساء. وقال الجمال الريمي في "التفقيه": يستثنى من محل الخلاف قبر النبي (صلى الله عليه وآله)

وصاحبيه ثم قال: وقد ذكر ذلك بعض المتأخرين وهو الدمنهوري الكبير،

(١) شفاء السقام: ص ٨٣، طبع دار الجيل.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٠.

(٤) المواهب اللدنية للقسطلاني ٤: ٥٧٠ - ٥٧٤ المكتب الإسلامي، بيروت. والآية من سورة النساء:

٦٤.

وأضاف إليه قبور الأولياء والصالحين والشهداء (١).
٢٥ - قال الحافظ أبو العباس القسطلاني المصري (ت ٩٣٣ هـ): اعلم أن زيارة قبره الشريف من أعظم القربات وأرجى الطاعات والسبيل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربقة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام، وقد أطلق بعض المالكية وهو أبو عمران الفاسي كما ذكره في "المدخل" عن "تهذيب الطالب" لعبد الحق: أنها واجبة، قال: ولعله أراد وجوب السنن المؤكدة، وقال القاضي عياض: إنها من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغّب فيها...

ثم قال: وقد صح أن عمر بن عبد العزيز كان يررد البريد للسلام على النبي (صلى الله عليه وآله)

فالسفر إليه قرينة لعموم الأدلة، ومن نذر الزيارة وجبت عليه كما جزم به ابن كج من أصحابنا، إلى أن قال: وللشيخ تقي الدين بن تيمية هنا كلام شنيع عجيب يتضمن منع شد الرحال للزيارة النبوية، وأنه ليس من القرب بل بضد ذلك، ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في "شفاء السقام" فشفى صدور المؤمنين (٢).
٢٦ - ذكر شيخ الإسلام أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي (ت ٩٢٥ هـ) في باب ما يستحب لمن حج وقال: ثم يزور قبر النبي (صلى الله عليه وآله) ويسلم عليه وعلى صاحبيه
بالمدينة المشرفة (٣).

٢٧ - قال ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي (ت ٩٧٣ هـ) بعد ما استدل على مشروعية زيارة قبر النبي بعدة أدلة منها: الإجماع، فإن قلت: كيف تحكي الإجماع على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها وابن تيمية من متأخري الحنابلة منكر

(١) وفاء الوفاء، المجلد الثاني ٤: ١٣٦٢، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) المواهب اللدنية ٤: ٥٧٠، المكتب الإسلامي، بيروت.

(٣) أسنى المطالب في شرح روض الطالب ١: ٥٠١.

لمشروعية ذلك كله كما رآه السبكي في خطه؟ وقد أطال ابن تيمية الاستدلال لذلك بما تمجحه الأسماع، وتنفر عنه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً وأنه لا تقصر فيه الصلاة، وأن جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعة، وتبعه بعض من تأخر عنه من أهل مذهبه.

قلت: من هو ابن تيمية؟! حتى ينظر إليه أو يقول في شيء من مورد الدين عليه؟! وهل هو إلا كما قال جماعة من الأئمة - الذين تعقبوا كلماته الفاسدة وحججه الكاسدة حتى أظهروا عوار سقطاته، وقبائح أوهامه، وغلطاته كالعز بن جماعة - : عبد أضله الله تعالى وأغواه، وألبسه رداء الخزي وأرداه، وبواه من قوة الافتراء والكذب ما أعقبه الهوان، وأوجب له الحرمان، ولقد تصدى شيخ الإسلام وعالم الأنام المجمع على جلالته واجتهاده وصلاحه وإمامته، التقي السبكي - قدس الله روحه ونور ضريحه - للرد عليه في تصنيف مستقل أفاد فيه وأجاد، وأصاب وأوضح بياهر حججه طريق الصواب ثم قال:

هذا ما وقع من ابن تيمية مما ذكر وإن كان عثرة لا تقال أبداً، ومصيبة يستمر شؤمها سرمداً، وليس بعجب، فإنه سولت له نفسه وهواه وشيطانه أنه ضرب مع المجتهدين بسهم صائب، وما درى المحروم أنه أتى بأقبح المعائب، إذ خالف إجماعهم

في مسائل كثيرة، وتدارك على أئمتهم لا سيما الخلفاء الراشدين باعترافات سخيفة، شهيرة حتى تجاوز إلى الجنب الأقدس، المنزه سبحانه عن كل نقص، والمستحق لكل كمال أنفس، فنسب إليه الكبائر والعظائم، وخرق سياج عظمته بما أظهره للامة، على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم، وتضليل من لم يعتقد ذلك من المتقدمين والمتأخرين، حتى قام عليه علماء عصره وألزموا السلطان بقتله أو حبسه وقهره، فحبسه إلى أن مات، وخمدت تلك البدع، وزالت تلك الضلالات، ثم انتصر له أتباع لم يرفع الله لهم رأساً، ولم يظهر لهم جاهاً، ولا بأساً، بل ضربت

عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله بما عصوا وكانوا يعتدون (١).
ونقل حسن العدوي الحمزاوي عنه أيضا ما هذه عبارته:
اعلم - وفقني الله وإياك لطاعته وفهم خصوصيات نبيه (صلى الله عليه وآله)،
والمسارعة إلى
مرضاته -: أن زيارته (صلى الله عليه وآله) مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع
الأمّة
وبالقياس - إلى أن قال -: وأما الإجماع فقد حكاه الإمام السبكي قال: ولا عبرة بما
تفرد به ابن تيمية وتبعه بعض من تأخر عنه من أهل مذهبه (٢).
٢٨ - قال الشيخ محمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧ هـ): أما زيارته (صلى الله عليه
وآله) فمن
أعظم القربات للرجال والنساء، وألحق الدمهورى به قبور بقية الأنبياء
والصالحين والشهداء وهو ظاهر (٣).
وقال في موضع آخر بعد بيان مندوبية زيارة قبره الشريف (صلى الله عليه وآله) وذكر
جملة من
أدلتها: ليس المراد اختصاص أدب الزيارة بالحج، فإنها مندوبة مطلقا بعد حج أو
عمرة أو قبلهما أو لا مع نسك، بل المراد تأكيد الزيارة فيها (٤).
٢٩ - قال الشيخ عبد الرحمن شيخ زاده (ت ٩٨٧ هـ): من أحسن المندوبات،
بل يقرب من درجة الواجبات زيارة قبر نبينا وسيدنا محمد (صلى الله عليه وآله) وقد
حرض (عليه السلام)
على زيارته وبالغ في الندب إليها (٥).
٣٠ - قال الشيخ زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ): وزيارة
قبره (صلى الله عليه وآله) الشريف من كمالات الحج، بل زيارته عند الصوفية فرض،
وعندهم

(١) الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم: ص ٢٢، طبع سنة ١٢٧٩ بمصر.
(٢) كنز المطالب: ص ١٧٩ و ١٨١، الطبعة الحجرية.
(٣) مغني المحتاج ١: ٣٦، ط دار الفكر.
(٤) المصدر نفسه ١: ٥١٢.
(٥) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ١: ٣١٢، ط دار إحياء التراث العربي.

الهجرة إلى قبره كهي إليه حيا (١).
وقال في موضع آخر: إن أثر الزيارة إما الموت على الإسلام مطلقا لكل زائر،
وإما شفاة تخص الزائر أخص من العامة، وقوله: شفاعتي في الإضافة إليه
تشريف لها، إذ الملائكة وخواص البشر يشفعون، فللزائر نسبة خاصة فيشفع هو
فيه بنفسه، والشفاعة تعظم بعظم الزائر (٢).

٣١ - قال الشيخ حسن بن عمار الشرنبلالي: زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) من
أفضل

القربات وأحسن المستحبات تقرب من درجة ما لزم من الواجبات، فإنه (صلى الله عليه
وآله)

حرض عليها وبالغ في الندب إليها. قال (صلى الله عليه وآله): " من وجد سعة فلم
يزرني فقد

جفاني " وقال (صلى الله عليه وآله): " من زار قبري وجبت له شفاعتي ". وقال (صلى
الله عليه وآله): " من زارني

بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي " إلى أن قال: ومما هو مقرر عند المحققين
أنه (صلى الله عليه وآله) حي يرزق ممتع بجميع الملاذ والعبادات، غير أنه حجب عن
أبصار

القاصرين عن شرف المقامات (٣).

٣٢ - وقال قاضي القضاة شهاب الدين الخفاجي الحنفي المصري (ت ١٠٦٩ هـ):
واعلم أن هذا الحديث (شد الرحال إلى المساجد) هو الذي دعا ابن تيمية ومن معه
كابن قيم إلى مقاله الشنيعة التي كفروه بها، وصنف فيها السبكي مصنفا مستقلا،
وهي منعه من زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) وهو كما قيل:
لمهبط الوحي حقا ترحل النجب* وعند ذلك المرجى ينتهي الطلب
فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغي ذكرها، فإنها لا تصدر عن

(١) شرح الجامع الصغير ٦: ١٦٠.

(٢) شرح الجامع الصغير ٦: ٩٣.

(٣) مراقي الفلاح في شرح متن نور الإيضاح: ٢٩٢ - ٢٩٣، ط مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده،
مصر.

عاقل فضلا عن فاضل سامحه الله تعالى! (١)
٣٣ - قال الشيخ محمد بن علي بن محمد الحصني المعروف بعلاء الدين
الحصكفي الحنفي المفتي بدمشق (ت ١٠٨٨ هـ): وزيارة قبره (صلى الله عليه وآله)
مندوبة بل قيل
واجبة لمن له سعة (٢).

٣٤ - قال أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي
المصري (ت ١١٣٢ هـ): قد كانت زيارته مشهورة في زمن كبار الصحابة معروفة
بينهم، لما صالح عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس جاءه كعب الأحبار فأسلم
ففرح به وقال: هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبره (صلى الله عليه وآله)
وتتمتع بزيارته؟
قال: نعم (٣).

٣٥ - قال أبو الحسن السندي محمد بن عبد الهادي الحنفي (ت ١١٣٨ هـ): قال
الدميري: فائدة زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) من أفضل الطاعات وأعظم القربات
لقوله (صلى الله عليه وآله):
" من زار قبري وجبت له شفاعتي إلخ " (٤).

٣٦ - قال محمد بن عبد الوهاب: تسن زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) إلا أنه لا
يشد الرحال
إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه (٥).

٣٧ - قال الشيخ محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ): قد اختلفت فيها (في
زيارة النبي (صلى الله عليه وآله))، أما أقوال أهل العلم، فذهب الجمهور إلى أنها
مندوبة، وذهب

بعض المالكية وبعض الظاهرية إلى أنها واجبة، وقالت الحنفية: إنها قريبة من
الواجبات، وذهب ابن تيمية الحنبلي حفيد المصنف المعروف بشيخ الإسلام إلى أنها

-
- (١) شرح الشفاء ٣: ٥٦٦، طبع المطبعة العثمانية، سنة ١٣١٥.
(٢) الدر المختار في شرح تنوير الأبصار، آخر كتاب الحج: ١٩٠، مطبعة الفتاح الكريم، سنة ١٣٠٢ هـ.
(٣) شرح المواهب ٨: ٢٩٩، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية، سنة ١٣٠٢ هـ.
(٤) شرح سنن ابن ماجه ٢: ٢٦٨، كما في الغدير ٥: ١٢٠.
(٥) الهدية السننية، الرسالة الثانية.

غير مشروعة. ثم فصل الكلام في الأقوال، إلى أن قال وفي آخر كلامه: احتج أيضا من قال بالمشروعية بأنه لم يزل دأب المسلمين القاصدين للحج في جميع الأزمان على تباين الديار واختلاف المذاهب، الوصول إلى المدينة المشرفة لقصد زيارته، ويعدون ذلك من أفضل الأعمال، ولم ينقل أن أحدا أنكر ذلك عليهم فكان إجماعا (١).

٣٨ - قال الشيخ محمد أمين بن عابدين (ت ١٢٥٣ هـ): زيارة النبي (صلى الله عليه وآله)

مندوبة بإجماع المسلمين إلى أن قال: وهل تستحب زيارة قبره (صلى الله عليه وآله) للنساء؟

الصحيح نعم بلا كراهة، بشروطها على ما صرح به بعض العلماء، وأما على الأصح من مذهبنا وهو قول الكرخي وغيره من أن الرخصة في زيارة القبور ثابتة للرجال والنساء جميعا فلا إشكال، وأما على غيره فذلك نقول بالاستحباب لإطلاق الأصحاب (٢).

٣٩ - قال الشيخ محمد بن السيد درويش الحوت البيروني (ت ١٢٧٦ هـ): زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) مطلوبة، لأنه واسطة الخلق، وزيارته بعد وفاته كالهجرة إليه في

حياته، ومن أنكرها، فإن كان ذلك إنكارا لها من أصلها فخطؤه عظيم، وإن كان لما يعرض من الجهلة مما لا ينبغي فليبين ذلك (٣).

٤٠ - قال الشيخ إبراهيم الباجوري الشافعي (ت ١٢٧٧ هـ): وتسبب زيارة قبره (صلى الله عليه وآله) ولو لغير حاج ومعتبر كالذي قبله، ويسن لمن قصد المدينة الشريفة

لزيارته (صلى الله عليه وآله) أن يكثر من الصلاة والسلام عليه في طريقه، ويزيد في ذلك إذا رأى

حرم المدينة وأشجارها، ويسأل الله أن ينفعه بهذه الزيارة ويتقبلها منه. ثم ذكر

(١) نيل الأوطار ٤: ٣٢٤.

(٢) رد المحتار على الدر المختار ٥: ٢٧٨.

(٣) التعليق على "حسن الأثر": ٢٤٦ كما في الغدير ٥: ١٢١.

جملة كثيرة من آداب الزيارة وألفاظها (١).

٤١ - قال الشيخ حسن العدوي الحمزاوي الشافعي (ت ١٣٠٣ هـ)، بعد نقل جملة من الأحاديث الواردة في أن النبي (صلى الله عليه وآله) يسمع سلام زائريه ويرد عليهم:

إذا علمت ذلك علمت أن رده (صلى الله عليه وآله) سلام الزائر عليه بنفسه الكريمة (صلى الله عليه وآله) أمر واقع

لا شك فيه، وإنما الخلاف في رده على المسلم عليه من غير الزائرين. فهذه فضيلة عظيمة ينالها الزائرون لقبره (صلى الله عليه وآله) فيجمع الله لهم بين سماع رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأصواتهم

من غير واسطة وبين رده عليهم سلامهم بنفسه، فأنى لمن سمع بهذين بل بأحدهما أن يتأخر عن زيارته (صلى الله عليه وآله) أو يتوانى عن المبادرة إلى المثول في حضرته (صلى الله عليه وآله)؟ تالله ما

يتأخر عن ذلك مع القدرة عليه إلا من حق عليه البعد من الخيرات، والطرده عن مواسم أعظم القربات، أعاذنا الله تعالى من ذلك بمنه وكرمه آمين. وعلم من تلك الأحاديث أيضا أنه (صلى الله عليه وآله) حي على الدوام، إذ من المحال العادي

أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه في ليل أو نهار، فنحن نؤمن ونصدق بأنه (صلى الله عليه وآله) حي يرزق، وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض، وكذا سائر الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام، والإجماع على هذا (٢).

٤٢ - قال السيد محمد بن عبد الله الجرداني الدمياطي الشافعي (ت ١٣٥٧ هـ): زيارة قبره (صلى الله عليه وآله) من أعظم الطاعات وأفضل القربات حتى أن بعضهم جرى على أنها

واجبة فينبغي أن يحرض عليها، وليحذر كل الحذر من التخلف عنها مع القدرة وخصوصا بعد حجة الإسلام، لأن حقه (صلى الله عليه وآله) على أمته عظيم، ولو أن أحدهم يجيء

على رأسه أو بصره من أبعد موضع من الأرض لزيارته (صلى الله عليه وآله) لم يقم بالحق الذي عليه

لنبيه جزاه الله عن المسلمين أتم الجزاء.

(١) حاشية على شرح ابن الغزي على متن الشيخ أبي شجاع في الفقه الشافعي ١: ٣٤٧ كما في الغدير ٥:



(۲۶۰)

ويسن لمن قصد المدينة الشريفة (إلخ) ثم فصل القول في آداب الزيارة وذكر التسليم على الشيخين وزيارة السيدة فاطمة وأهل البقيع والمزارات المشهورة، وهي نحو ثلاثين موضعا كما قال وما أحسن ما قيل:
هنيئا لمن زار خير الورى * وحط عن النفس أوزارها
فإن السعادة مضمونة * لمن حل طيبة أو زارها (١)

٤٣ - قال الشيخ عبد الباسط بن الشيخ علي الفاخوري مفتي بيروت:
الفصل الثاني عشر: في زيارة النبي (صلى الله عليه وآله): وهي متأكدة مطلوبة ومستحبة

محبوبة، وتسن زيارته في المدينة كزيارته حيا وهو في حجرته حي يرد على من سلم عليه السلام، وهي من أنجح المساعي وأهم القربات وأفضل الأعمال وأزكى العبادات، وقد قال (صلى الله عليه وآله): "من زار قبري وجبت له شفاعتي". ومعنى "وجبت"

ثبت بالوعد الصادق الذي لا بد من وقوعه وحصوله، وتحصل الزيارة في أي وقت وكونها بعد تمام الحج أحب، يجب على من أراد الزيارة التوبة من كل شيء يخالف طريقه وسنته (صلى الله عليه وآله) إلى أن قال: ويستحب التبرك بالأسطوانات التي لها فضل،

وشرف، وهي ثمان: أسطوانة محل صلاته (صلى الله عليه وآله)، وأسطوانة عائشة (رض) وتسمى أسطوانة القرعة، وأسطوانة التوبة محل اعتكافه (صلى الله عليه وآله)، وأسطوانة السرير، وأسطوانة علي (رضي الله عنه) وأسطوانة الوفود، وأسطوانة جبرئيل (عليه السلام)، وأسطوانة التهجد (٢).

٤٤ - قال الشيخ عبد المعطي السقا في زيارة النبي (صلى الله عليه وآله):
إذا أراد الحاج أو المعتمر الانصراف من مكة - أدام الله تشريفها وتعظيمها - طلب منه أن يتوجه إلى المدينة المنورة للفوز بزيارته عليه الصلاة والسلام، فإنها

(١) مصباح الظلام ٢: ١٤٥، كما في الغدير ٥: ١٢٣.
(٢) الكفاية لدوي العناية: ص ١٢٥، كما في الغدير ٥: ١٢٣.

من أعظم القربات وأفضل الطاعات وأنجح المساعي المشكورة، ولا يختص طلب الزيارة بالحاج غير أنها في حقه أكد، والأولى تقديم الزيارة على الحج إذا اتسع الوقت فإنه ربما يعوقه عنه عائق... (١).

٤٥ - قال الشيخ محمد زاهد الكوثري:

والأحاديث في زيارته (صلى الله عليه وآله) في الغاية من الكثرة، وقد جمع طرقها الحافظ صلاح

الدين العلائي في جزء، وعلى العمل بموجبها استمرت الأمة إلى أن شذ ابن تيمية عن جماعة المسلمين في ذلك، قال علي القاري في شرح "الشفاء": وقد أفرط ابن تيمية من الحنابلة، حيث حرم السفر لزيارة النبي (صلى الله عليه وآله) كما أفرط غيره حيث قال:

كون الزيارة قرينة معلوم من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل الثاني أقرب إلى الصواب، لأن تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً، لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه (٢).

٤٦ - قال فقهاء المذاهب الأربعة المصريون في (الفقه على المذاهب الأربعة): زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) أفضل المندوبات، وقد ورد فيها أحاديث. ثم ذكروا أحاديث

ستة، وجملة من أدب السرائر وزيارة النبي (صلى الله عليه وآله) وأخرى للشيخين (٣).

٤٧ - قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز إجابة عن الأسئلة حول زيارة المسجد النبوي: الزيارة للمسجد النبوي سنة وليست واجبة - إلى أن قال - : وإذا زار المسجد النبوي شرع له أن يصلي في الروضة ركعتين، ثم يسلم على النبي (صلى الله عليه وآله)

وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، كما يشرع له زيارة البقيع والشهداء بالسلام على المدفونين هناك من الصحابة وغيرهم، والدعاء لهم

(١) الإرشادات السنوية: ص ٢٦٠، كما في الغدير ٥: ١٢٣.

(٢) تكملة السيف الصقيل: ص ١٥٦، ط دمشق.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٥٩٠.

والترحم عليهم، كما كان النبي (صلى الله عليه وآله) يزورهم وكان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية. وفي رواية عنه (صلى الله عليه وآله) أنه كان يقول إذا زار البقيع: " یرحم الله المستقدمین منا والمستأخرین، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد " ويشرع أيضا لمن زار المسجد النبوي أن يزور مسجد قباء ويصلي فيه ركعتين، لأن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يزوره كل سبت، ويصلي فيه ركعتين إلى آخر ما قال (١).
{ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم } (٢)

(١) جريدة الجزيرة المؤرخة: يوم الجمعة ٢٤ ذو القعدة ١٤١١، العدد ٦٨٢٦.
(٢) الأنعام: ١٥.

المبحث الثالث

زيارة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) في الكتاب والسنة

زيارة النبي الأكرم في القرآن الكريم

أمر القرآن الكريم المسلمين بالحضور عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليستغفر لهم الله، لأن

دعائه يستجاب فيهم، قال عز وجل: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك

فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا﴾ (١).

قال الإمام السبكي: " دلت الآية على الحث على المجئ إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) والى

والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة له

لا تنقطع بموته تعظيماً له " (٢).

ثم إنه بسط الكلام في دلالة الآية على شمولية المجئ إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) بعد موته،

فمن أراد فليرجع إليه، غير أنا نستدل بالآية بوجه آخر ونقول:

لو كانت هذه الآية هي الوحيدة في هذا المجال، لذهبنا إلى القول بأنها خاصة

(١) النساء: ٦٤.

(٢) شفاء السقام: ص ٨١.

بحياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومدة وجوده بين الناس، ولكننا نستخلص منها حكما عاما

شاملا لا يختص بالحياة الدنيوية وذلك من خلال ما يلي:
أولا: أن القرآن الكريم يصرح بحياة الأنبياء والأولياء - وجماعات أخرى - في البرزخ، ويعتبرهم مبصرين وسامعين في ذلك العالم.
ثانيا: أن الأحاديث الشريفة تصرح بأن الملائكة تبلغ خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) سلام

من يسلم عليه، فقد جاء في الصحاح: " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام " (١).

وقال (صلى الله عليه وآله): " صلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم " (٢).

ثالثا: إن المسلمين - منذ ذلك اليوم - فهموا من هذه الآية معنى مطلقا لا ينتهي بموت رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى أن بعض الأعراب - بوحى من أذهانهم الخالصة من كل

شائبة - كانوا يقصدون قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويزورونه ويتلون هذه الآية عند قبره

المطهر ويطلبون منه الاستغفار لهم.

وقد ذكر تقي الدين السبكي في كتاب " شفاء السقام " والسهمودي في كتاب " وفاء الوفا " نماذج من زيارة المسلمين لقبر رسول الله، وتلاوة هذه الآية عند قبره الشريف، وفيما يلي نذكر بعض تلك النماذج:

روى سفيان بن عنبير عن العتبي - وكلاهما من مشايخ الشافعي وأساتذته - أنه قال: كنت جالسا عند قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) فجاء أعرابي فقال: " السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيفا} (٣) وقد

(١) سنن أبي داود ١: ٤٧٠ و ٤٧١، كتاب الحج، باب زيارة القبور.

(٢) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ٢: ١٨٩.

(٣) النساء: ٦٤.

جئتك مستغفرا من ذنبي، مستشفعا بك إلى ربي ". ثم بكى وأنشأ يقول:
يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم
ثم استغفر وانصرف (١).

ويروي أبو سعيد السمعاني عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) أن أعرابيا جاء
بعد ثلاثة أيام من دفن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فرمى بنفسه على القبر الشريف
وحتا من

ترابه على رأسه وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا قولك، ووعيت عن الله ما وعينا
عنك، وكان فيما أنزله عليك: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...} وقد ظلمت نفسي
وجئتك تستغفر لي إلى ربي (٢).

إن كل هذا يدل على أن المنزلة الرفيعة التي منحها الله تعالى لحبيبه المصطفى (صلى
الله عليه وآله)

كما صرحت بها هذه الآية ليست خاصة بحياته، بل تؤكد على أنها ثابتة له بعد
وفاته أيضا.

وبصورة عامة... يعتبر المسلمون كل الآيات النازلة في تعظيم رسول الله
واحترامه، عامة لحياته وبعد مماته، وليس هناك من يخصصها بحياته (صلى الله عليه
وآله).

وقد جاء في التاريخ: لما استشهد الإمام الحسن بن علي (عليهما السلام) وجيء بجثمانه
الطاهر إلى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ظن بنو أمية أن بني هاشم يريدون
دفن الإمام

بجوار قبر جده المصطفى، فأثاروا الفتنة والضجة للحيلولة دون ذلك، فتلا الإمام
الحسين (عليه السلام) قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت
النبي} (٣).

(١) وفاء الوفا ٤: ١٣٦١، الدرر السنية: ص ٧٥ ط. دار جوامع الكلم.

(٢) ابن حجر، الجوهر المنظم، وذكره السمهودي في وفاء الوفا ٢: ٦١٢، وزيني دحلان في الدرر السنية:
٢١.

(٣) الحجرات: ٢.

ولم يرد عليه أحد - حتى من الأمويين - بأن هذه الآية خاصة بحياة رسول الله (صلى الله عليه وآله).
واليوم نصب المسلمون هذه الآية على الجدار المقابل لقبر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهم يقصدون بذلك المنع من رفع الأصوات هناك.
ومن هذا المنطلق يمكننا أن نستنتج من الآية معنى واسعاً عاماً، وهو أن للمسلمين اليوم أن يقفوا أمام قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويسألوه أن يستغفر الله لهم. وليس لزيارة رسول الله (صلى الله عليه وآله) معنى سوى ما تضمنته هذه الآية وأمثالها، فإنها تدل على موضوعين هما:
١ - إن للإنسان أن يقف عند قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد وفاته ويسأله أن يستغفر الله له.
٢ - إن هذه الآية تشهد على جواز زيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) لأن حقيقة الزيارة لا تعني سوى "حضور الزائر عند المزمور" فإذا كان الوقوف عند قبر النبي وسؤاله أن يستغفر الله له جائزاً فقد تحقق أمران:
أ - سألناه أن يستغفر الله لنا.
ب - حضرنا عنده وتحدثنا إليه، والزيارة ليست إلا هذا.

زيارة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) في السنة النبوية
تضافرت السنة على استحباب زيارة قبر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) حيث رواها
أئمة

المذاهب الأربعة وأصحاب السنن والمسانيد في كتبهم. ولما ظهرت بدعة التشكيك
في زيارة النبي الأكرم قام الإمام تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦ هـ) بجمع ما رواه
الحفاظ في هذا المجال، فبلغت خمسة عشر حديثاً، وقد صحح كثيراً من أسانيدها
بما كان له من اطلاع واسع في مجال رجال الحديث (١).

وممن قام بنفس العمل الحافظ نور الدين علي بن أحمد السمهودي (ت ٩١١ هـ)
في كتابه "وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى" حيث أحصى سبعة عشر حديثاً غير ما
ورد في ذلك المجال، ولم يشتمل على لفظ "الزيارة" (٢).

وقد قام بنفس ما قام به الإمام السبكي من تصحيح للإسناد وذكر لمصادر
الروايات على وجه بديع.

من جهة أخرى قام الكاتب الإسلامي الشيخ محمد الفقي، من علماء الأزهر
الشريف، بجمع ما ورد في زيارة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) من غير تحقيق
للإسناد بل مجرد

النقل فبلغ اثنين وعشرين حديثاً (٣).

وبذل المجاهد الكبير الشيخ الأميني جهداً كبيراً في العثور على مظان الروايات
في كتب الحديث والتفسير والتاريخ، وربما نقل بعض الأحاديث، كالحديث الأول،
عن واحد وأربعين مصدراً.

والأحاديث التي سنسردها على صفحات هذه الرسالة بلغت من الكثرة ما

(١) شفاء السقام في زيارة خير الأنام، الباب الأول: ص ٥ - ٣٩ وفي طبعة أخرى: ص ٦٥ - ١١٥.

(٢) وفاء الوفا ٤: ١٣٣٦ - ١٣٤٨، الباب الثاني.

(٣) التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية: ٤٨ - ٥٠.

يغنيانا عن التحقيق في أسانيدها ورواتها، حيث سجلها الحفاظ في كتبهم وصحاحهم، وهي بمجموعها كافية للحكم باستحبابها، ولأجل ذلك سنكتفي بذكر متون الأحاديث مجردة عن الأسناد وما دار حول رواتها من كلام للرجاليين، تاركين كل ذلك إلى كتاب شفاء السقام للإمام السبكي، وسنذكر بعض المصادر لكل حديث دون الاستيعاب لجميعها.

الحديث الأول: روى الدارقطني في سننه بسنده إلى ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "من زار قبري وجبت له شفاعتي" (١). ورواه البيهقي أيضا في سننه (٢)، وأبو الحسن الماوردي: في الأحكام السلطانية (٣).

إلى غير ذلك من الحفاظ الذين نقلوه في كتبهم (٤).
الحديث الثاني: روى الطبراني في المعجم الكبير (٥)، والغزالي في إحياء العلوم (٦)، عن عبد الله بن عمر مرفوعا عن النبي (صلى الله عليه وآله): "من جاءني زائرا لا تحمله

حاجة إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة".
الحديث الثالث: أخرج الدارقطني عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "من حج فزار قبري بعد وفاتي، فكأنما زارني في حياتي" (٧).

(١) الدارقطني، السنن ٢: ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٤، ط دار المحاسن، القاهرة.

(٢) البيهقي، السنن ٥: ٢٤٥.

(٣) الأحكام السلطانية: ص ١٠٥.

(٤) أخرجه العلامة الأميني عن واحد وأربعين مصدرا حديثيا وفقهيا، انظر: الغدير ٥: ٩٣ - ٩٦.

(٥) المعجم الكبير.

(٦) إحياء العلوم ١: ٣٠٦، وفيه "لا يهمله إلا زيارتي" مكان قوله: "لا تحمله"، وقد نقله الإمام السبكي، في

شفاء السقام: ص ١٦، والسمهودي، في وفاء الوفا ٤: ١٣٤٠، ونقله العلامة الأميني عن ستة عشر مصدرا

حديثيا وفقهيا في الغدير ٥: ٩٧ و ٩٨.

(٧) الدارقطني، السنن ٢: ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٢.

وأخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه (١) ورواه الإمام السبكي في شفاء السقام (٢) والسمهودي في وفاء الوفا (٣).
الحديث الرابع: أخرج الدارقطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني بعد موتي، فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمين يوم القيامة " (٤).
الحديث الخامس: أخرج البيهقي في سننه قال: روى ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زار قبري (أو من زارني) كنت له شفيعا (أو شهيدا) " (٥).
الحديث السادس: أخرج الحافظ ابن عدي (ت ٣٦٥ هـ) في كتابه الكامل عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني " (٦).
الحديث السابع: روي عن أنس بن مالك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: " من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا " (٧).

-
- (١) البيهقي، السنن ٥: ٢٤٦.
(٢) شفاء السقام: ص ٢١.
(٣) وفاء الوفا ٤: ١٣٤٠، ورواه العلامة الأميني عن خمسة وعشرين مصدرا في الغدير ٥: ٩٨ - ١٠٠.
(٤) الدارقطني، السنن ٢: ٢٧٨، باب المواقيت، الحديث ١٩٣ - ورواه الإمام السبكي في شفاء السقام: ص ٢٣٣، والسمهودي، في وفاء الوفا ٤: ١٣٤٤، ونقله العلامة الأميني في الغدير ٥: ١٠١، عن ثلاثة عشر مصدرا حديثيا.
(٥) البيهقي، السنن الكبرى ٥: ٢٤٥، ورواه الإمام السبكي، في شفاء السقام: ص ٢٩، والسمهودي في وفاء الوفا ٤: ١٣٤٢. وقال: أخرجه الدارقطني في السنن.
(٦) شفاء السقام: ص ٢٧، ونقله السمهودي في وفاء الوفا ٤: ١٣٤٢ وقد ذكر إسناد ابن عدي إلى ابن عمر، ونقله العلامة الأميني عن مصادر تسعة في الغدير ٥: ١٠٠.
(٧) رواه الإمام السبكي في شفاء السقام بسنده إلى أنس بن مالك: ص ٣٥، كما رواه السمهودي في وفاء الوفا عن ابن أبي الدنيا بسنده إلى أنس ٤: ١٣٤٥، ورواه العلامة الأميني عن واحد وعشرين مصدرا، الغدير ٥: ١٠٢ و ١٠٣.

الحديث الثامن: روى أنس بن مالك أنه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني ميتا فكأنما زارني حيا، ومن زار قبري وجبت له شفاعتي يوم القيامة، وما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني، فليس له عذر " (١).
الحديث التاسع: روى علقمة، عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من حج حجة الإسلام وزار قبري وغزا غزوة وصلى علي في بيت المقدس لم يسأله الله عز وجل فيما افترض عليه " (٢).
الحديث العاشر: أخرج الفردوس في مسنده عن ابن عباس أنه قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من حج إلى مكة ثم قصدني في مسجدي كتبت له حجتان مبرورتان " (٣).
واكتفينا بهذا العدد من الروايات ومن أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى المصادر.

تجريد المتون عن الأسانيد
وبما أن الشيخ محمدا الفقي قد جمع متون الروايات بشكل موجز نذكر ما جمعه وإن مضى ذكر قسم منها، ويستحب زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) لما روى الدارقطني بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي " وفي رواية: " من زار قبري وجبت له شفاعتي " رواه

-
- (١) شفاء السقام: ص ٣٧، وأخرجه السمهودي عن كتاب ابن النجار في أخبار المدينة بسنده عن أنس ٤ : ١٣٤٥، ونقله العلامة الأميني عن مصادر ستة في الغدير ٥ : ١٠٤.
(٢) شفاء السقام: ٣٠٣، عن كتاب الفوائد لأبي الفتح الأزدي، وأخرجه السمهودي، في وفاء الوفا ٤ : ١٣٤٤، والعلامة الأميني في غديره ٥ : ١٠٢ عن مصادر خمسة.
(٣) وفاء الوفا ٤ : ١٣٤٧، ورواه الشوكاني في نيل الأوطار ٤ : ٣٢٦.

باللفظ الأول سعيد، ثنا حفص بن سليمان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر.
وقال أحمد في رواية عبد الله بن يزيد بن قسيط عن أبي هريرة: إن النبي (صلى الله
عليه وآله) قال:

" ما من أحد يسلم علي عند قبري إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه
السلام " رواه أبو داود بدون زيادة " عند قبري " .

فإقراره للزيارة وتقديره لها اعتراف بالغ الأهمية باستحبابها وروعة الترغيب
فيها، وانتصار للحق ووقوف بجانبه، ولا يمكن أن يوصف ذلك الإمام بالتحيز،
ولا ينبغي أن يرمى بضعف التقدير، إذ إن إقراره ذلك يتفق تماما مع هدى الدين
والرسائل السماوية والأحاديث النبوية المتعددة الطرق المختلفة الأسانيد، والتي
ندعها وحدها تتكلم عن مدى تقدير الزيارة وعظم اهتمام الشارع بها، وما تتجلى
عنه من مزايا واسعة الآفاق كبيرة النوال:

١ - عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زار قبري وجبت له
شفاعتي "

رواه ابن خزيمة في صحيحه.

٢ - وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني في قبري حلت
له

شفاعتي يوم القيامة " رواه ابن أبي الدنيا.

٣ - وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زار قبري حلت له
شفاعتي

يوم القيامة " رواه الدارقطني.

٤ - وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني في مماتي
كان

كمن زارني في حياتي " رواه العقيلي.

٥ - وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني بالمدينة بعد
موتي

كنت له شفيعا يوم القيامة " رواه أبو داود الطيالسي.

٦ - وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني بعد موتي
فكأنما

زارني وأنا حي " رواه الحافظ سعيد بن محمد.

٧ - وعن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني حتى ينتهي إلى

قبري كنت له يوم القيامة شهيدا أو شفيعا " رواه العقيلي.

٨ - وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من جاءني زائرا لا تعلم له

حاجة إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا " رواه الدارقطني.

٩ - وعن بكر بن عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من أتى المدينة زائرا

إلي وجبت له شفاعتي يوم القيامة " رواه يحيى بن حسين.

١٠ - وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني كنت له شهيدا

وشفيعا يوم القيامة " رواه ابن مردويه.

١١ - وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني بالمدينة محتسبا كنت

له شهيدا وشفيعا يوم القيامة " رواه أبو عوانة.

١٢ - وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زارني بعد وفاتي فكأنما

زارني في حياتي " رواه ابن عدي.

١٣ - وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من زار قبري وجبت له شفاعتي "

رواه ابن النجار.

١٤ - وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من جاءني زائرا لا تعده

حاجة إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة " رواه الطبراني.

١٥ - وعن ابن عباس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من حج إلى مكة ثم قصدني في

مسجدي كتبت له حجتان مبرورتان " رواه الديلمي في مسند الفردوس.

١٦ - وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من جاءني زائرا لا يهمله إلا

زيارتي كان حقا على الله أن أكون له شفيعا يوم القيامة " رواه الطبراني وصححه ابن السكن.

- ١٧ - وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر " رواه ابن النجار.
- ١٨ - وعن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من وجد سعة ولم يقد إلي فقد جفاني " رواه ابن حبان.
- ١٩ - وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " لا عذر لمن كان له سعة من أمتي أن لا يزورني " رواه ابن عساكر.
- ٢٠ - وعن ابن عمر: " من حج وزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي " رواه سعيد بن منصور.
- ٢١ - وعن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من حج ولم يزر قبري فقد جفاني " رواه ابن عساكر.
- ٢٢ - وعن ابن عمر: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني " رواه ابن عدي بسند حسن (١).
- زيارة النبي الأكرم في حديث العترة
تصافر الحديث عن العترة الطاهرة حول زيارة قبر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)
نقتبس منه
ما يلي:
- ١ - روى الحميري (ت ٢٩٩ هـ) عن هارون، عن ابن صدقة عن الصادق عن أبيه الباقر (عليهما السلام) أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: " من زارني حيا وميتا، كنت له شفيعا يوم القيامة " (٢).

(١) التوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية: ص ٤٨ و ٤٩.
(٢) قرب الإسناد: ٣١، البحار ٩٧: ١٣٩.

- ٢ - روى الصدوق (٣٠٦ - ٣٨١ هـ) بسنده عن الإمام علي (صلوات الله عليه):
 " أتموا برسول الله حجكم إذا خرجتم إلى بيت الله، فإن تركه جفاء وبذلك أمرتم،
 وأتموا بالقبور التي ألزمكم الله زيارتها وحقها " (١).
- ٣ - روى الصدوق بسنده عن الإمام الرضا (عليه السلام) أن النبي (صلى الله عليه وآله)
 قال: " من زارني
 في حياتي وبعد موتي فقد زار الله تعالى... " (٢).
- ٤ - روى الصدوق عن إبراهيم بن أبي حجر الأسلمي، عن أبي عبد الله (عليه السلام)
 قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من أتى مكة حاجا ولم يزرني إلى المدينة
 جفوته يوم
 القيامة، ومن جاءني زائرا وجبت له شفاعتي، ومن وجبت له شفاعتي وجبت له
 الجنة " (٣).
- ٥ - روى ابن قولويه (ت ٣٦٩ هـ) عن أبي حجر الأسلمي قال: قال رسول الله
 (وذكر مثل ما سبق وزاد في آخره) " ومن مات في أحد الحرمين - مكة أو
 المدينة - لم يعرض إلى الحساب ومات مهاجرا إلى الله وحشر يوم القيامة مع
 أصحاب بدر " (٤).
- ٦ - روى الصدوق بسنده عن المعلى بن شهاب عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال:
 قال الحسن بن علي (عليه السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله): يا أبتاه ما جزاء
 من زارك؟ فقال
 رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا بني: من زارني حيا أو ميتا أو زار أباك أو أخاك أو
 زارك كان
 حقا علي أن أزوره يوم القيامة فأخلصه من ذنوبه (٥).
- ٧ - روى ابن قولويه بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: " قال رسول الله
 (صلى الله عليه وآله):

(١) الخصال ٢: ٤٠٦، البحار ٩٧: ١٣٩.
 (٢) عيون أخبار الرضا ١: ١١٥، البحار ٩٧: ١٤٠.
 (٣) علل الشرائع: ٤٦٠، البحار ٩٧: ١٤٠.
 (٤) كامل الزيارات: ص ٤٦٠، البحار ٩٧: ١٤٠.
 (٥) علل الشرائع: ص ٤٦٠، البحار ٩٧: ١٤٠.

" من أتاني زائرا كنت شفيعه يوم القيامة " (١).

٨ - روى ابن قولويه عن ابن أبي نجران قال: قلت لأبي جعفر الثاني (الإمام الجواد (عليه السلام)): جعلت فداك، ما لمن زار رسول الله (صلى الله عليه وآله) متعمدا؟ قال: " له الجنة " (٢).

٩ - روى ابن قولويه بإسناده عن عبد الله بن الحسن، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب قال: " قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من زارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي وكنت له شهيدا أو شافعا يوم القيامة " (٣).

١٠ - روى ابن قولويه بسنده عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: " قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من زار قبري بعد موتي كان كمن هاجر إلي في حياتي، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام فإنه يبلغني " (٤).

نكتفي بهذا القدر من الروايات، وبهذا يتضح اتفاق الفريقين على استحباب زيارة قبر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وقد بلغ الاتفاق إلى حد نرى وحدة المضمون بل التعبير في رواياتهم، وهناك روايات أخرى عن العترة الطاهرة لم نذكرها روما للاختصار.

ومن تجرد عن الرأي المسبق أو التشكيك الذي أثاره بعض الناس، ونظر إلى كلمات أعلام المذاهب وروايات الفريقين يحصل له القطع واليقين على أن استحباب زيارته (صلى الله عليه وآله) من الأمور الواضحة في الشريعة الإسلامية الغراء، وأن التشكيك فيها تشكيك في الأمور المسلمة والمتفق عليها.

(١) كامل الزيارات: ص ١٢، البحار ٩٧: ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، البحار ٩٧: ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٣، البحار ٩٧: ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ١٤، البحار ٩٧: ١٤٤.

المبحث الرابع

شد الرحال إلى زيارة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) إذا كانت زيارة النبي الأكرم أمراً مطلوباً وعملاً مستحباً كما دلت عليه الروايات المتضافرة والسيرة القطعية، يكون شد الرحال الذي هو بمنزلة المقدمة أمراً مستحباً، بناء على الملازمة بين استحباب الشيء واستحباب مقدمته، كما عليه أكثر الأصوليين، وهذا له نظائر في الشريعة الإسلامية تحكي أن وسيلة القربة، قربة قال سبحانه: {ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله} (١) فهذا الإنسان مأجور بخروجه هذا وإن كان مقدمة لأمر مطلوب آخر.

يقول سبحانه في حق المجاهدين: {ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يقطعون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين* ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون} (٢).

(١) النساء: ١٠٠.

(٢) التوبة: ١٢٠ - ١٢١.

وهذه الأمور التي كتب الله لهم بها أجرا، وسيلة للجهاد، ومقدمة للقتال، وهذا يكشف عن التلازم بين الاستحبابين، أو الثوابين.

نعم، ذهب بعض الأصوليين إلى عدم الملازمة، ولكنهم متفقون على لزوم كون المقدمة مباحة لا محرمة، لاستلزامه التناقض في التشريع، حيث لا يعقل البعث إلى أمر، مع المنع عما يوصل المكلف إليه، وعلى كل تقدير لا يصح تحريم السفر مع افتراض كون الزيارة أمرا راجحا، وفعلا مستحبا، فلا محيص عن القول باستحبابه، أو إباحته. ولا تجتمع حرمة المقدمة مع استحباب ذبيها.

نعم، هنا فرق بين زيارة قبر النبي، وزيارة قبور المسلمين، فإن الأول مستحب بالخصوص، بخلاف الآخرين، فإنها مسنونة على وجه العموم، فلو زار إنسان قبر أبيه أو أخيه، فإنما يزورهما بما أن زيارتهما داخلة تحت عموم قوله (صلى الله عليه وآله): " فزوروا القبور، فإن زيارتها تذكركم الآخرة "، وهذا بخلاف زيارة الرسول، فإنها - مضافا إلى أنها داخلة تحت العموم - مستحبة في نفسها.

وقد جرت سيرة المسلمين من عصر الصحابة إلى يومنا هذا على شد الرحال إلى زيارة النبي الأكرم واعدوا زيارتها قربة، والسفر إليها مثلها، ولم ينكر أحد قربة الزيارة ولا جواز السفر إلا ابن تيمية في أوائل القرن الثامن لشبهة طرأت له، وستعرض لها في فصل مستقل.

ولأجل إيقاف القارئ على اتصال السيرة إلى عصر الصحابة نذكر بعض ما يدل عليه:

١ - روى ابن عساكر بإسناده عن أبي الدرداء قال: لما فرغ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن فتح بيت المقدس فصار إلى الجابية سأله بلال أن يقره بالشام ففعل ذلك - إلى أن قال - : ثم إن بلالا رأى في منامه رسول الله وهو يقول: ما هذه الجفوة يا بلال أما آن لك أن تزورني يا بلال، فانتبه حزينا وجلا خائفا، فركب راحلته

وقصد المدينة فأتى قبر النبي (صلى الله عليه وآله) فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين (رضي الله عنهما) فجعل يضمهما ويقبلهما فقالا له: نشتهي أذانك الذي كنت تؤذن به لرسول الله (صلى الله عليه وآله) في المسجد ففعل، فعلا سطح المسجد فوقف موقفه الذي كان يقف فيه فلما أن قال: الله أكبر، الله أكبر، ارتجت المدينة، فلما أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ازدادت رجتها، فلما أن قال: أشهد أن محمدا رسول الله، خرجت العواتق من خدورهن وقالوا: بعث رسول الله. فما رئي يوم أكثر باكيا ولا باكية بالمدينة بعد رسول الله من ذلك اليوم (١).

٢ - استفاض أن عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصدا من الشام إلى المدينة ليقري النبي السلام ثم يرجع. قال ابن الجوزي: وكان عمر بن عبد العزيز يرد البريد من الشام يقول: سلم لي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (٢). وربما كان يجتمع مع قصد الزيارة قصد أمر آخر. فكان يشد لغائتين.

٣ - روى يزيد بن أبي سعيد، مولى المهري قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز فلما ودعته قال: إليك حاجة إذا أتيت المدينة ستري قبر النبي فاقرأه مني السلام (٣).

٤ - روى أبو الليث السمرقندي الحنفي في الفتاوي في باب الحج: قال أبو القاسم: لما أردت الخروج إلى مكة قال القاسم بن غسان: إن لي إليك حاجة، إذا أتيت قبر النبي فاقرأه مني السلام، فلما وضعت رحلي في مسجد المدينة ذكرت. قال الفقيه: فيه دليل إن لم يقدر على الخروج يأمر غيره ليسلم عنه، فإنه ينال

(١) مختصر تاريخ دمشق ٥: ٢٦٥، تهذيب الكمال ٤: ٢٨٩.

(٢) مشير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ٢: ٢٩٧، تحقيق مرزوق علي إبراهيم ط. دار الراية - الرياض ٥١٤١٥ هـ.

(٣) شفاء السقام: ص ٥٦.

فضيلة السلام (١).

٥ - روى الواقدي في فتوح الشام: كان أبو عبيدة منازل بيت المقدس، فأرسل كتابا إلى عمر مع ميسرة بن مسروق (رضي الله عنه) يستدعيه الحضور، فلما قدم

ميسرة مدينة رسول الله دخلها ليلا ودخل المسجد وسلم على قبر رسول الله وعلى قبر أبي بكر (رضي الله عنه)... ثم إن عمر لما صالح أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأخبار

وأسلم وفرح عمر بإسلامه قال عمر (رضي الله عنه) له: هل لك أن تسير معي إلى المدينة

وتزور قبر النبي وتتمتع بزيارته، فقال لعمر: يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر المدينة، أول ما بدأ بالمسجد وسلم على رسول الله (٢).

٦ - قال ابن بطة العكبري الحنبلي (ت ٣٨٧ هـ) في كتاب الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية: إن كل عالم من علماء المسلمين وفقهه من فقهاءهم ألف كتابا في المناسك ففصله فصولا وجعله أبوابا، يذكر في كل باب فقهه، ولكل فصل عمله وما يحتاج إليه الحاج إلى عمله والعمل به قولاً وفعلاً من الإحرام والطواف والسعي والوقوف، والنحر، والحلق، والرمي، وجميع ما لا يسع الحاج جهله، ولا غنى بهم عن عمله، حتى زيارة قبر النبي فيصف ذلك فيقول: تأتي القبر فتستقبله وتجعل القبلة وراء ظهرك وتقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، حتى تصف السلام والدعاء ثم يقول: وتتقدم على يمينك وتقول: السلام عليك يا أبا بكر وعمر - إلى أن قال - : ولقد أدركنا الناس ورأيناهم وبلغنا عن من لم نره أن الرجل إذا أراد الحج فسلم عليه أهله وصحابته قالوا: وتقرأ على النبي وأبي بكر وعمر منا السلام، فلا ينكر ذلك أحد ولا يخالفه (٣).

(١) شفاء السقام: ص ٥٦.

(٢) فتوح الشام ١: ٢٤٤، ط. دار الجيل، بيروت.

(٣) الإبانة عن شريعة الفرق الناجية، كما في شفاء السقام: ص ٦٠.

إطباق السلف والخلف على جواز السفر إليه
جرت سيرة المسلمين على زيارة الرسول - عند الوفود إلى الحج - بالمرور
بالمدينة أو رجوعاً من مكة إليها، وهذا أمر ملموس وظاهر مشهود من الوافدين
من كل فج عميق، وعلى ذلك جرت السيرة في جميع القرون، فلا يمكن لأحد
إنكارها، بل هي كاشفة عن استحبابها عند الشرع، وهذا هو الإمام السبكي يذكر
سيرة المسلمين في أيام الحج ويقول: إن الناس لم يزالوا في كل عام إذا قضوا الحج
يتوجهون إلى زيارته (صلى الله عليه وآله) ومنهم من يفعل ذلك قبل الحج، هكذا
شاهدناه وشاهده

من قبلنا، وحكاها العلماء عن الأعصار القديمة، وذلك أمر لا يرتاب فيه، وكلهم
يقصدون ذلك ويعرجون إليه، وإن لم يكن في طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة،
وينفقون فيه الأموال، ويبدلون فيه المهج، معتقدين أن ذلك قرينة وطاعة. وإطباق
هذا الجمع العظيم من مشارق الأرض ومغاربها على ممر السنين وفيهم العلماء
والصلحاء، وغيرهم يستحيل أن يكون خطأ، وكلهم يفعلون ذلك على وجه
التقرب به إلى الله عز وجل، ومن تأخر عنه من المسلمين فإنما يتأخر بعجز أو
تعويق المقادير، مع تأسفه ووده لو تيسر له، ومن ادعى أن هذا الجمع العظيم
مجمعون على خطأ فهو المنخطئ.

ومن نازع في ذلك وقال فإنهم يقصدون من سفرهم زيارة المسجد، لا زيارة
الرسول الأكرم، فلم ينصف وكابر في أمر بديهي، فإن الناس من حين يعرجون إلى
طريق المدينة، لا يخطر ببالهم غير الزيارة من القربات إلا قليلاً منهم، وغرضهم
الأعظم هو الزيارة، ولو لم يكن ربما لم يسافروا، ولهذا قل القاصدون إلى بيت
المقدس مع تيسر إتيانه وليس الصلاة فيه بأقل ثواباً من الصلاة في مسجد النبي (١).

(١) شفاء السقام: ص ١٠٠ و ١٠١.

حديث عدم شد الرحال إلا إلى ثلاثة
لقد تجلّى جواز السفر إلى زيارة النبي الأكرم ولم يبق في المقام سوى ما رواه أبو
هريرة عن رسول الله من عدم شد الرحال إلا إلى ثلاثة، وهو المستمسك الوحيد
اليوم لمن يحرم السفر، وإليك توضيحه:
إن الرواية نقلت بصور مختلفة، والمناسب لما يرومه المستدل الصورة التالية:
" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام،
والمسجد الأقصى "

فتحليل الحديث يتوقف على تعيين المستثنى منه وهو لا يخلو من صورتين:

١ - لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد إلا إلى ثلاثة مساجد...

٢ - لا تشد الرحال إلى مكان من الأمكنة إلا إلى ثلاثة مساجد...

فلو كانت الأولى كما هو الظاهر، كان معنى الحديث النهي عن شد الرحال إلى
أي مسجد من المساجد سوى المساجد الثلاثة، ولا يعني عدم جواز شد الرحال
إلى أي مكان من الأمكنة إذا لم يكن المقصود مسجداً، فالحديث يكون غير
متعرض لشد الرحال لزيارة الأنبياء والأئمة الطاهرين والصالحين، لأن موضوع
الحديث إثباتاً ونفياً هو المساجد، وأما غير ذلك فليس داخلاً فيه، فالاستدلال به
على تحريم شد الرحال إلى غير المساجد، باطل.

وأما الصورة الثانية: فلا يمكن الأخذ بها، إذ يلزمها كون جميع السفرات محرمة
سواء كان السفر لأجل زيارة المسجد أو غيره من الأمكنة، وهذا لا يلتزم به أحد
من الفقهاء.

ثم إن النهي عن شد الرحال إلى أي مسجد غير المساجد الثلاثة ليس نهياً
تحريمياً، وإنما هو إرشاد إلى عدم الجدوى في سفر كهذا، وذلك لأن المساجد

الأخرى لا تختلف من حيث الفضيلة، فالمساجد الجامعة كلها متساوية في الفضيلة، فمن العبث ترك الصلاة في جامع هذا البلد والسفر إلى جامع بلد آخر مع أنهما متماثلان.

وفي هذا الصدد يقول الغزالي: " القسم الثاني، وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد... ويدخل في جملته زيارة قبور الأنبياء (عليهم السلام) وزيارة قبور الصحابة

والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته في حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله (صلى الله عليه وآله): " لا

تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى "، لأن ذلك في المساجد، فإنها متماثلة (في الفضيلة) بعد هذه المساجد، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله (١).

يقول الدكتور عبد الملك السعدي: إن النهي عن شد الرحال إلى المساجد الأخرى لأجل أن فيه إتعاب النفس دون جدوى أو زيادة ثواب، لأنها في الثواب سواء، بخلاف الثلاثة، لأن العبادة في المسجد الحرام بمائة ألف، وفي المسجد النبوي بألف، وفي المسجد الأقصى بخمسمائة فزيادة الثواب تحبب السفر إليها، وهي غير موجودة في بقية المساجد (٢).

والدليل على أن السفر لغير هذه المساجد ليس أمراً محرماً، ما رواه أصحاب الصحاح والسنن: " كان رسول الله يأتي مسجد قبا راكباً وماشيّاً فيصلّي فيه ركعتين " (٣).

(١) إحياء علوم الدين ٢: ٢٤٧، كتاب آداب السفر، ط دار المعرفة - بيروت.

(٢) البدعة: ٦٠.

(٣) مسلم، الصحيح ٤: ١٢٧، البخاري، الصحيح ٢: ٧٦، النسائي، السنن ٢: ١٣٧، المطبوع مع شرح السيوطي.

ولعل استمرار النبي على هذا العمل كان مقترنا لمصلحة تدفعه إلى السفر إلى قبا والصلاة فيه مع كون الصلاة فيه أقل ثوابا من الثواب في مسجده.
دراسة كلمة ابن تيمية في النهي عن شد الرحال
إن لابن تيمية في المقام كلمة فيها مغالطة واضحة، إذ مع أنه قدر المستثنى منه لفظ المساجد، إلا أنه استدل على منع شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بمدلوله أي القياس الأولوي، فقال في الفتاوى:
" فإذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثة ليس بمشروع باتفاق الأئمة الأربعة، بل قد نهى عنه الرسول (صلى الله عليه وآله) فكيف بالسفر إلى بيوت المخلوقين الذين تتخذ قبورهم مساجد وأوثانا وأعيادا، ويشرك بها، وتدعى من دون الله، حتى أن كثيرا من معظمتها يفضل الحج إليها على الحج إلى بيت الله " (١).
ولو صح ذلك النقل عن ابن تيمية ففي كلامه أوهام شتى إليك بيانها:
١ - قال: " إذا كان السفر إلى بيوت الله غير الثلاثة ليس بمشروع ".
يلاحظ عليه: من أين وقف على أن السفر إلى غير المساجد الثلاثة محرم؟!
وقد عرفت أن النهي ليس تحريما مولويا، وإنما هو إرشاد إلى عدم الجدوى، ولأجل ذلك لو ترتبت على السفر مصلحة لجاز كما عرفت في سفر النبي إلى مسجد قبا مرارا.
٢ - نسب عدم المشروعية إلى الأئمة الأربعة، إلا أننا لم نجد نصا منهم على التحريم، ووجود الحديث في الصحاح لا يدل على أنهم فسروا الحديث بنفس ما فسر به ابن تيمية.

(١) الفتاوى كما في كتاب البدعة للدكتور عبد الملك السعدي: ص ٦١.

ولا يخفى على الأئمة ظهور الحديث في الدلالة على عدم الجدوى، لا كون العمل محرماً.

٣ - أن عدم جواز السفر إلى غير المساجد الثلاثة لا يكون دليلاً على عدم جوازه إلى {بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه} (١) إذ لا ملازمة بينهما، لأنه لا تترتب على السفر في غير مورد الثلاثة أية فائدة سوى تحمل عناء السفر، وقد عرفت أن فضيلة أي جامع في بلد، نفسها في البلد الآخر، وليس اكتساب الثواب متوقفاً على السفر، وهذا بخلاف المقام، فإن درك فضيلة قبر النبي يتوقف على السفر، ولا يدرك بدونه.

٤ - يقول: "إن المسلمين يتخذون قبور الأنبياء أوثاناً وأعياداً ويشرك بها" {كبرت كلمة تخرج من أفواههم} (٢) أفمن يشهد كل يوم بأن محمداً عبده ورسوله، ويكرمه ويعظمه، لأنه سفير التوحيد ومبلغه - أفهل - يمكن أن يتخذ قبره وثناً؟!!

٥ - يقول: "تدعى من دون الله" إن عبادة الغير حرام لا مطلق دعوته، فعامة المسلمين حتى ابن تيمية يقولون في صلاتهم: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته". والمراد من قوله سبحانه: {فلا تدعوا مع الله أحداً} (٣) لا تعبدوا مع الله أحداً، قال سبحانه: {ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} (٤) فسمى سبحانه دعوته: عبادة. فإذا الدعوة على قسمين: دعوة عبادية، إذا كان معتقداً بألوهية المدعو بنحو من الأنحاء، ودعوة

(١) النور: ٣٦.

(٢) الكهف: ٥.

(٣) الجن: ١٨.

(٤) غافر: ٦٠.

- غير عبادية، إذا دعاه على أنه عبد من عباده الصالحين، يستجاب دعاؤه عند الله، والدعوة بهذا النوع تؤكد التوحيد.
- ٦ - نقل: " إن بعض المسلمين يفضل السفر إلى تلك الأماكن على الحج إلى بيت الله " وهي فرية بلا مرية، فليس على وجه البسيطة مسلم واع يعتقد بهذا ويعمل به.
- ٧ - لو كان السفر إلى القبور أمرا محرما فلماذا شد النبي الرحال لزيارة قبر أمه بالأبواء وهي منطقة بين مكة والمدينة، أفصار النبي - والعياذ بالله - مشركا أو أن الرواية التي أطبق المحدثون على نقلها مكذوبة، والله لا هذا ولا ذلك وإنما...
- ٨ - إن ما ذكره من أسباب المنع تتحقق للمجاور للقبر بدون شد الرحال، فاللازم منع ارتكاب المحرمات عند قبره لا منع السفر إليه.
- ٩ - احتمال أن المراد من زيارة القبور (زوروا القبور) هو زيارة جميع القبور بدون تخصيص لزيارة قبر مشخص، احتمال ساقط وذلك لأن " ال " الجنسية إذا دخلت على الجمع أبطلت جمعيته وصار المراد بالمدخول أي فرد يتحقق به جنس القبر، ويستوي في ذلك المفرد والجمع.
- ١٠ - كيف يقال ذلك مع أن السيدة عائشة (رض) كانت تزور قبر أخيها عبد الرحمن بخصوصه (١) حتى أن النبي يخص بعض القبور بالزيارة، وقد وضع حجرات على قبر أخيه من الرضاعة عثمان بن مظعون وقال: " لتعرف بها قبر أخي " ولا تترتب على التعرف فائدة سوى زيارته.

(١) المغني ٢: ٢٧٠.

المبحث الخامس

شبهات حول زيارة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) استفاضت السنة النبوية - كما مر - على استحباب زيارة الرسول، ودلت السيرة القطعية طوال القرون، المنتهية إلى عصر الصحابة والتابعين، على أنها من السنن المطلوبة، وأن شد الرحال إليها كشد الرحال إلى سائر الأمور المسنونة، وأكد أعلام المذاهب على كونها أمراً قريباً، لذا فالتشكيك في جواز زيارة الرسول أشبه بالتشكيك في أمر بديهي، ولا غرو في التشكيك فيها، فقد شكك عدة من فلاسفة الإغريق في أبده الأمور وأوضحها، حتى شكوا في كل شيء، بما في ذلك ذواتهم وأنفسهم، وتفكيرهم وتعقلهم، حتى في حرارة النار وبرودة الماء، ولولا قيام الحكماء الإلهيين كسقراط، وبعده أفلاطون وأرسطو، في وجوه هؤلاء المنسلخين عن الإنسانية لعم الداء العياء وجه البسيطة.

وما نذكره في المقام من الشبه والتشكيكات لم يذكرها ابن تيمية في كتبه، وإنما نقلها الإمام السبكي عن خطه، ويجترها أتباعه من دون وعي، وإليك بيانها وتحليلها.

الشبهة الأولى: في تقسيم الزيارة إلى شرعية وبدعية
إن زيارة القبور على قسمين: زيارة شرعية، وزيارة بدعية، فالزيارة
الشرعية يقصد بها السلام على الميت والدعاء له إن كان مؤمناً، وتذكر الموت سواء
أكان الميت مؤمناً أم كافراً. والزيارة لقبر المؤمن نبياً كان أو غير نبي من جنس
الصلاة على جنازته، يدعى له، كما يدعى إذا صلي على جنازته.
وأما الزيارة البدعية فمن جنس زيارة النصارى مقصودها الإشراف بالميت،
مثل طلب الحوائج منه أو به أو التمسح بقبره أو تقبيله أو السجود له ونحو ذلك.
فهذا كله لم يأمر الله به ورسوله ولا استحبه أحد من المسلمين، ولا كان أحد من
السلف يفعله، لا عند قبر النبي ولا غيره، ولا يسألون ميتاً ولا غائباً سواء كان نبياً
أو غير نبي بل كان فضلاً وهم لا يسألون غير الله شيئاً (١).
يلاحظ عليه: بأمرين:

- ١ - حصر الزيارة في قسمين مع أنها ذات أقسام كما سنذكر.
- ٢ - إدخال الأمور الجانبية، كالأستغاثة والسؤال به أو منه في ماهية الزيارة
مع أنها ليست منها، فصار هذا وذاك ذريعة لتبلور الشبهة لديه ولدى أتباعه. وها
نحن نذكر معنى الزيارة وأقسامها، ليتبين أن القسم الأخير الذي يقصد فيها
الإشراف لا يمت لزيارة المسلمين قبور أكابر الدين بصلة، ولعل الغاية من ذكره
دعم الشبهة في أذهان البسطاء.
فالزيارة في اللغة هي العدول عن جانب والميل إلى جانب آخر، قال ابن
فارس: " الزور " أصل واحد يدل على الميل والعدول، ومن هذا الباب الزائر، لأنه

(١) شفاء السقام: ص ١٢٤ - ١٢٥، نقلاً عن خط ابن تيمية.

إذا زارك فقد عدل عن غيرك (١).
ويظهر من غيره أنه " بمعنى القصد " وهو لا يخالف ما سبق، لأن الميل إلى جانب لا ينفك عن القصد، قال الطريحي: زاره يزوره زيارة: قصده فهو زائر، وفي الحديث من زار أخاه في جانب المصر، أي قصد، وفي الدعاء: اللهم اجعلني من زوارك أي من القاصدين لك، الملتجئين إليك، والزيارة قصد المزور إكراما له وتعظيما واستئناسا به (٢).
والظاهر كما يظهر من ذيل كلامه أن معناها ليس مجرد القصد بل القصد المنتهي إلى حضور الزائر لدى المزور لإحدى الغايات المذكورة في كلامه، من التكريم والتعظيم والاستئناس به.
هذا هو معنى الزيارة، وليس فيها شيء من الأمور التي ذكرها ابن تيمية، بل هي الحضور عن قصد لدى المزور لإحدى الغايات، وهي تختلف حسب اختلاف المزور شأنًا، ومقامًا، ومهنة.
نعم في إمكان الزائر أن يزور الرسول لإحدى الغايات التالية:
١ - أن يزور الرسول (صلى الله عليه وآله) لمجرد تذكّر الموت والآخرة، وهذا ثابت في زيارة
جميع القبور من غير فرق بين الرسول وغيره، بل المؤمن والكافر، ودلالة القبور على ذلك متساوية، كما أن المساجد - غير المساجد الثلاثة - متساوية لا يتعين شيء منها بالتعيين بالنسبة إلى هذا الغرض، ولا معنى لشد الرحال إلى المدينة لزيارة الرسول لتلك الغاية المتحققة في زيارة كل قبر في بلد الزائر النائي.
٢ - أن يزور الرسول (صلى الله عليه وآله) للدعاء له، كما زار الرسول أهل البقيع، وهذا
مستحب في حق كل ميت من المسلمين، ويتحقق في زيارته (صلى الله عليه وآله) إذا صلى عليه،

(١) مقاييس اللغة ٣: ٣٦.

(٢) مجمع البحرين ٢: ٣٠٤.

وطلب الدرجة الرفيعة له، كما ورد في الحديث: كان علي (عليه السلام) يقول: " اللهم أعل علي بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزله، وشرف عندك منزله، وآته الوسيلة، وأعطه السناء والفضيلة، واحشرنا في زمرة " (١).
٣ - أن يزوره (صلى الله عليه وآله) للتبرك به، لأنه ليس في الخلف أعظم بركة منه وهو حي

يرزق، والصلة بيننا وبينه غير منقطعة، وقد استفاضت الروايات على أنه يسمع كلامنا، ويرد سلامنا، بشهادة أن عامة المسلمين يسلمون عليه في تشهدهم، وينخاطبونه بقولهم: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.
٤ - أن يزوره (صلى الله عليه وآله) لأداء حقه، فإن من كان له حق على الشخص فينبغي له بره

في حياته، وبعد موته والزيارة من جملة البر، لما فيها من الإكرام وليس إنسان أوجب حقاً على الأمة من النبي. هذه هي الغايات المتصورة في زيارة النبي الأكرم. وأما الزيارة البدعية التي تحدث عنها ابن تيمية وأسمائها بدعية تارة وإشراكاً لله تعالى أخرى، فهو مما ابتدعها ابن تيمية، وليس بين المسلمين من يسوي بين الله ورسوله، كما هو شعار المشركين، كما قال سبحانه حاكياً عنهم: {إذ نسويكم برب العالمين} (٢)، والمسلمون بعامة طوائفهم براء من الشرك وسماته وقد عرف سبحانه أهل الشرك بسمة خاصة مذكورة في آيتين، قال سبحانه: {ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير} (٣). وقال تعالى: {إنهم إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون} (٤) فلا تجد مسلماً عندما يزور النبي تحت قبته الخضراء وفي مسجده يكون على تلك الحالة أي إذا

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٠٦.

(٢) الشعراء: ٩٨.

(٣) غافر: ١٢.

(٤) الصافات: ٣٥.

دعي الله وحده كفر به، وإن يشرك به يؤمن به، أو إذا سمع لا إله إلا الله يستكبر عن عبادته.

ولا أدري كيف تجرأ الرجل وحكم بشرك قاطبة المسلمين بمجرد أنهم يطلبون منه الدعاء بعد رحيله، وكم من صحابي جليل، تكلم معه وطلب منه الدعاء بعد وفاته. ١ - هذا أبو بكر: أقبل على فرسه من مسكنه بالسبح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة (رض) فتيّم النبي (صلى الله عليه وآله) وهو مسجى ببرد

حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى، فقال: بأبي أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها (١).

فلو لم تكن هناك صلة بين الحياتين فما معنى قوله: " بأبي أنت يا نبي الله " فإن لم يسمع، فماذا قصد ذلك الصحابي من قوله: " لا يجمع الله عليك موتتين ".

٢ - روى أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) في الروض الأنف: " دخل أبو بكر على رسول الله في بيت عائشة ورسول الله مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم أقبل عليه

فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا " (٢).

٣ - روى الحلبي علي بن برهان الدين (٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ) في سيرته وقال: " جاء أبو بكر من السبح وعيناه تهمالان فقبل النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا " (٣).

٤ - روى مفتي مكة المشرفة زيني دحلان في سيرته فذكر ما ذكره، وقال: قال أبو بكر: طبت حيا وميتا، وانقطع بموتك ما لم ينقطع للأنبياء قبلك، فعظمت

(١) البخاري، الصحيح ٢: ١٧، كتاب الجنائز.

(٢) الروض الأنف ٤: ٢٦٠.

(٣) السيرة الحلبية ٣: ٧٤، ط دار المعرفة، بيروت.

عن الصفة وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختياراً، لجدنا لموتك بالنفوس،
اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن على بالك (١).
٥ - قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) عندما ولي غسل رسول الله (صلى الله عليه
 وآله): " بأبي أنت
 وأمي يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء
 وأخبار السماء - إلى أن قال - : بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من
 بالك " (٢).
إلى هنا تمت الإجابة عن الشبهة الأولى، وأما ما ذكره في ضمنها من أنه مما لم
 يأمر به الله ولا رسوله فستوافيك الإجابة عنه في تحليل الشبهة الثانية.
الشبهة الثانية: إن زيارة النبي بدعة
 " إن زيارة النبي ليس مشروعاً وإنه من البدع التي لم يستحبها أحد من العلماء
 لا من الصحابة ولا من التابعين ومن بعدهم ".
يلاحظ عليه: أن ما ذكره فيها هو نفس ما ذكره في ذيل الشبهة الأولى غير أنه
 أضاف في المقام كون الزيارة بدعة.
نقول: إن البدعة عبارة عن إدخال ما ليس من الدين فيه، والتصرف في
 التشريع بإيجاد السعة أو الضيق فيه، وهذا إنما يتصور فيما إذا لم يكن في المورد دليل،
 وقد عرفت تضافر السنة النبوية، والسيرة القطعية المسلمة بين المسلمين على
 زيارته، ومع هذا كيف يصح لمسلم واع تسمية تلك بدعة؟!
 ثم إن السلفي يطلق على من يقفو أثر السلف، وقد عرفت أن السلف منذ

(١) سيرة زيني دحلان، بهامش السيرة الحلبية ٣: ٣٩١، ط مصر.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥.

رحيل الرسول، دأبوا على زيارة قبره والتبرك به، حتى أن الخليفيتين أوصيا بدفنهما عند النبي، لما فيه من التبرك بتربته، فأين وصف زيارته بالبدعة من عمل صحابته (صلى الله عليه وآله)؟ كما أنه تضافر عن ابن عمر أنه كان يأتي قبر النبي فيسلم عليه، وعن

عمر بن عبد العزيز أنه كان ييرد البريد لزيارة الرسول نيابة عنه، وأن بلالا شد الرحال إلى المدينة لزيارة الرسول.

وإضافة ذلك فإن الحوار الدائر بين الإمام مالك وأبي جعفر المنصور، يكشف الغطاء، ويجلي الحقيقة:

روى القاضي عياض في الشفاء بإسناده عن ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا

ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوما، فقال: {لا ترفعوا

أصواتكم فوق صوت النبي} (١)، ومدح قوما فقال: {إن الذين يغضون

أصواتهم عند رسول الله} (٢) وذم قوما فقال: {إن الذين ينادونك من وراء

الحجرات} (٣). وإن حرمة ميتا كحرمة حيا، فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا

عبد الله أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ فقال: ولم تصرف وجهك

عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم (عليه السلام) إلى الله تعالى يوم القيامة، بل استقبله

واستشفع به فيشفعه الله تعالى، قال الله تعالى: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك

فاستغفروا الله} (٤).

فانظر هذا الكلام من مالك رحمه الله وما اشتمل عليه من الزيارة والتوسل

(١) الحجرات: ٢.

(٢) الحجرات: ٣.

(٣) الحجرات: ٤.

(٤) النساء: ٦٤.

بالنبي (صلى الله عليه وآله) وحسن الأدب معه (١).
وأما التبرك بالقبر، أو القسم على الله بأحد من خلقه والاستغاثة بالميت،
فالكمل خارج عن ماهية الزيارة، وإنما هي أمور جانبية، لا تكون سببا لتسمية
الزيارة بدعة، على أن الجميع جائز بدلالة الكتاب والسنة، وليست تربة النبي
الأكرم بأقل من قميص يوسف، حيث تبرك به يعقوب فعاد بصره، قال سبحانه:
{ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم
أجمعين... فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم
إني أعلم من الله ما لا تعلمون } (٢).

وليس ضريح النبي ومدفنه بأقل كرامة من تابوت بني إسرائيل وما ترك آل
موسى وآل هارون من قميص وعصي وغيرهما، وكان بنو إسرائيل يتبركون به في
الحروب قال تعالى: { وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه
سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في
ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين } (٣) قال الرازي: إذا حضر (بنو إسرائيل) القتال
قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم، وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر
وهم يقاتلون العدو فإذا سمعوا من التابوت صيحة استيقنوا بالنصر، فلما عصوا
وفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه، فلما سألوا نبيهم
البينة على ملك طالوت قال ذلك النبي: إن آية ملكه أنكم تجدون التابوت في
داره (٤).

إن الاستغاثة بالنبي والولي أحياء وأمواتا ترجع إلى طلب الدعاء منهم، فلو لم

(١) شفاء السقام: ٧٠.

(٢) يوسف: ٩٣ - ٩٦.

(٣) البقرة: ٢٤٨.

(٤) مفاتيح الغيب ٦: ١٧٧.

تكن للميت مقدرة على الإجابة يكون العمل لغوا لا شركا، وليست الحياة والموت حدا للتوحيد والشرك حتى يكون خطاب الحي عين التوحيد، وخطاب الميت نفس الشرك.

على أنا قد ذكرنا استفاضة الأثر على أن الصحابة كانوا يستغيثون بنبيهم، نبي الرحمة وقد ذكر موارد فلاحظ (١).

الشبهة الثالثة: إن الزيارة تؤدي إلى الشرك

هذه آخر ما في كنانة الرجل من سهام مرشوقة وقد استدل عليه بما لا يمت إلى مدعاه بصلة، قال: إن من أصول الشرك اتخاذ القبور مساجد كما قال بعض السلف في قوله تعالى: {وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا} (٢) قالوا: كان هؤلاء قوما صالحين فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا على صورهم تماثيل، ثم طال عليهم الأمد فعبدوها. يلاحظ عليه:

أن محور البحث هو الزيارة على ما جرت عليه سيرة السلف والخلف، ولم تؤد طوال القرون الأربعة إلى الشرك، ولم تكن عكوفاً على القبور، ولا بتصوير تماثيلهم وعبادتهم مكان عبادة الله، فأى صلة لهذا الكلام بمدعاه من تحريم الزيارة. إن زيارة قبر نبي التوحيد ورسوله، دعم للمبدأ الذي جاء به، وتأكيد لصحة رسالته التي كانت في طريق تحطيم الوثنية وعبادة الأنداد والأمثال المزعومة، فكيف تقع مثلها ذريعة إلى الشرك يا ترى!؟

(١) راجع بحث التوسل ص ٥٦٩ من هذا الكتاب.

(٢) نوح: ٢٣.

يقول ابن زهرة:

" فإن التقديس الذي يتصل بالرسول إنما هو لفكرتهم التي حملوها، فالتقديس لمحمد (صلى الله عليه وآله) تقديس للمعاني التي دعا إليها، وحث عليها فكيف يتصور من مؤمن

عرف حقيقة الدعوة المحمدية أن يكون مضمرًا لأي معنى من معاني الوثنية وهو يستعبر العبر، ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة، فإذا كان خوف ابن تيمية من أن يؤدي ذلك إلى الوثنية بمضي الأعصار والدهور فإنه خوف من غير جهة، لأن الناس كانوا يزورون قبر الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى أول القرن

الثامن ثم استمروا على هذه السيرة في العصور من بعده إلى يومنا هذا، ومع ذلك لم ينظر أحد إلى هذا العمل نظرة عبادة أو وثنية، ولو تفرط أحد فهو من العوام ولا يمنع تلك الذكريات العطرة، بل يجب إرشادهم لا منعهم من الزيارة وتكفيرهم " (١). قال الشيخ محمد زاهد الكوثري من علماء الأزهر الشريف:
" إن سعي ابن تيمية في منع الناس من زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) يدل على ضغينة كامنة

فيه نحو النبي (صلى الله عليه وآله)، وكيف يتصور الإشراك بسبب الزيارة، والتوسل في المسلمين

الذين يعتقدون في حقه أنه عبده ورسوله، وينطقون بذلك في صلاتهم نحو عشرين مرة في كل يوم على أقل تقدير، إدامة لذكرى ذلك ولم يزل أهل العلم ينهون العوام من البدع في كل شؤونهم، ويرشدونهم إلى السنة في الزيارة وغيرها إذا حدث منهم بدعة في شيء، ولم يعدوهم في يوم من الأيام مشركين بسبب الزيارة أو التوسل، وأول من رماهم بالإشراك بتلك الوسيلة هو ابن تيمية وجرى خلفه من أراد استباحة أموال المسلمين ودمائهم لحاجة في النفس (٢).
وأما ما رواه إمام الحنابلة عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: " اللهم

(١) كلام ابن زهرة في كتابه حول حياة ابن تيمية.

(٢) تكملة السيف الصقيل: ١٥٦.

لا تجعل قبوري وثنا، لعن الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " (١). فإن الحديث - إذا افترضنا صحة الاحتجاج به - لا صلة له بالزيارة، وإنما يهيب بالذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، يصلون إليها - إذا اتخذوها قبلة - أو لها، إذا عبدوها، ويدل على ما ذكرنا ما روي أيضا من أنه (صلى الله عليه وآله) قال: " اللهم لا تجعل قبوري
يصلى إليه فإنه اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " (٢).
{ وكفى بربك هاديا ونصيرا } (٣)

(١) الإمام أحمد، المسند ٢: ٢٤٦.

(٢) كنز العمال ٢ / ح ٣٨٠٢.

(٣) الفرقان: ٢١.

تذكرة وإنذار

خاتمة

تذكرة وإنذار

إن لزيارة العظماء والقديسين، أصحاب الرسالات آثارا إيجابية تعود تارة إلى الزائر، وأخرى إلى المزور.

أما الأولى: فلأن الزيارة صلة بين الكامل ومن يروم الكمال، فالدوام على مواصلته محاولة للتخلق بأخلاقه، واتباع منهجه وتجديد العهد معه، ولذلك لا تجد إنسانا وقف أمام قبر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وزاره إلا ويتأثر بشخصه وشخصيته، وإن

كان التأثير قليلا مؤقتا، فزيارتهم تقترن غالبا بذرف الدموع، والعطف والحنان على المزور، وهي لا تنفك عن تحول نفسي وأخلاقي وحب وود لهم، وبالتالي شعوره بقربه منهم، ومشاطرته لأهدافهم، إلى غير ذلك من الآثار الإيجابية التي تعود على الزائر والتي أشرنا إليها في تمهيدنا الذي تصدرت هذه الرسالة به، ولا نعود إلى تلك الآثار التي تعود إلى الزائر.

أما الثانية: أعني الآثار الإيجابية التي تعود إلى المزور فهذا هو المقصود في بياننا، وهو أن زيارة العظماء هي تخليد لذكراهم، وتجسيد لرسالاتهم في الأذهان، وبالتالي تكون سببا لبقائهم أحياء في كل عصر وقرن، لا يتسرب إلى وجودهم ورسالاتهم وبطولاتهم أدنى ريب وشك، فبذلك يتجلى المزور في كل زمان حيا في القلوب وفي المجتمع، كما لو كان موجودا بشخصه في زمن الزائر، فكأن الزيارة استمرار لبقائهم في القلوب تجلي الصدا عنها، وتتجلى صحة وجودهم للخلف كما تجلت للسلف، وتكون بمنزلة الدليل على وجودهم ورسالاتهم وبطولاتهم. فلو حذفنا الزيارة من قاموس حياتنا، وتركنا مزارهم، وأقفلنا أبواب بيوتهم، ولم نهتم بآثارهم طوال قرون، فقد جعلنا آثارهم في مهب الفناء والتدمير،

وبالنتيجة التشكيك في أصل وجودهم وبعثهم، وبالتالي تصبح تلك الشخصيات بعد قرون أساطير تاريخية للخلق، فيتلقون النبي والإمام بل الأنبياء كلهم قصصا تاريخية نسجتها يد الخيال، كما هو الحال في كثير من القصص التاريخية التي أصبحت تروى على ألسن الأطفال وفي المنتديات.

إن الإنسان الغربي يتمتع في حياته بكل ما هو غربي إلا الدين والمذهب، فإن مذهبه شرقي، لأن المسيح وليد الشرق ومبعوثه سبحانه إلى أرض فلسطين وغيرها، وبما أن الغربي لا يجد أثرا ملموسا للمسيح في حياته فمثلا ليس له قبر حتى يزار ولا لأمه قبر حتى ينسب إليها، ولا لكتابه صورة صحيحة يؤمن به، ولا لتلاميذه وحوارييه آثار ملموسة، فلذلك صارت الديانة المسيحية أسطورة تاريخية في نظر الغرب وشبابه المثقفين بعد ألفي عام، وإن كان الشيوخ والعجائز يؤمنون به إيمانا تقليديا لا علميا، فالجدد منهم مسيحيون في هوياتهم الشخصية لا في هوياتهم العقلية والفكرية، ومما أثر في ذلك هو فقدان كل أثر ملموس عن سيدنا المسيح في حياتنا البشرية، ولولا أن القرآن الكريم جاء بذكره ورسالته ومواقفه لكان الشك متسربا إلى أذهاننا وأفكارنا.

وهذا بخلاف ما لو كان له أثر ملموس يزار بين آن وآخر، وتشد الرحال إليه عندئذ لكانت الديانة المسيحية حية نابضة بلا شك وريب.

ومن الأسباب والوسائل التي أضفت على الإسلام حيوية، وعلى نبيه بقاء في القلوب، وعلى مواقفه وبطولاته خلودا في الأذهان والضمائر، هو وفود المسلمين في كل شهر وسنة إلى موطنه (مكة) ومهجره (المدينة) وزيارة قبره وآثاره وقبور أولاده وأصحابه، ومشاهدة مولده ومبعثه وما يمت إليه بصلة طوال حياته، حيث أضفت هذه الوفادة المستمرة على وجوده ورسالته نورا وضياء، وواقعية تذهب كل ريب وشك وتقر في النفوس عظمته وبطولاته.

وإذا كانت الذكرى ناقوساً يدق في وادي النسيان يذكرك الحبيب ويرن في
أسماعك جماله وكماله، فزيارته والمثول أمام آثاره وعظمته تؤثر في خلوده وبقائه
في النفوس، وتزيل غبار النسيان عنه. لذا نرى أن الفقهاء أفتوا بأنه يجب على
الحاكم الإسلامي تجهيز المسلمين من بيت المال وإرسالهم إلى الحج إذا خلت الكعبة
عن الزوار لئلا تنسى، وحتى تبقى خالدة في قلوب المسلمين ومهوى أفئدتهم،
فكذلك قبور الأنبياء والمرسلين وفي مقدمتهم سيدنا سيد الرسل نبينا الأكرم
صلوات الله عليه وعلى آله ومن تبعه بإحسان، وذلك لأن هجر قبورهم وعدم
الاهتمام بها تمهيد لنسيانهم ورسالاتهم وبالتالي القضاء على الإسلام.

أخي القارئ الكريم، لقد عالجت مسألة الزيارة معالجة علمية في ضوء القرآن
والحديث الصحيح وقضاء الفطرة الإنسانية، فلم يبق في رجحان الزيارة
واستحبابها شرعاً شك ولا ريب، وقد تعرفت على آثارها الإيجابية للزائر
والمزور، وقد أزعجتنا بعض الأشواك النامية في هذا الطريق، فعلى المشرفين على
القبور والأضرحة ونخص بالذكر قبر سيد البشر - عليه صلوات الله وسلامه -
استقبال الوافدين عليها بوجوه مشرقة مرحبين بضيوف النبي مهيبين الأجواء
الودية المناسبة للزيارة، وحشد كل الإمكانيات المادية والمعنوية لإقامتهم في مدينة
الرسول (صلى الله عليه وآله) إقامة مقرونة بالارتياح.
ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى واجب الخطباء والعلماء في إرشاد المسلمين
وتوجيههم إلى الآداب الصحيحة للزيارة، وتذكيرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة،
حتى يتلقى الزائر أن الحضور في مزاره الشريف وسيلة للتذكرة به، وهي لا تنفك
عن العمل بشريعته ودينه وسنته والتخلق بأخلاقه.

الاحتفال بمولد النبي (صلى الله عليه وآله)
الاحتفال بمولد النبي (صلى الله عليه وآله)
لقد طال النزاع في الأوان الأخير عن طريق وسائل الإعلام وغيرها حول
الاحتفال بمولد النبي الأكرم، وقد رفع بعضهم شعار البدعة فيه، بينما يرى الأكثرون
أنه من السنة. وإليك دراسة الموضوع في ضوء الأدلة.
حب النبي أصل في الكتاب والسنة

المعلوم أن العنصر المقوم للبدعة هو عدم الدليل على جواز العمل، فلو كان
هناك دليل خاص على جواز العمل، أو دليل عام يشمل المصدايق المحدثه فليس
ذلك ببدعة، وقد ذكرنا لك أمثلة كثيرة، وفي ضوء ما ذكر نركز في هذا الفصل على
وجود دليل عام على الاحتفال بيوم ميلاده، وإن لم يكن هناك دليل خاص، وأما
الدليل فكما يلي:

الحب والبغض خلتان تتواردان على قلب الإنسان، تشتدان وتضعفان،
ولنشوئهما واشتدادهما أو ضعفهما عوامل وأسباب. ولا شك أن حب الإنسان
لذاته من أبرز مصدايق الحب، وهو أمر بديهي لا يحتاج إلى بيان، وجبلي لا يخلو
منه إنسان.

ومن هذا المنطلق حب الإنسان لما يرتبط به أيضا، فهو كما يحب نفسه يحب
كذلك كل ما يمت إليه بصلة، سواء كان اتصاله به جسمانيا كالأولاد والعشيرة، أو
معنويا كالعقائد والأفكار والآراء والنظريات التي يتبناها، وربما يكون حبه
للعقيدة أشد من حبه لأبيه وأمه، فيذب عن حياض العقيدة بنفسه ونفيسه،
وتكون العقيدة أغلى عنده من كل شيء حتى نفسه التي بين جنبيه.

فإذا كان للعقيدة هذه المنزلة العظيمة يكون لمؤسسها ومغذيها والدعاة إليها منزلة لا تقل عنها، إذ لولا هم لما قام للعقيدة عمود، ولا اخضر لها عود، ولأجل ذلك كان الأنبياء والأولياء، بل جميع الدعاة إلى الأمور المعنوية والروحية محترمين لدى جميع الأجيال، من غير فرق بين نبي وآخر، ومصالح وآخر، فالإنسان يجد من صميم ذاته خضوعاً تجاههم، وإقبالا عليهم.

ولهذا لم يكن عجباً أن تحترم، بل تعشق النفوس الطيبة، طبقة الأنبياء والرسول، منذ أن شرع الله الشرائع وبعث الرسل، فترى أصحابها يقدمونهم على أنفسهم بقدر ما أوتوا من المعرفة والكمال.

حب النبي في الكتاب:

ولوجود هذه الأرضية في النفس الإنسانية والفطرة البشرية، تضافرت الآيات والأحاديث على لزوم حب النبي وكل ما يرتبط به، وليست الآيات إلا إرشادا إلى ما توحى إليه فطرته، قال سبحانه: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين} (١).

وقال سبحانه: {ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} (٢).

ويقول سبحانه: {فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون} (٣).

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) المائدة: ٥٦.

(٣) الأعراف: ١٥٧.

فآلية الكريمة تأمر بأمر أربعة:

١ - الإيمان به.

٢ - تعزيره.

٣ - نصرته.

٤ - اتباع كتابه، وهو النور الذي أنزل معه.

وليس المراد - هنا - من تعزيره، نصرته، لأنه قد ذكره بقوله: {ونصروه} وإنما المراد توقيره، وتكريمه، وتعظيمه بما أنه نبي الرحمة والعظمة، ولا يختص تعزيره وتوقيره بحال حياته، بل يعمها وغيرها، تماما كما أن الإيمان به والتبعية لكتابه لا يختصان بحال حياته الشريفة. هذه هي العوامل الباعثة إلى حب النبي (صلى الله عليه وآله) وهذه هي الآيات المرشدة إلى ذلك.

ولأجل دعم المطلب نذكر بعض ما ورد من الروايات في الحث على حبه ومودته.

حب النبي (صلى الله عليه وآله) في السنة

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

١ - " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين "

٢ - " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب الناس إليه من والده وولده "

٣ - " ثلاث من كن فيه ذاق طعم الإيمان: من كان لا شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومن كان لئن يحرق بالنار أحب إليه من أن يرتد عن دينه، ومن كان

يحب لله ويغض لله " .

٤ - " والله لا يكون أحدكم مؤمنا حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده " .

٥ - " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " .

٦ - " من أحب الله ورسوله صادقا غير كاذب، ولقى المؤمنين فأحبهم، وكان أمر الجاهلية عنده كمنزلة نار ألقى فيها، فقد طعم طعم الإيمان، أو قال: فقد بلغ ذروة الإيمان " .

إن الذي يرى سعادته فيما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وآله) من شريعة ودين، هو الذي

يذوق طعم الإيمان، وتذوق طعم الإيمان لا يتحقق إلا عندما يستن الإنسان بسنة رسول الله، ويعمل بشريعته فيحصل على سعادته.

٧ - عن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: " أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، ويكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، وتكون أن تحرق بالنار أحب إليك من أن تشرك بالله شيئا، وتحب غير ذي نسب لا تحبه إلا لله، فإذا فعلت ذلك فقد دخل حب الإيمان في قلبك، كما دخل قلب الظمآن حب الماء في اليوم القائف " .

٨ - " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما " .

٩ - عن أنس أن رجلا سأل النبي (صلى الله عليه وآله) عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال:

" وما أعددت لها؟ " قال: لا شيء، إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال: " أنت مع من أحببت " . قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي (صلى الله عليه وآله): " أنت مع من أحببت " .

١٠ - أبو ذر قال: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم؟ قال: " أنت يا أبا ذر مع من أحببت " . قال: فإني أحب الله ورسوله. قال:

" فإنك مع من أحببت "، قال: فأعاد (ها) أبو ذر، فأعادها رسول الله (صلى الله عليه وآله).

١١ - " من أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة ".

١٢ - " والذي نفس محمد بيده ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لئن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم ".

١٣ - " إن أحدكم سيوشك أن يحب ينظر إلي نظرة بما له من أهل وعيال ".

١٤ - " من أشد أمتي لي حبا أناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رأني بأهله وماله ".

١٥ - " أشد أمتي لي حبا قوم يكونون بعدي يود أحدهم أنه فقد أهله وماله وأنه رأني ".

١٦ - " إن أناسا من أمتي يأتون بعدي يود أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله ".

١٧ - " من دعا بهؤلاء الدعوات في دبر كل صلاة مكتوبة حلت له الشفاعة مني يوم القيامة: اللهم أعط محمدا الوسيلة، واجعل في المصطفين محبته، وفي العالمين درجته، وفي المقربين ذكر داره ".

١٨ - " من قال في دبر كل صلاة مكتوبة: " اللهم أعط محمدا الدرجة

والوسيلة، اللهم اجعل في المصطفين محبته وفي العالمين درجته، وفي المقربين ذكره " من قال تلك في دبر كل صلاة فقد استوجب علي الشفاعة، ووجبت له الشفاعة ".

وقد روي عن أبي بكر قال: الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله) أمحق للخطايا من الماء للنار،

والسلام على النبي (صلى الله عليه وآله) أفضل من عتق الرقاب، وحب رسول الله

(صلى الله عليه وآله) أفضل من

عتق الأنفس أو قال: من ضرب السيف في سبيل الله عز وجل (١).

(١) راجع للوقوف على هذه الأحاديث ونظائرها جامع الأصول ج ١ نقلا عن صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وكنز العمال ج ٢ و ٦ و ١٢.

اختلاف الأمة في درجات حبهم للنبي (صلى الله عليه وآله) وليست الأمة المؤمنة في ذلك شرعا سواء، بل هم فيه متفاوتون على اختلاف درجات عرفانهم به كاختلافهم في حب الله تعالى. قال القرطبي: " كل من آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله) إيمانا صحيحا لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقا في الشهوات، محجوبا في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي (صلى الله عليه وآله) اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وولده وماله ووالده، ويبدل نفسه في الأمور الخطيرة، ويجد مخبر ذلك من نفسه وجدانا لا تردد فيه " (١).

مظاهر الحب في الحياة إن لهذا الحب مظاهر، إذ ليس الحب شيئا يستقر في صقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال الإنسان وتصرفاته، بل إن من خصائص الحب أن يظهر أثره على جسم الإنسان وملامحه، وعلى قوله وفعله، بصورة مشهودة وملموسة.

فحب الله ورسوله الكريم لا ينفك عن اتباع دينه، والاستئنان بسنته، والإتيان بأوامره والانتهاز عن نواهيه، ولا يعقل أبدا أن يكون المرء محبا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أشد الحب، ومع ذلك يخالفه فيما يبغضه ولا يرضيه، فمن ادعى حبا في نفسه وخالفه في

(١) فتح الباري ١: ٥٠ - ٥١.

عمله، فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.
ولنعم ما قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في هذا الصدد موجهها كلامه إلى مدعي

الحب الإلهي كاذبا:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه * هذا لعمرى في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته * إن المحب لمن يحب مطيع (١)

للحب مظاهر وراء الاتباع

نعم لا يقتصر أثر الحب على هذا، بل له آثار أخرى في حياة المحب، فهو يزور محبوبه ويكرمه ويعظمه ويقضي حاجته، ويذب عنه، ويدفع عنه كل كارثة ويهيئ له ما يريحه، ويسره إذا كان حيا.

وإذا كان المحبوب ميتا أو مفقودا حزن عليه أشد الحزن، وأجرى له الدموع كما فعل النبي يعقوب (عليه السلام) عندما افتقد ولده الحبيب يوسف (عليه السلام) فبكاه حتى ابيضت

عيناه من الحزن، وبقي كظيما حتى إذا هب عليه نسيم من جانب ولده الحبيب المفقود، هش له وبش، وهفا إليه شوقا وحبا.

بل يتعدى أثر الحب عند فقد الحبيب وموته هذا الحد، فنجد المحب يحفظ آثار محبوبه، وكل ما يتصل به، من لباسه وأشياءه، كقلمه ودفتره وعصاه ونظاراته، كما ويحترم أبناءه وأولاده، ويحترم جنازته ومثواه، ويحتفل كل عام بميلاده وذكرى موته، ويكرمه ويعظمه حبا به ومودة له.

إلى هنا ثبت أن حب النبي وتكريمه أصل من أصول الإسلام لا يصح لأحد إنكاره، ومن المعلوم أن المطلوب ليس الحب الكامن في القلب من دون أن

(١) سفينة البحار، مادة " حب " .

يرى أثره على الحياة الواقعية، وعلى هذا يجوز للمسلم القيام بكل ما يعد مظهرا لحب النبي، شريطة أن يكون عملا حلالا بالذات، ولا يكون منكرا في الشريعة، نظير:

١ - تنظيم السنة النبوية، وإعراب أحاديثها، وطبعها، ونشرها بالصور المختلفة، والأساليب الحديثة، وفعل مثل هذا بالنسبة إلى أقوال أهل البيت وأحاديثهم.

٢ - نشر المقالات والكلمات، وتأليف الكتب المختصرة والمطولة حول حياة النبي وعترته، ونظم القصائد بشتى اللغات والألسن في حقهم، كما كان يفعل المسلمون الأوائل.

فالأدب العربي بعد ظهور الإسلام يكشف عن أن نظم القصائد في مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان مما يعبر به أصحابها عن حبهم لرسول الله (صلى الله عليه وآله). فهذا هو كعب بن زهير ينظم قصيدة مطولة في مدح رسول الله (صلى الله عليه وآله) منطلقا من إعجابه وحب له (صلى الله عليه وآله)، فيقول في جملة ما يقول:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * متيم إثرها لم يفد مكبول
نبئت أن رسول الله أوعدني * والعفو عند رسول الله مأمول
ويقول:

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة * القرآن فيها مواعيز وتفصيل
إن الرسول لنور يستضاء به * مهند من سيوف الله مسلول (١)

(١) السيرة النبوية ٢: ٥١٣.

وقد ألقى هذه القصيدة في حضرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، ولم ينكر عليه

رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وهذا هو حسان بن ثابت الأنصاري يرثي النبي (صلى الله عليه وآله)، ويذكر فيه مدائحه، ويقول:

بطيبة رسم للرسول ومعهد * منير وقد تعفو الرسوم وتحمد
إلى أن قال:

يدل على الرحمن من يقتدي به * وينقذ من هول الخزايا ويرشد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا * معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا (١)

وهذا هو عبد الله بن رواحة ينظم أبياتا في هذا السياق فيقول فيها:

خلوا بني الكفار عن سبيله * خلوا فكل الخير في رسوله

يا رب إني مؤمن بقبيله * أعرف حق الله في قبوله (٢)

هذه نماذج مما نظم الشعراء المعاصرون لعهد الرسالة في النبي الأكرم ونكتفي بها لدلالاتها على ما ذكرنا.

ولو قام باحث بجمع ما قيل من الأشعار والقصائد حول النبي الأكرم لاحتاج في تأليفه إلى عشرات المجلدات، فإن مدح النبي كان الشغل الشاغل للمخلصين والمؤمنين منذ أن لبي الرسول دعوة ربه، ولا أظن أن أحدا عاش في هذه البسيطة، ونال من المدح بمقدار ما ناله الرسول (صلى الله عليه وآله) من المدح بمختلف الأساليب والنظم.

وهناك شعراء مخلصون أفرغوا فضائل النبي ومناقبه في قصائد رائعة وخالدة، مستلهمين ما جاء في الذكر الحكيم والسنة المطهرة في هذا المجال، فشكر الله

(١) السيرة النبوية: ٢ / ٦٦٦.

(٢) السيرة النبوية: ٢ : ٣٧١.

مساعيهم الحميدة وجهودهم المخلصة.
٣ - تقبيل كل ما يمت إلى النبي بصلة، كباب داره، وضريحه وأستار قبره،
انطلاقاً من مبدأ الحب الذي عرفت أدلته. وهذا أمر طبيعي وفطري، فبما أن
الإنسان المؤمن لا يتمكن بعد رحلة النبي (صلى الله عليه وآله) من تقبيل الرسول (صلى
الله عليه وآله) (١) فيقبل ما
يتصل به بنوع من الاتصال، وهو كما أسلفنا أمر طبيعي في حياة البشر، حيث
يلتمون ما يرتبط بحبيبتهم ويقصدون بذلك نفسه. فهذا هو مجنون بني عامر كان
يقبل جدار بيت ليلي ويصرح بأنه لا يقبل الجدار، بل يقصد تقبيل صاحب
الجدار، يقول:

أمر على الديار ديار ليلي * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
فما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا (٢)
٤ - إقامة الاحتفالات في مواليدهم، وإلقاء الخطب والقصائد في مدحهم،
وذكر جهودهم ودرجاتهم في الكتاب والسنة، شريطة أن لا تقترن تلك
الاحتفالات بالمنهيات والمحرمات.
ومن دعا إلى الاحتفال بمولد النبي في أي قرن من القرون، فقد انطلق من هذا
المبدأ، أي حب النبي الذي أمر به القرآن والسنة بهذا العمل.
هذا هو الديار بكري مؤلف تاريخ الخميس يقول في هذا الصدد: " لا يزال أهل
الإسلام يحتفلون بشهر مولده، ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع

(١) دخل أبو بكر حجرة النبي (صلى الله عليه وآله) بعد رحيله وهو مسجى ببرد حبرة فكشف عن وجهه ثم
أكب عليه يقبله
ثم بكى فقال: بأبي أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها. (لاحظ
صحيح البخاري ٢: ١٧ كتاب الجنائز)
(٢) أغاني الأغاني ١: ١٤٦ ط. سوريا.

الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عظيم" (١).
وقال أبو شامة المقدسي في كتابه: "ومن أحسن ما ابتدع!! في زماننا ما يفعل في اليوم الموافق ليوم مولده (صلى الله عليه وآله) من الصدقات والمعروف بإظهار الزينة والسرور،

فإن في ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء شعارا لمحبهته" (٢).
أنا لا أوافق الشيخ المقدسي في تسميته للاحتفال بالبدعة إلا أن يريد البدعة بالمعنى اللغوي، كما أن الاحتجاج على حسن الاحتفال بالأعمال الجانبية من صدقات ومعروف وإظهار الزينة...، فإن هذه الأمور الجانبية لا تسوغ الاحتفال، ولا تضي عليه صبغة شرعية ما لم يكن هناك دليل في الكتاب والسنة، وقد عرفت وجوده.

وقال القسطلاني: "ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده (عليه السلام)، ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عظيم.. فرحم الله امرئ اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعيادا، ليكون أشد علة على من في قلبه مرض وأعيى داء" (٣).

إذا عرفت ما ذكرناه فلا نظن أن يشك أحد في جواز الاحتفال بمولد النبي الأكرم، احتفالا دينيا فيه رضا الله ورسوله، ولا تصح تسميته بدعة، إذ البدعة هي التي ليس لها أصل في الكتاب والسنة، وليس المراد من الأصل، الدليل الخاص، بل يكفي الدليل العام في ذلك.

(١) تاريخ الخميس ١: ٣٢٣.

(٢) السيرة الحلبية ١: ٨٣ - ٨٤.

(٣) المواهب اللدنية ١: ١٤٨.

ويرشدك إلى أن هذه الاحتفالات تجسيد لتكريم النبي، وجدانك الحر، فإنه يقضي بلا مرية على أنها إعلاء لمقام النبي وإشادة بكرامته وعظمته، يتلقاها كل من شاهدها عن كثب، على أن المحتفلين يعزرون نبهم ويكرمونه ويرفعون مقامه اقتداء بقوله سبحانه: {ورفعنا لك ذكرك} (١).

السنة النبوية وكرامة يوم مولده

١ - أخرج مسلم في صحيحه عن أبي قتادة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) سئل عن صوم

يوم الاثنين فقال: "ذاك يوم ولدت فيه، وفيه أنزل علي" (٢).

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي - عند الكلام في استحباب صيام الأيام التي تتجدد فيها نعم الله على عباده - ما هذا لفظه: "إن من أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد (صلى الله عليه وآله) وبعثه وإرساله إليهم، كما قال الله تعالى: {لقد من الله على

المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم} (٣) فصيام يوم تجددت فيه هذه النعمة من الله سبحانه على عباده المؤمنين حسن جميل، وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددها بالشكر" (٤).

٢ - روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قدم رسول الله (صلى الله عليه وآله) المدينة

فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألوا عن ذلك؟ فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيما له، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): "فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(١) الانشراح: ٤.

(٢) مسلم ٢: ٨١٩.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) لطائف المعارف: ٩٨.

وأمر بصومه (١).

وقد استدل ابن حجر العسقلاني بهذا الحديث على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي على ما نقله الحافظ السيوطي، فقال: " فيستفاد فعل الشكر لله على ما من به في يوم معين من إسداء نعمة، أو دفع نقمة، ويعاد ذلك، في نظير ذلك اليوم من كل سنة. والشكر لله يحصل بأنواع العبادة، كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة، وأي نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم " (٢).
٣ - وللسيوطي أيضا كلام آخر نأتي بنصه، يقول: " وقد ظهر لي تخريجه على أصل آخر، وهو ما أخرجه البيهقي عن أنس أن النبي (صلى الله عليه وآله) عق عن نفسه بعد النبوة

مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عق عنه في سابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مرة ثانية، فيحمل ذلك على أن الذي فعله النبي (صلى الله عليه وآله) إظهار للشكر على إيجاد الله إياه

رحمة للعالمين وتشريع لأُمَّته كما كان يصلي على نفسه، لذلك فيستحب لنا أيضا إظهار الشكر بمولده بالاجتماع، وإطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات " (٣).

٤ - أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً؟ فقال: أي آية؟ قال: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (٤).

فقال عمر: إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه،

(١) شرح صحيح مسلم مج ٤، ص ٧ - ٨، برقم ١١٣٠، وأخرجه البخاري ٧: ٢١٥.

(٢) الحاوي للفتاوي ١: ١٩٦.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المائدة: ٣.

ورسول الله (صلى الله عليه وآله) قائم بعرفة يوم الجمعة (١).
وأخرج الترمذي عن ابن عباس نحوه وقال: فيه نزلت في يوم عيد من يوم
جمعة ويوم عرفة، وقال الترمذي: وهو صحيح (٢).
" وفي هذا الأثر موافقة سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على اتخاذ اليوم الذي
حدثت فيه نعمة عظيمة عيداً، لأن الزمان ظرف للحدث العظيم، فعند عود اليوم
الذي وقعت فيه الحادثة كان موسماً لشكر تلك النعمة، وفرصة لإظهار الفرح
والسرور " (٣).

نرى أن المسيح عندما دعا ربه أن ينزل مائدة عليه وعلى حواريه قال: {اللهم
ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك
وارزقنا وأنت خير الرازقين} (٤). فقد اتخذ يوم نزول النعمة المادية التي تشبع
البطون عيداً، والرسول الأكرم نعمة عظيمة من بها الله على المسلمين بميلاده، فلم
لا نتخذه يوم فرح وسرور؟
الاستدلال بالإجماع

ذكروا أن أول من أقام المولد هو الملك المظفر صاحب إربل، وقد توفي عام
٦٣٠ هـ، وربما يقال أول من أحدثه بالقاهرة الخلفاء الفاطميون، أولهم المعز
لدين الله، توجه من المغرب إلى مصر في شوال ٣٦١ هـ، وقيل في ذلك غيره، وعلى
أي تقدير فقد احتفل المسلمون حقبا وأعواماً من دون أن يعترض عليهم أحد،

(١ - ٢) البخاري ٨: ٢٧٠، كما أخرجه الترمذي في ٥: ٢٥٠. وفي الروايات المتضاربة إنها نزلت في
الثامن

عشر من ذي الحجة في حجة الوداع.

(٣) بلوغ المأمول: ٢٩.

(٤) المائدة: ١١٤.

وعلى أي حال فقد تحقق الإجماع على جوازه وتسويغه واستحبابه قبل أن يولد بأذر هذه الشكوك، فلماذا لم يكن هذا الإجماع حجة؟ مع أن اتفاق الأمة بنفسه أحد الأدلة، وكانت السيرة على تبجيل مولد النبي إلى أن جاء ابن تيمية، وعبد العزيز ابن عبد السلام (١)، والشاطبي فناقشوا فيه ووصفوه بالبدعة، مع أن الإجماع انعقد قبل هؤلاء بقرنين أو قرون، أوليس انعقاد الإجماع في عصر من العصور حجة بنفسه؟

أوهام وتشكيكات

إن للقائلين بالمنع تشكيكات وشبها كلها سراب، نذكرها بنصوصها:

أ - الاحتفال نوع من العبادة

قال محمد حامد الفقي: " والمواليد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء

هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم " (٢).

يلاحظ عليه: أن العنصر المقوم لصدق العبادة على العمل هو الاعتقاد بالوهية المعظم له أو ربوبيته، أو كونه مالكا لمصير المعظم المحتفل، وأن بيده عاجله وآجله، ومنافعه ومضاره، ولا أقل بيده مفاتيح المغفرة والشفاعة.

وأما إذا خلا التعظيم عن هذه العناصر، واحتفل بذكرى رجل ضحى بنفسه ونفيسه في طريق هداية المحتفلين، فلا يعد ذلك عبادة له، وإن أقيمت له عشرات الاحتفالات، وأقيمت فيها القصائد والخطب.

(١) هو عبد العزيز بن عبد السلام السلمى الدمشقي (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ) فقيه شافعي، له من الكتب " التفسير الكبير " و " مسائل الطريقة " وغيرها (أعلام الزركلي ٤ : ٢١ ط دار العلم للملايين، بيروت).
(٢) محمد حامد الفقي في تعليقه على فتح المجيد: ص ١٥٤.

ومن المعلوم أن المحتفلين المسلمين يعتقدون أن النبي الأكرم عبد من عباد الله الصالحين، وفي الوقت نفسه هو أفضل الخليفة، ونعمة من الله إليهم، فلأجل تكريمه يقيمون الاحتفال أداء لشكر النعمة.

ب - لم يحتفل السلف بمولد النبي قال ابن تيمية: إن هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضي له، وعدم المانع منه، ولو كان هذا خيرا محضا أو راجحا لكان السلف - رضي الله عنهم - أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وتعظيما له منا، وهم على الخير أحرص (١).

يلاحظ عليه: بما تعرفت عليه في المبحث الرابع من أن المقياس في السنة والبدعة هو الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أو السيرة العملية المتصلة بعصر النبي، وأما غير ذلك فليس له وزن ولا قيمة ما لم يعتمد على هذه الأصول الأربعة، ولم يكن السلف أنبياء ولا رسلا، وليس الخلف بأقل منهم، بل الجميع أمام الكتاب وأمام السنة سواسية، فلو كان هناك دليل من الكتاب والسنة على جواز الاحتفال، فترك السلف لا يكون مانعا، على أن ترك السلف لم يكن مقارنا بتحريم الاحتفال أو كراهيته فغاية ما هناك أنهم لم يفعلوا، وقد أمر الله بما في هذه الآية: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} (٢) ولم يقل في حق النبي " وما تركه فانتهوا عنه " فكيف الحال في حق السلف!؟

ج - إنها مضاهاة للنصارى في ميلاد المسيح يقول ابن تيمية: وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد المسيح (عليه السلام)، وإما محبة للنبي وتعظيما له والله قد يشبههم على هذه المحبة والاجتهاد لا

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) الحشر: ٧.

على البدع (١).

يلاحظ عليه: أن ابن تيمية ليس على يقين بأن المسلمين يقيمون الاحتفال
مضاهاة للنصارى، أضف إلى ذلك أن الأساس الذي يجب أن يبنى عليه عمل
المسلم هو انطباق العمل على الكتاب والسنة، فلا تكون المضاهاة مانعة عن اتباع
الكتاب والسنة، وإن افترضنا أن أول من احتفل، احتفل مضاهاة إلا أن المحتفلين
في هذه القرون براء من هذه التهمة.

د - تخصيص المولد بيوم للاحتفال به بدعة!!

إن عموم الدليل يقتضي أن تكون جميع الأيام بالنسبة للاحتفال سواسية،
فتخصيص يوم واحد في جميع البلاد بالاحتفال بدعة، وإن لم يكن أصل العمل
بدعة (٢).

هذا هو الدليل الهام للقائلين بالمنع، ولكن الجواب عنه واضح، وذلك لأن
جميع الأيام بالنسبة إلى الاحتفال وإن كانت سواسية إلا أن تخصيص يوم واحد
للاحتفال به، لأجل خصوصيات في ذلك اليوم، وليست في غيره إلا ما شذ، وهو
أن ذلك اليوم تشرف بولادته، فهو من أفضل الأيام، كما أن البقعة التي ضمت
جسده الشريف هي من أفضل البقاع، ومن ثم خص النبي الأكرم يوم الاثنين
بفضيلة الصوم، وبين أن سبب التخصيص هو أنه (صلى الله عليه وآله) ولد فيه، فصار
كل ذلك سببا

لاختيار هذا اليوم دون سائر الأيام، نعم في وسعهم الاحتفال في غير هذا اليوم
أيضا، بل كل يوم أرادوا تكريم النبي والاحتفال به.
ثم إن الذي نلفت نظر القائل بالمنع إليه، هو أنه لم يقترن ولن يقترن ادعاء ورود

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٢٩٣.

(٢) البدعة: ١٧.

الأمر الشخصي على هذا التخصيص، وإنما الكل يتفق على جواز الاحتفال في جميع الأيام، غير أن تخصيص ذلك اليوم هو لأجل خصوصية كرامة فيه. نعم من احتفل في مولد النبي وادعى ورود الشرع به، أو حثه على هذا التخصيص فهو مبتدع، ولا أظن على أديم الأرض رجلاً يدعي ذلك. وبعبارة موجزة، فإن كون الاحتفال بدعة رهن أمرين، وكلاهما منتفیان:

- ١ - عدم الدليل العام على الاحتفال.

- ٢ - ادعاء ورود الشرع بذلك اليوم الخاص وحثه عليه. فعندئذ فلا معنى لادعاء البدعة.

- ٥ - الاحتفالات تشتمل على أمور محرمة

إن هذه الاحتفالات مشتملة على أمور محرمة في الغالب، كاختلاط النساء بالرجال، وقراءة المدائح مع الموسيقى والغناء (١).

يلاحظ عليه: أن هذا النوع من الاستدلال ينم عن قصور باع المستدل، وهذا يدل على أنه قد أعوزه الدليل، فأخذ يتمسك بالطحلب شأن الغريق المتمسك به. فإن البحث في نفس مشروعية العمل بحد ذاتها، وأما الأمور الجانبية العارضة عليه فلا تكون مانعا من الحكم بالجواز، وما ذكره لا يختص بالاحتفال، بل كل عمل يجب أن يكون بعيدا عن المحرمات، فعلى المحتفلين أن يلتزموا بذلك، ويجعلوا مجالسهم مهبطا للنور.

وفي الختام نركز على أمر، وهو أن الاستدلال على الجواز أو المنع بالأمور الجانبية خروج عن الاستدلال الفقهي، فإن الحكم بالجواز والمنع ذاتا يتوقف على كون الشيء بما هو هو جائزا أو ممنوعا، وأما الاستدلال على أحدهما بالأمور

(١) المدخل ٢: ٢.

الطارئة فليس استدلالا صحيحا.
وهناك نكتة أخرى، وهي أن الاستدلال على الجواز بما جرت عليه سيرة العقلاء من إقامة الاحتفالات على عظمائهم قياس مع الفارق، لأن الاحتفالات الرائجة بين العقلاء من الأمور العادية، والأصل فيها هو الحلية، وأما الاحتفال بمولد النبي فإنما هو احتفال ديني، وعمل شرعي، فلا يقاس بتلك الاحتفالات، بل لا بد من طلب دليل شرعي على جوازه، وبذلك تقدر على القضاء بين أدلة الطرفين.

نعم لا يمكن أن ننكر أن ما يقيمه العقلاء من احتفال يؤثر في نفوسنا ويحفزنا للإقبال على الاحتفال بمولد النبي، وفي هذا الصدد يقول العلامة الأميني:
" لعل تجديد الذكرى بالمواليد والوفيات، والجري على مراسم النهضات الدينية، أو الشعبية العامة، والحوادث العالمية الاجتماعية، وما يقع من الطوارق المهمة في الطوائف والأحياء، بعد سنيها، واتخاذ رأس كل سنة بتلك المناسبات أعيادا وأفراحا، أو ماتم وأحزانا، وإقامة الحفل السار، أو التأبين، من الشعائر المطردة، والعادات الجارية منذ القدم، ودعمتها الطبيعة البشرية، وأسسها الفكرة الصالحة لدى الأمم الغابرة، عند كل أمة ونحلة، قبل الجاهلية وبعدها، وهلم جرا حتى اليوم.

هذه مراسم اليهود، والنصارى، والعرب، في أمسها ويومها، وفي الإسلام وقبله، سجلها التاريخ في صفحاته.

وكان هذه السنة نزعة إنسانية، تنبعث من عوامل الحب والعاطفة، وتسقى من منابع الحياة، وتتفرع على أصول التبجيل والتجليل، والتقدير والإعجاب، لرجال الدين والدنيا، وأفذاذ الملائمة، وعظماء الأمة إحياء لذكراهم، وتخليدا لأسمائهم، وفيها فوائد تاريخية اجتماعية، ودروس أخلاقية ضافية راقية، لمستقبل الأجيال،

وعظات وعبر، ودستور عملي ناجح للناشئة الجديدة، وتجارب واختبارات تولد
حنكة الشعب، ولا تختص بجيل دون جيل، ولا بفئة دون فئة.
وإنما الأيام تقتبس نورا وازدهارا، وتتوسم بالكرامة والعظمة، وتكتسب
سعدا ونحسا، وتتخذ صيغة مما وقع فيها من الحوادث الهامة وقوارع الدهر
ونوازله... " (١).

(١) سيرتنا وستتنا: ٣٨ - ٣٩ ط الثانية.

الفصل الرابع
صيانة الآثار
الإسلامية

تمهيد

الآثار الإسلامية ونتائجها الإيجابية

الأمم الحية المهتمة بتاريخها تسعى إلى صيانة كل أثر تاريخي له صلة بماضيها، ليكون آية على أصالتها وعراقتها في العلوم والفنون، وأنها ليست نبتة بلا جذور أو فرعاً بلا أصول.

والأمة اليقظة تحتفظ بآثارها وتراثها الثقافي والصناعي والمعماري، وما له علاقة بماضيها مما ورثته عن أسلافها، صيانة لكيانها وبرهنة على عزها الغابر. وقد دعت تلك الغاية السامية الشعوب الحية لإيجاد دائرة خاصة في كل قطر لحفظ التراث والآثار: من ورقة منخطوطة، أو أثر منقوش على الحجر، أو إناء، أو منار، أو أبنية، أو قلاع وحصون، أو مقابر ومشاهد لأبطالهم وشخصياتهم الذين كان لهم دور في بناء الأمة وإدارة البلد وتربية الجيل، إلى حد ينفقون في سبيلها أموالاً طائلة، ويستخدمون عمالاً وخبراء يبذلون سعيهم في حفظها وترميمها وصيانتها عن الحوادث.

إن التراث بإطلاقه آية رقي الأمة ومقياس شعورها ودليل تقدمها في معترك الحياة. ولذلك نرى أن الشخصية البارزة إذا زارت بلداً وحلت فيه ضيفاً، يجعل في

برنامجها زيارة المناطق الأثرية والمشاهد والمقابر العامرة التي ضمت جثمان الشخصيات التي تنبض بالحياة الحاضرة بتضحياتهم ومجاهدتهم من غير فرق بين دولة إلهية أو علمانية.

هذا هو موجز الكلام في مطلق الآثار، وهلم معي ندرس أهمية صيانة الآثار الإسلامية التي تركها المسلمون من عصر الرسول إلى عصرنا هذا في مناطق مختلفة.

لا شك أن كل أثر يمت للإسلام والمسلمين بوجه من الوجوه بصلة، له تأثيره الخاص في التدليل على أن للشريعة الإسلامية وصاحبها حقيقة، وليست هي مما نسجتها يد الخيال أو صنعتها الأوهام.

وبعبارة واضحة: أن الآثار المتبقية من المسلمين إلى يومنا هذا تدل على أن للدعوة الإسلامية وداعيها واقعية لا تنكر، وأنه بعث في زمن خاص بشريعة عالمية، وبكتاب معجز تحدى به الأمم، وآمن به لفيف من الناس.

ثم إنه هاجر من موطنه إلى يثرب، ونشر شريعته في الجزيرة العربية، ثم اتسعت بفضل سعي أبطالها ومعتنقيها إلى سائر المناطق، وقد قدم في سبيلها تضحيات، وتربى في أحضانها علماء وفقهاء وغير ذلك. فهذه آثارهم ومشاهدهم وقبورهم تشهد بذلك.

فصيانة هذه الآثار على وجه الإطلاق تضيء على الشريعة في نظر غير معتنقيها واقعية وحقيقة، وتزيل عن وجهها أي ريب أو شك في صحة البعثة والدعوة، وجهاد الأمة ونضال المؤمنين.

فإذا كانت هذه نتيجة صيانتها، فإن نتيجة تدميرها وتخريبها أو عدم الاعتناء بها مسلما عكس ذلك.

ومما يؤسف له أننا نرى الأمة الإسلامية ابتليت في هذا الأوان بأناس

جعلوا تدمير الآثار وهدمها جزءاً من الدين، والاحتفاظ بها ابتعاداً عنه، فهذه عقليتهم وهذا مبلغ إدراكهم الذي لا يقل عن عقلية وإدراك الصبيان، الذين لا يعرفون قيمة التراث الواصل إليهم عن الآباء، فيلعبون به بين الخرق والهدم وغير ذلك.

لا شك أن لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية وخاصة في مهد الإسلام، مكة، ومهجر النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، المدينة المنورة، نتائج وآثاراً سيئة على الأجيال

اللاحقة التي سوف لا تجد أثراً لوقائعها وحوادثها وأبطالها ومفكريها، وربما يؤول بها الأمر إلى الاعتقاد بأن الإسلام قضية مفتعلة، وفكرة مبتدعة ليس لها أي أساس واقعي تماماً.

فالمطلوب من المسلمين أن يكونوا لجنة من العلماء من ذوي الاختصاص، للمحافظة على الآثار الإسلامية وخاصة آثار النبي (صلى الله عليه وآله)، وآثار أهل بيته، والعناية

بها وصيانتها من الاندثار، أو من عمليات الإزالة والمحو، لما في هذه العناية والصيانة من تكريم لأمجاد الإسلام وحفظ لذكريات الإسلام في القلوب والعقول، وإثبات لأصالة هذا الدين، إلى جانب ما في أيدي المسلمين من تراث ثقافي وفكري عظيم، وليس في هذا العمل أي محذور شرعي، بل هو أمر محبذ، اتفقت عليه كلمة المسلمين الأوائل كما سيوافيك، فالسلف الصالح وقفوا - بعد فتح الشام - على قبور الأنبياء ذات البناء الشامخ.. فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأن البناء على القبور أمر محرم يجب أن يهدم، وهكذا الحال في سائر القبور المشيدة بالأبنية في أطراف العالم. وإن كنت في ريب من هذا فاقراً تواريخهم، وعلى سبيل المثال إليك نص ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية:

إن المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعة من قبيلة "لخم" النصرانية

يقومون على حرم إبراهيم ب " حبرون " (١) ولعلمهم استغلوا ذلك ففرضوا أتاوة على حجاج هذا الحرم... وربما يكون لقب تميم الداري نسبة إلى الدار أي الحرم، وربما كان دخول هؤلاء اللخمييين في الإسلام، لأنه قد مكنهم من القيام على حرم إبراهيم الذي قدسه المسلمون تقديس اليهود والنصارى من قبلهم (٢).

وجاء أيضا في مادة " الخليل " يقول المقدسي - وهو أول من أسهب في وصف الخليل - : إن قبر إبراهيم كانت تعلوه قبة بنيت في العهد الإسلامي. ويقول مجير الدين: إنها شيدت في عهد الأمويين، وكان قبر إسحاق مغطى بعضه، وقبر يعقوب قبالة، وكان المقدسي أول من أشار إلى تلك الهبات الثمينة التي قدمها الأمراء الوريون من أقاصي البلاد إلى هذا الضريح، إضافة إلى الاستقبال الكريم الذي كان يلقاه الحجاج من جانب التميميين (٣).

ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة التي كانت مشيدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام وما بناه المسلمون في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا في مختلف البلدان لجاء بكتاب فخم ضخم، وهو يكشف عن أن السيرة الرائجة في تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا كانت هي العناية بحفظ آثار رجال الدين، الكاشفة عن مشروعية البناء على القبور، وإنه لم ينبس أي شخص في رفض ذلك ببنت شفة ولم يعترض عليها أحد، بل تلقاها الجميع بالقبول والرضا، إظهارا للمحبة والود لأصحاب الرسالات والنبوات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركا أو أمرا محرما فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، قال

(١) كلمة عبرية تعني: مدينة الخليل.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٥: ٤٨٤ مادة تميم الداري.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٨: ٤٣١.

سبحانه: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} (١).
واليوم وبعد مضي عشرين قرنا على ميلاد السيد المسيح (عليه السلام) تحول المسيح وأمه العذراء وكتابه الإنجيل وكذلك الحواريون، تحولوا - في عالم الغرب - إلى أسطورة تاريخية، وصار بعض المستشرقين يشككون - مبدئيا - في وجود رجل اسمه المسيح وأمه مريم وكتابه الإنجيل، ويعتبرونه أسطورة خيالية تشبه أسطورة " مجنون ليلي " .

لماذا؟

لأنه لا يوجد أي أثر حقيقي وملموس للمسيح، فمثلا لا يدري - بالضبط - أين ولد؟ وأين داره التي كان يسكنها؟ وأين دفنوه بعد وفاته - على زعم النصارى أنه قتل -؟

أما كتابه السماوي فقد امتدت إليه يد التحريف والتغيير والتزوير، وهذه الأناجيل الأربعة لا تمت إليه بصلة وليست له، بل هي ل " متى " و " يوحنا " و " مرقس " و " لوقا "، ولهذا ترى في خاتمتها قصة قتله المزعوم ودفنه، ومن الواضح - كالشمس في رابعة النهار - أنها كتبت بعد غيابه.
وعلى هذا الأساس يعتقد الكثير من الباحثين والمحققين أن هذه الأناجيل الأربعة إنما هي من الكتب الأدبية التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني من الميلاد، فلو كانت الآثار الخاصة بعيسى محفوظة، لكان ذلك دليلا على حقيقة وجوده وأصالة حياته وزعامته، وما كان هناك مجال لإثارة الشكوك والتساؤلات من قبل المستشرقين ذوي الخيالات الواهية.

(١) النساء: ١١٥ .

أما المسلمون، فهم يواجهون العالم مرفوعي الرأس، ويقولون: يا أيها الناس لقد بعث رجل من أرض الحجاز، قبل ألف وأربعمائة سنة لقيادة المجتمع البشري، وقد حقق نجاحا باهرا في مهمته، وهذه آثار حياته، محفوظة تماما في مكة والمدينة، فهذه الدار التي ولد فيها، وهذا غار حراء حيث هبط إليه الوحي والتنزيل فيها، وهذا هو مسجده الذي كان يقيم الصلاة فيه، وهذا هو البيت الذي دفن فيه، وهذه بيوت أولاده وزوجاته وأقربائه، وهذه قبور ذريته وأوصيائه (عليهم السلام). والآن، إذا قضينا على هذه الآثار فقد قضينا على معالم وجوده (صلى الله عليه وآله) ودلائل

أصالته وحقيقته، ومهدنا السبيل لأعداء الإسلام ليقولوا ما يريدون. إن هدم آثار النبوة وآثار أهل بيت العصمة والطهارة ليس فقط إساءة إليهم (عليهم السلام) وهتكاً لحرمتهم، بل هو عداء سافر مع أصالة نبوة خاتم الأنبياء ومعالم

دينه القويم. إن رسالة الإسلام رسالة خالدة أبدية، وسوف يبقى الإسلام دينا للبشرية جمعاء إلى يوم القيامة، ولا بد للأجيال القادمة - على طول الزمن - أن تعترف بأصالتها وتؤمن بقداستها. ولأجل تحقيق هذا الهدف يجب أن نحافظ - أبداً - على آثار صاحب الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله) لكي نكون قد خطونا خطوة في سبيل

استمرارية هذا الدين وبقائه على مدى العصور القادمة، حتى لا يشكك أحد في وجود نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) كما شككوا في وجود النبي عيسى (عليه السلام).

لقد اهتم المسلمون اهتماما كبيرا بشأن آثار النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وسيرته وسلوكه،

حتى أنهم سجلوا دقائق أموره وخصائص حياته ومميزات شخصيته، وكل ما يرتبط به كخاتمته، وحنائه، وسواكه، وسيفه، ودرعه، ورمحه، وجواده، وإبله، وغلامه، وحتى الآبار التي شرب منها الماء، والأراضي التي أوقفها لوجه الله سبحانه، والطعام المفضل لديه، بل وكيفية مشيته وأكله وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدسة وخضابه لها، وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض منها باقية إلى

يومنا هذا (١).

هذه كلمة موجزة عن هذا الموضوع وموقف العقلاء عامة والمسلمين خاصة منه، فهلم معي ندرس المسألة في ضوء الكتاب والسنة حتى تتجلى الحقيقة بأعلى مظاهرها، وثبت أن صيانة قبور الأنبياء والأولياء والشهداء وتعميرها وتشبيدها بقباب، هي مما دعا إليها الكتاب والسنة النبوية وسيرة المسلمين إلى أوائل القرن الثامن، عصر إثارة الشكوك حول هذا الموضوع وغيره، عصر ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) الذي أثار تلك الفكرة لتفريق كلمة الأمة، وتلقى ذلك بالقبول وارث منهجه محمد بن عبد الوهاب النجدي (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ)، إلى أن أحيا منهج شيخه بعد الاندراست بفضل سيف آل سعود، وحمائهم له لغاية في نفوسهم لا تنكر.

وسندرس الموضوع من خلال مباحث ولنقدم ما تدل عليه من الآيات.

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٣٦٠ - ٥٠٣ حول هذا الموضوع.

المبحث الأول:

صيانة الآثار من منظور القرآن الكريم

الآية الأولى: الإذن برفع بيوت خاصة

إذا كان لصيانة الآثار الإسلامية ذلك التأثير الكبير الذي اتضح للقارئ فيما مر من التمهيد، فعلينا استنطاق كتاب الله حول هذا الموضوع حتى نقف على حكم الله فيه.

وسنشير هنا إلى الآيات ذات الصلة الواضحة بالموضوع، والتي لا تتجاوز أربع آيات:

قال سبحانه: {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال* رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار} (١).

وللمفسرين حول هذه الآية بحوث، منها: تعيين متعلق الظرف، أعني قوله: {في بيوت}، فهل هو متعلق بما قبله، أي قوله سبحانه في الآية المتقدمة عليها

(١) النور: ٣٦ - ٣٧.

{ كمشكاة } أي المشكاة في بيوت، أو هو متعلق بفعل مقدر يدل عليه لفظ { يسبح } في الآية، ولا مانع من التكرار، أو متعلق بشئ آخر مثل قوله: سبحوا في بيوت؟

والمهم بيان أمرين:

الأول: ما هو المراد من هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع؟

الثاني: ما هو المراد من الرفع فيها؟

أما الأول، فالمفسرون فيه على أقوال:

١ - المراد المساجد الأربعة.

٢ - مطلق المساجد.

٣ - بيوت النبي.

٤ - المساجد وبيوت النبي.

واستفدنا هذه الأقوال من المصادر (١)، والمهم تعيين المراد منها وفق الموازين الصحيحة في تفسير الآية.

١ - أن القولين: الأول والثاني مبنيان على صحة إطلاق البيت على المسجد، ولو صح ذلك لغة - ولن يصح كما سيوافيك - إلا أنه إطلاق شاذ، ولا يصح تفسير القرآن بالاستعمال الشاذ، وذلك لأن البيت في القرآن غير المسجد، فالمسجد الحرام غير بيت الله الحرام الذي جعله الله قياما للناس (٢).

٢ - أن البيت لا ينفك عن السقف لقوله تعالى: { وقرن في بيوتكن ولا

(١) الطبري، التفسير، ١٨: ١١١ - ١١٢، الدر المنثور ٦: ٢٠٣، الكشاف ٢: ٣٩٠، الرازي، التفسير ٣: ٢٤،

الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٢٦٦، ابن كثير، التفسير ٣: ٢٩٢، روح البيان ٢: ١٥٨، محاسن التأويل ٧: ٢١٣، فتح البيان ٦: ٣٧٢، البحر المحيط ٦: ٤٥٨.

(٢) المائدة: ٩٧.

تبرجن تبرج الجاهلية { (١)، وقال سبحانه: {ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارض عليها يظهر { (٢)، وقال سبحانه: {فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا { (٣).

فهذه الآيات تدل على أن البيت لا ينفك عن السقف، بخلاف المساجد فإنها ربما تكون مكشوفة بلا سقف، وهذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفة بلا سقف، ومعه كيف يمكن تفسير البيوت بالمساجد؟

٣ - أن سورة النور التي وردت فيها هذه الآية تعني بشأن البيوت عامة، ويقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون * فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون { (٤) فقد تكرر في هذه الآيات ذكر البيوت ظاهرا ومستترا سبع مرات.

ثم إنه سبحانه يسترسل في ذكر البيوت في الآية (٦١) ويقول: {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الزخرف: ٣٣.

(٣) النمل: ٥٢.

(٤) النور: ٢٧ - ٢٩.

جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون { (١) فقد ذكر فيها البيوت عشر مرات.

فالآية قيد البحث وقعت بين هاتين الطائفتين من الآيات، أفصح لنا أن نفسر قوله { في بيوت } بالمساجد مع هذه الآيات الكثيرة التي تضمنت استعمال البيت قبال المسجد؟

٤ - إن من يفسر البيوت بالمساجد يعتمد على رواية موقوفة لابن عباس ومجاهد، لكنها لا تقاوم ما ورد مسندا عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله): روى الحافظ السيوطي قال: أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة: أن رسول الله قرأ هذه الآية: { في بيوت أذن الله أن ترفع } فقام إليه رجل قال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: " بيوت الأنبياء "، فقام إليه أبو بكر وقال: يا رسول الله وهذا البيت منها - مشيرا إلى بيت علي وفاطمة - فقال النبي (صلى الله عليه وآله): " نعم ومن أفاضلها " (٢).

ولأجل رجحان الحديث المسند على الموقوف، قال الألوسي في تفسيره بعد نقل الحديث: وهذا إن صح لا ينبغي العدول عنه (٣). ولأجل بعض ما ذكرنا قال أبو حيان: الظاهر أن البيوت مطلق يصدق على المساجد والبيوت التي تقع الصلاة فيها وهي بيوت الأنبياء (٤). وقد روي عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين (عليه السلام): أن المقصود

(١) النور: ٦١.

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٠٣.

(٣) روح المعاني ١٨: ١٧٤.

(٤) البحر المحيط ٦: ٤٥٨.

بيوت الأنبياء وبيوت علي (عليهم السلام) (١).
٥ - إن القرآن الكريم يعتني ببيوت النبي وأهلها، يقول سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم} (٢) ويعتني بأهلها ويقول: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} (٣).
٦ - وإذا راجعنا اللغة، نرى أن أصحاب المعاجم يفسرونه على وجه لا ينطبق على المسجد، يقول الراغب: أصل البيت مأوى الإنسان بالليل، لأنه يقال: بات: أقام بالليل، كما يقال: ظل بالنهار، ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه أبيات وبيوت، لكن البيوت للمسكن أخص، والأبيات بالشعر (٤).
وقال ابن منظور في اللسان: البيت معروف، وبيت الرجل داره، وبيته قصره، ومنه قول جبرئيل (عليه السلام): "بشر خديجة بيت من قصب" أراد: بشرها بقصر من

لؤلؤة محوفة أو بقصر من زمردة (٥).
فهذه القرائن لو تدبر فيها المفسر لأذعن أن المراد من {بيوت} غير المساجد، سواء أريد منه المسجد الحرام ومسجد النبي والمسجد الأقصى ومسجد قبا، أو أريد مطلق المساجد.

٧ - أضف إلى ذلك أن تفسير البيوت بالمساجد مروى عن كعب الأحبار، ذلك الحبر اليهودي الذي أدخل الإسرائيليات في السنن والأحاديث، روى ابن كثير قال: قال كعب الأحبار: مكتوب في التوراة: "أن بيوتي في الأرض

(١) البرهان في تفسير القرآن ٣: ١٣٧.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

(٤) المفردات: ٦٤ مادة بيت.

(٥) اللسان ٢: ١٤ مادة بيت.

المساجد " (١)، ولو صح أن ابن عباس أخذه عن كعب الأحبار كما يدعيه علماء الرجال في ترجمة كعب الأحبار فلعله أخذ منه، ومرويات كعب إسرائيليات لا يصح الاحتجاج بها.

غير أن ما تضافر عن النبي الأكرم خلاف ذلك، حيث قال: " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا " (٢)، فإذا كان جميع الأرض مسجدا لله تبارك وتعالى فيكون جميعها معبدا ومسجدا.

٨ - وربما يتصور أن ذيل الآية الذي جاء فيه قوله: {يسبح له فيها بالغدو والآصال} قرينة على أن المراد من البيوت هي المساجد، ولكنه غفل عن أن شأن بيوت الأنبياء والأولياء والصالحين، شأن المساجد، فهم فيها بين قائم وراكع وساجد وذاكر.

وقد اعتنى النبي الأكرم بشأن البيوت، فقد عقد مسلم بابا في صحيحه لاستحباب إقامة صلاة النافلة في البيت وروى فيه الروايات التالية:

أ - عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وآله): " اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا ".

ب - عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وآله): " صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا ".

ج - عن جابر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده

فليجعل لبيته نصيبا من صلاته فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيرا ".

د - عن أبي موسى عن النبي (صلى الله عليه وآله): " مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت

الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت ".

(١) ابن كثير، التفسير ٣: ٢٩٢.

(٢) البخاري، الصحيح ١: ٩١ كتاب التيمم / ح ٢، البيهقي، السنن: ٤٣٣ باب أينما أدركتك الصلاة فصل فهو

مسجد.

ه - وعن زيد بن ثابت في حديث: " فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة " (١).

و - روى أحمد أن عبد الله بن سعد سأل رسول الله وقال: أيما أفضل: الصلاة في بيتي أو الصلاة في المسجد؟ فقال: " فقد ترى ما أقرب بيتي من المسجد، ولئن أصلي في بيتي أحب إلي من أن أصلي في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة " (٢).

فهذه القرائن المؤكدة ترفع الستار عن وجه المعنى، فإن المراد من الآية هو بيوت الأنبياء وبيوت النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وبيت علي (عليه السلام) وما ضاهاها، فهذه البيوت لها

شأنها الخاص، لأنها تخص رجالا يسبحونه سبحانه ليلا ونهارا، غدوا وأصلا، تعيش فيها رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وقلوبهم مليئة بالخوف من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار. ما هو المراد من الرفع؟

قد تعرفت على المقصود من البيوت، فهل معي ندرس معنى الرفع، ومن حسن الحظ أن المفسرين لم يختلفوا فيه اختلافا موجبا لغموض المعنى، فقد ذكروا فيه المعنيين التاليين:

الأول: أن المراد من الرفع هو البناء، بشهادة قوله سبحانه: {أنتم أشد خلقا أم السماء بناها* رفع سمكها فسواها} (٣)، وقوله سبحانه: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل...} (٤).

(١) مسلم، الصحيح ٢: ١٨٧ - ١٨٨ باب استتجار صلاة النافلة في البيت.

(٢) أحمد، المسند ٤: ٣٤٢.

(٣) النازعات ٢٧ - ٢٨.

(٤) البقرة: ١٢٧.

الثاني: أن المراد هو تعظيمها والرفع من قدرها، قال الزمخشري: رفعها: إما بناؤها، لقوله تعالى: {رفع سمكها فسواها} و {وإذ يرفع إبراهيم القواعد...} أمر الله أن تبنى، وإما تعظيمها والرفع من قدرها (١). وقال القرطبي: ترفع: تبنى وتعلّى (٢). وقال إسماعيل حقي البروسوي: أن ترفع: بالبناء، والتعظيم ورفع القدر (٣). وقال حسن صديق خان: المراد من الرفع، بناؤها {أم السماء بناها* رفع سمكها فسواها} ورفع إبراهيم القواعد من البيت، وترفع أي تعظم وتطهر من الأنجاس عن اللغو ولها مجموع الأمرين (٤)، إلى غير ذلك من الكلمات المتشابهة، ولا حاجة إلى ذكرها، إنما المهم بيان دلالة الآية وتحقيقها. قد عرفت أن المراد من البيوت هو بيوت الأنبياء والعترة والصالحين من صحابة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، فالآية تأذن أن تبنى هذه البيوت بناء حسيا وترفع من

قدرها رفعا معنويا، فهنا نستنتج من الآية أمرين:

١ - أن المراد من رفع البيوت ليس إنشاؤها، لأن المفروض أنها بيوت مبنية، بل المراد هو صيانتها عن الاندثار، وذلك كرامة منه سبحانه لأصحاب هذه البيوت، فقد ترك المسلمون الأوائل بيوتا للرسول الأكرم والعترة الطاهرة وللصالحين من صحابته، وحرسها الدول الإسلامية طيلة أربعة عشر قرنا، فعلى المسلمين قاطبة والدول الإسلامية عامة بذل السعي في صيانتها عملا بالآية المباركة، والحيلولة دون تدهيمها بحجة توسعة المسجد النبوي أو المسجد الحرام. ولكن من سوء الحظ، أو من تسامح الدول في ذلك المجال أن هدمت هذه

(١) الكشاف ٢: ٣٩٠ بتصرف يسير بإضافة كلمة "أما".

(٢) جوامع الأحكام ١٢: ٢٦٦.

(٣) روح البيان ٦: ١٥٨.

(٤) فتح البيان ٦: ٣٧٢.

البيوت ودمرت بمعاول الوهابيين، ومن هذه البيوت بيت الحسين والصادقين (عليهم السلام)

في محلة بني هاشم، فلا ترى لها أثرا، كما لا ترى من بيت أبي أيوب الأنصاري مضيف النبي الأكرم أثرا، ومثلها مولد النبي في مكة المكرمة وغيرها. فعلى المسلمين مسؤولية إعادة إبنية هذه الأبنية في أماكنها عملا بالآية ورفع قدرها مهما أمكن، ولئن صارت الإعادة أمنية لا تدرك، ما دام السيف على هامة المسلمين في أرض الوحي والتوحيد، لكن صيانة ما بقي منها في مختلف الأقطار أمر ممكن. ٢ - أن قسما من البيوت في المدينة المنورة مقابر ومشاهد لهؤلاء، فقد دفن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) في بيته.

كما أن بيت العسكريين يعني الإمام عليا الهادي والحسن العسكري في سامراء بمنزلة مقابرها ومشاهدهما، فليس لأحد قلعها بمعاول الجور باسم التوحيد، وأي توحيد أعلى وأجل مما دعا إليه الذكر الحكيم الذي يأمر بصيانة بيوت هؤلاء مطلقا، سواء كانت مقابرهم أم لا.

بالله عليك أيها القارئ الكريم هل زرت بقيع الغرقد مراقد الأئمة والصحابة وزوجات النبي والشخصيات الإسلامية الكبيرة، وهل شاهدت قيام الحكومة بواجبها من رفع قدره وتنظيف أرضه، أم شاهدت نقيض ذلك؟! وقد كانت بعض هذه القبور بيوت الصحابة، ولعمري أن القلب ليحترق إذا رأى أن الوهابيين يتعاملون مع قبور أفلاذ كبد النبي وخيار أصحابه معاملة العدو مع العدو، ونعم من قال: لعمري أن فاجعة البقيع* يشيب لهولها فود الرضيع

لقد خرجنا من دراسة هذه الآية بنتيجة خاصة، وهي أن صيانة بيوت الأنبياء والأولياء أمر ندب الله سبحانه المسلمين إليه، سواء كان فيها قبر أم لا، وأن رفعها بالبناء، وصيانتها عن الانطماس، وتنظيفها عن الرجز واللغو عمل بالشرعية المقدسة، حيث نزل به الوحي وسار عليه المسلمون في جميع القرون.

الآية الثانية:

اتخاذ المساجد على قبور المضطهدين في سبيل التوحيد يذكر سبحانه قصة أصحاب الكهف، وأنهم اعتزلوا قومهم للحفاظ على عقيدتهم ودينهم، حتى وافاهم الأجل وهم في الكهف، وقد أعثر الله عليهم قوما بعد ثلاثة قرون وأطلعهم عليهم، يقول سبحانه: {وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا} (١).

ومعنى الآية أنا أعثرنا على أصحاب الكهف أهل تلك المدينة ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق، فإن بعث هؤلاء بعد لبثهم في كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا دليل على إمكان الحياة الثانوية، ليعلموا أن الساعة لا ريب فيها. ثم إن القوم الذين أعثرهم الله على أجسادهم اتفقوا على تكريمهم، ولكن اختلفوا في طريقة التكريم، كما يقول سبحانه: {إذ يتنازعون بينهم أمرهم}، فظاهر المنازعة هو ما جاء بعد هذه الجملة بضميمة لفظة الفاء، فقال جماعة: {ابنوا عليهم بنيانا}، أي اجعلوا عليهم بنيانا كبيرا، ويدل على الوصف تنكير {بنيانا}، وقد صرح الجوهري وابن منظور بأن البنيان بمعنى الحائط (٢)، ولذلك فسره القاسمي بقوله: أي باب كهفهم بنيانا عظيما كالحانقاهات (٣) والمشاهد

(١) الكهف: ٢١.

(٢) الصحاح ٦: ٢٢٨ مادة بناء، لسان العرب ١: ٥١٠ تلك المادة.

(٣) الحانقات كلمة فارسية مفردتها: خانقاه وتعني محل اجتماع الصوفيين وال دراويش. (لغت نامه ٢٠: ١٦٩

بالفارسية).

والمزارات المبنية على الأنبياء وأتباعهم (١)، تستر أجسادهم وتعظم أبدانهم، ربهم أعلم بهم.

ولكن قال آخرون وهم الذين غلبوا على أمر القائلين بالقول الأول وصار البلد تحت سلطتهم {لنتخذن عليهم مسجدا} ومعبدا وموضعا للعبادة والسجود يتعبد الناس فيه ببركاتهم.

هذا هو الظاهر المستفاد من الآية.

قال الرازي: {قال الذين غلبوا على أمرهم} قيل: المراد به الملك المسلم وأولياء أصحاب الكهف، وقيل: رؤساء البلد، {لنتخذن عليهم مسجدا} نعبد الله، وستبقى آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد (٢).

وقال أبو حيان الأندلسي (٦٥٤ - ٧٥٤هـ): روي أن التي دعت إلى البنيان كانت، كافرة، أرادت بناء بيعة أو مصنع لكفرهم، فمانعهم المؤمنون وبنوا عليهم مسجدا (٣). وقال أبو السعود (ت ٩٥١هـ): {وقال الذين غلبوا على أمرهم} وهم الملك والمسلمون {لنتخذن عليهم مسجدا} (٤).

وقال الزمخشري في الكشاف: {وقال الذين غلبوا على أمرهم} من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم: ليتخذ على باب الكهف مسجدا يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم (٥).

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة في تفسير الآية، وكأن الاتفاق موجود على أن القول بإيجاد البنيان على باب الكهف كان لغير المسلمين، والقول ببناء المسجد

(١) محاسن التأويل ٧: ٢١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١: ١٠٥.

(٣) البحر المحيط ٦: ١٠٩ ط. دار الكتب العلمية.

(٤) أبو السعود محمد بن محمد العمادي، التفسير ٥: ٢١٥.

(٥) الكشاف ٢: ٢٤٥.

على بابه قول المسلمين، والذي يدل على ذلك أمران:
الأول: أن اتخاذ المسجد دليل على أن القائل كان موحدًا مسلمًا غير مشرك،
فأي صلة للمشرك ببناء مسجد على باب الكهف، وإذا كان المشركون يهتمون
بعمارة المسجد الحرام فلاجل أنه أنيط بالبيت كيانه وعظمتهم في الأوساط
العربية، بحيث كان التخلي عنها مساوقًا لسقوطهم عن أعين العرب في الجزيرة
كتكريمهم البيت الحرام.

أبعد اتفاق أكابر المفسرين هل يصح لباحث أن يشك في أن القائلين ببناء
المسجد على قبورهم كانوا هم المسلمين الموحدين؟!!

الثاني: ما رواه الطبري في تفسير قوله: { فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى
المدينة } (١) قال: إن المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين سوقها فيسمع أناسًا
كثيرًا يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فزعًا ورأى أنه حيران، فقام مسندًا
ظهره إلى جدار من جدران المدينة ويقول في نفسه: أما عشية أمس فليس على
الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلا قتل، أما الغداة فأسمعهم وكل إنسان يذكر
أمر عيسى لا يخاف!! ثم قال في نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة التي أعرف (٢).
وهذا يعرب عن أن الأكثرية الساحقة كانت موحدة مؤمنة متدينة بشريعة
المسيح، رغم كونهم على ضده قبل ثلاثمائة سنة.

وقال في تفسير قوله تعالى: { فقالوا ابنوا عليهم بنيانا } (٣) فقال الذين
أعثرناهم على أصحاب الكهف: { ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم } يقول: رب
الفتية أعلم بشأنهم، وقوله: { قال الذين غلبوا على أمرهم } يقول جل ثناؤه:

(١) الكهف: ١٩.

(٢) الطبري، التفسير ١٥: ٢١٩ في تفسير سورة الكهف، الآية ١٩ ط. مصطفى الحلبي، مصر.

(٣) الكهف: ٢١.

قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف: {لنتخذن عليهم مسجداً}.
وقد نقل عن عبد الله بن عبيد بن عمير: فقال المشركون: نبي عليهم بنيانا،
فإنهم أبناء آبائنا ونعبد الله فيها، وقال المسلمون: نحن أحق بهم، هم منا، نبي
عليهم مسجداً نصلي ونعبد الله فيه (١).

الرأي المسبق يضرب عرض الجدار

إن الشيخ الألباني ربيب الوهابية ومروجها، لما رأى دلالة الآية على أن
المسلمين حاولوا أن يبنوا مسجداً على قبورهم، وكان ذلك على طرف الخلاف من
عقيدته، حاول تحريف الكلم وقال: إن المراد من الغالين هم أهل السلطة، ولا
دليل على حجية فعلهم! ولكنه عزب عن رأيه أن البيئة قد انقلبت عن الشرك إلى
التوحيد ومن الكفر إلى الإسلام حسبما نقله الطبري، وليس القائل ببناء المسجد
على بابهم الملك، وإنما القائل هم الذين توافدوا على باب الكهف عندما أعثرهم
سبحانه على أحوالهم، وطبع الحال يقتضي توافد الأكثرية الساحقة القاطنين في
المدينة على باب الكهف لا خصوص الملك، ولا وزراؤه، بل الموحدون بأجمعهم،
وهو في هذه النسبة عيال على ابن كثير حيث قال: والظاهر أنهم أصحاب النفوذ (٢).
نحن نفترض أنهم أصحاب النفوذ، إلا أنهم نظروا إلى الموضوع من خلال
منظار دينهم ومقتضى مذهبهم لا مقتضى سلطتهم.

تقرير القرآن على صحة كلا الاقتراحين

إن الذكر الحكيم يذكر كلا الاقتراحين من دون أي نقد ورد، وليس صحيحاً

(١) الطبري، التفسير ١٥: ٢٢٥ وفي ط أخرى: ص ١٤٩، ولاحظ تفسير القرطبي والكشاف للزمخشري
وغرائب القرآن للنيسابوري في ذيل هذه الآية.
(٢) ابن كثير، التفسير ٥: ٣٧٥.

قطعا أن يذكر الله سبحانه عن هؤلاء الموجودين على باب الكهف أمرا باطلا من دون أية إشارة إلى بطلانه، إذ لو كان كذلك كأن يكون أمرا محرما أو مقدمة للشرك والانحراف عن التوحيد، لكان عليه أن لا يمر عليها بلا إشارة إلى ضلالهم وانحرافهم، خصوصا أن سياق الآية بصدد المدح، وأن أهل البلد اتفقوا على تكريم هؤلاء الذين هجروا أوطانهم لأجل صيانة عقيدتهم، غاية الأمر اختلفوا في كيفية، فمن قائل ببناء البنيان إلى آخر قائل ببناء المسجد.

إن القرآن كتاب نزل لهداية الإنسان وتربية الأجيال، والهدف من عرض حياة الأمم ووقائعهم هو الاعتبار، فلا ينقل شيئا إلا فيه عبرة، فلو كان الاقتراحان يمسان كرامة التوحيد، لم سكت عنه؟! وهذا ظاهر فيمن تدبر في القرآن الكريم، وسيوافيك بقية الكلام عند بيان النتيجة.

ولكن تعال معي لنقف على بعض ما قاله جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ) الذي كان يصور نفسه مصلحا إسلاميا يسعى إلى توحيد كلمة المسلمين ولم شعثهم، ومن شروط من يتبنى لنفسه ذلك المقام الرفيع أن ينظر إلى المسائل من منظار وسيع، ويستقبل الخلاف بين المسلمين بسعة صدر، ولكنه - عفا الله عنه - يريد توحيد الكلمة في ظل الأصول التي ورثها عن ابن تيمية، فزاد في الطين بلة، ويشهد لذلك ما علقه على عبارة ابن كثير. قال ابن كثير بعد تفسير الآية: هل هم كانوا محمودين أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي قال: " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصلحيتهم مساجد " يحذر ما فعلوا. وقال جمال الدين: وعجيب من تردده في كونهم غير محمودين، مع إيراده

الحديث الصحيح بعده المسجل بلعن فاعل ذلك، والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه، ففيه فتح لباب الشرك، وتوسل إليه بأقرب وسيلة... (١).

يلاحظ عليه: أن القرآن هو الحجة الكبرى للمسلمين، وفيه تبيان لكل شيء، وهو المهيمن على الكتب، فإذا دل القرآن على جوازه فما قيمة الخبر الواحد الذي روي في هذا المجال إذا كان مضادا للوحي، ومخالفا لصريح الكتاب، وإن كانت السنة المحمدية الواقعية لا تختلف عنه قيد شعرة، إنما الكلام في الرواية التي رواها زيد عن عمرو حتى ينتهي إلى النبي، فإن مثله خاضع للنقاش، ومرفوض إذا خالف الكتاب، لكن ما ذكره يعرب عن أن الأساس عنده هو الحديث لا الذكر الحكيم.

وكان عليه بعد تسليم دلالة القرآن أن يبحث في سند الحديث ودلالته، وأن الحديث على فرض الصحة ناظر إلى ما كان القبر مسجودا له، أو مسجودا عليه أو قبلة، ومن المعلوم أن المسلمين لا يسجدون إلا لله، ولا يسجدون إلا على ما صح السجود عليه، ولا يستقبلون إلا القبلة، وسيتضح نص محقق الحديث، على أن المراد هو ذلك، فانتظر.

وأعجب منه ما في ذيل كلامه: من أنه رأى التوسل بالنبي شركا، مع أن النصوص الصحيحة في الصحاح تدل على جوازه، فقد توسل الصحابي الضرير بالنبي الأكرم حسب تعليمه وقال: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى (٢).

(١) محاسن التأويل ٧: ٣٠ - ٣١.

(٢) الترمذي، الصحيح ٥: كتاب الدعوات، الباب ١١٩ / ح ٢٥٧٨، ابن ماجة، السنن ١: ٤٤١ / ح ١٣٨٥،

الإمام أحمد، المسند ٤: ١٣٨، إلى غير ذلك من المصادر.

وقد اتفقوا على صحة الحديث، حتى أن ابن تيمية - مثير هذه الشكوك - اعترف بصحته وقال: وقد روى الترمذي حديثا صحيحا عن النبي أنه علم رجلا يدعو فيقول: ...، وقد أوردنا نصوص القوم في بحث "التوسل" (١). ومن زعم أن هذه التوسلات أساس الشرك، فليُنظر إلى المسلمين طيلة أربعة عشر قرنا، فإنهم ما برحوا يتوسلون بالنبي (صلى الله عليه وآله)، وما عدلوا عن سبيل التوحيد قيد شعرة.

إن إنشاء البناء على قبر نبي التوحيد تأكيد على مبدأ التوحيد ورسالته العالمية التي يشكل أصلها الأول قوله سبحانه: { أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } (٢). وقد خرجنا عن هذه الدراسة بالنتيجتين التاليتين:

١ - جواز البناء على قبور الأولياء والصالحين ودعاة التوحيد فضلا عن النبي، وما ذلك إلا أن القرآن ذكر ذلك من دون أن يغمض فيه، وليس القرآن كتابا قصصيا ولا مسرحيا للتمثيل، بل هو كتاب هداية ونور، فإن نقل شيئا ولم يغمض عليه فهو دليل على أنه محمود عنده.

نرى أنه سبحانه يحكي كيفية غرق فرعون ويقول: { حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين } (٣). ولما كانت تلك الفكرة باطلة عنده سبحانه، أراد إيقاف المؤمنين على أن الإيمان في هذا الظرف غير مفيد، فلأجل ذلك عقب عليه بقوله: { الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين } (٤).

(١) راجع ص ٦١١ من هذا الكتاب.

(٢) النحل: ٣٦.

(٣) يونس: ٩٠.

(٤) يونس: ٩١.

فالإنسان العارف بالكتاب يقف على أنه لم يترك على صعيد العقائد أموراً إلا وذكر أوضاعها وبينها بطرق مختلفة، ومن تلك الطرق القصص الواردة في الكتاب العزيز، فكل ما وقع في الأمم السالفة وصار القرآن بصدده ذكره فهو على أقسام ثلاثة: كونه بين الصحة، أو بين البطلان، أو المردد بين الأمرين. فقد يترك البيان في الأولين لعدم الحاجة، وأما الثالث فلا يتركه إلا إذا كان مقبولاً لديه.

٢ - جواز بناء المسجد على قبور الصالحين فضلاً عن الأنبياء وجواز الصلاة فيها والتبرك بتربته، فلو كانت الصلاة في المقابر مكروهة فالأدلة المرغبة إلى الصلاة في جوار الصالحين والأنبياء تخصص تلك العمومات، وذلك لأن الصلاة في مشاهدهم مصلحة تغلب على المضاضة الموجودة في الصلاة في المقابر المطلقة.

الآية الثالثة: صيانة الآثار وتعظيم الشعائر
قال سبحانه: { ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } (١).
والاستدلال بالآية يتوقف على ثبوت صغرى وكبرى:
فالصغرى عبارة عن كون الأنبياء وأوصيائهم ومن يرتبط بهم أحياء وأمواتا
من شعائر الله، والكبرى عبارة عن كون البناء وصيانة الآثار والمقابر تعظيما
لشعائر الله.

ولا أظن أن الكبرى تحتاج إلى مزيد بيان، إنما المهم بيان الصغرى، وأن
الأنبياء والأوصياء وما يرتبط بهم من شعائر الله، وبيان ذلك يحتاج إلى نقل ما ورد
حول شعائر الله من الآيات:

- ١ - { إن الصفا والمروة من شعائر الله } (٢).
- ٢ - { يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا
القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا } (٣).
- ٣ - { والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير } (٤).
وفي آية أخرى جعل مكان شعائر الله حرمة الله وقال:
{ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا
ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان... } (٥).

(١) الحج: ٣٢.

(٢) البقرة: ١٥٨.

(٣) المائدة: ٢.

(٤) الحج: ٣٦.

(٥) الحج: ٣٠.

ما هو المقصود من شعائر الله؟

هنا احتمالات:

١ - تعظيم آيات وجوده سبحانه.

٢ - معالم عبادته وأعلام طاعته.

٣ - معالم دينه وشريعته، وكل ما يمت إليهما بصلة.

أما الأول، فلم يقل به أحد، إذ كل ما في الكون آيات وجوده، ولا يصح تعظيم كل موجود بحجة أنه دليل على الصانع.

وأما الثاني، فهو داخل في الآية قطعاً، وقد عد الصفا والمروة والبدن من شعائر الله، فهي من معالم عبادته وأعلام طاعته، إنما الكلام في اختصاص الآية بمعالم العبادة وأعلام الطاعة، ولا دليل عليه، بل المتبادر هو الثالث، أي معالم دينه سبحانه، سواء كانت أعلاماً لعبادته وطاعته أم لا، فالأنبياء والأوصياء والشهداء والصحف والقرآن الكريم والأحاديث النبوية كلها من شعائر دين الله وأعلام شريعته، فمن عظمها فقد عظم شعائر الدين.

قال القرطبي: فشعائر الله، أعلام دينه، لا سيما ما يتعلق بالمناسك (١).

ولقد أحسن حيث عمم أولاً، ثم ذكر مورد الآية ثانياً، ومما يعرب عن ذلك أن إيجاب التعظيم تعلق ب " حرمة الله " في آية أخرى.

قال سبحانه: {ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه} (٢)، والحرمة ما لا يحل انتهاكه، فأحكامه سبحانه حرمة الله، إذ لا يحل انتهاكها،

وأعلام طاعته وعبادته حرمة الله، إذ يحرم هتكها، وأنبياءه وأوصيائهم وشهداء دينه وكتبه وصحفه من حرمة الله، يحرم هتكهم، فلو عظمهم المؤمن أحياء وأمواتاً فقد عمل بالآيتين: {ومن يعظم حرمات الله}، {ومن يعظم شعائر الله}.

(١) القرطبي، التفسير ١٢: ٥٦ طبع دار إحياء التراث.

(٢) الحج: ٣٠.

الآية الرابعة: صيانة الآثار ومودة ذوي القربى
إن القرآن الكريم يأمرنا - بكل صراحة - بحب النبي (صلى الله عليه وآله) وأقربائه،
ومودتهم

ومحبتهم فيقول:

{ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون} (١)

و {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} (٢).

ومن الواضح لدى كل من يخاطبه الله بهذه الآية أن البناء على مراقد النبي (صلى الله عليه وآله)

وأهل بيته (عليهم السلام)، هو نوع من إظهار الحب والمودة لهم، وبذلك يخرج عن كونه

بدعة، لوجود أصل له في الكتاب والسنة، ولو بصورة كلية.

وهذه العادة متبعة عند كافة الشعوب والأمم في العالم، فالجميع يعتبرون ذلك

نوعاً من المودة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية في كنائس ومقابر مشهورة ويزرعون أنواع الزهور والأشجار حولها.

(١) المائدة: ٥٦.

(٢) الشورى: ٢٣.

المبحث الثاني:

صيانة الآثار من منظار القواعد الفقهية

الأصل في الأشياء الإباحة والحلية

إن الأصل في الأشياء هو الإباحة ما لم يرد فيها نهي في الشريعة،

وهذه هي القاعدة المحكمة التي اعتمد عليها الفقهاء عبر القرون إلا المتزمتمين

غير الواعين.

حتى أن الذكر الحكيم يصرح بأن وظيفة النبي الأكرم هو بيان المحرمات دون

المحللات، وأن الأصل هو حلية كل عمل وفعل، إلا أن يجد النبي حرمة في

شريعته، وأن وظيفة الأمة هو استفراغ الوسع في استنباط الحكم من أدلته، فإذا لم

تجد دليلا على الحرمة تحكم عليه بالجواز.

ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى مجموعة من الآيات، وإن كان في السنة

الغراء أيضا كفاية:

١ - قال سبحانه: ﴿وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم

ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن

ربك هو أعلم بالمعتدين { (١).
فإن هذه الآية تكشف عن أن الذي يحتاج إلى البيان إنما هو المحرمات لا
المباحات، ولأجل ذلك لا وجه للتوقف في العمل، بعدما لم يكن مبينا في جدول
المحرمات.

وبعبارة أخرى: أن المسلم إذا لم يجد شيئا في جدول المحرمات لم يكن له تبرير
لتوقفه وعدم الحكم عليه بالإباحة والجواز والحلية.

٢ - قال سبحانه: {قل لا أجد في ما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه
إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير
الله به { (٢).

إنها تكشف عن أن ما يلزم بيانه إنما هو المحرمات لا المباحات، ولذلك يستدل
بمبلغ الوحي - ونعني به النبي الكريم (صلى الله عليه وآله) - بأنه لا يجد فيما أوحى
إليه محرما على
طاعم يطعمه سوى الأمور المذكورة، فإذا لم يكن هناك منها شيء فهو محكوم
بالحلية والإباحة.

٣ - قال سبحانه: {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل
عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا { (٣).

٤ - قال سبحانه أيضا: {وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها
رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون { (٤).
إن دلالة هاتين الآيتين على المقام واضحة، فإن جملة " وما كان " تارة تستعمل
في نفي الشأن والصلاحية، وأخرى في نفي كون الشيء أمرا ممكنا.

(١) الأنعام: ١١٩.

(٢) الأنعام: ١٤٥.

(٣) الإسراء: ١٥.

(٤) القصص: ٥٩.

أما الأول، فمثل قوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ (١) وغيرها كسورة آل عمران (٢)، أي ليس من شأن الله سبحانه وهو العادل الرؤوف أن يضيع إيمانكم.

وأما الثاني، فمثل قوله: ﴿ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾ (٣)، أي لا يمكن لنفس أن تموت بدون إذنه سبحانه. فيكون معنى الآيتين بناء على الاستعمال الأول: هو ليس من شأن الله تعالى أن يعذب الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولا. وعلى الاستعمال الثاني: هو ليس من الممكن أن يعذب الله الناس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولا.

وعلى كل تقدير، فدلالة الآيتين على الإباحة واضحة، إذ ليست لبعث الرسل خصوصية وموضوعية، ولو أنيط جواز العذاب ببعثهم فإنما هو لأجل كونهم وسائط للبيان والإبلاغ، والملاك هو عدم جواز التعذيب بلا بيان وإبلاغ، وأن التعذيب بلا بيان وإبلاغ ليس من شأنه سبحانه، أو أنه ليس أمرا ممكنا حسب حكمته.

٥ - قال سبحانه: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها منذرون﴾ (٤). فإن هذه الآية مشعرة بأن الهلاك كان بعد الإنذار والتخويف، وأن اشتراط الإنذار كناية عن البيان وإتمام الحجة.

٦ - قوله سبحانه: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا لولا أرسلت

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) الآيات ٧٩ و ١٦١.

(٣) آل عمران: ١٤٥.

(٤) الشعراء: ٢٠٨.

إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى { (١).
فإن هذه الآية تدل على أن التعذيب قبل بعث الرسول مردود بحجة المعذبين
وهي قولهم: {لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك}، فلا يصح التعذيب إلا بعد
إتمام الحجة عليهم ببعث الرسل.
وهذا يعني أن الأشياء مباحة جائزة الارتكاب خالية عن العقوبة أصلا، إلا
إذا ردع عنها الشارع بشكل من الأشكال التي منها إرسال الأنبياء.
٧ - قوله سبحانه: {يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من
الرسول أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على
كل شيء قدير} (٢).
فإن ظاهر قوله: {ما جاءنا من بشير ولا نذير} أنه حجة تامة صحيحة،
ويحتج به على كل من عذب قبل البيان، ولأجل ذلك قام سبحانه بإرسال الرسول
حتى لا يحتج عليه، بل تكون الحجة لله سبحانه.
وهذا يدل على أنه لا يحكم على حرمة شيء، ولا يجوز التعذيب على ارتكابه
قبل بيان حكمه، وذلك لأن بعث البشير والنذير كناية عن بيان الأحكام.

(١) طه: ١٣٤.

(٢) المائدة: ١٩.

المبحث الثالث:

المشاهد والمقابر من خلال سيرة المسلمين في خير القرون
قد تعرفت على قضاء الكتاب في تكريم الأنبياء والأولياء، وأن البناء على
قبورهم أو بناء المساجد حول مراقدهم أمر محبذ، ندبت إليه الشريعة الإلهية، ولم
تر أي أثر فيها للتحريم، وعلى ذلك درج السلف الصالح عبر القرون، ولم يزل
الإلهيون من أهل الكتاب والمسلمين على مدى العصور يهتمون بمقابر الأنبياء
والأولياء بالبناء والتعمير ثم التطهير والتنظيف لها، حتى أن كثيرا من المتمكنين
يخصصون شيئا من أموالهم لهذه الغاية.

فهذه القباب الشاهقة والمنائر الرفيعة والساحات الوسيعة حول مراقد الأنبياء
والأولياء وحول مراقد صحابتهم في مختلف الديار شرقها وغربها، لهي دليل قاطع
على أن هذه السيرة مشروعة، وإلا كان على الصحابة الكرام والتابعين لهم
بإحسان رفضها وردّها بالبيان والبنان والسلطة والقوة، وإلا فالسكوت عليها إلى
عصر إثارة هذه الشكوك، عصر ابن تيمية، أدل دليل على كونها سيرة مشروعة.
وعندما قام ابن تيمية بوجه هذه السيرة أثار نائرة المسلمين ضده شرقا
وغربا، وقد بينوا ضلالة تلك الفكرة وانحرافها عن الشرع.

وقد وقف السلف الصالح - بعد فتح الشام - على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ، فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم - وعلى رأسهم عمر بن الخطاب - بأن البناء على القبور أمر محرم يجب هدمه. وهكذا الحال في سائر القبور المشيدة عليها الأبنية في أطراف العالم، وإن كنت في ريب فاقراً تواريخهم.

ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة التي كانت مشيدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام، وما بناه المسلمون في عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا في مختلف البلدان، لجاؤا بكتاب فخم ضخمة، يعرب عن أن السنة الرائجة في تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده، من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا، هي مشروعية البناء على القبور والعناية بحفظ آثار علماء الدين، ولم ينس أي ابن أنثى حول ذلك بنت شفة، وما اعترض عليها، بل تلقوها إظهاراً للمحبة والود لأصحاب الرسالات والنبوات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركاً أو أمراً محرماً فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، قال سبحانه:

{ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً} (١).

وقد وارى المسلمون جسد النبي الأكرم في بيته المسقف، ولم يزل المسلمون منذ واروا جثمانه، على العناية بحجرته الشريفة بشتى الأساليب.

وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً، حيث جاء تفصيل كل ذلك مع ذكر وصف الأبنية التي توالى عليها عبر القرون في الكتب المتعلقة بتاريخ

(١) النساء: ١١٥.

المدينة، لا سيما وفاء الوفا للإمام السمهودي المتوفى عام ٩١١ هـ (١)، والبناء الأخير الذي شيد عام ١٢٧٠ هـ قائم لم يمسه سوء، وسوف يبقى بفضل الله تبارك وتعالى محفوظا عن الاجتراء.

وأما المشاهد والقباب المبنية في المدينة منذ العصور الأولى فحدث عنها ولا حرج، لا سيما في بقية الغرقد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة.

وقد ذكر كثير من المؤرخين والسياح شيئا كثيرا من أبنية شاهقة على قبور الأنبياء والصالحين في خير القرون.

وبدورنا نذكر شيئا يسيرا مما جاء في كتبهم، ونكتفي بذكر كلمات ثلاثة من المؤرخين المعروفين بالثبوت والضبط، ثم نذكر ما ذكره الرحالة المعروف ابن جبير في رحلته على وجه التفصيل:

١ - كلمة المسعودي في حق قبور أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هذا هو المسعودي الذي توفي عام (٣٤٥ هـ)، وقد أدرك خير القرون، وولد في أواخره - إذا كان خير القرون هو القرون الثلاثة الأولى - يقول:
وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع رخامة مكتوب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول الله (عليهما السلام) سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين بن أبي طالب، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد (٢).

(١) وفاء الوفا ٢: ٤٥٨ الفصل التاسع.
(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢: ٢٨٨.

٢ - كلمة ابن الجوزي:

يقول ابن الجوزي: وهذا هو محمد بن أبي بكر التلمساني يصف المدينة الطيبة وبقية الغرق في القرن الرابع بقوله: وقبر الحسن بن علي عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترفع إليه قليلا، عليه مكتوب: هذا قبر الحسن بن علي، دفن إلى جنب أمه فاطمة رضي الله عنها وعنه (١).

٣ - كلمة الحافظ محمد بن محمود بن النجار:

يقول: والقبران (أي قبر العباس بن عبد المطلب، وقبر الحسن بن علي ومعه السجاد والباقر والصادق (عليهم السلام)) في قبة كبيرة عالية قديمة البناء في أول البقيع،

وعليها بابان يفتح أحدهما في كل يوم للزيارة رضي الله عنهم (٢).

٤ - الرحالة ابن جبير والأبنية على المشاهد:

هذا هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي الشاطبي، أحد علماء الأندلس الأكابر في الفقه والحديث، يحكي لنا في رحلته عن الأبنية الرفيعة والقباب العالية في المشاهد والمزارات المعروفة يومذاك للأنبياء والصالحين والنبى الأكرم (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان. فقد قام برحلات ثلاث، أهمها استغرقت أكثر من ثلاث سنوات، حيث

(١) مجلة العربي: العدد السادس سنة ١٣٩٣ هـ.

(٢) أخبار مدينة الرسول: ١٥٣ تحقيق صالح محمد جمال - ط. مكة المكرمة سنة ١٤٠١ هـ.

بدأها يوم الاثنين في التاسع عشر من شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ، وختمها في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ٥٨١ هـ، وقد وصف في هذه الرحلة ما مر به من مدن وما شاهد من عجائب البلدان.

كما وعنى عناية خاصة بوصف النواحي الدينية والمساجد والمشاهد وقبور الأنبياء والأولياء وأهل البيت والصحابة والتابعين، وصفا دقيقا، يعرب عن أن هذه القباب والأبنية الرفيعة شيدت من قبل قرون تتصل إلى عصر الصحابة والتابعين.

ولم يكن يومذاك أي معترض على بنائها فوق قبور هؤلاء، ولم يدر بخلد أحد أن هذه القباب والأبنية ستبعدنا عن التوحيد، بل كانوا يتبركون بهذا العمل ويبدون ما في مشاعرهم من ود وحب لأصحابها.

وكان التبرك والتقبيل سنة رائجة بين المسلمين، وهم لم يكونوا يقبلون بابا ويتبركون بجدار، بل يتبركون بمن حوتهم، على حد قول مجنون بني عامر: أمر على الديار ديار ليلي * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا وفيما يلي نشير بشكل مقتضب إلى مجمل كلامه: مشهد رأس الحسين بالقاهرة:

يقول ابن جبير في ذكر مصر والقاهرة وبعض آثارها العجيبة: فأول ما نبداً بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التي ببركتها يمسكها الله عز وجل، فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به....

إلى أن يقول: ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل، شديد السواد والبصيص، يصف الأشخاص كلها، كأنه المرأة الهندية الحديثة الصقل.

وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك، وإحداقهم به، وانكبابهم عليه، وتمسحهم بالكسوة التي عليه، وطوافهم حوله، مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة، ومتضرعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد، والأمر فيه أعظم، ومرأى الحال أهول، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم (١).

مشاهد الأنبياء وأهل البيت في مصر:

يقول ابن جبير عن الجبانة المعروفة بالقرافة: هي أيضا إحدى عجائب الدنيا، لما تحتوي عليه من مشاهد الأنبياء صلوات الله عليهم، وأهل البيت رضوان الله عليهم، والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء... فمنها قبر ابن النبي صالح، وقبر روييل بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين، وقبر آسية امرأة فرعون رضي الله عنها، ومشاهد أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين، مشاهد أربعة عشر من الرجال، وخمس من النساء (٢).

إلى أن يقول: مشهد علي بن الحسين بن علي..، ومشهدان لابني جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم، والقاسم بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد بن علي

زين العابدين المذكور، رضي الله عنهم، ومشهدان لابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهما، ومشهد ابنه عبد الله بن القاسم..، ومشهد ابنه يحيى بن القاسم، ومشهد علي بن عبد الله بن القاسم، رضي الله عنهم، ومشهد أخيه عيسى بن

(١) رحلة ابن جبير: ص ١٨ - ١٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

(٢) المصدر السابق.

عبد الله، رضي الله عنهما، ومشهد يحيى بن الحسن بن زيد بن الحسن، رضي الله عنهم، ومشهد محمد بن عبد الله بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي، رضي الله عنهم، ومشهد جعفر بن محمد من ذرية علي بن الحسين، رضي الله عنهم.

وأما عن النساء فيقول ابن جبير: مشهد السيدة أم كلثوم ابنة القاسم بن محمد ابن جعفر، رضي الله عنهم، ومشهد السيدة زينب ابنة يحيى بن زيد بن علي بن الحسين، رضي الله عنهم، ومشهد أم كلثوم ابنة محمد بن جعفر الصادق رضي الله عنهم، ومشهد السيدة أم عبد الله بن القاسم بن محمد، رضي الله عنهم (١).
مشاهد الصحابة في مصر:

ويذكر أيضا من المشاهد في قوله: مشهد معاذ بن جبل (رضي الله عنه)، مشهد عقبة بن

عامر الجهني حامل راية رسول الله (صلى الله عليه وآله)، مشهد صاحب بردة الرسول (صلى الله عليه وآله)، مشهد

أبي الحسن صائغ رسول الله (صلى الله عليه وآله)، مشهد سارية الجبل (رضي الله عنه)، مشهد محمد بن أبي بكر

الصديق رضي الله عنهما، مشهد أولاده رضي الله عنهم، مشهد أحمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، مشهد أسماء ابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، مشهد ابن الزبير بن العوام رضي الله عنهما، مشهد عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، مشهد ابن حليلة رضيع رسول الله (صلى الله عليه وآله) (٢).

مشاهد الفقهاء الكبار في مصر:

وعن مشاهد الأئمة العلماء الزهاد يقول: مشهد الإمام الشافعي (رضي الله عنه)، وهو من

المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا، وبني بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها،

(١) رحلة ابن جبير: ٢٠، ط. بيروت ١٩٨٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٢١.

يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الحبوشاني.

وسلطان هذه الجهات صلاح الدين، يسمح له بذلك كله ويقول: زد احتفالا وتأنقا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله، فسبحان الذي جعله صلاح دينه كاسمه (١). ثم يذكر مشاهد أخرى ويقول:

مشهد المزني صاحب الإمام الشافعي (رضي الله عنه)، مشهد أشهب صاحب مالك (رضي الله عنه)،

مشهد عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك رضي الله عنهما، مشهد أصبغ صاحب مالك رضي الله عنهما، مشهد القاضي عبد الوهاب (رضي الله عنه)، مشهد عبد الله بن عبد

الحكم ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم رضي الله عنهما، مشهد الفقيه الواعظ الزاهد أبي الحسن الدينوري (رضي الله عنه)، مشهد بنان العابد (رضي الله عنه)، مشهد الرجل الصالح

العابد الزاهد المعروف بصاحب الإبريق، وقصته عجيبة في الكرامة، مشهد أبي مسلم الخولاني (رضي الله عنه)، مشهد المرأة الصالحة المعروفة بالعيناء رضي الله عنها،

مشهد الروذباري (رضي الله عنه)، مشهد محمد بن مسعود بن محمد بن هارون الرشيد

المعروف بالسبتي (رضي الله عنه)، مشهد الرجل الصالح مقبل الحبشي (رضي الله عنه)، مشهد ذي النون

ابن إبراهيم المصري (رضي الله عنه)، مشهد القاضي الأنباري، قبر الناطق الذي سمع عند

وضعه في لحدده يقول: اللهم أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين (رضي الله عنه)، مشهد

العروس ولها أثر من الكرامة في حال جلوتها على زوجها لم يسمع أعجب منه، مشهد الصامت الذي يحكى عنه أنه لم يتكلم أربعين سنة، مشهد العصافيري، مشهد عبد العزيز بن أحمد بن علي بن الحسن الخوارزمي، مشهد الفقيه الواعظ الأفضل الجوهرري ومشاهد أصحابه بإزائه رضي الله عنهم أجمعين، مشهد شقران

(١) رحلة ابن جبير: ص ١٨ - ١٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

(۳۶۱)

شيخ ذي النون المصري، مشهد الرجل الصالح المعروف بالأقطع المغربي، مشهد المقرئ ورش، مشهد الطبري، مشهد شيبان الراعي. والمشاهد الكريمة بها أكثر من أن تضبط بالتقييد أو تتحصل بالإحصاء، وإنما ذكرنا منها ما أمكنتنا مشاهدته.

وبقبلة القرافة المذكورة بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء، وهم الذين استشهدوا مع سارية رضي الله عن جميعهم، والبسيط المذكور مسنم كله للعيان على مثال أسنمة القبور دون بناء (١).

القباب الرفيعة لأهل البيت في مكة المكرمة:

وعن مشاهد مكة المكرمة يقول ابن جبير: فمن مشاهدها التي عايناها قبة الوحي، وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وبها كان ابتناء النبي (صلى الله عليه وآله) بها، وقبة صغيرة أيضا في الدار المذكورة فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفيها أيضا ولدت سيدي شباب أهل الجنة، الحسن والحسين رضي الله عنهما، وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة مصونة قد بنيت بناء يليق بمثلها. ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبي (صلى الله عليه وآله)، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مست جسمه الطاهر بني عليها مسجد لم ير أحفل بناء منه، أكثره ذهب منزل به، والموضع المقدس الذي سقط فيه (صلى الله عليه وآله) ساعة الولادة السعيدة المباركة التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين محفوف بالفضة.

ثم يعد بعض المشاهد فيقول: دار الخيزران، وهي الدار التي كان النبي (صلى الله عليه وآله) يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه رضي الله عنهم... دار أبي بكر الصديق... قبة بين الصفا والمروة تنسب

(١) رحلة ابن جبير: ص ٢١ - ٢٢، ط. بيروت ١٩٨٦.

لعمر ابن الخطاب... (١)
يقول ابن جبير: دخلنا مولد النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو مسجد حفييل البنيان وكان دارا

لعبد الله بن عبد المطلب... إلى أن يقول: وعلى مقربة منه أيضا مسجد عليه مكتوب: هذا المسجد هو مولد علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، وفيه تربي رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكان دارا لأبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وآله) وكافله (٢).

المشاهد المكرمة ببقيع الغرقد:

وفي ذكر المشاهد المكرمة ببقيع الغرقد يقول ابن جبير: فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة (رضي الله عنه)، وهو قبلي الجبل المذكور، والجبل جوفي المدينة، وهو على مقدار ثلاثة أميال، وعلى قبره (رضي الله عنه) مسجد مبني، والقبر برحبة جوفي المسجد، والشهداء

رضي الله عنهم بإزائه... وحول الشهداء تربة حمراء هي التربة التي تنسب إلى حمزة ويتبرك الناس بها.

وبقيع الغرقد شرقي المدينة، تخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع، وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبي (صلى الله عليه وآله) أم

الزبير بن العوام (رضي الله عنه)، وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدني (رضي الله عنه) وعليه

قبة صغيرة مختصرة البناء، وأمامه قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وآله) وعليه

قبة بيضاء، وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اسمه عبد الرحمن

الأوسط، وهو المعروف بأبي شحمة، وهو الذي جلده أبوه الحد، فمرض ومات، رضي الله عنهما، وبإزائها قبر عقيل بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وعبد الله بن جعفر الطيار (رضي الله عنه)، وبإزائهم روضة فيها أزواج النبي (صلى الله عليه وآله)، وبإزائها روضة صغيرة فيها

(١) رحلة ابن جبير: ص ٨١ - ٨٢، ط. بيروت ١٩٨٦.

(٢) لا يخفى على ذي بصيرة أن ولادة أمير المؤمنين علي (عليه السلام) إنما كانت في جوف الكعبة المشرفة، وهو من

الشهرة والشيوخ بحيث لا يحتاج إلى ذكر مصادره.



(۳۶۳)

ثلاثة من أولاد النبي (صلى الله عليه وآله)، ويليهما روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي رضي الله عنهما، وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلي العباس رضي الله عنهما، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع إصااق، مرصعة بصفائح الصفر، ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل منظر، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وآله)، يلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وآله)، ويعرف ببيت الحزن، يقال: إنه الذي أوت إليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين (رضي الله عنه)، وعليه قبة صغيرة مختصرة، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي رضي الله عنها وعن بنيتها. ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى، لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار، رضي الله عنهم أجمعين، وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب: ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد رضي الله عنها وعن بنيتها (١). مشاهد الكوفة: ويقول ابن جبير عن مسجد الكوفة: وبهذا الجامع المكرم آثار كريمة: فمنها بيت بإزاء المحراب عن يمين المستقبل القبلة، يقال: إنه كان مصلى إبراهيم الخليل، وعليه ستر أسود صونا له، ومنه خرج الخطيب لابسا ثياب السواد للخطبة، فالناس يزدحمون على هذا الموضع المبارك للصلاة فيه، وعلى مقربة منه مما يلي الجانب الأيمن من القبلة، محراب محلق عليه بأعواد الساج مرتفع عن صحن البلاط كأنه مسجد صغير، وهو محراب أمير

(١) رحلة ابن جبير: ص ١٥٤ - ١٥٦، ط. بيروت ١٩٨٦.

المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وفي ذلك الموضع ضربه الشقي اللعين عبد الرحمن

ابن ملجم بالسيف، فالناس يصلون فيه باكين داعين، وفي الزاوية من آخر هذا البلاط القبلي، المتصل بآخر البلاط الغربي، شبيه مسجد صغير محلق عليه أيضا بأعواد الساج، هو موضع مفار التنور الذي كان آية لنوح (عليه السلام)، وفي ظهره، خارج

المسجد، بيته الذي كان فيه، وفي ظهره بيت آخر يقال إنه كان متعبداً لإدريس (عليه السلام)،

ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد، يقال إنه منشأ السفينة، ومع آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، والبيت الذي غسل فيه، ويتصل به

بيت يقال إنه كان بيت ابنة نوح (عليه السلام).

وهذه الآثار الكريمة تلقيناها من ألسنة أشياخ من أهل البلد فأثبتناها حسبما نقلوها إلينا، والله أعلم بصحة ذلك كله.

وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير يصعد إليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وفي غربي المدينة على مقدار فرسخ منها المشهد الشهير الشأن

المنسوب لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وحيث بركت ناقته وهو محمول عليها مسجى

ميتا على ما يذكر، ويقال: إن قبره فيه (١).

قبور العلماء والأولياء المشيدة ببغداد:

يقول ابن جبير:

وبإحدى هذه المحلات قبر معروف الكرخي، وهو رجل من الصالحين مشهور الذكر في الأولياء، وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخله قبر متسع السنام، عليه مكتوب: هذا قبر عون ومعين، من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وفي الجانب الغربي أيضا قبر موسى بن جعفر، رضي الله عنهما.

(١) رحلة ابن جبير: ١٦٨ - ١٦٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

إلى مشاهد كثيرة ممن لم تحضرنا تسميته من الأولياء والصالحين والسلف
الكريم، رضي الله عن جميعهم.
وبأعلى الشرقية خارج البلد محلة كبيرة بإزاء محلة الرصافة، وبالرصافة كان
باب الطاق المشهور على الشط، وفي تلك المحلة مشهد حفيل البنيان، له قبة بيضاء
سامية في الهواء، فيه قبر الإمام أبي حنيفة (رضي الله عنه)، وبه تعرف المحلة، وبالقرب
من تلك
المحلة قبر الإمام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه)، وفي تلك الجهة أيضا قبر أبي بكر
الشبلي (رحمه الله)،
وقبر الحسين بن منصور الحلاج، وبيغداد من قبور الصالحين كثير، رضي الله
عنهم (١).

المشاهد المكرمة والآثار المعظمة في الشام:

يقول ابن جبير:

فأولها مشهد رأس يحيى بن زكرياء (عليه السلام)، وهو مدفون بالجامع المكرم في
البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية (٢)، رضي الله عنهم، وعليه
تابوت خشب معترض من الأسطوانة، وفوقه قنديل كأنه من بلور مجوف، كأنه
القدح الكبير، لا يدرى أمن زجاج عراقي أم صوري هو أم من غير ذلك.
ومولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا الكريم، وهو بصفح جبل
قاسيون عند قرية تعرف ببرزة، وهي من أجمل القرى، وهذا الجبل مشهور
بالبركة في القديم لأنه مصعد الأنبياء، صلوات الله عليهم، ومطلعهم، وهو في الجهة
الشمالية من البلد وعلى مقدار فرسخ، وهذا المولد المبارك غار مستطيل ضيق، وقد
بني عليه مسجد كبير مرتفع مقسم على مساجد كثيرة كالغرف المطلة، وعليه
صومعة عالية، ومن ذلك الغار رأى (عليه السلام) الكوكب ثم القمر ثم الشمس،
حسبما

(١) رحلة ابن جبير: ١٦٨ - ١٦٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

(٢) هي أول مقصورة وضعت في الإسلام وضعها معاوية بن أبي سفيان.

ذكره الله تعالى في كتابه عز وجل (١)، وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه، وهذا كله ذكره الحافظ محدث الشام أبو القاسم بن هبة الله بن عساكر الدمشقي في تاريخه في أخبار دمشق، وهو ينوف على مائة مجلد.

وذكر أيضا أن بين باب الفراديس، وهو أحد أبواب البلد، وفي الجهة الشمالية من الجامع المبارك، على مقربة منه إلى جبل قاسيون، مدفن سبعين ألف نبي، وقيل: سبعون ألف شهيد، وأن الأنبياء المدفونين به سبعمائة نبي، والله أعلم. وخارج هذا البلد الجبانة العتيقة، وهي مدفن الأنبياء والصالحين، وبركتها شهيرة، وفي طرفها مما يلي البساتين وهداة من الأرض متصلة بالجبانة، ذكر أنها مدفن سبعين نبيا، وعصمها الله ونزهها من أن يدفن فيها أحد، والقبور محيطة بها، وهي لا تخلو من الماء حتى عادت قرارة له، كل ذلك تنزيه من الله تعالى لها. وبجبل قاسيون أيضا لجهة الغرب، على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك، مغارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها في الجبل دم هايل قتييل أخيه قابيل ابني آدم (عليه السلام)، يتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة، وقد أبقى الله منه في الجبل آثارا

حمرا في الحجارة تحك فتستحيل، وهي كالطريق في الجبل، وتنقطع عند المغارة، وليس يوجد في النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها، فكان يقال: إنها لون حجارة الجبل، وإنما هي من الموضع الذي جر منه القاتل لأخيه حيث قتله حتى انتهى إلى المغارة، وهي من آيات الله تعالى، وآياته لا تحصى. وقرأنا في تاريخ ابن المعلى الأسدي أن تلك المغارة صلى فيها إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب، عليهم وعلى نبينا الكريم أفضل الصلاة والسلام. وعليها مسجد قد أتقن بناؤه، ويصعد إليه على أدراج، وهو كالغرفة المستديرة، وحولها أعواد مشرجة مطيفة بها، وبه بيوت ومرافق للسكنى، وهو

(١) الأنعام: ٧٦ - ٧٨.

يفتح كل يوم خميس، والسرج من الشمع والفتائل تقد في المغارة، وهي متسعة. وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم (عليه السلام)، وعليه بناء، وهو موضع مبارك، وتحتة في حضيض الجبل مغارة تعرف بمغارة الجوع، ذكر أن سبعين نبيا ماتوا فيها جوعا، وكان عندهم رغيف، فلم يزل كل واحد منهم يؤثر به صاحبه ويدور عليه من يد إلى يد، حتى لحقتهم المنية، صلوات الله عليهم. وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبني، وأبصرنا فيه السرج تقد نهارا.

ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع، حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه.

وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها، وهذه أيضا من المفاجر المخلدة.

ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف.

ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارعة مشكورة عند الله عز وجل.

وبآخر هذا الجبل المذكور، في آخر البسيط البستاني الغربي من هذا البلد، الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله تعالى، مأوى المسيح وأمه، صلوات الله عليهما، وهي من أبدع مناظر الدنيا حسنا وجمالا وإشراقا، وإتقان بناء واحتفال تشييد وشرف وضع، هي كالقصر المشيد، ويصعد إليها على أدراج، والمأوى المبارك منها مغارة صغيرة في وسطها، وهي كالبيت الصغير، وبازائها بيت يقال: إنه

مصلى الخضر (عليه السلام)، فيبادر الناس للصلاة بهذين الموضعين المباركين، ولا سيما

المأوى المبارك، وله باب حديد صغير ينغلق دونه، والمسجد يطيف بها، ولها شوارع دائرة، وفيها سقاية لم ير أحسن منها، قد سيق إليها الماء من علو، وماؤها

ينصب على شاذروان (١) في الجدار متصل بحوض من رخام يقع الماء فيه، لم ير أحسن من منظره، وخلف ذلك مطاهر يجري الماء في كل بيت منها ويستدير بالجانب المتصل بجدار الشاذروان.

وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار، يأخذ كل نهر طريقه، وأكبر هذه الأنهار نهر يعرف بثوار، وهو يشق تحت الربوة، وقد نقر له في الحجر الصلد أسفلها حتى انفتح له متسرب واسع كالغار، وربما انغمس الجسور من سباح الصبيان أو الرجال من أعلى الربوة في النهر واندفع تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها، وهي مخاطرة كبيرة.

ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد، ولا إشراف كإشرافها حسنا وجمالا واتساع مسرح للأبصار، وتحتها تلك الأنهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى، فتحار الأبصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاع انصبابها، وشرف موضوع هذه الربوة ومجموع حسنها أعظم من أن يحيط به وصف واصف في غلو مدحه، وشأنها في موضوعات الدنيا الشريفة خطير كبير (٢).

ومن أحفل هذه المشاهد مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، قد بني عليه

مسجد حفيلى رائق البناء، وبإزائه بستان كله نارنج، والماء يطرد فيه من سقاية معينة، والمسجد كله ستور معلقة في جوانبه صغار وكبار. ومن المشاهد المكرمة مشهد سعد بن عبادة رئيس الخزرج، صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو بقرية تعرف بالمنيحة شرقي البلد وعلى مقدار أربعة أميال منه،

(١) الشاذروان: حائط صغير بجوار الجدار الأصلي لتقويته.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٢١ - ٢٢٤.

وعلى قبره مسجد صغير حسن البناء، والقبر في وسطه، وعند رأسه مكتوب: هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج، صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله). ومن مشاهد أهل البيت رضي الله عنهم: مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، ويقال لها زينب الصغرى، وأم كلثوم كنية أوقعها عليها النبي (صلى الله عليه وسلم)، لشبهها بابنته أم كلثوم، رضي الله عنها، والله أعلم بذلك، ومشهدا

الكريم بقرية قبلي البلد تعرف ب " راوية " على مقدار فرسخ، وعليه مسجد كبير، وخارجه مساكن، وله أوقاف، وأهل هذه الجهات يعرفونه بقبر الست أم كلثوم، مشينا إليه وبتنا به وتبركنا برؤيته، نفعنا الله بذلك.

وبالجبانة التي بغربي البلد، من قبور أهل البيت كثير، رضي الله عنهم، منها قبران عليهما مسجد يقال إنهما من ولد الحسن والحسين، رضي الله عنهما، ومسجد آخر فيه قبر يقال إنه لسكينة بنت الحسين، رضي الله عنهما، أو لعلها سكينة أخرى من أهل البيت.

ومن المشاهد أيضا قبر بجامع النيرب، في بيت بالجهة الشرقية منه، يقال إنه لأم مريم، رضي الله عنها.

وبقرية دارية قبر أبي مسلم الخولاني (رضي الله عنه)، وعليه قبة هي علامة القبر، وبها أيضا قبر أبي سليمان الداراني (رضي الله عنه).

وبين هذه القرية وبين البلد مقدار أربعة أميال، وهي لجهة الغرب منه.

ومن المشاهد الكريمة التي لم نعاينها ووصفت لنا قبرا شيث ونوح (عليهما السلام)، وهما

بالبقاع، وهي على يومين من البلد، وحدثنا من ذرع قبر شيث فألقى فيه أربعين باعا، وفي قبر نوح ثلاثين، وبإزاء قبر نوح قبر ابنة له، وعليه هذه القبور بناء، ولها أوقاف كثيرة، ولها قيم يلتزمها.

ومن المشاهد المباركة أيضا، بالجبانة الغربية وبمقربة من باب الجايية، قبر

أويس القرني (رضي الله عنه)، وقبور خلفاء بني أمية، يقال: إنها بإزاء باب الصغير بمقربة من

الجبانة المذكورة، وعليها اليوم بناء يسكن فيه.

والمشاهد المباركة في هذه البلدة أكثر من أن تنضب بالتقييد، وإنما رسم من ذلك ما هو مشهور ومعلوم.

ومن المشاهد الشهيرة أيضا مسجد الأقدام، وهو على مقدار ميلين من البلد مما يلي القبلة على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى بلاد الحجاز والساحل وديار مصر، وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه: كان بعض الصالحين يرى النبي (صلى الله عليه وآله) في النوم فيقول: هاهنا قبر أخي موسى (صلى الله عليه وآله)، والكثير الأحمر على الطريق بمقربة من هذا الموضع، وهو بين غالية وغويلية كما ورد في الأثر، وهما موضعان.

وشأن هذا المسجد في البركة عظيم، ويقال: إن النور ما خلا قط من هذا الموضع الذي يذكر أن القبر فيه حيث الحجر المكتوب، وله أوقاف كثيرة.

فأما الأقدام ففي حجارة في الطريق إليه معلم عليها، تجد أثر القدم في كل حجر، وعدد الأقدام تسع، ويقال: إنها أثر قدم موسى (عليه السلام)، والله أعلم بحقيقة ذلك، لا إله سواه (١).

هذا وقد أخذنا من رحلة ابن جبير المواضيع اللازمة، وإلا فالذي يسبر الكتاب يقف على أمور لم نذكرها، والكل يدل على أن البناء على القبور وصيانتها عن الانطماس وزيارتها في فترات مختلفة كان أمرا رائجا في خير القرون الذي جعل مقياسا بين الحق والباطل.

(١) رحلة ابن جبير: ٢٢٦ - ٢٢٩، ط. بيروت ١٩٨٦.

٥ - ابن الحجاج والقبة البيضاء على قبر الإمام علي (عليه السلام)
إن الحسين بن أحمد بن محمد المعروف بابن الحجاج البغدادي أحد الشعراء
المفلقين في القرنين الثالث والرابع (المتوفى ٣٩١ هـ) أنشأ قصيدته الفائية في مدح
الإمام أمير المؤمنين، وأنشدها في الحضرة العلوية عندما زارها يقول في مستهلها:
يا صاحب القبة البيضاء على النجف * من زار قبرك واستشفى لديك شفي
زوروا أبا الحسن الهادي لعلكم * تحظون بالأجر والإقبال والزلف (١)
والقصيدة تعرب عن وجود البناء والقبة البيضاء على القبر، والزلف والتفاف
الزائر حول حوله في عصره، ومع ذلك يدعي بعض الوهابيين، أن البناء على القبور لم
يكن في خير القرون وأنه من البدع المستحدثة.
ولأجل شيوع البناء على القبور في جميع الأقطار الإسلامية نجد أن الأمير
محمد بن إسماعيل اليماني (ت ١١٨٦ هـ) الذي توهب مع كونه زيدا يفترض على
نفسه ويقول في كتابه: وهذا أمر عم البلاد وطبق الأرض شرقا وغربا بحيث لا
بلدة من بلاد الإسلام إلا فيها قبور ومشاهد، ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر
يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الإسلام (٢).

(١) اقرأ ترجمته في يتيمة الدهر ٣: ٣٥، معجم الأدباء ٤: ٦، المنتظم ٧: ٢١٦، تاريخ بغداد ٨: ١٤،
وفيات
الأعيان ١: ١٦٨، الكامل لابن الأثير ٩: ٦٣ إلى غير ذلك من مصادر الترجمة، وفي روضات الجنات ٣:
١٤٨ - ١٥٥ له ترجمة ضافية.
(٢) تطهير الاعتقاد: ص ١٧، ثم إنه حاول أن يجيب عن هذا الاستنكار بما الإعراض عن ذكره أحسن.

فلو كانت هذه سيرة المسلمين من خير القرون إلى عصرنا فلماذا لا تكون حجة؟ فلو كان التهديم أمرا واجبا فلماذا ترك الخلفاء تلك الفريضة؟! وهل يصح لنا اتهامهم بالتسامح في أمر الدين مع أن الصحابة والتابعين مروا على تلك الآثار ولم ينبسوا فيها ببيت شفة؟ وإذا لم يكن ذلك الإجماع حجة، فأى إجماع يكون حجة شرعية؟

فهذه النصوص من المؤرخين تدل بوضوح على جريان السيرة على بناء القباب والأبنية على قبور الأولياء من دون أن يخطر ببال أحد أنه مقدمة للشرك ومفض إليه، فإذا لم يكن مثل هذا الإجماع حجة فأى إجماع حجة؟ والعجب من ابن بليهد قاضي الحكومة السعودية أيام تدمير آثار رسول الله (صلى الله عليه وآله) عام (١٣٤٤ هـ). فبعدهما نفذ ما أمر به من قبل المشايخ، نشر بيانا في

جريدة أم القرى في عددها الصادر في شهر جمادى الآخرة من شهر سنة (١٣٤٥ هـ). ومما جاء فيه قوله: إن القباب على مرأق العلماء صار متداولاً منذ القرن الخامس الهجري.

فهل هذا صحيح أو افتراء أمام كل هذه النصوص من المسعودي وغيره؟ وليس البحث في خصوص العلماء، بل مطلق قبور المسلمين، نبياً كان أو ولياً، صحابياً كان أو تابعياً، فقيهاً كان أو محدثاً.

السيد محسن الأمين والرد على ابن تيمية
ونعم ما قال السيد المحقق محسن الأمين في قصيدته المسماة بالعقود الدرية في رد شبهات الوهابية:

أوليس أمة أحمد إجماعها * فيه الصواب وحجة لم تردد

وعلى ضلال كلها لم تجتمع * فيما رويت في الحديث المسند
مضت القرون وذي القباب مشيدة * والناس بين مؤسس ومجدد
في كل عصر فيه أهل الحل * والعقد الذين بغيرهم لم يعقد
لم ينكروا أبدا على من شادها * شيدت ولا من منكر ومفند
من قبل أن تلد ابنها تيمية * أو يخلق الوهاب بعض الأعبد
أفأي إجماع لكم أقوى على * أمثاله من مورد لم يورد
فبسيرة للمسلمين تتابعت * في كل عصر نستدل ونقتدي
أقوى من الإجماع سيرتهم ومن * قد حاد عنها فهو غير مسدد
هيهات ليس نبيا ابن بليهد * في الناس لم يخطئ ولم يتعمد
كلا ولا العلماء قد حصرت به * هي في بقاع الأرض ذات تعدد
كلا ولا من وافقوه لخوفهم * أو جهلهم من خائف ومقلد
والجل من علماء طيبة ساكت * للخوف مكفوف اللسان مع اليد (١)
كيف يدعي الإجماع على التحريم مع أن فقهاء المذاهب الأربعة في العصر
الحاضر اتفقوا على الكلمة التالية: يكره أن يبني القبر بيت أو قبة أو مسجد (٢)،
أين الكراهة من الحرمة، وأين هي من الشرك؟
وهذا النووي شارح صحيح مسلم يقول في شرح حديث أبي الهياج الذي
سيوافيك نصه: أما البناء فإن كان في ملك الباني فمكروه وإن كان في مقبرة مسبلة
فحرام، نص عليه الشافعي والأصحاب (٣).
إن التحريم في الصورة الثانية لكونه مزاحما للانتفاع، وعلى خلاف أهداف

(١) كشف الارتباب: ص ٤١١.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٤٣١.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٧، ص ٤٢ شرح الحديث رقم ٩٦٩ كتاب الجنائز ط مصر.

الواقف وأغراضه، وأين هو من البناء على أرض مشتراة أو مهداة أو موات، فلا تترتب عليها تلك الحرمة.

دفن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) في بيته الرفيع ولم يخطر ببال أحد من الصحابة الحضور أن البناء على القبر حرام وأنه (صلى الله عليه وآله) نهى عنه نهيا مؤكداً، ولما كان البيت متعلقاً بالسيدة عائشة جعلوا في وسطه ساتراً، ولما توفي الشيخان أوصيا بدفنهما في حجرة النبي (صلى الله عليه وآله) تبركا بذاته ومكانه، ولم تسمع عن أي ابن أنثى نعيه أنه حرام ولا مكروه، وعلى ذلك استمرت سيرة المسلمين في حق العلماء والأولياء، يدفنونهم في البيوت المعدة لذلك، أو يرفعون لمراقدهم قواعد وسقفاً بعد الدفن، تكريماً لهم وتقديراً لتضحياتهم، ولم يخطر ببال أحد أنه على خلاف الدين والشرع.

وهذا عمل المسلمين وسيرتهم القطعية في جميع الأقطار والأمصار، على مرأى ومسمع الجميع وإن اختلفت نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذا العصر، من الشيعة والسنة، وأي بلاد من بلاد الإسلام من مصر والعراق أو الحجاز أو سورية، وتونس ومراكش وإيران، وهلم جرا، ليس فيها قبور مشيدة، وضرائح منجدة، وهؤلاء أئمة المذاهب: الشافعي في مصر، وأبو حنيفة في بغداد، ومالك بالمدينة، وتلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم شاهقة القباب، شامخة المباني، غير أن الوهابيين لما استولوا على المدينة هدموا قبر مالك.

وهذه القبور قد شيدت وبنيت في الأزمنة التي كانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتاوى، وزعماء المذاهب، فما أنكر منهم منكر، وليس هذا رائجا بين المسلمين فقط، بل جرى على هذا جميع عقلاء العالم، بل يعد تعمير قبور الشخصيات من غرائز البشر ومقتضيات الحضارة وشارة الرقي، فكل هذا دليل على الجواز لو لم نقل يفوق ذلك، ولو لم تكن السيرة المسلمة بين المسلمين والعقلاء

عامة غير مفيدة في المقام، فلا يصح الاستناد إلى أية سيرة قاطعة بين المسلمين أو الناس.

وليس يصح في الأذهان شيء * إذا احتاج النهار إلى دليل
ثم إن الوهابيين تمسكوا بروايات، إما عديمة الدلالة، أو ضعيفة السند،
وسنذكر في المبحث الآتي بشكل عام مجمل ما تمسكوا به ليتبين مدى وعيهم.

المبحث الرابع:

ذرائع الوهاية في هدم الآثار

استدلت الوهاية بروايات نذكرها واحدة بعد الأخرى:

الأولى: رواية أبي الهياج الأسدي

روى مسلم في صحيحه قال: حدثنا يحيى بن يحيى وأبو بكر بن أبي شيبة
وزهير بن حرب، قال يحيى: أخبرنا، وقال الآخرون: حدثنا وكيع عن سفيان،
عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي وائل، عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي
ابن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله.. أن لا تدع تمثالا إلا
طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته (١).

زعم المستدل أن معناه: ولا قبرا عاليا إلا سويته بالأرض.

أقول: الاستدلال بالحديث فرع صحة سنده، وتامة دلالة، ولكنه موهون
من كلا الجانبين.

(١) مسلم، الصحيح ٣: ٦١ كتاب الجنائز، الترمذي، السنن ٢: ٢٥٦ باب ما جاء في تسوية القبور،
النسائي،
السنن ٤: ٨٨ باب تسوية القبر.

سند الرواية وأقوال العلماء فيه:
أما السند، فيكفي أن علماء الرجال تحدثوا في رجال الحديث ونقلوا تصريح
الأئمة بضعفهم، وهم عبارة عن:

١ - وكيع.

٢ - سفيان الثوري.

٣ - حبيب بن أبي ثابت.

٤ - أبو وائل الأسدي.

وإليك أقوال العلماء في حقهم:

١ - وكيع:

هو وكيع بن الجراح بن مليح الرواسي الكوفي، روى عن عدة، منهم: سفيان
الثوري، وروى عنه جماعة منهم: يحيى بن يحيى وهو كما ورد في حقه المدح، ورد
في حقه الجرح كثيرا، وهذا ابن حجر يعرفه في تهذيب التهذيب بالنحو التالي: عن
الإمام ابن حنبل: كان وكيع أحفظ من عبد الرحمن بن مهدي كثيرا، وقال في
موضع آخر: ابن مهدي أكثر تصحيفا من وكيع ووكيع أكثر خطأ منه.
وقال ابن عمار: قلت له: عدوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث خلطت فيها؟
فقال: حدثهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة، وأربعة ليس بكثير في ألف
وخمسمائة.

وقال علي بن المديني: كان وكيع يلحن ولو حدث بألفاظه لكان عجبا.
وقال محمد بن نصر المروزي: كان يحدث بآخره من حفظه فيغير ألفاظ
الحديث كأنه يحدث بالمعنى ولم يكن من أهل اللسان (١).

(١) تهذيب التهذيب ١١: ١٢٣، ١٣١.

وقال الذهبي في ميزان الاعتدال بعدما مدحه: قال ابن المديني: كان وكيع يلحن ولو حدث بألفاظه كان عجبا (١).

٢ - سفيان الثوري:

وهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، فقد مدحوه، ولكن الذهبي يقول: إنه كان يدلس عن الضعفاء، ولكن كان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال يدلس ويكتب عن الكذابين (٢).

وقال ابن حجر: قال ابن المبارك: حدث سفيان بحديث فجئته وهو يدلس، فلما رأني استحيا وقال: نرويه عنك؟ (٣).

وقال في ترجمة يحيى بن سعيد بن فروخ: قال أبو بكر وسمعت يحيى يقول: جهد الثوري أن يدلس علي رجلا ضعيفا فما أمكنه (٤).

والتدليس هو أن يروي عن رجل لم يلقه وبينهما واسطة فلا يذكر الواسطة.

وقال أيضا في ترجمة سفيان: قال ابن المديني عن يحيى بن سعيد: لم يلق سفيان أبا بكر بن حفص ولا حيان بن إياس، ولم يسمع من سعيد بن أبي البردة، وقال البغوي: لم يسمع من يزيد الرقاشي، وقال أحمد: لم يسمع من سلمة بن كهيل حديث المسائية (٥) يضع ما له حيث يشاء، ولم يسمع من خالد بن سلمة بتاتا ولا من ابن عون إلا حديثا واحدا (٦).

(١) ميزان الاعتدال ٤ : ٣٣٦.

(٢) ميزان الاعتدال ٢ : ١٦٩ برقم ٣٣٢٢.

(٣) تهذيب التهذيب ٤ : ١٥ في ترجمة سفيان.

(٤) تهذيب التهذيب ١١ : ٢١٨.

(٥) العبد المعتق.

(٦) تهذيب التهذيب ٤ : ١١٥.

وهذا تصريح من ابن حجر بكون الرجل مدلسا، ربما يروي عن أناس يوهم أنه لقيهم ولم يلقهم ولم يسمع منهم.

٣ - حبيب بن أبي ثابت:

هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار، وثقه بعض، ولكن قال ابن حبان في الثقات: كان مدلسا، وقال العقيلي: غمزه ابن عون، وقال القطان: له غير حديث عن عطاء، لا يتابع عليه وليست محفوظة.

وقال ابن خزيمة في صحيحه: كان مدلسا (١).

وقال ابن حجر أيضا في موضع آخر: كان كثير الإرسال والتدليس، مات سنة ١١٩ هـ.

ونقل عن كتاب الموضوعات لابن الجوزي من نسخة بخط المنذري أنه نقل فيه حديثا عن أبي بن كعب في قول جبرئيل: لو جلست معك مثلما جلس نوح في قومه ما بلغت فضائل عمر، وقال: لم يعله ابن الجوزي إلا بعبد الله بن عمار الأسلمي شيخ حبيب بن ثابت (٢).

٤ - أبو وائل الأسدي:

هو شقيق بن سلمة الكوفي، كان منحرفا عن علي بن أبي طالب، قال ابن حجر: قيل لأبي وائل: أيهما أحب إليك علي أو عثمان؟ قال: كان علي أحب إلي ثم صار عثمان (٣).

ويكفي في قدحه أنه كان من ولاة عبید الله بن زياد، قال ابن أبي الحديد: قال

(١) تهذيب التهذيب ٢: ١٧٩.

(٢) تهذيب التهذيب ١: ١٤٨.

(٣) تهذيب التهذيب ٤: ٣٦٢.

أبو وائل: استعملني ابن زياد على بيت المال بالكوفة.
هذا كله حول سند الرواية وهؤلاء رواتها، ولو ورد فيهم مدح فقد ورد فيهم
الذم، وعند التعارض يقدم الجرح على المدح فيسقط الحديث عن الاستدلال.
ويكفي أيضا في ضعف الحديث أنه ليس لراويها - أعني أبا الهياج - في الصحاح
حديث غير هذا، فكيف يستدل بحديث يشتمل على المدلسين والمضعفين؟ وكيف
يعدل بهذا الحديث عن السيرة المستمرة بين المسلمين؟!
والآن إليك بيان عدم دلالة الحديث على الموضوع بتاتا:
ضعف دلالة الحديث

إن توضيح ضعف دلالة الحديث يتوقف على بيان معنى اللفظين الواردين فيه:

١ - قبرا مشرفا.

٢ - إلا سويته.

أما الأول: فقال صاحب القاموس: والشرف - محرقة - العلو، ومن البعير
سنامه، وعلى ذلك يحتمل المراد منه مطلق العلو، أو العلو الخاص كسنام البعير
الذي يعبر عنه بالمسنم، ولا يتعين أحد المعنيين إلا بالقرينة.
أما الثاني: فهو تارة يستخدم في بيان مساواة شئ بشئ في الطول أو
العرض، فيقال: هذا القماش يساوي بهذا الآخر في الطول.
وأخرى في التسوية، أي كون الشئ مسطحا لا انحناء ولا تعرج فيه.
والفرق بين المعنيين واضح، فإن التسوية في الأول وصف للشئ بمقايسته مع
شئ آخر، وفي الثاني وصف لنفس الشئ ولا علاقة له بشئ آخر.
فلو استعمل في المعنى الأول لتعدى إلى مفعولين: أحدهما بلا واسطة، والآخر
بمعونة حرف الجر، قال تعالى حاكيا عن لسان المشركين وأنهم يخاطبون آلهم

بقولهم: {إذ نسويكم برب العالمين} (١)، أي نعد الآلهة الكاذبة مساوية لرب العالمين في العبادة أو في الاعتقاد بالتدبير.

وقال سبحانه حاكيا عن حال الكافرين يوم القيامة: {يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثا} (٢)، أي يودون أن يكونوا ترابا أو ميتا مدفونا تحت الأرض، ويكونون كذلك والأرض متساوية.

ترى أن تلك المادة تعدت إلى مفعولين وأدخل حرف الجر على المفعول الثاني. وأما إذا استعمل في المعنى الثاني أي فيما يكون وصفا للشئ بلا علاقة له بشئ آخر فيكتفي بمفعول واحد، قال سبحانه: {الذي خلق فسوى} (٣)، وقال سبحانه: {بلى قادرين على أن نسوي بنانه} (٤)، وقال سبحانه: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} (٥)، ففي جميع هذه الموارد يراد من التسوية كونها وصفا للشئ بما هو هو، وهو فيها كناية عن كمال الخلقة وأنها بعيدة عن النقص والاعوجاج.

هذا هو مفهوم اللفظ لغة، وهلم معي ندرس الحديث وأنه ينطبق على أي من المعنيين.

نلاحظ أنه تعدى إلى مفهوم واحد، ولم يقترن بالباء، فهو آية أن المراد هو المعنى الثاني، وهو تسطيح القبر في مقابل تسنيمه، وبسطه في مقابل اعوجاجه لا مساواته مع الأرض، وإلا كان عليه (عليه السلام) أن يقول: سويته بالأرض، ولم يكتف

(١) الشعراء: ٩٨.

(٢) النساء: ٤٢.

(٣) الأعلى: ٢.

(٤) القيامة: ٤.

(٥) الحجر: ٢٩.

بقوله سويته.
أضف إلى ذلك أن ما ذكرناه هو الذي فهمه شراح الحديث وهو دليل على أن
التسطيح سنة والتسنيم بدعة وأمر علي (عليه السلام) أن تكافح هذه البدعة ويسطح كل
قبر

مسنم، وإليك ذكر نصوصهم:

قال القرطبي في تفسير الحديث: قال علماءنا: ظاهر حديث أبي الهياج منع
تسنيم القبور ورفعها وأن تكون واطئة (١).

أقول: إن دلالة الحديث على منع تسنيم القبور ظاهر، وأما دلالتها على عدم
ارتفاعها كما هو ظاهر قوله: "ومنع رفعها" فغير ظاهر، بل مردود باتفاق أئمة الفقه
على استحباب رفعها قدر شبر (٢).

٢ - قال ابن حجر العسقلاني في شرحه على البخاري ما هذا نصه:

مسنما بضم الميم وتشديد النون المفتوحة أي: مرتفعا، زاد أبو نعيم في
مستخرجه: وقبر أبي بكر وعمر كذلك، واستدل به على أن المستحب تسنيم
القبور، وهو قول أبي حنيفة ومالك وأحمد والمزني وكثير من الشافعية.

وقال أكثر الشافعية ونص عليه الشافعي: التسطیح أفضل من التسنيم،
لأنه (صلى الله عليه وآله) سطح قبر إبراهيم، وفعله حجة لا فعل غيره، وقول سفيان
التمار: رأى قبر

النبي مسنما في زمان معاوية، لا حجة فيه، كما قال البيهقي، لاحتمال أن قبره (صلى
الله عليه وآله)

وقبري صاحبيه لم تكن في الأزمنة الماضية مسنمة - إلى أن قال: - ولا يخالف ذلك
قول علي (عليه السلام): أمرني رسول الله أن لا أدع قبرا مشرفا إلا سويته، لأنه لم يرد
تسويته

بالأرض، وإنما أراد تسطيحه جمعا بين الأخبار، ونقله في المجموع عن الأصحاب
(٣).

(١) القرطبي، التفسير ٢: ٣٨٠ تفسير سورة الكهف.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٤٢.

(٣) إرشاد الساري ٢: ٤٦٨.

٣ - وقال النووي في شرح صحيح مسلم: إن السنة أن القبر لا يرفع عن الأرض رفعا كثيرا، ولا يسنم بل يرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه، ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء أن الأفضل عندهم تسنيمها، وهو مذهب مالك (١).

ويؤيد ذلك أن صاحب الصحيح (مسلم) عنون الباب ب " باب تسوية القبور " ثم روى بسنده إلى تمامه، قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم، فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوى، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يأمر

بتسويتها، ثم أورد بعده في نفس الباب حديث أبي الهياج المتقدم (٢). وفي الختام نذكر أمورا:

١ - القول بوجود مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتفقت عليه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وكلهم متفقون على أنه يندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر (٣).

ولو أخذنا بالتفسير الذي يرومه الوهابي من حديث أبي الهياج من مساواة القبر بالأرض يجب أن يكون القبر لاطئا مساويا معه.

٢ - لو افترضنا صحة حديث أبي الهياج سندا ودلالة، فغاية ما يدل عليه هو تخريب القبر ومساواته بالأرض، ولا يدل على هدم البناء الواقع عليه، فتخريب القباب المشيدة التي هي مظاهر الود لأصحابها استنادا إلى هذا الحديث عجيب جدا.

٣ - إن الصحابة دفنوا النبي الأكرم في بيته من أول يوم، وقد وصى الخليفتان

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ٧: ٣٦ ط الثالثة، دار إحياء التراث العربي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٤٢.

بأن يدفنا تحت البناء جنب النبي الأكرم تبركا بالقبر وصاحبه، فلو كان البناء على القبور أمرا محرما ومن مظاهر الشرك، فلماذا وارت الصحابة جثمانه الطاهر (صلى الله عليه وآله) تحت

البناء؟ ولماذا أوصى الخليفتان بالدفن تحته؟

ولما واجهت الوهابية عمل الصحابة في مواراة النبي قامت بالتفريق وقالت: إن الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبي تحت البناء ولم يبنوا على قبره شيئا (١).

ونترك هذا الجواب بلا تعليق، إذ هو في غاية السقوط، إذ أي فرق بين الأمرين؟ فإن البناء على القبر مدعاة للإقبال إليه والتضرع إليه، ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة... (٢).

فإذا كان البناء على وجه الإطلاق ذريعة للشرك وتوجهها إلى المخلوق، فلماذا نرخص في بعض صورته ونحرم بعضها الآخر؟ وما هذا إلا لأن الوهابية وإن كانوا ينسبون أنفسهم إلى السلفية، إلا أن السلفية بعيدون عنهم بعد المشركين. إلى هنا تمت دراسة حديث أبي الهياج، ولندرس حديث جابر الذي هو المستمسك الآخر لمدمري آثار الرسالة.

الثانية: حديث جابر

إن الوهابيين يستدلون بحديث جابر على حرمة البناء على القبور، وقد ورد بنصوص مختلفة، ونحن نذكر نصا واحدا منها: روى مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا حفص بن

(١) عقيل بن الهادي، رياض الجنة، ط الكويت.

(٢) محاسن التأويل ٧: ٣٠.

غياث، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن

يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه (١).

وحديث جابر هذا لا يحتج به، لكونه غير صحيح سندا وضعيفا دلالة.

أما الأول: فلأن جميع أسانيده مشتملة على رجلين هما في غاية الضعف:

١ - ابن جريج: وهو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

٢ - أبو الزبير: وهو محمد بن مسلم الأسدي.

أما الأول: فإليك كلمات أئمة الرجال في حقه:

سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جريج قال: فقال: ضعيف، فقيل له: إنه

يقول: أخبرني؟ قال: لا شيء.. كله ضعيف، وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن

جريج: قال فلان وقال فلان جاء بمناكير.

وقال مالك بن أنس: كان ابن جريج حاطب ليل.

وقال الدارقطني: يجتنب تدليس ابن جريج، فإنه قبيح التدليس، لا يدلس إلا

فيما سمعه من مجروح.

وقال ابن حبان: كان ابن جريج يدلس في الحديث (٢).

وأما الثاني: فإليك أقوال علماء الرجال فيه:

فعن إمام الحنابلة عن أيوب أنه كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية.

وعن شعبة: لم يكن في الدنيا أحب إلي من رجل يقدم فأسأله عن أبي الزبير،

(١) لاحظ للوقوف على متونها المختلفة وأسانيدها: صحيح مسلم، كتاب الجنائز ٣: ٦٢، وسنن الترمذي ٢: ٢٠٨ ط المكتبة السلفية، صحيح ابن ماجه ١: ٤٧٣ كتاب الجنائز، صحيح النسائي ٤: ٨٧ - ٨٨

سنن أبي داود ٣: ٢١٦ باب البناء على القبر، مسند أحمد ٣: ٢٩٥ و ٣٣٢، ورواه أيضا مرسلا عن جابر: ص ٣٩٩.

(٢) تهذيب التهذيب ٦: ٢ - ٤ و ٥ - ٦ ط دار المعارف العثمانية.

فقدت مكة فسمعت منه، فبينما أنا جالس عنده إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة فرد عليه، فافتري عليه، فقلت: يا أبا الزبير تفتري على رجل مسلم؟ قال: إنه أغضبني، قلت: ومن يغضبك تفتري عليه؟ لا رويت عنك شيئاً. وعن ورقاء قال: قلت لشعبة: ما لك تركت حديث أبي الزبير؟ قال: رأيتَه يزن ويسترجع في الميزان.

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن أبي الزبير، فقال: يكتب ولا يحتج به، قال: وسألت أبا زرعة عن أبي الزبير، فقال: يروي عنه الناس، قلت: يحتج بحديثه؟ قال: إنما يحتج بحديث الثقات (١).

بالله عليك، أيصح الاستدلال بهذا الحديث؟ أفهل يصح هدم آثار النبوة والرسالة والصحابة بهذه الرواية؟

على أن بعض الأسانيد مشتمل على عبد الرحمن بن أسود المتهم بالكذب والوضع.

هذا كله ما يتعلق بالسند.

وأما الثاني: أي المتن، ففيه ملاحظتان:

الأولى: أن الحديث روي بصور ست، مع أن النبي نطق بصورة واحدة، ولو رجعت إلى متونه المبعثرة في المصادر التي أوعزنا إليها ترى فيها الاضطراب العجيب، وإليك صورها:

- ١ - نهى رسول الله عن تجصيص القبر والاعتماد عليه.
- ٢ - نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الكتابة على القبر.
- ٣ - نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن تجصيص القبر، والكتابة والبناء عليه، والمشي عليه.

(١) تهذيب التهذيب، ترجمة أبي الزبير ٩: ٤٤٢ ط حيدرآباد - دكن عام ١٣٢٦، ولاحظ الطبقات الكبرى ٥: ٤٨١.

٤ - نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الجلوس على القبر، وتخصيصه، والبناء والكتابة عليه.

٥ - نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الجلوس على القبر وتخصيصه والبناء عليه.

٦ - نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الجلوس على القبر وتخصيصه والبناء عليه،

والزيارة والكتابة عليه (١).

مضافا إلى اختلافات أخرى في أداء مقصود واحد، فيعبر عنه تارة بالاعتماد، وأخرى بالوطء، وثالثة بالقعود.

ومن المعلوم أن الاعتماد غير الوطء، وهما غير القعود، فمع هذا الاضطراب والاختلاف في المضمون لا يمكن لأي فقيه أن يعتمد عليه؟! الثانية: أن الحديث على فرض صحته لا يثبت سوى ورود النهي من النبي،

ولكن النهي منه تحريمي ومنه تنزيهي. وبعبارة أخرى: نهى تحريم، ونهى كراهة. وقد استعمل النهي في كلمات الرسول في القسم الثاني كثيرا، ولأجل ذلك حمله الفقهاء على الكراهة، فترى الترمذي يذكر هذا الحديث في صحيحه تحت عنوان كراهية تخصيص القبور، والسندي شارح صحيح ابن ماجة ينقل عن الحاكم النيسابوري أنه لم يعمل بهذا النهي (بالمضمون التحريمي) أحد من المسلمين، بدليل أن سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور.

وأما الكراهة فربما تكون مرتفعة بالنسبة إلى المصالح العظيمة المترتبة عليه، كما إذا صار البناء على القبر سببا لحفظ الآثار الإسلامية، وإظهار المودة لصاحب القبر الذي فرض الله مودته على الناس (٢)، أو يكون لاستتلال الزائر وتمكنه من تلاوة القرآن وإهداء ثوابه إلى صاحب القبر، إلى غير ذلك من الأمور التي يتمكن

(١) لاحظ في الوقوف على المتون المختلفة للحديث المصادر التي أوعزنا إليها.
(٢) قال سبحانه: * (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) * (الشورى: ٢٣).

الإنسان منها تحت الظل لا تحت الشمس ولا في برد الليل، فالنهي التنزيهي أشبه بالمقتضيات التي ترتفع بأقوى منها.

الثالثة: أحاديث ثلاثة في الميزان

فقد ورد في ذلك المجال أحاديث آخر نذكرها بسندها ومنتها:
روى ابن ماجة في صحيحه ما يلي:

١ - حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي، حدثنا وهب، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مخيمرة، عن أبي سعيد: أن النبي نهى أن يبنى على القبر (١).

ويذكر ابن حنبل حديثا آخر بسندين هما:

٢ - حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن ناعم مولى أم سلمة، عن أم سلمة قالت: نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يبنى على القبر أو يجصص.

٣ - علي بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن لهيعة، حدثني بريد بن أبي حبيب، عن ناعم مولى أم سلمة: أن النبي نهى أن يجصص قبر أو يبنى عليه أو يجلس عليه (٢).

فسند الحديث الأول يشمل علي (وهب)، وهو مردد بين سبعة عشر رجلا، وفيهم الوضاعون والكذابون (٣).

والحديث الثاني والثالث لا يحتج بهما، لاشتمالهما على "عبد الله بن لهيعة" الذي

(١) صحيح ابن ماجة ١: ٤٧٤.

(٢) مسند أحمد ٦: ٢٩٩.

(٣) ميزان الاعتدال ٣: ٣٥٠ - ٣٥٥.

يقول فيه ابن معين: ضعيف لا يحتج به، ونقل الحميدي عن يحيى بن سعيد: أنه كان لا يراه شيئاً (١).

هذه حال الأحاديث التي صارت ذريعة بيد الوهابيين لتدمير الآثار الإسلامية منذ أن استولوا على الحرمين الشريفين، حيث لا تمر سنة إلا ويدمر أثر من الآثار الإسلامية بحجة توسيع الحرم الشريف، حتى المكتبات وبيوتات بني هاشم ومدارسهم، وبيت مضيف النبي أبي أيوب الأنصاري، وفي الوقت نفسه يعكفون على حفظ آثار اليهود في خيبر وغيره، حتى بيت كعب بن الأشرف ذلك اليهودي الذي أهدر دمه رسول الله، وقتل بأمره غيلة باسم الحفاظ على الآثار التاريخية.

ثم إن القاضي ابن بليهد قد أعوزته الحجة فتمسك بكون البقيع مسبلة موقوفة، وأن البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها. سبحان الله ما أتقنها من برهنة؟ من أين علم أن البقيع كانت أرضاً حية وقفها صاحبها على دفن الأموات؟!!

ومن أراد أن يقف على حال البقيع، وأنه لم يكن فيها يوم أعدت للتدفين أي أثر من الحياة، فليرجع إلى كتاب "وفاء الوفا".

آخر ما في كنانة المستدل ذكر البخاري في صحيحه في باب كراهة اتخاذ المساجد على القبور الخبر التالي:

لما مات الحسن بن الحسن بن علي ضربت امرأته القبة على قبره سنة، ثم

(١) ميزان الاعتدال ٢: ٤٧٦، وتهذيب التهذيب ١: ٤٤٤.

رفعت، فسمعوا صالحا يقول:
ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا (١).
إن هذا الخبر لو صح فهو على نقيض المطلوب أدل، فهو يدل على جواز نصب
المظلة على القبر، ولو كان ذلك حراما لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن (عليهما
السلام)،

لأنه كان بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة، ولعلها نصبت تلك القبة لأجل
تلاوة القرآن في جوار زوجها وإهداء ثوابها إلى روحه.
وأما قول الصالح فهو قول غير صالح، كما أن الجواب أيضا مثله، لأنه بصدد
الشماتة، بامرأة افتقدت زوجها وهي مستحقة للتعزية والتسلية لا الشماتة، لأنها
ليست من أخلاق المسلمين، ولم تكن المرأة تأمل عودة زوجها إلى الحياة حتى
يقال: إنها يئست، بل كان نصبها للمظلة للغايات الدينية والأخلاقية، والشامت
والمجيب كانا من أعداء أهل البيت، والعجب أن البخاري ينقله ولا يعلق عليه
شيئا!

ترى هؤلاء الأغبياء يدمرون آثار الرسالة وهم يتمسكون في ذلك بركام من
الأوهام، ويسخرون من الذين أظهروا حبا لأهل بيت رسول الله الذين أذهب الله
عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وفرض مودتهم وولاءهم وقال: {قل لا أسألكم
عليه أجرا إلا المودة في القربى} (٢).
إلى هنا تبين أنه ليس للقوم دليل، بل ولا شبهة على حرمة البناء على القبور،
وإنهم لم يدرسوا صحاحهم ومسانيدهم حسبما درسها السلف الصالح.

(١) صحيح البخاري ٢: ١١١ كتاب الجنائز، السنن للنسائي ٢: ١٧١ كتاب الجنائز.
(٢) الشورى: ٢٣.

الفصل الخامس
الحياة البرزخية

(٣٩٣)

تمهيد:

ابن تيمية وأثر منهجه في العقيدة والشريعة
في العصر الذي تحالفت فيه الوثنية والصليبية على تدمير الإسلام وتحطيم كيانه
في أراضيه، والذي ينبغي فيه للعالم المسؤول في مثل هذا الظرف الحرج، أن
يتصدى لهذه المواقف الخطيرة، ويعمد إلى تجميع القوى وتكريسها، ليكون المسلمون
صفا واحدا ويذا واحدة وقوة حامية للإسلام أمام الزحف الوثني القادم من المشرق،
المتمثل آنذاك في الهجمة المغولية الشرسة المدمرة، والزحف الصليبي القادم من
الغرب، المتمثل في الحملات النصرانية الحاقدة، على مقدسات المسلمين في فلسطين.
في مثل هذا العصر نرى من يطرح نفسه عالما دينيا عارفا بالكتاب والسنة،
يطرح على الساحة قضايا ومسائل من شأنها تعكير الصفو، وبلبلة الأذهان،
وشق الصفوف، وبالتالي تضعيف القوة الإسلامية التي قوامها الوحدة.
أفيمكن والحال هذه وصف مثل هذا الشخص بأنه عالم عارف أو شيخ إسلام
أحيا السنة وأمات البدعة؟!
لقد كانت النصارى بالمرصاد للمسلمين وكان من أمانتهم الاستيلاء على
القدس الشريف، وانتزاعه من أيدي المسلمين بحجة كونه مولد المسيح، وقبله

النصارى، ولهذا شنوا الغارة تلو الغارة، والحملة تلو الحملة على بلاد المسلمين من أواخر القرن الخامس (سنة ٤٩٠ هـ) إلى أواسط القرن السابع، وكان للحروب الصليبية هذه مراحل ثمان وكان انتصر المسيحيون في بعضها وهزمت قواتهم في البعض الآخر.

وقد تحمل المسلمون جراء هذه الحملات الكبرى خسائر كبرى، لا يستطيع البنان واللسان عدّها وإحصاءها، ولا تصويرها، وبيانها.

وفيما كان الجرح نازفاً من جهة الغرب، تعرضت البلاد الإسلامية من ناحية الشرق في عام ٦١٦ هـ لحملة شعواء وثنية الجذور لاقتلاع الإسلام من أساسه والقضاء على أصوله وفروعه، وإبادة حضارته ومدنيته وامتدت إلى أن سقطت الخلافة العباسية بأيدي أولئك الوثنيين عام ٦٥٦ هـ، وكانت الخسائر في النفوس والأرواح كبيرة قاربت المليون، بل أكثر.

وبقي التدمير والحرب سائدين في البلاد إلى أواخر هذا القرن، بل امتدا إلى أواخر القرن الثامن.

ثم وقعت في الشمال الغربي من البلاد الإسلامية أعني الأندلس كارثة أخرى، هي إبادة المسلمين وتصفيتهم بقتلهم أو بترحيلهم عن بلادهم وأوطانهم بأعداد كبيرة وهائلة.

فإذا نظرنا إلى الجدول التاريخي نرى أن هذه القرون الأربعة تعد من شر القرون على العالم الإسلامي حيث فيها:

- ١ - ابتدأت الحروب الصليبية من عام ٤٩٠ هـ واستمرت إلى عام ٦٩٠ هـ (١).
- ٢ - ابتدأت الحروب التتيرية (المغولية) من عام ٦١٦ هـ وانتهت عام ٨٠٧ هـ (٢).

(١) الدولة العباسية: ٢ / ٣٧٤ - ٣٩٨.

(٢) الدولة العباسية: ٢ / ٣٧٤ - ٣٩٨.

٣ - أبيد المسلمون في أوطانهم بإسبانيا والأندلس، أو رحلوا من عام ٦٠٩ هـ إلى عام ٨٩٨ هـ.

ففي هذه الظروف المأساوية المتسمة بالقتل والتنكيل والتشريد، والهدم، والمقرونة بإحراق المكتبات وتدمير الثقافة الإسلامية، نرى أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية يطرح مسائل باسم التوحيد والشرك ويقسم المسلمين إلى قسمين: موحد ومشرك.

فالأول هو من يتبع خطواته وأفكاره، والثاني هم المخالفون، وهم الأكثرية الساحقة من المسلمين.

فهل طرحت هذه المسائل المفارقة لصفوف المسلمين بدوافع إيمانية، وبحجة الدفاع عن حوزة الدين والإيمان. أو أنه كان وراء الأكمة ما وراءها، وأنه كانت هناك وراء الكواليس أمور أخرى لا يعلمها إلا الله، أو أن طارح هذه الأفكار كان إنسانا ساذجا ومغفلا غير واقف على مصالح الإسلام والمسلمين ولا عارف بما يصلحهم في ذلك الظرف العصيب وما يفسدهم. وبكلمة قصيرة: ما كان يعرف الداء ولا الدواء.

ونحن لا نقضي بشئ عليه فالتاريخ خير قاض، والعلم عند الله تبارك وتعالى. وعلى أي نحو فسر موقف الشخص المذكور، فقد أنتج هذا الموقف ثلاث نتائج سيئة، لم تزل آثارها الخطيرة باقية إلى الآن:

١ - الحط من شأن الأنبياء والأولياء والصالحين والشهداء والصديقين، وإنزالهم عن مقاماتهم المعنوية العالية التي أعطاهم الله إياها بجهادهم، وإخلاصهم، ووفائهم للعقيدة ودفاعهم عن الشريعة.

٢ - تعريض الآثار الإسلامية للمحو والإبادة والطمس والهدم، على حد لا يبقى من آثار النبي والمسلمين الأوائل شئ يدل على وجودهم، وعلى تفانيهم

وتضحياتهم، لو أتيح لأتباع هذه الفكرة، وأنصار هذا الرجل أن ينفذوا كل مآربهم، ومراميمهم.

وبالتالي لو وفقوا لذلك، لتحول الإسلام في رؤية الأجيال المستقبلية إلى صورة أسطورية لا واقع لها ولا أساس، إلا بين الكتب والأوراق، أو في عالم الأذهان والأفكار.

٣ - تفرغ الدين من محتواه الداخلي، الغني، حيث قاموا بتفسير القرآن بحرفيته، فأثبتوا لله سبحانه الجسمانية والجهة، والمكان، وسائر ما تتمتع به المخلوقات من الأوصاف والحالات، وما لها من الأعضاء والجوارح. وهذا واضح لمن طالع رسائل الرجل المذكور، وكتابه.

هذه أبرز النتائج التي ترتبت على هذا المنهج الفكري الذي قدمه ابن تيمية، ولكنه لم يوفق لتأصيل وتعميم ما كان ينويه ويهدف إليه ويسعى إلى نشره وحمل الناس عليه، وذلك لأنه:

أولاً: واجه مخالفة العلماء الكبار من جميع المذاهب في البلاد المنعمة بالعلم والإيمان، والحب للرسول وآله في مصر والشام وغيرهما، ولأجل ذلك بقيت فكرته بذرة في ثنايا الكتب تنتظر أرضية مناسبة لنموها، وتجدها.

ثانياً: واجه ما كان المسلمون مفطورين عليه من حب للإسلام، والرسالة المحمدية الشريفة، وتعلق فطري سليم بالرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) وآثاره، وما كان

مركزاً في أذهانهم منذ قرون من مشروعية لمظاهر التكريم والتبجيل للأنبياء والأولياء والصالحين.

وكانت الظروف على هذه الحال، ولم تكن مناسبة لنمو وتوسع هذه البذرة إلى أن انتقلت إلى أراض قاحلة من العلم والمعرفة من بقاع نجد، فسقيت البذرة على يد محمد بن عبد الوهاب النجدي (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) فأخذت البذرة تنمو بين قوم أميين لا يعرفون المعارف الصحيحة، بل تغلب عليهم البداوة والجاهلية، وقد

استغل محمد بن عبد الوهاب هذا النمط من الناس لتعميق هذه الفكرة، ودعمها وإشاعتها، ومن سوء الحظ أن أمير المنطقة محمد بن سعود (حاكم الدرعية)، من إمارات نجد، أيده في فكرته واتفقا على المناصب والدعم المتقابل، وبذلك عادت الفكرة إلى الساحة باسم الوهابية، وأخذت تنمو شيئاً فشيئاً بين أعراب نجد وما حولها، وقد وقعت مناوشات وحروب دامية بين هذه الفرقة والخلافة الإسلامية العثمانية مرات، بفضل القوات المصرية التابعة للخلافة آنذاك.

وفي خلال الحرب العالمية الأولى انهارت الخلافة الإسلامية وتبدلت إلى ملكيات، وإمارات يحميها الاستعمار البريطاني والفرنسي، فاستولى أمير الوهابية عبد العزيز بن سعود على مكة والمدينة عام ١٣٤٤ هـ، وبذلك سيطروا على أقوى مركز من مراكز التبليغ والدعوة، وصار لهم نشاط نسبي في تبليغ الفكرة ونشرها، وكبح الألسن وإجامها والسيطرة على المخالفين والمعارضين.

ومع ذلك لم يكن النجاح حليفهم إلى أن اكتشفت في المنطقة الشرقية (الظهران) أكبر معادن البترول، فصار أمير الوهابية يملك أكبر ثروة في العالم سخرها لصالح قبيلته، ونشر الفكرة التي نشأ عليها هو وآبؤه، ولولا هذه الظروف الاتفاقية لا تحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم ركزا.

إن التاريخ يعيد نفسه، ففي الوقت الذي تشن القوى الكافرة من الصهاينة والصلبيين، الغارة تلو الغارة على الأطفال والشباب لمسخ هويتهم الإسلامية بشتى الوسائل، حتى أن الإنجيل قد ترجم في عقر دار المسلمين بمختلف اللغات الدارجة في البلاد الإسلامية.

ففي هذا الوقت العصيب الذي تدمع عين الإسلام دما، نرى الوهابيين مستمرين على تهديم الآثار الإسلامية الباقية، بمعاولهم الهدامة تحت غطاء توسيع المسجدين، وموزعين ملايين الكتب والأشرطة، كلها مكرسة للهجمة الشرسة

على المسلمين قاطبة والشيعة الإمامية خاصة، ولا تتبنى من العلم الصحيح الناجع لداء المسلمين اليوم، شيئاً، سوى أن البناء على القبور وتقييل الضريح والتوسل بالأولياء وطلب الشفاعة منهم شرك وبدعة.

فيا لله وللمسلمين من هذا التفريق والتبديد، والإسراف والتبذير!! أما آن لهؤلاء المغفلين أن ينتبهوا من غفلتهم، ويسعوا في سبيل وحدة المسلمين، مكان تفريقهم وإذلالهم، إذا كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمين؟

وعلى كل تقدير، فنحن أمام هذه الكارثة التي هزت وحدة المسلمين وجعلتهم فريسة للمستعمرين ووسيلة للتقاتل والتخاصم والتنازع والتناوش، مكان بذل الجهد وتكريس التعاون لأهم الأمور وهو حفظ استقلالهم والتخلص من مخالب المستعمرين وتنشيط اقتصادهم وتجديد سيادتهم على العالم. وهنا نحن نغض الطرف عن جميع ما ذكرنا وندعو علماء الوهابية في الحجاز والرياض أن يقيموا مؤتمراً إسلامياً يحضره علماء من كافة المذاهب الإسلامية، لدراسة مسائل عديدة - مما يتميز بها الوهابيون عن غيرهم - في جو هادئ تسيطر عليه الروح الموضوعية والعلمية، والبعيدة عن السيطرة السياسية حتى يتبين الحق عن الباطل، وتتم الحجة على الجاحد، ولعل في هذا المؤتمر نجاح الإسلام والمسلمين وتوحيد الكلمة، كما أن لهم كلمة التوحيد.

وبما أن الحياة البرزخية بعد الانتقال من الدنيا، هي الأساس لنقد دعاياتهم وعقائدهم خصصنا هذا البحث لتحقيقها والبرهنة عليها بالكتاب والسنة والعقل الصريح، في ضمن مباحث.

المبحث الأول

حقيقة الإنسان، روحه ونفسه

لم يزل الإنسان عبر القرون يبحث عن الحياة وحدها ومنشئها ومنتهاها بحثا حثيثا، كي يقف على معالمها وآثارها وكيفية حدوثها بين الموجودات الحية. وقد أدى هذا البحث والولع الشديدان إلى نشوء قسم مختص يعرف بـ "عالم الأحياء"، وقد كرس لفيف من العلماء جل أعمارهم في سبيل ذلك وخرجوا بنتائج باهرة معروفة.

والغاية القصوى من دراسة الظاهرة الحياتية، هي الوقوف على واقع الإنسان، وهل هو عبارة عن هيكل مادي متكون من عروق وأعصاب وعظام وغيرها من المكونات المادية فحسب، أم أن هناك وراء هذا المظهر المادي جوهر آخر يكون حقيقة الإنسان ويشيد واقعه والإنسان به يكون إنسانا؟ وبعبارة أخرى: أن الباحث يحاول أن يقف على ذاته وواقعه، وأنه هل هو موجود آلي مركب من أدوات مادية مختلفة تتفاعل أجزاءه بعضها ببعض، أو أن وراء هذا الموجود الآلي حقيقة قدسية هي واقع الإنسان وهي المدبرة لما تراه وتظنه إنسانا؟

فالعلماء في هذا المجال على رأيين:

الأول: الإنسان موجود آلي مركب من عرق وعصب ولحم وعظم، وما الشعور إلا نتيجة تفاعل هذه الأجزاء بعضها ببعض، وليس وراء هذا التركيب المادي أي وجود آخر باسم الروح والنفس، وأن الإنسان يفنى بموته، وبه تنتهي شخصيته و " ليس وراء عبادان قرية " وقد انطلت هذه النظرية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على كثير من الباحثين في الغرب، وبذلك قاموا بنفي العوالم الغيبية وراء المادة، وحسبوا أن الوجود يساوي المادة وهي أيضا تساويه، وبذلك شيدوا المذهب المادي في ذينك القرنين.

الثاني: أن واقع الإنسان الذي به يعد إنسانا، هو نفسه وروحه، وليس جسمه إلا أداة بيد روحه وجهازا يعمل به في هذا العالم المادي، وهذا لا يعني أنه مركب من جسم وروح، بل أن الواقع فوق ذلك، فالإنسان هو الروح، والجسم كسوة عليه، ونعم ما قيل:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته * أتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها * فأنت بالروح لا بالجسم إنسان
ومن حسن الحظ أنه في الوقت الذي كان المادي يرفع عقيرته وينادي بأنه
ليس وراء المادة شيء أثبتت البحوث العلمية بطلان هذه النظرية، فقام الروحيون
بنشر رسائل عديدة وكتب كثيرة تشتمل على تجاربهم وأدلتهم في هذا المضمار،
وبذلك دمروا ما بني من تفكيرات مادية بمعاولهم العلمية.
وبما أن بحثنا في هذه الفصل يعتمد على الكتاب والسنة فنترك أدلتهم للقارئ

الكريم للبحث عنها في مظانها، ولكن قبل أن ندرس قضاء الكتاب والسنة في المقام نأتي ببعض الأدلة العقلية التي تتجاوب وشعور قرائنا فإنها دلائل واضحة - على أن وراء الجسم واقعا آخر باسم الروح - يخضع أمامها كل إنسان واع وإن لم يقرأ كتابا فلسفيا، ولم يقرع باب العلوم العقلية، لأن ما يمر عليه كلها أمور وجدانية يحس بها كل إنسان إذا تجرد عن رأي مسبق.

الشخصية الإنسانية المعبر عنها بال " أنا " :
لم يزل كل واحد منا ينسب جميع أفعاله إلى موجود نعبر عنه بال " أنا " ويقول:
" أنا فعلت " " أنا أكلت " و " أنا ضربت " وربما ينسبها إلى الضمائر المتصلة القائمة
مكان " أنا " فيقول: " قرأت " ، " كتبت " ، " أردت " و " أجبته " ، فإذا وقع السؤال
حول تعيين الموضوع الذي تنسب إليه هذه الأفعال، فما هو إذن؟ هل هو هذا الجسم
المادي، أو شيء آخر وراء ذلك؟ فلو كان الموضوع هو الجسم المادي منه، لا
يكون دليلاً على وجود جوهر آخر مجرد عن المادة وآثارها، ولو كان الموضوع
أمراً غيره، يثبت به موضوع وراء المادة، مقترن بجسمه وحياته المادية.
ثم إننا ننسب أعضاءنا إلى شيء آخر وراء الجسم المادي هذا ونقول: " رأسي " و
" قلبي " و " بطني " و " قدمي " فهذه أعضاء رئيسية للجسم المادي " الإنسان " ،
ومع ذلك فإننا ننسبها إلى شيء آخر وراء هذا الجسم المادي.
وربما نتجاوز إلى أكثر من هذا فننسب نفس الجسم بأكمله إلى شيء آخر،
فنقول: " بدني " ، فإذا ما هذا المضاف إليه في جميع هذه الانتسابات، من انتساب
الأفعال والأعضاء والبدن بأكمله؟
وبما أن كل قضية تتركب من موضوع ومحمول، فبداية العقل تحكم بأن لهذه
المحمولات موضوعاً وإن لم يكن مرئياً إلا أننا ندركه من خلال هذه المحمولات.
وبعبارة واضحة: أن الأفعال البشرية رغم صدورها من أعضاء مختلفة
كالإبصار بالعين، والرفع باليد، والمشي بالرجل، والسمع بالأذن، فالإنسان
ينسبها جميعاً إلى مصدر واحد، فيقول:
" أنا شاهدت " ، " أنا مشيت " و " أنا سمعت " كما ينسب كل عضو من جسمه

إلى مصدر كذلك، فإذا تتطلب هذه المحمولات موضوعاً واحداً لنفسها، حتى لا تكون القضية مجرد انتسابات بلا موضوع، وعندئذ يكون هذا المصدر الواحد هو الشخصية الواقعية للإنسان التي نعبر عنها بروحه ونفسه.

فالنتيجة: أن الشخصية الإنسانية تكمن وراء جسمه وصورته الظاهرية. ثبات الشخصية الإنسانية في دوامة التغيرات الجسدية:

إن كل واحد منا يحس بأنه باق في دوامة التغيرات والتحويلات التي تطرأ على جسمه، فمع أنه تمر عليه أحوال كثيرة وتبدلات جوهرية عبر مراحل الطفولة، والصبي، والشباب، والشيخوخة، إلا أنه يجد أن شيئاً واحداً ينسب إليه جميع هذه الصفات والحالات وهو باق خلال هذه التغيرات، غير متغير. فيقول: أنا الذي كنت طفلاً، ثم يافعاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، فيدرك أن هناك حقيقة باقية ثابتة رغم تغيير كل هذه الأحوال والأوضاع وتصرم الأزمنة وانقضاء الأوقات، فقد تغير كل شيء خلال سبعين سنة ولكن هناك أمر باق لم يتغير ولم يتبدل، وهو الذي يحمل تلك الصفات والأحوال، فالمتغير غير الثابت، والتغير آية المادية، والثبات آية التجرد عن أحكام المادة.

بل نرى أنه ينسب إلى نفسه الفعل الذي قام به قبل خمسين سنة ويقول: " أنا الذي كتبت هذا الخط يوم كنت طفلاً " وهذا يعرب عن إدراكه بوجوده أنه هو الذي كتب ذلك الخط سابقاً، فلو لم يكن هناك شيء ثابت إلى زمان نطقه بهذا الكلام لزم كذب القضية وعدم صحتها، وذلك لأنه لو كان الإنسان خلاصة الأجزاء المادية الظاهرة فالمفروض أنها زالت وحدثت بعدها شخصيات جسمانية متعددة، فأين الإنسان أيام صباه، منه أيام شيخوخته، وقد تحولت وتبدلت عظامه وعروقه وأعصابه في دوامة التغيرات وتحلل منه كل شيء وتخلفت عنه

أشياء أخرى، مثلها شكلاً وغيرها حقيقة.
فعملية التغيير في جسمه مستمرة، ولا زالت الخلايا تتلف وتستعاض بأخر،
ولكن الإنسان يرى نفسه ثابتاً في مهبط تلك التحولات، فكأن هناك أمراً ثابتاً
طيلة سبعين عاماً يحمل تلك التحولات، فهو يشعر في جميع مراحل حياته أنه هو
الإنسان السابق الذي وجد منذ عشرات السنين.

نفترض أن إنساناً جنى وله من العمر عشرون عاماً، ولم يقع في قبضة
السلطات إلى أن أُلقت القبض عليه وله من العمر ستون عاماً، فعند ذلك يقف في
قفص الاتهام ليحاكم على جرمه، فإذا به محكوم بالإعدام على ما جنت يده بقتله
أناساً أبرياء، فلا القاضي ولا الحاضرون في جلسة المحكمة يرون الحكم الصادر
بحقه جائراً، بل يراه الجميع أنه وفق العدالة.

ولو كان الإنسان عبارة عن جسم مادي، فقد تغيرت خلاياه مرات عديدة
طيلة تلك الأعوام، لكن الحاضرين والقاضي وكل سامع، يرى أنه نفس ذلك
الإنسان الجاني، فما هذا إلا لأن هناك حقيقة ثابتة في دوامة المتغيرات، لم يطرأ
عليها أي تغيير، بل بقيت محفوظة مع كل هذه التبدلات، وإذا كان التغيير من
صفات المادة، والثبات والدوام من صفات الوجود غير المادي، نستكشف من
ذلك أن واقع الإنسان غير مادي وثابت في جميع الحالات، وهذا ما نعبر عنه
بالروح المجردة، أو النفس المجردة.

ولا يخفى أن هذا البرهان غير البرهان السابق، فمنطلق الأول هو وجود
الموضوع لجميع المحمولات، ومنطلق البرهان الثاني هو ثبات الموضوع في دوامة
التحولات والتغيرات الطارئة على البدن.

وفي النهاية نقول: قد لخص الرازي هذا البرهان في تفسيره وقال: إن أجزاء
هذا الهيكل أبداً في النمو والذبول، والزيادة والنقصان، والاستكمال والذوبان، ولا

شك أن الإنسان من حيث هو هو أمر باق من أول عمره، والباقي غير ما هو غير باق، والمشار إليه عند كل أحد بقوله " أنا " وجب أن يكون مغايرا لهذا الهيكل (١). علم الإنسان بنفسه مع غفلته عن بدنه:

ترى الإنسان يغفل في ظروف خاصة عن كل شيء حتى عن بدنه وأعضائه، لكنه لا يغفل عن نفسه، وهذا برهان تجريبي يمكن لكل منا القيام به، وبذلك يصح القول بأن للإنسان وراء جسمه المادي حقيقة أخرى، حيث إنه يغفل عن الأولى ولا يغفل عن الثانية، وبتعبير علمي: المغفول، غير المغفول عنه، وإليك توضيح ذلك: إن إدراك هذه الحقيقة (يغفل عن كل شيء حتى جسمه ولا يغفل عن نفسه) يتوقف على ظروف خاصة بالشكل التالي:

- ١ - أن يكون في جو لا يشغله فيه شاغل ولا يلفت نظره لافت.
 - ٢ - أن يتصور أنه وجد في تلك اللحظة بالذات وأنه كان قبل ذلك عدما، وما هذا إلا ليقطع صلته بماضيه وخواطره قطعاً كاملاً.
 - ٣ - أن يكون صحيح العقل سليم الإدراك، في تلك اللحظة.
 - ٤ - أن لا يكون مريضاً لا يلفت المرض انتباهه إليه.
 - ٥ - أن يستلقي على قفاه ويفرج بين أعضائه وأصابع يديه ورجليه حتى لا تتلامس فتجلب انتباهه إليها.
 - ٦ - أن يكون في هواء طلق معتدل لا حار ولا بارد ويكون كأنه معلق في الفضاء حتى لا يشغله وضع المناخ، أو يلفته المكان الذي يستند إليه.
- ففي هذه الحالة التي يقطع الإنسان كل صلاته بالعالم الخارجي عن نفسه تماماً

(١) مفاتيح الغيب ٤: ١٤٧.

ويتجاهل حتى أعضائه الداخلية والخارجية ويجعل نفسه في فراغ من كل شيء وعندئذ يستشعر بذاته، أي سيدرك شيئاً غير جسمه وأعضائه وأفكاره وبيئته التي أحاطت به، وتلك هي " الذات الإنسانية " أي الروح أو النفس الإنسانية التي لا يمكن أن تفسر بشيء من الأعضاء والحواس والقوى. وهذه البيئونة أظهر دليل على أن للإنسان وراء جسمه وأعضائه المغفول عنها في بعض الظروف، حقيقة واقعية غير مغفول عنها أبداً، وأن الإنسان ليس هو جسمه وأعضاؤه وخلاياه.

وقد لخص الرازي هذا البرهان وقال: إني أكون عالماً بأنني " أنا " حال، أكون غافلاً عن جميع أجزائي وأبعاضي، والمعلوم، غير ما هو غير معلوم فالذي أشير إليه بقولي مغاير لهذه الأعضاء والأبعاض (١).

إلى هنا اكتفينا بالبراهين الواضحة التي يسهل التمعن فيها لكل إنسان واع وإن لم يدخل مدرسة كلامية أو فلسفية، وبذلك استغنينا عن البراهين المعقدة التي أقامها الفلاسفة على وجود الروح في كتبهم، وبما أن رسالتنا في هذه البحوث مقتصرة على الاعتماد على الكتاب والسنة، لذلك ندرس واقع الإنسان وحقيقته على ضوء دينك المصدرين ونكتفي في هذا الحقل بآيات ثلاث.

القرآن وحقيقة الشخصية الإنسانية:
إذا استعرضنا آيات القرآن الكريم نقف على أنها تدل تارة بوضوح وأخرى بالإشارة على أن واقع الإنسان وشخصيته غير جسمه المادي، ونحتج في المقام بآيات:

(١) مفاتيح الغيب ٤: ١٤٩.

الآية الأولى:

قال سبحانه: {قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إليه ترجعون} (١).

الآية ترد على ادعاء المشركين القائلين بأن الموت بطلان الشخصية وانعدامها، وأنها منوطة بجسده المادي، بأن شخصيته قائمة بشيء آخر لا يضل ولا يبطل، بل يؤخذ عن طريق ملك الموت إلى أن يحشره الله يوم القيامة. وإليك بيان الشبهة والإجابة، في ضمن تفسير آيتين:

قال سبحانه:

١ - {وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون} (٢).

٢ - {قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون}.
تدل هاتان الآيتان على "خلود الروح" بعد انحلال الجسد وتفككه وذلك بالبيان الآتي:

كان المشركون يستبعدون إمكانية عودة الإنسان بعد تفكك جسمه المادي وتبدده في التراب.

ولهذا اعترضوا على فكرة الحشر والنشر يوم القيامة، وقد عبر القرآن الكريم عن اعتراضهم بقوله:

{قالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد}.

يعني أن الموت يوجب فناء البدن، وتبعث أجزاءه، وضياعها في ذرات التراب، فكيف يمكن جمع هذه الأجزاء الضالة المتبعثرة، وإعادة تكوين الإنسان

(١) السجدة: ١١.

(٢) السجدة: ١٠.

مرة أخرى من جديد؟

فرد القرآن الكريم هذا الاستبعاد والاعتراض بجملتين هما:

١ - {بل هم بلقاء ربهم كافرون} (١).

٢ - {قل يتوفاكم ملك الموت} (٢).

فلا شك أن الجملة الأولى ليست هي الجواب على اعتراضهم حول إمكانية إعادة المعدوم من أجزاء الجسد، بل هي توبيخ لهم على إنكارهم لقاء الله وكفرهم بذلك، وإنما ترى الجواب الواقعي على ذلك في الجملة الثانية، وحاصله هو: أن ما يضل من الآدمي بسبب الموت إنما هو الجسد وهذا ليس حقيقة شخصيته، فجوهر شخصيته باق، وإن الذي يأخذه ملك الموت وينزعه من الجسد ليس إلا الجانب الأصيل الذي به تناط شخصيته وهو محفوظ عندنا.

إذن فالضال في التراب من الإنسان - بسبب الموت - هو القشر والبدن، وأما حقيقته وهي الروح الإنسانية التي بها قوام شخصيته، فلا يطالها الفناء ولا ينالها الدثور.

التوفي في الآية ليس بمعنى الإماتة، بل بمعنى الأخذ والقبض والاستيفاء، نظير قوله سبحانه: {الله يتوفى الأنفس حين موتها} (٣) وقوله تعالى: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار} (٤) ومن قولهم " وافاه الأجل " وبعبارة أخرى: لو ضل بالموت كل شيء من وجودكم لكان لاستبعادكم إمكان إعادة الإنسان وجه مقبول.

(١) السجدة: ١٠.

(٢) السجدة: ١١.

(٣) الزمر: ٤٢.

(٤) الأنعام: ٦٠.

وأما إذا بقي ما به واقعتكم وحقيقتكم وهي النفس الإنسانية والروح التي بها قوام الجسد، فلا يكون لهذا الاستبعاد مبرر، إذ تكون الإعادة حينئذ أمراً سهلاً وممكناً لوجود ما به قوام الإنسان.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية:

" إنه تعالى أمر رسوله أن يجيب عن حجتهم المبنية على الاستبعاد، بأن حقيقة الموت ليس بطلاناً لكم، وضلالاً منكم في الأرض، بل ملك الموت الموكل بكم يأخذكم تامين كاملين من أجسادكم أي ينزع أرواحكم من أبدانكم، بمعنى قطع علاقتها من الأبدان، وأرواحكم تمام حقيقتكم، فأنتم أي ما يعني بلفظة "كم": محفوظون لا يضل منكم شيء في الأرض، وإنما تضل الأبدان، وتتغير من حال إلى حال، وقد كانت في معرض التغير من أول كينونتها، ثم إنكم محفوظون حتى ترجعوا إلى ربكم بالبعث ورجوع الأرواح إلى أجسادها. وبهذا تندفع حجتهم على نفي المعاد بضرالهم سواء أقررت على نحو الاستبعاد أم قررت على أن تلاشي البدن يبطل شخصية الإنسان فينعدم، ولا معنى لإعادة المعدوم، فإن حقيقة الإنسان هي نفسه التي يحكي عنها يقول "أنا" وهي غير البدن، والبدن تابع لها في شخصيته، وهي تتلاشى بالموت ولا تنعدم، بل محفوظة في قدرة الله حتى يؤذن في رجوعها إلى ربها للحساب والجزاء فيبعث على الشريطة التي ذكر الله سبحانه " (١).

الآية الثانية:

قال سبحانه: {يا أيها النفس المطمئنة* ارجعي إلى ربك راضية مرضية* فادخلي في عبادي* وادخلي جنتي} (٢).

(١) تفسير الميزان ١٦: ٢٥٢.

(٢) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

فالآية لم تخاطب جسد الإنسان وأعضائه كما ترى، بل واقعه وحقيقته التي يعبر عنها الذكر الحكيم بالنفس، واختار من بين النفوس الكثيرة النفس المطمئنة وهي التي تسكن إلى ربها، وترضى بما رضي به لها، فترى نفسها عبدا لا يملك لنفسه شيئا من خير أو شر، أو نفع أو ضرر.

ويرى الدنيا دار مجاز وما يستقبله فيها من غنى أو فقر، أو أي نفع وضرر ابتلاء وامتحانا إلهيا، فلا يدعوها تواتر النعم عليه إلى الطغيان وإكثار الفساد، والعلو والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر.

ثم يخاطبها بخطاب آخر ويقول: {ارجعي إلى ربك راضية مرضية}، وظرف الخطابين من حين نزول الموت إلى دخول جنة الخلد، ثم يخاطبها بخطاب ثالث ورابع ويقول: {فادخلي في عبادي* وادخلي جنتي} وهما تفريعان على الخطاب الثاني الماضي أعني: {ارجعي إلى ربك...} وقوله: {في عبادي} يدل على أنها حائزة مقام العبودية وفي قوله: {جنتي} تعيين لمستقرها وفي إضافة الجنة إلى ضمير التكلم، تعريف خاص، ولا يوجد في كلامه تعالى إضافة الجنة إلى نفسه تعالى وتقدس إلا في هذه الآية (١).

والمخاطب في هذه الخطابات الأربعة، ليس جسده البارد الذي صار بالموت بمنزلة الجماد، ولا عظامه الرميمة الدفينة في طبقات الثرى، بل نفسه وروحه الباقية غير الدائرة.

ولو خص ظرف الخطاب بيوم البعث من لدن إحيائها إلى استقرارها في الجنة، لما ضر بالاستدلال وإن كان على الوجه الأول أظهر.

والحاصل: فسواء قلنا بأن ظرف الخطاب هو زمان الموت أو زمان البعث،

(١) تفسير الميزان ٢٠: ٢١٣، مجمع البيان ٥: ٤٨٩.

فالمخاطب هو نفس الإنسان لا بدنه ولا أعضاؤه فتدل على أنها واقعه والباقي كسوة عليها.

الآية الثالثة:

قال سبحانه: {فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون} (١).
وجه الدلالة: أن الحلقوم جزء من جسمه فهناك أمر آخر يبلغ الحلقوم عند الموت وليس إلا النفس التي تنتقل من دار إلى دار. ولو كانت حقيقة الإنسان هو جسده المادي، فلا معنى للبلوغ ولا للنزوع والخروج.
وبذلك يعلم أن بعض ما سنستدل به في الفصل الآتي، يدل ضمنا على ما نحن الآن بصدد بيانه، ولأجل ذلك نقتصر في المقام على الآيات الثلاث، ونحيل الاستدلال بغيرها إلى ما سيوافيك في المبحث القادم.
ما هي حقيقة النفس الإنسانية؟

إن كثيرا من القوى الطبيعية معروفة بآثارها لا بحقائقها، فالكهرباء نعرفها بآثارها، كما أن الذرة أيضا كذلك، فالعالم بالحقائق هو الله سبحانه، وليس حظ الإنسان في ذلك الباب إلا الوقوف على الآثار، فإذا كانت هي حال القوى الكامنة في الطبيعة، فالروح أولى بأن تكون كذلك، غير أن كثيرا من المتكلمين وبعض المحدثين خاضوا في هذا الباب ولم يأتوا بشئ واضح، وأقصى ما عندهم: أنها جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني، علوي، خفيف، حي، متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة

(١) الواقعة: ٨٣ - ٨٤.

عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية. وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح. قال ابن قيم الجوزية: وهذا القول هو الصواب في المسألة، وهو الذي لا يصح غيره، وكل الأقوال سواه باطلة، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة (١).

أقول: ما قاله ونقله ابن قيم، أحسن ما نقل عنهم في المقام، ولكن واقع الروح ومنزلته أرفع بكثير مما جاء في هذا الكلام، وتشبيهه بسريان الماء في الورد والدهن في الزيتون والنار في الفحم يعرب عن سطحية الدراسة في المعارف الغيبية، وعدم التفريق بين مراتب الروح، فإن مرتبة منها يشبه بما ذكر، وأما المرتبة العليا أعني المخاطب بقوله سبحانه: {يا أيتها النفس المطمئنة* ارجعي إلى ربك راضية مرضية* فادخلي في عبادي* وادخلي جنتي} (٢) فهي أرفع كرامة من أن يكون شأنها شأن الأمور المادية اللطيفة، والتفصيل موكول إلى محله.

(١) الروح: ص ١٧٨.

(٢) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

المبحث الثاني

استمرار الحياة بعد الانتقال من الدنيا

أو بقاء الروح بعد الموت

قد تعرفت في الفصل السابق على أن واقع الإنسان روحه ونفسه، وأن الجسم المادي منه ليس إلا كسوة عليه، والنفس هي اللب، والبدن قشره، وقد قربناه إلى ذهن القارئ تقريبا سهلا مستندين في ذلك على ما ورد في الكتاب العزيز مضافا إلى ما مر من قضاء العقل الصريح في هذا المضمار.

ونركز في فصلنا هذا على خلود الروح بعد الموت، وأنها باقية بإذنه سبحانه إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها وما فيها، ونقتصر في المقام - بدل الاستدلال بالبراهين العقلية - على صريح الآيات ونصوص الذكر الحكيم حتى لا يبقى لمريب ريب ولا لمشكك شك.

الآية الأولى

قال سبحانه: ﴿اللّٰهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسْكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذٰلِكَ

لآيات لقوم يتفكرون { (١).

توضيح الاستدلال يتوقف على التمعن في أمرين:

١ - المراد بالأنفس هي الأرواح المتعلقة بالأبدان لا مجموعهما، لأن المقبوض عند الموت ليس هو المجموع، بل المقبوض هو الروح، والآية تدل على أن الأنفس تغاير الأبدان حيث تفارقها وتستقل عنها وتبقى بحيالها.

٢ - أن لفظة " يتوفى " و " يمسك " و " يرسل " تدل على أن هناك جوهرًا غير البدن المادي في الكيان الإنساني، يتعلق به كل من " التوفي " و " الإمساك " و " الإرسال " وليس المراد من التوفي في الآية إلا أخذ الأنفس وقبضها، ومعناها أنه سبحانه يقبض الأنفس إليه، وقت موتها ومنامها، بيد أن من قضى عليه بالموت يمسكها إلى يوم القيامة ولا تعود إلى الدنيا، ومن لم يقض عليه به يرسلها إلى الدنيا إلى أجل مسمى، فأية دلالة أوضح من قوله أنه سبحانه يمسك الأنفس، فهل يمكن إمساك المعدوم أو أنه يتعلق بالأمر الموجود؟ وليس ذلك إلا الأنفس.

الآية الثانية

قوله سبحانه: {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا

تشعرون} (٢).

وقد جاء في أسباب نزولها، أن المشركين كانوا يقولون: إن أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله)

يقتلون أنفسهم في الحروب بغير سبب ثم يموتون فيذهبون، فأعلمهم الله أنه ليس

(١) الزمر: ٤٢.

(٢) البقرة: ١٥٤.

الأمر على ما قالوه، بل هم أحياء على الحقيقة إلى يوم القيامة (١).
وأدب التفسير الصحيح يبعثنا على أن نفسر الحياة بمعناها الحقيقي أي ما يفهمه
عموم الناس من لفظة "حي" خصوصا بقريظة الآية الثالثة، حيث أثبتت للشهداء
الرزق والفرح والاستبشار كما سيحى، فتفسير الآية بأنهم سيحيون يوم القيامة
تفسير باطل، لأن الإحياء في ذلك اليوم عام لجميع الناس ولا يختص بالشهداء، كما
أن تفسير الحياة في الآية بمعنى الهداية والطاعة قياسا لها بقوله سبحانه: {أو من
كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس} (٢) حيث جعل الضلال موتا
والهداية حياة قياسا باطل، لوجود القرينة على تفسير الحياة بالهداية والموت
بالضلال فيها دون هذه الآية.

وسيوافيك تنفيذ هذين الرأيين عن الرازي في تفسير الآية الثالثة.
ومعنى الآية {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات} أي لا تعتقدوا فيهم
الفناء والبطلان، فليسوا بأموات بمعنى البطلان، بل أحياء ولكن حواسكم لا تنال
ذلك ولا تشعر به.

وعلى ذلك فالآيتان تثبتان للشهداء حياة برزخية غير الحياة الدنيوية وغير
الأخروية، بل حياة متوسطة بين العالمين.

الآية الثالثة

قال سبحانه:

١ - {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند

(١) الواحدى، أسباب النزول: ص ٢٧. ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

- ربهم يرزقون}.
- ٢ - {فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.
- ٣ - {يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} (١). والآيات هذه صريحة - كل الصراحة - في بقاء الأرواح بعد مفارقتها الأبدان، وبعد انحلال الأجسام وتفككها كما يتضح ذلك من التمعن في المقاطع الأربعة الآتية:
- ١ - {أحياء عند ربهم}.
- ٢ - {يرزقون}.
- ٣ - {فرحين...}.
- ٤ - {يستبشرون...}.
- فالمقطع الثاني يشير إلى التنعم بالنعمة الإلهية، والثالث والرابع يشيران إلى النعم الروحية والمعنوية، وفي الآية دلالة واضحة على بقاء الشهداء بعد الموت إلى يوم القيامة.
- وقد نزلت الآية إما في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين، وإما في شهداء أحد، وكانوا سبعين رجلاً، أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعثمان بن شماس، وعبد الله بن جحش، والبقية من الأنصار، وعلى قول نزلت في حق كلتا الطائفتين. قال الرازي في تفسير الآية: إنهم في الوقت أحياء كأن الله أحياهم، لإيصال الثواب إليهم، وهذا قول أكثر المفسرين، وهذا دليل على أن المطيعين يصل ثوابهم إليهم وهم في القبور.
- ثم أشار إلى التفسيرين الآخرين اللذين أوعزنا إليهما:

(١) آل عمران: ١٦٩ - ١٧١.

أحدهما: للأصم، حيث فسر الحياة بالحياة الدينية، وأنهم على هدى من ربهم ونور.

وثانيهما: لبعض المعتزلة، وأن المراد من كونهم أحياء أنهم سيحيون. ثم قال: إن أكثر العلماء على ترجيح القول الأول، ثم فند الرأيين الأخيرين بوجوه نذكر بعضها:

١ - لو كان المراد ما قيل في القول الثاني والثالث لم يكن لقوله: {ولكن لا تشعرون} معنى، لأن الخطاب للمؤمنين وقد كانوا يعلمون أنهم سيحيون يوم القيامة، وأنهم على هدى ونور.

٢ - أن قوله: {ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم} دليل على حصول الحياة في البرزخ قبل البعث، أي: ويستبشرون بأناس لم يلحقوا بهم وهم في الدنيا، فإذا كان هذا ظرف الاستبشار فيكون هو ظرف الحياة ويكون قبل البعث.

٣ - لو كان المراد أحد المعنيين لا يبقى لتخصيص الشهداء بهذا فائدة، فإن غيرهم وكثيرا من غير الشهداء على نور وهدى من ربهم. وما أجاب به أبو مسلم أنه سبحانه إنما خصهم بالذكر، لأن درجاتهم في الجنة أرفع ومنزلتهم أرفع ضعيف، لأن منزلة النبيين والصديقين أعظم من الشهداء مع أنه سبحانه ما خصهم بالذكر (١).

بقي الكلام في أمرين:

أ - في إعراب ظرف أي " عند " في قوله {عند ربهم} وفيه وجوه:

١ - أن يكون حالا في محل نصب من الضمير في " أحياء " .

٢ - أن يكون خبرا ثانيا والتقدير: هم أحياء عندهم.

(١) مفاتيح الغيب ٤: ١٤٦.

٣ - أن يكون ظرفاً للفعل المتأخر أي يرزقون.
والأول أقرب.

وعلى أي تقدير فليس " عند " هنا للقرب المكاني، لاستحالته، إذ ليس له سبحانه مكان، ولا بمعنى في علمه وحكمه، لعدم مناسبته، بل يعني القرب والشرف أي ذو زلفى ورتبة سامية (١).

ب - معنى قوله: {ويستبشرون} وأصل الاستبشار وإن كان بمعنى طلب البشارة، ولكن الظاهر أن اللفظة مجردة عن معنى الطلب، والمراد: ويسرون ويفرحون، استعمالاً للفظ في لازم معناه هي معطوفة على قوله سبحانه: {فرحين} أي: يسرون ويفرحون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم في سبيل الله تعالى بأن يلحقوا بهم من خلفهم، لما تبين لهم حسن حال إخوانهم الذين تركوهم أحياء، وهو أنهم عند قتلهم في سبيل الله تعالى يفوزون كما فازوا ويحوزون من النعم ما حازوا بدلالة قوله: {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.
ويمكن أن يكون المراد: يسرون بقدوم إخوانهم الباقين بالشهادة أو بالموت الطبيعي والله العالم.

الآية الرابعة

قوله سبحانه: {وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين* اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون* وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون* أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون* إني إذا لفي ضلال مبين* إني آمنت بربكم

(١) روح المعاني ٢: ١٢٢.

فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي
وجعلني من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما
كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون { (١).
اتفق المفسرون على أن الآيات نزلت في رسل عيسى، وقد نزلوا بأنطاكية
داعين أهلها إلى التوحيد وترك عبادة غيره سبحانه، فعارضهم من كان فيها
بوجوه مذكورة في القرآن.
فبينما كان القوم والرسل يتحاجون إذ جاء رجل من أقصى المدينة يدعوهم إلى
الله سبحانه وقال لهم:
اتبعوا معاشر الكفار من لا يطلبون منكم الأجر ولا يسألونكم أموالكم على
ما جاءوكم به من الهدى، وهم مهتدون إلى طريق الحق، سالكون سبيله، ثم
أضاف قائلاً:
وما لي لا أعبد الذي فطرني وأنشأني وأنعم علي وهداني وإليه ترجعون عند
البعث، فيجزىكم بكفركم، أتأمروني أن أتخذ آلهة من دون الله مع أنهم لا يغنون
شيئاً ولا يردون ضرراً عني، ولا تنفعني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذونني من الهلاك
والضرر، وعندما مهد الجو بإبطال حجة المشركين وبيان أحقية منطقه، فعندئذ
خاطب الناس أو الرسل بقوله {إني آمنت بربكم فاسمعون} فسواء أكان
الخطاب للمشركين أو للرسل فإذا بالكفار قد هاجموه فرجموه حتى قتل.
ولكنه سبحانه جزاه بالأمر بدخول الجنة بقوله: {قيل ادخل الجنة} فلما
دخل الجنة خاطب قومه الذين قتلوه بقوله {يا ليت قومي يعلمون} * بما غفر لي
ربي وجعلني من المكرمين}.

ثم إنه سبحانه لم يمهل القتالين طويلاً ولم يرسل جنداً من السماء لإهلاكهم، بل

(١) يس: ٢٠ - ٢٩.

أهلكهم بالصيحة يقول سبحانه: {وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين* إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون} أي: كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر وهي صيحة واحدة حتى هلكوا بأجمعهم فإذا هم خامدون ساكتون.

ودلالة الآية على بقاء النفس وإدراكها وشعورها وإرسالها الخطابات إلى من في الحياة الدنيا واضحة جدا، حيث كان دخول الجنة {قيل ادخل الجنة} والتمني {يا ليت قومي} كان قبل قيام الساعة، والمراد من الجنة هي الجنة البرزخية دون الأخروية.

إلى هنا تم بيان بعض الآيات الدالة على بقاء أرواح الشهداء الذين بذلوا مهجهم في سبيل الله، وهناك مجموعة من الآيات تدل على بقاء أرواح الكفار بعد انتقالهم عن هذه الدنيا، لكن مقترنا بألوان العذاب والطائفة الأولى منعمة بألوان النعم، وإليك الطائفة الثانية:
الآية الخامسة

قال سبحانه: {فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب* النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} (١).

والآية صريحة في أنه سبحانه صرف عن مؤمن آل فرعون سوء مكرهم فنجا مع موسى، لكن أحاط بآل فرعون سوء العذاب، وأما كيفية عذابهم فتدل الآية على: أولا: أن هناك عرضا لهم على النار وإدخالهم فيها، والثاني أشد من الأول.

(١) غافر: ٤٥ - ٤٦.

ثانيا: أن العرض على النار قبل قيام الساعة، كما أن الإدخال حين قيامها.
وثالثا: أن التعذيب بعد الموت وقبل قيام الساعة (البرزخ) والتعذيب عند قيام الساعة، بشيء واحد وهو نار الآخرة، لكن العذاب قبل قيامها بالعرض على النار، وبعد قيامها بالدخول فيها، وينتج أن البرزخيين يعذبون من بعيد (١) وأهل الآخرة بالدخول.

ورابعا: أن آل فرعون وإن ماتوا بالغرق في البحر، لكن موتهم لم يكن بمعنى بطلانهم وفنائهم رأسا، بل بمعنى خروج أرواحهم من أبدانهم وانتقالهم إلى عالم آخر حائل بين العالمين، فقضي عليهم بسوء العذاب إلى يوم القيامة بالعرض على النار، والدخول فيها بعد قيامها، ولو لم يكن إحياء، فلا معنى لتعذيب الجماد الفاقد للشعور بالعرض على النار.

وخامسا: أن شخصية آل فرعون بأرواحهم لا بأبدانهم، بشهادة بطلان أجسادهم وتشتت أجزائها، لكنهم معادون بعد الموت بالعرض على النار، وبالمدخول فيها بعد قيام الساعة.

الآية السادسة

{ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون } (٢).
وقبل أن ننوه بدلالة الآية على بقاء الحياة بعد الموت نفسر لفظين من الآية: أحدهما: " البرزخ "، وهو الحاجز بين الشئيين، قال سبحانه: { مرج البحرين

(١) يستفاد من الآية ٢٥ من سورة نوح - على القول بأنها راجعة إلى البرزخ - أن الدخول لا يختص بيوم القيامة، بل يعمه والحقبة البرزخية، ولعل هناك فرقا بين النارين أعادنا الله منهما.
(٢) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠.

يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان { (١) ذكر سبحانه عظيم قدرته، حيث خلق البحرين، العذب والمالح يلتقيان ثم لا يختلط أحدهما بالآخر لوجود حاجز بينهما. والثاني: لفظة {وراء} وهو في الآية بمعنى أمام، ومعنى قوله: {ومن ورائهم} أي: من أمامهم وقدامهم.

قال سبحانه: {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا} (٢). والاستدلال بهذه الآية من وجهين:

١ - إن الإنسان المذنب يرى حين الموت ما أعد له في مستقبل أمره من عذاب أليم، ولأجل ذلك يطلب من ملائكة الله أن يرجعوه إلى عالم الدنيا، حتى يتدارك ما فاته ويتلافى ما فرط، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني * لعلني أعمل صالحا فيما تركت}.

٢ - إن قوله تعالى: {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} تصريح لا غموض فيه بوجود حياة متوسطة بين الموت والبعث، وإنما سميت برزخا لكونها حائلا بين الدنيا والآخرة، ولا تتحقق الحيلولة إلا بأن يكون للإنسان واقعية في هذا الحد الفاصل، إذ لو كان الإنسان بين هاتين الفترتين معدوما لما صح أن يقال بين الحالتين برزخ، وهو حائل وفاصل بين الإنسان في الدنيا والإنسان في الآخرة.

الآية السابعة

{ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق

(١) الرحمن: ١٩ - ٢٠.

(٢) الكهف: ٧٩.

وكنتم عن آياته تستكبرون { (١).

والاستدلال بالآية على بقاء الروح بعد فناء الجسد من طريقتين:

أ - قوله { أخرجوا أنفسكم } صريح في أن الملائكة تنتزع الروح من البدن ويعني هذا أن المتروك هو البدن، وأما الروح فتؤخذ وتخرج من الجسد إخراجاً.

ب - إن ظاهر قوله: { اليوم تجزون عذاب الهون } هو الإشارة إلى يوم الموت، وساعته، ولو كان الموت فناء كاملاً للإنسان لما كان لهذه العبارة معنى، إذ بعد فناء الإنسان فناء كاملاً شاملاً لا يمكن أن يحس بشيء من العذاب. ومن هنا يتبين أن الفاني إنما هو الجسد، وأما الروح فتبقى وترى العذاب الهون وتذوقه وتحس به.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية: إن كلامه تعالى ظاهر في أن النفس ليست من جنس البدن، ولا من سنخ الأمور المادية الجسمانية، وإنما لها سنخ آخر من الوجود يتحد مع البدن ويتعلق به نوعاً من الاتحاد والتعلق غير مادي.

فالمراد بقوله: { أخرجوا أنفسكم } قطع علاقة أنفسهم من أبدانهم وهو الموت (٢).

الآية الثامنة

{ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس

(١) الأنعام: ٩٣.

(٢) تفسير الميزان ٧: ٢٨٥.

بظلام للعبيد { (١).
تدل الآية على أن الكافرين يعذبون حين الموت بوجهين:
الأول: بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقد أشير إليه في آية أخرى
أيضا، قال سبحانه: { فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم
وأدبارهم } (٢).
الثاني: بعذاب الحريق، الذي يدل عليه قوله سبحانه: { ذوقوا عذاب
الحريق }، فالآية تدل على أن هناك عذابين منفصلين موضوعا ومحمولا،
فالعذاب الأول موضوعه الجسد، والثاني موضوعه روح الإنسان المنتقل إلى
الحياة غير الدنيوية.

الآية التاسعة

قال سبحانه: { مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون
الله أنصارا } (٣) والآية نازلة في شأن قوم نوح الذين غرقوا لخطيئاتهم أولا،
{ فأدخلوا نارا } ثانيا.

ومن المفسرين من فسر الجملة الثانية بنار الآخرة ويقول: جيء بصيغة
الماضي لكون تحققه قطعيا (٤). ولكنه بعيد، لأن ظاهر الآية كون الدخول في النار
متصلا بغرقهم لا منفصلا، بشهادة تحليل لفظة " فاء " وإلا كان اللازم التعبير
ب " ثم " .

(١) الأنفال: ٥٠ - ٥١.

(٢) محمد: ٢٧.

(٣) نوح: ٢٥.

(٤) مجمع البيان ٥: ٣٦٤.

الآية العاشرة

قوله سبحانه: { قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل } (١) الآية تدل بوضوح على أنه مرت على الإنسان المحشور يوم القيامة، إمامتان وإحياءان.

فالإمامة الأولى: هي الإمامة الناقلة للإنسان من الدنيا.

والإحياء الأول: هو الإحياء بعد الانتقال منها.

والإمامة الثانية: قبيل القيامة عند نفخ الصور الأول.

والإحياء الثاني: عند نفخ الصور الثاني.

قال سبحانه: { ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض

إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون } (٢).

وعلى ما ذكرنا فكل من الإحياءين لا صلة له بالدنيا، بل يتحققان بعد

الانتقال من الدنيا، أحدهما في البرزخ بعد الإمامة في الدنيا، والآخر يوم البعث بعد

الإمامة بنفخ الصور الأول.

وعندئذ تتضح دلالة الآية على الحياة البرزخية بوضوح.

نعم لم يتعرض القائلون بالحياة الدنيوية ولم يقولوا {وأحييتنا ثلاثا} وإن كانت

إحياء لكونها واقعة بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح، ولعل الوجه هو

أن الغرض تعلق بذكر الإحياء الذي يعد سببا للإيقان بالمعاد ومورثا للإيمان وهو

الإحياء في البرزخ ثم يوم القيامة، وأما الحياة الدنيوية، فإنها وإن كانت إحياء بلا

(١) غافر: ١١.

(٢) الزمر: ٦٨.

شك لكنها لا توجب بنفسها يقينا بالمعاد، فقد كانوا مرتابين في المعاد وهم أحياء في الدنيا (١).

تفسير خاطئ للآية:

إن بعض المفسرين فسروا الآية بالنحو التالي:

الإماتة الأولى: حال النطفة قبل ولوج الروح.

الإحياء الأول: حال الإنسان بعد ولوجها فيها.

الإماتة الثانية: إماتته في الدنيا.

والإحياء الثاني: إحياءه يوم القيامة للحساب.

وعندئذ تنطبق الآية على قوله سبحانه { كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا

فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون } (٢).

ولكنه تفسير خاطئ وقياس باطل.

أما كونه خاطئاً، فلأن الحالة الأولى للإنسان أي حالته قبل ولوج الروح في

جسده لا تصدق عليها الإماتة، لأنه فرع سبق الحياة، والمفروض عدمه.

وأما كونه قياساً باطلاً، فلأن الآيتين مختلفتان موضوعاً، إذ المأخوذ والوارد

في الآية الثانية هو لفظة " الموت " ويصح تفسيره بحال النطفة قبل ولوج الروح،

بخلاف الوارد في الآية الأولى، إذ الوارد فيها " الإماتة " فلا يصح تفسيره بتلك

الحالة التي لم يسبقها الإحياء.

ولأجل ذلك يصح تفسير الآية الثانية بالنحو التالي:

١ - كنتم أمواتا: الحالة الموجودة في النطفة قبل ولوج الروح.

٢ - فأحياكم: بولوج الروح فيها ثم الانتقال من البطن إلى فسيح الدنيا.

(١) تفسير الميزان ١٧: ٣١٣.

(٢) البقرة: ٢٨، أنظر تفسير الكشاف ٣: ٣٦٣ ط دار المعرفة - بيروت.

٣ - ثم يميتكم: بالانتقال من الدنيا إلى صوب الآخرة.
٤ - ثم يحييكم: يوم البعث للحساب والجزاء.
وبما أن موقف الآيتين مختلف هدفا وغاية، اختلف السياقان، فصارت إحداهما تلمح بالحياة المتوسطة بين الدنيا والآخرة (البرزخ) دون الأخرى، ولا ملزم لتطبيق إحداهما على الأخرى بعد اختلافهما في الموضوع والغاية. تلك عشر كاملة تورث اليقين، باستمرار الحياة بعد الانتقال من الدنيا، ولا ينكر دلالتها إلا الجاحد، وليس ما يدل من الآيات على بقائها بعد الموت منحصرًا في هذه الآيات العشر، بل هناك مجموعة من الآيات تصلح للاستدلال على المقصود، مثل: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا} (١)، وقوله سبحانه: {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} (٢) لكننا نقتصر عليها روما للاختصار. وأما الاستدلال بالسنة الشريفة على أن الموت ليس بمعنى فناء الإنسان برأسه، وإنما هو الانتقال من دار إلى دار، فسيوافيك قسم من الروايات في المبحث التالي المتكفل لبيان وجود الصلة بين أهل الدنيا والنازلين في البرزخ، بحيث يسمعون كلامهم ويجيبون دعاءهم وإن كنا نحن غير سامعين ولا فاهمين. ولا عجب في أن يكون هناك رنين أو صراخ وكنا بمعزل عن السمع والفهم، قال سبحانه: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا} (٣).

(١) البقرة: ١٤٢.

(٢) النساء: ٤١، فلو قلنا: بأن موت النبي (صلى الله عليه وآله) عبارة عن فناءه المطلق، فما معنى كونه شهيدا على أمته في تمام الأجيال؟

(٣) الإسراء: ٤٤.

المبحث الثالث

وجود الصلة بين الحياة الدنيوية والحياة البرزخية لا أظن أن مسلماً ملماً بالقرآن والسنة ينكر الحياة البرزخية، وأن للإنسان بعد موته وقبل بعثه حياة متوسطة بين الدنيا والآخرة، وهو فيها بين مرتاح ومنعم، ومتعب معذب.

ولكن الجدير بالدراسة، في ضوء الكتاب والسنة، هو تبيين الصلة بين الحياتين، وأن البرزخيين غير منقطعين عما يجري في الحياة الدنيوية، وإنهم يسمعون إذا دعوا، ويجيبون إذا سئلوا، بإذن منه سبحانه، والبرزخ وإن كان بمعنى المانع والحائل، لكنه حائل عن الرجوع إلى الدنيا الذي نفاه سبحانه بصريح كلامه عندما طلب لفيف من الظالمين الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فات منهم من العبادة والطاعة قائلين: {رب ارجعون* لعلي أعمل صالحاً فيما تركت} (١)، فأجيبوا بالحرمان بقوله: {كلاً} وليس بمانع عن السماع والاستماع ولا عن السؤال والجواب، كل ذلك بإذن منه سبحانه.

(١) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠.

وتدل على وجود الصلة بين الحياتين بهذا المعنى، مجموعة من الآيات وقسم
وافر من الروايات تأتي في المقام بصريحهما، حتى يزال الشك عن المرتاب.
القرآن الكريم والصلة بين الحياتين

١ - النبي صالح يكلم قومه بعد هلاكهم:

أخبر الله تعالى في القرآن الكريم عن النبي صالح (عليه السلام) أنه دعا قومه إلى عبادة
الله، وترك التعرض لمعجزته (الناقة) وعدم مسها بسوء، ولكنهم عقروا الناقة
واعتوا عن أمر ربهم:

{ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم

لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين } (١).

ترى أن الله تعالى يخبر على وجه القطع والبت بأن الرجفة أهلكت أمة
صالح (عليه السلام) فأصبحوا في دارهم جاثمين، وبعد ذلك يخبر أن النبي صالحا تولى
عنهم ثم

خاطبهم قائلا: { لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين }.

والخطاب صدر من صالح لقومه بعد هلاكهم وموتهم بشهادة جملة { فتولى }

المصدرة بالفاء المشعرة بصدور الخطاب عقيب هلاك القوم.

ثم إن ظاهر قوله: { ولكن لا تحبون الناصحين }، يفيد أنهم بلغت بهم

العنجهية أن كانوا لا يحبون الناصحين حتى بعد هلاكهم.

٢ - النبي شعيب يخاطب قومه الهالكين:

لم تكن قصة النبي صالح هي القصة الوحيدة من نوعها في القرآن الكريم، فقد

(١) الأعراف: ٧٨ - ٧٩.

تبعه في ذلك شعيب، إذ خاطب قومه بعد أن عمهم الهلاك قال سبحانه: { فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين } (١). وهكذا يخاطب شعيب قومه بعد هلاكهم، فيكون صدور هذا الخطاب بعد هلاكهم بالرجفة.

فلو كان الاتصال غير ممكن، وغير حاصل، ولم يكن الهالكون بسبب الرجفة سامعين لخطاب صالح وشعيب فما معنى خطابهما لهم؟ أيصح أن يفسر ذلك الخطاب بأنه خطاب تحسر وإظهار تأسف؟ كلا، إن هذا النوع من التفسير على خلاف الظاهر، وهو غير صحيح حسب الأصول التفسيرية، وإلا لتلاعب الظالمون بظواهر الآيات وأصبح القرآن الكريم لعبة بيد المغرضين، يفسرونه حسب أهوائهم وأمزجتهم. على أن مخاطبة الأرواح المقدسة ليست أمرا ممتنعا في العقل حتى تكون قرينة عليه.

٣ - النبي يأمر بالتكلم مع الأنبياء:

جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى لنبيه:

{ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون } (٢).

ترى أن الله سبحانه يأمر النبي الأكرم بسؤال الأنبياء الذين بعثوا قبله، ومن

(١) الأعراف: ٩١ - ٩٣.

(٢) الزخرف: ٤٥.

التأويل الباطل إرجاعها إلى سؤال علماء أهل الكتاب استظهارا من قوله سبحانه: {فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين* ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين} (١).

وقوله سبحانه: {فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا} (٢).

ووجه البطلان هو: أن الخطاب في الآية الأولى وإن كان متوجها إلى النبي لكن المقصود هو الأمة بقرينة قوله: {ولا تكونن من الممترين} و {ولا تكونن من الذين كذبوا}.

ومثلها الآية الثانية، فالخطاب وإن كان للنبي وأمره سبحانه بأن يسأل بني إسرائيل عن الآيات النازلة إلى موسى، ولكنه من قبيل "إياك أعني واسمعي يا جارة" والنبي أجل وأعظم من أن يشكل عليه شيء ويسأل علماء بني إسرائيل عما أشكل عليه.

فهاتان الآيتان راجعتان إلى سؤال الأمة علماء بني إسرائيل وقراء كتبهم، وهذا بخلاف قوله: {اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا} فإنه خطاب للنبي حقيقة. وأما ما هو الوجه في سؤال الأنبياء في مجال التوحيد أي قوله: {أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون}، فقد ذكره المفسرون، وأنه (صلى الله عليه وآله) تكلم مع الأنبياء

السالفين ليلة المعراج.

٤ - السلام على الأنبياء:

إن القرآن الكريم يسلم على الأنبياء في مواضع متعددة ويقول:

(١) يونس: ٩٤ - ٩٥.

(٢) الإسراء: ١٠١.

١ - {سلام على نوح في العالمين}.

٢ - {سلام على إبراهيم}.

٣ - {سلام على موسى وهارون}.

٤ - {سلام على آل ياسين}.

٥ - {وسلام على المرسلين} (١).

ولا شك أن ما ورد فيها ليس سلاما سطحيا أجوف، بل هو سلام حقيقي وتحية جديدة يوجهها القرآن إلى أنبياء الله ورسله.

وهل يصح التسليم الجدي على الجماد الذي لا يعرف ولا يدرك ولا يشعر؟! وليس لنا تفسير المفاهيم القرآنية النابعة عن الحقيقة تفسيرا قشريا، بأن نقول:

إن كافة التحيات في القرآن والتي نتلوها في آناء الليل وأطراف النهار ليست إلا مجاملات جوفاء وفي مستوى تحيات الماديين لرفقائهم وزملائهم الذين أدركهم الموت.

إن المادي لما يساوي الوجود بالمادة ولا يرى أن وراءها حقيقة، فعندما يسلم في محاضراته وشعاراته على زملائه الميتين يعود ويفسره بالتكريم الأجوف. وأما نحن المسلمين، فبما أن الوجود عندنا أعم من المادة وآثارها، فليس علينا تفسير الآيات تفسيرا ماديا خارجا عن الإطار المحدد في الكتاب والسنة لتفسير الذكر الحكيم، وهذا ما يبعثنا على تفسير تلك التسليمات بنحو حقيقي، وهو يلزم حياة المسلم عليهم ووجود الصلة بيننا وبينهم، سلام الله عليهم أجمعين.

هذا هو ما يرشدنا إليه الوحي في مجال إمكان ارتباط الأحياء بالأرواح.

(١) الصفات: ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠، ١٨١ على الترتيب.

السنة الشريفة والصلة بين الحياتين
ما تلوناه عليك كان مجموعة من الآيات الناصعة الدالة على وجود الصلة بين
الحياتين، وأن قسما من الأنبياء تكلموا مع البرزخيين.
وأما السنة الشريفة، فهناك روايات وافرة دالة على ما نتوخاه نأتي بقسم
منها:

١ - النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يكلم أهل القليب:
لقد انتهت معركة بدر بانتصار عظيم للمسلمين وهزيمة نكراء للمشركين، فقد
غادر المشركون ساحة القتال هاربين صوب مكة مخلفين وراءهم سبعين قتيلًا من
صناديدهم وساداتهم، ووقف النبي يخاطب القتلى واحدا واحدا ويقول:
" يا أهل القليب، يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا
أبا جهل (وهكذا عدد من كان منهم في القليب) هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟
فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا ".
فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله أتنادي قوما موتى؟
فقال (صلى الله عليه وآله): " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن
يجيبوني ".
وكتب ابن هشام يقول: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أضاف بعد هذه المقالة
وقال:
" يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لبيكم، كذبتُموني وصدقني الناس،
وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتُموني ونصرني الناس ".
ثم قال: " هل وجدتم ما وعدكم ربي حقا " (١).

(١) السيرة النبوية ١: ٦٤٩، السيرة الحلبية ٢: ١٧٩ و ١٨٠ وغيرهما.

روى البخاري عن نافع أن ابن عمر - رضي الله عنهما - أخبره قال: اطلع النبي (صلى الله عليه وآله) على أهل القليب فقال: "وجدتم ما وعد ربكم حقا"، فقيل له: تدعو

أمواتا، فقال: "ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون". ثم روى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: إنما قال النبي (صلى الله عليه وآله): "إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حق"، وقد قال الله تعالى: {إنك لا تسمع الموتى} (١).

ولا يذهب عليك أن السيدة عائشة سلمت الحياة البرزخية لهم، ولذلك قالت: إن النبي قال: "إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حق" ولكنها نفت أن يقول النبي "ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون" من دون أن تسنده إلى قائل حاضر في الواقعة، وإنما استنبطت قولها من الآية الكريمة، ومن المعلوم أن ابن عمر يدعي السماع عن النبي، أو عمن سمعه منه (صلى الله عليه وآله) ولا يعارضه استنباطها، وإنما يكون

نظرها حجة على نفسها لا على من عاين وشهد تكلم النبي معهم. أضف إلى ذلك أنه لا صلة للآية بما تدعيه، كما سيوافيك.

ولأجل التأكيد على صحة القصة نأتي أيضا بنص صحيح البخاري في باب معركة بدر (غير كتاب الجنائز) ونردفه بذكر مصادر أخرى، وما ظنك بأمر يرويه الإمام البخاري ولفيف من المحدثين قال: وقف النبي (صلى الله عليه وآله) على قليب

"بدر" وخاطب المشركين الذين قتلوا وألقيت جثثهم في القليب: "لقد كنتم جيران سوء لرسول الله، أخرجتموه من منزله، وطردتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا"، فقال له رجل: يا رسول الله ما خطابك لهم؟! فقال

(صلى الله عليه وآله): "والله ما أنتم بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة

(١) البخاري: الصحيح الجزء ٩، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، ص ٩٨.

بمقام من حديد إلا أن أعرض بوجهي عنهم ".
وقد أنشد حسان قصيدة بائية رائعة حول وقعة بدر الكبرى يشير في بعض
أبياتها إلى هذه الحقيقة أعني قصة القلب إذ يقول:
يناديهم رسول الله لما * قذفناهم كباكب في القلب
ألم تجدوا كلامي كان حقا * وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا * صدقت وكنت ذا رأي مصيب
على أنه لا توجد عبارة أشد صراحة مما قاله رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المقام
حيث
قال: " ما أنتم بأسمع منهم "، وهل ثمة بيان أكثر إيضاحا وأشد تقريرا لهذه الحقيقة
من مخاطبة النبي (صلى الله عليه وآله) لواحد واحد من أهل القلب، ومناداتهم
بأسمائهم، وتكليمهم
كما لو كانوا على قيد الحياة؟!
فلا يحق لأي مسلم مؤمن بالرسالة والرسول أن يسارع إلى إنكار هذه القضية
التاريخية الإسلامية المسلمة ويبادر قبل التحقيق ويقول: إن هذه القضية غير
صحيحة لأنها لا تنطبق على عقلية المادي المحدودة.
وقد نقلنا هنا نص هذا الحوار، لكي يرى المسلمون الناطقون باللغة العربية
كيف أن حديث النبي (صلى الله عليه وآله) يصرح بهذه الحقيقة بحيث لا توجد فوقه
عبارة في
الصراحة والدلالة على هذه الحقيقة.
ومن أراد الوقوف على مصادر هذه القصة فعليه أن يراجع ما ذكرناه في
الهامش أدناه (١).

(١) صحيح البخاري ج ٥ معركة بدر ص ٧٦، ٧٧، ٨٦، ٨٧، صحيح مسلم ج ٨ كتاب الجنة باب معتمد
الميت:
١٦٣، سنن النسائي ج ٤ باب أرواح المؤمنين ص ٨٩ - ٩٠، مسند الإمام أحمد ٢: ١٢١، المغازي
للواقدي
غزوة بدر وغيرها.

٢ - الإمام علي (عليه السلام) يكلم رؤساء الناكثين:
إن الإمام عليا (عليه السلام) بعد أن وضعت الحرب في معركة الجمل أوزارها مر على كعب بن سور وكان قاضي البصرة فقال لمن حوله: "أجلسوا كعب بن سور" فأجلسوه بين شخصين يمساكانه - وهو صريع - فقال (عليه السلام): "يا كعب بن سور قد

وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدت ما وعدك ربك حقا؟" ثم قال:
"أضجعوه".

ثم سار قليلا حتى مر بطلحة بن عبيد الله صريعا فقال: "أجلسوا طلحة" فأجلسوه، فقال (عليه السلام): "يا طلحة قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدت ما

وعدك ربك حقا؟" ثم قال: "أضجعوا طلحة".

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟! فقال (عليه السلام):

"يا رجل، والله لقد سمعا كلامي، كما سمع أهل القليب كلام رسول الله" (١).

٣ - السلام على النبي (صلى الله عليه وآله) في ختام الصلاة:

إن جميع المسلمين في العالم - بالرغم من الخلافات المذهبية بينهم في فروع الدين - يسلمون على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الصلاة عند ختامها فيقولون:

"السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته"

وقد أفتى الشافعي وآخرون بوجوب هذا السلام بعد التشهد، وأفتى الآخرون باستحبابه، لكن الجميع متفقون على أن النبي (صلى الله عليه وآله) علمهم السلام وأن سنة

النبي ثابتة في حياته وبعد وفاته (٢).

(١) الجمل للمفيد، حق اليقين ٢: ٧٣.
(٢) راجع كتاب تذكرة الفقهاء ٣: ٢٣٣ المسألة ٢٩٤، وكتاب الخلاف للشيخ الطوسي ١: ٤٧، لمعرفة أقوال المذاهب والفقهاء في هذا المجال.

والسؤال الآن: إذا كانت صلتنا وعلاقتنا بالنبي (صلى الله عليه وآله) قد انقطعت بوفاته، فما

معنى مخاطبته والسلام عليه يومياً؟!

٤ - الميت يسمع قرع النعال:

الميت يسمع كلام من يتكلم قرب قبورهم لا بجسمه، بل بروحه التي كانت لها ارتباط وإشعاع على الجسم، ولا يعني أنها داخله في قبره كما كانت في حياته ملازمة لجسمه ومعلقة به، بل المراد أن لها ارتباطاً وإشعاعاً على الجسم الذي فارقه، ويدل على ذلك:

ما رواه البخاري عن أنس بن مالك أنه حدثهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: " إن

العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد (صلى الله عليه وآله)؟ فيقول:

أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً في الجنة فيراهما جميعاً، وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول كما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين " (١).
وجه الاستدلال به أنه قال: " أنه ليسمع قرع نعالهم " فالميت إذا يسمع قرع النعال، فالكلام من باب أولى.

٥ - قول الميت عند حمل الجنازة:

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري (رض): أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال:

" إذ وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة

(١) البخاري، الصحيح ٢: ٩٠ باب الميت يسمع خفق النعال، ولاحظ في تفسير الحديث فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٣: ١٦٠، وشرح الكرماني ٧: ١١٧.

قالت قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلي أين تذهبون بها، يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعه لصعق " (١).

٦ - النبي (صلى الله عليه وآله) يسلم على الأموات:
روى مسلم عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كلما كان ليلتها في رسول الله (صلى الله عليه وآله) يخرج آخر الليل إلى البقيع فيقول: " السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون، غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد " (٢).

فلو كان الأموات لا يسمعون كالجماد يكون السلام عليهم عبثاً، وأين منزلة نبي الحكمة من العبث وقد تضافر أن النبي كان يمارس زيارة البقيع؟! وبذلك يعلم أن المقصود من الموت في المقام هو وقف سريان الدم في الأوردة، والشرابين في جسم الإنسان، وهو الممد بجوارحه وحواسه بالحركة والشعور والإحساس، والمحرك الرئيس لها هو القلب والرئتان بواسطة التنفس. وأما ما يرجع إلى واقع الإنسان وشخصيته الحقيقية وهو الجوهر، المدرك المفكر فهو باق عالم شاعر.

٧ - تعذيب الميت في القبر:
روى البخاري عن ابنة خالد بن سعيد بن العاص أنها سمعت النبي وهو يتعوذ من عذاب القبر. وروى عن أبي هريرة كان رسول الله يدعو: " اللهم إني أعوذ بك من

(١) البخاري، الصحيح ٢: ٨٦ رواه في ما بين: حمل الرجال الجنازة دون النساء ص ٨٥ وباب قول الميت وهو على الجنازة " قدموني "، لاحظ شرح الحديث في فتح الباري ٣: ١٤٤ وشرح الكرمانى ٧: ١٠٤.

(٢) مسلم: الصحيح ٧: ٤١.

عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة الشيخ
الذجال " (١).

وفي صحيح مسلم وجميع السنن عن أبي هريرة أن النبي قال: " إذا فرغ أحدكم
من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر،
ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة الذجال " .

وفي صحيح مسلم أيضا وغيره عن ابن عباس أن النبي كان يعلمهم هذا الدعاء
كما يعلمهم السورة من القرآن: " اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك
من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من فتنة
الذجال " (٢).

كلام لابن عبد البر في المقام:

قال ابن عبد البر ثبت عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: " ما من مسلم يمر على
قبر أخيه

كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام " . فهذا
نص في أنه يعرفه بعينه ويرد عليه السلام.
وفي الصحيحين عنه (صلى الله عليه وآله) من وجوه متعددة أنه أمر بقتلى بدر فألقوا في
قليب، ثم

جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم " يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان هل
وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، فأني وجدت ما وعدني ربي حقا " فقال له عمر: يا
رسول الله ما تخاطب من أقوام قد جيفوا فقال: " والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع
لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابا " .

(١) البخاري، الصحيح ٢: ٩٩، ولاحظ في شرح الأحاديث فتح الباري لابن حجر ٣: ١٨٨.
(٢) الروح: ص ٥٢ وقد بسط الكلام في إثبات الموضوع وأحاط بأطرافه ومن أراد التوسع فليرجع إلى
كتابه.

وثبت عنه (صلى الله عليه وآله) أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه.
وقد شرع النبي (صلى الله عليه وآله) لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام
من يخاطبونه فيقول: "السلام عليكم دار قوم مؤمنين" وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل - ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد.
والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحي له ويستبشر به.
قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا في كتاب القبور باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:
(حدثنا) محمد بن عون: حدثنا يحيى بن يمان، عن عبد الله بن سمعان، عن زيد ابن أسلم، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم".
(حدثنا) محمد بن قدامة الجوهري: حدثنا معن بن عيسى القزاز: أخبرنا هشام بن سعد: حدثنا زيد بن أسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه، رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم رد عليه السلام. إلى غير ذلك من الروايات المتضاربة في الصحاح والمسانيد.

المبحث الرابع

الحياة البرزخية في كلمات العلماء

كل من يعبأ بعلمه وتعبده أمام النصوص من علماء الإسلام صرحوا باستمرار الحياة بعد الانتقال من الدنيا، نذكر من كلماتهم ما يلي:

١ - الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ):

قال: والأعور الدجال خارج لا شك في ذلك ولا ارتياب، وهو أكذب الكذابين، وعذاب القبر حق، ويسأل العبد عن دينه وعن ربه ويرى مقعده من النار والجنة، ومنكر ونكير حق، وهما فتانا القبور، نسأل الله تعالى الثبات (١).

٢ - أبو جعفر الطحاوي (ت ٣٢١ هـ):

قال: (نؤمن) بعذاب القبر لمن كان له أهلا، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله وعن الصحابة رضوان الله عليهم، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران (٢).

(١) السنة: ص ٥٠.

(٢) شرح الرسالة الطحاوية لابن أبي العز، قسم المتن: ص ٣٩٦.

٣ - الإمام الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ):

قال: ونؤمن بعذاب القبر، وبالحوض، وأن الميزان حق والصراط حق، والبعث بعد الموت حق، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف يحاسب المؤمنين (١).

٤ - البغدادي:

قال: أنكرت الجهمية والضرارية سؤال القبر، وزعم بعض القدرية أن سؤال الملكين في القبر إنما يكون بين النفختين في الصور وحينئذ يكون عذاب قوم في القبر.

وقالت السالمية بالبصرة: إن الكفار لا يحاسبون في الآخرة.

وزعم قوم يقال لهم الوزنية: أن لا حساب ولا ميزان.

وأقرت الكرامية بكل ذلك كما أقر به أصحابنا، غير أنهم زعموا أن منكرا ونكيرا هما الملكان اللذان وكلا بكل إنسان في حياته، وعلى هذا القول يكون منكر ونكير كل إنسان غير منكر ونكير صاحبه.

وقال أصحابنا: إنهما ملكان غير الحافظين على كل إنسان (٢).

٥ - أبو اليسر محمد البزدوي (٤٢١ - ٤٩٣ هـ) (وهو من الماتريدية):

قال: سؤال منكر ونكير في القبر حق عند "أهل السنة والجماعة"، وهما ملكان يسألان من مات بعد ما حيي: من ربك وما دينك ومن نبيك، فيقدر المؤمن على الجواب ولا يقدر الكافر.

وفيه أحاديث كثيرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) في هذا الباب أن الملكين يجيئان في القبر إلى

(١) الإبانة، الأصل: ص ٢٦.

(٢) أصول الدين: ٢٤٥.

الميت ويحيي الله تعالى الميت فيسألان عما ذكرنا (١).

٦ - الفخر الرازي:

قال: إن قوله: {ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم} (٢) دليل على حصول الحياة في البرزخ قبل البعث، مضافا إلى قوله (صلى الله عليه وآله): "القبر روضة من رياض الجنة،

أو حفرة من حفر النيران" والأخبار في ثواب القبر وعذابه كالمتواترة، وكان (عليه السلام)

يقول في آخر صلواته: "وأعوذ بك من عذاب القبر" إلى أن قال: الإنسان هو الروح، فإنه لا يعرض له التفرق والتمزق، فلا جرم يصل إليه الألم واللذة (بعد الموت).

ثم إنه سبحانه وتعالى يرد الروح إلى البدن يوم القيامة الكبرى حتى تنضم الأحوال الجسمانية إلى الأحوال الروحانية (٣).

٧ - ابن أبي العز الدمشقي:

قال: إن الدور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

وقد جعل الله لكل دار أحكاما تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعا.

فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون "القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار" مطابق للعقل، وأنه حق لا مزية فيه، وبذلك يتميز

(١) أصول الدين: ١٦٥ / المسألة ٤٩.

(٢) آل عمران: ١٧٠.

(٣) التفسير الكبير ٤: ١٤٦ و ١٤٩.

المؤمنون بالغيب من غيرهم. ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحتة حتى يكون أعظم حرا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها. والأعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره بشيء من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب (١).

وقال الرازي في تفسير قوله: {ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم} والقوم الذين لم يلحقوا بهم لا بد وأن يكونوا في الدنيا، فاستبشارهم بمن يكون في الدنيا لا بد وأن يكون قبل قيام القيامة، والاستبشار لا بد وأن يكون مع الحياة، فدل هذا على كونهم أحياء قبل يوم القيامة (٢).

٨ - ابن تيمية:

قال: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس، وأنكره الجمهور، قابلهم آخرون بأن السؤال للروح بلا بدن، وهذا ما قاله ابن مرة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترده، ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص (٣).

(١) شرح الرسالة الطحاوية: ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٢) مفاتيح الغيب ٤: ١٤٦ و ٩: ٩٠.

(٣) الروح: ٥٠ معبرا عن ابن تيمية ب " شيخ الإسلام " .

٩ - التفتازاني:

قال: ويدل على الحياة بعد الموت قوله تعالى: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا} (١) وقوله: {أغرقوا فأدخلوا ناراً} (٢) وقوله: {ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين} (٣).
وليست الثانية إلا في القبر، وقوله: {يرزقون* فرحين بما آتاهم الله} (٤).
وقوله (صلى الله عليه وآله): "القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران".

والأحاديث في هذا الباب متواترة المعنى.

وقال في موضع آخر:

اتفق الإسلاميون على حقيقة سؤال منكر ونكير في القبر، وعذاب الكفار وبعض العصاة فيه، ونسب خلافه إلى بعض المعتزلة.
قال بعض المتأخرين منهم: حكي إنكار ذلك عن ضرار بن عمرو، وإنما نسب إلى المعتزلة، وهم براء منه لمخالطة ضرار إياهم، وتبعه قوم من السفهاء المعاندين للحق.

لنا الآيات، كقوله تعالى في آل فرعون: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا} (٥)، أي قبل القيامة، وذلك في القبر، بدليل قوله تعالى: {ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} (٦)، وكقوله تعالى في قوم نوح: {أغرقوا

(١) غافر: ٤٦.

(٢) نوح: ٢٥.

(٣) غافر: ١١.

(٤) آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠.

(٥) غافر: ٤٦.

(٦) غافر: ٤٦.

فأدخلوا ناراً { (١)، والفاء للتعقيب، وكقوله تعالى: {ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين} (٢)، وإحدى الحياتين ليست إلا في القبر، ولا يكون إلا نموذج ثواب أو عقاب بالاتفاق، وكقوله تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله} (٣).

والأحاديث المتواترة المعنى كقوله (صلى الله عليه وآله): " القبر روضة من رياض الجنة أو

حفرة من حفر النيران " وكما روي أنه مر بقبرين، فقال: "إنهما ليعذبان.. " (٤)، وكالحديث المعروف في الملكين اللذين يدخلان القبر ومعهما مرزبتان، فيسألان الميت عن ربه وعن دينه وعن نبيه.. إلى غير ذلك من الأخبار والآثار المسطورة في الكتب المشهورة، وقد تواتر عن النبي (صلى الله عليه وآله) استعاذته من عذاب القبر، واستفاض

ذلك في الأدعية المأثورة (٥).

١٠ - الشريف الجرجاني:

قال: إحياء الموتى في قبورهم، مسألة منكر ونكير، وعذاب القبر للكافر والفاسق كلها حق عندنا، اتفق عليه سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، واتفق عليه (الأكثر بعده) أي بعد ظهور الخلاف، (وأنكره) مطلقاً " ضرار بن عمرو وبشر المريسي وأكثر المتأخرين من المعتزلة "، وأنكر الجبائي وابنه والبلخي تسمية الملكين منكراً ونكيراً وقالوا: إنما المنكر ما يصدر من الكافر عند تلجلجه إذا سئل، والنكير إنما هو تفريع الملكين له.

(١) نوح: ٢٥.

(٢) غافر: ١١.

(٣) آل عمران: ١٦٩.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الوضوء: ص ٥٥ - ٥٦ وكتاب الجنائز: ص ٨٩.

(٥) شرح المقاصد ٥: ١١٢، ١١٤.

لنا في إثبات ما هو حق عندنا وجهان: الأول قوله تعالى: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب}، عطف في هذه الآية عذاب القيامة على العذاب الذي هو عرض النار صباحا ومساء، فعلم أنه غيره، ولا شبهة في كونه قبل الإنشار من القبور، كما يدل عليه نظم الآية بصريحه، وما هو كذلك ليس غير عذاب القبر اتفاقا، لأن الآية وردت في حق الموتى، فهو هو (١).

١١ - الآلوسي:

قال: إن حياة الشهداء حقيقة بالروح والجسد، ولكننا لا ندركها في هذه النشأة (٢).

هذه كلمات أعلام السنة، وإليك كلام بعض مشايخ الشيعة الإمامية:

١٢ - الشيخ المفيد (قدس سره):

قال في شرح عقائد الصدوق: فأما كيفية عذاب الكافر في قبره وتنعم المؤمن فيه، فإن الخبر أيضا قد ورد بأن الله تعالى يجعل روح المؤمن في قالب مثل قلبه في الدنيا في جنة من جناته، ينعمه فيها إلى يوم الساعة، فإذا نفخ في الصور أنشأ جسده الذي في التراب وتمزق، ثم أعاده إليه وحشره إلى الموقف وأمر به إلى جنة الخلد ولا يزال منعما بإبقاء الله.

غير أن جسده الذي يعاد فيه لا يكون على تركيبه في الدنيا، بل يعدل طباعه، ويحسن صورته ولا يهرم مع تعديل الطباع ولا يمسه نصب في الجنة ولا لغوب.

(١) شرح المواقيف ٨: ٣١٧ وقد مزج كلامه مع عبارة المواقيف للإيجي، فما ذكره نظرية الماتن والشارح.

(٢) روح المعاني ٢: ٢٠.

والكافر يجعل في قلب كقلبه في محل عذاب يعاقب، ونار يعذب بها حتى الساعة ثم ينشئ جسده الذي فارقه في القبر فيعاد إليه فيعذب به في الآخرة عذاب الأبد ويركب أيضا جسده تركيبا لا يفنى معه (١).

هذه اثنتا عشرة كلمة من أعلام السنة والشيعة تعرب عن اتفاق الأمة على استمرار الحياة بعد الانتقال عن الدنيا، أو تجديد الحياة بعده، وأن الموت ليس بمعنى بطلان الإنسان إلى يوم القيامة، بل هناك مرحلة بين المرحلتين، لها شؤون وأحكام.

ويؤيد ما ذكره، وما جرى عليه عمل الناس قديما وإلى الآن من تلقين الميت في قبره، ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة وكان عبثا، وقد سئل عنه الإمام أحمد (رحمه الله) فاستحسنه واحتج عليه بالعمل. وقال ابن القيم - تلميذ ابن تيمية - بعد نقل ما ذكرنا عن الإمام أحمد: إن اتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار، كاف في العمل به. إلى أن قال: فلولا أن المخاطب يسمع، لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم، وهذا وإن استحسنه واحد، لكن العلماء قاطبة على استقباحه واستهجانته، وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لا بأس به: أن النبي (صلى الله عليه وآله)

حضر جنازة رجل فلما دفن قال: " سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل "، فأخبر أنه يسأل حينئذ، وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين (٢).

وقال: إن الأرواح على قسمين: أرواح معذبة، وأرواح منعمة، فالمعذبة في شغل ما هي فيه من العذاب، عن التزاور والتلاقي، والأرواح المنعمة المرسلات غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور، فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو على مثل عملها،

(١) أوائل المقالات: ص ٤٩ ط تبريز، وشرح عقائد الصدوق: ص ٤٤ ط تبريز.

(٢) الروح: ١٣ ط. بيروت.

وروح نبينا في الرفيق الأعلى، قال الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة (١).

إجابة عن سؤال

إن هنا سؤالاً أثاره كثير من المفسرين وكل تخلص منه بوجه: وهو أنا نشاهد أجساد الموتى ميتة في القبور، فكيف يصح ما ذهبتم إليه من التنعيم والتعذيب، والسؤال والإجابة؟

هناك من تخلص منه زاعماً أن الحياة البرزخية حياة مادية بحتة، قائمة بذرات الجسد المادي المبعثرة في الأرض، منهم الرازي قال:

أما عندنا فالبنية ليست شرطاً في الحياة، ولا امتناع في أن يعيد الله الحياة إلى كل واحد من تلك الذرات والأجزاء الصغيرة من غير حاجة إلى التركيب والتأليف (٢). يلاحظ عليه: أن الاعتراف بأن الحياة البرزخية من أقسام الغيب الذي يجب الإيمان به وإن لم نعرف حقيقتها، أولى من هذا الجواب الغامض الذي لا يفيد القارئ شيئاً سوى أن التعبد ورد بذلك.

لكن الظاهر من أكثر أهل السنة المعتمدين في العقائد على الأخبار والآثار، أن هنا جسداً على صورة الطير تتعلق به الروح، وقد استدلل له بما أخرجه عبد الرزاق، عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: قال رسول الله: " إن أرواح الشهداء في

(١) الروح: ١٧ ط. بيروت. والآية من سورة النساء: ٦٩.

(٢) التفسير الكبير ٤: ١٤٥ - ١٤٦.

صور طير خضر معلقة في قناديل الجنة حتى يرجعها الله تعالى إلى يوم القيامة " .
وفي بعض الروايات: " أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق من
ثمر الجنة أو شجر الجنة " .

أخرج مسلم في صحيحه عن ابن مسعود: مرفوعا: " أن أرواح الشهداء عند
الله في حواصل طيور خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى
قناديل تحت العرش " (١).

ويبدو أن الروايات الإسرائيلية، وقد رد مضمون هذه الروايات في روايات أئمة
أهل البيت، فعالجوا مشكلة الحياة البرزخية بشكل قريب إلى الأذهان، وهو خلق
جسد آخر على صور أبدانهم في الدنيا بحيث لو رأى الرائي أحدهم لقال " رأيت فلانا
" .

روى الشيخ أبو جعفر الطوسي في تهذيب الأحكام مسندا إلى علي بن
مهزيار، عن القاسم بن محمد، عن الحسين بن أحمد، عن يونس بن ظبيان قال:
كنت عند أبي عبد الله (الإمام الصادق) (عليه السلام) جالسا فقال: " ما يقول الناس في
أرواح المؤمنين؟ " قلت: يقولون: في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش،
فقال أبو عبد الله: " سبحان الله، المؤمن أكرم على الله أن يجعل روحه في حوصلة
طائر أخضر، يا يونس المؤمن إذا قبضه الله تعالى صير روحه في قالب كقالبه في
الدنيا فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت
في الدنيا " .

روى ابن أبي عمير، عن حماد، عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن
أرواح المؤمنين؟ فقال: " في الجنة على صور أبدانهم لو رأيت لقلت: فلان " (٢).

(١) روح المعاني ٢: ٢١ .

(٢) مجمع البيان ١: ٢٣٦ ط صيدا لاحظ الكافي ٣: ٢٤٥ وبما أن الشيخ الطبرسي نقل الرواية عن الكافي،
ذكرنا موضع الرواية منه .

المبحث الخامس

البرزخيون ينتفعون بأعمال المؤمنين

إذا كانت حقيقة الإنسان هو روحه ونفسه الباقية غير الدائرة، وكانت الصلة بين الدارين (دار الدنيا ودار البرزخ) موجودة، وكانت متعلقة بأجسام تناسبها وهم بين منعم ومعذب، يقع الكلام في انتفاع أهل البرزخ بأعمال المؤمنين الموجودين في دار الدنيا إذا قاموا بالاستغفار لهم بأعمال نيابة عنهم، وعدمه. وقبل الدخول في صلب الموضوع لنا كلام نقدمه: هو أن الإيمان إنما ينتفع به الإنسان إذا انضم إليه العمل الصالح، ولا ينفع إيمان إذا خلا عنه، ولأجل ذلك يذكر سبحانه العمل الصالح إلى جانب الإيمان في أكثر آيات الكتاب العزيز. وقد أخطأت " المرجئة " لما زعموا أن الإيمان المجرد وسيلة نجاة ومفتاح فلاح، فقدموا الإيمان وأخروا العمل.

وقد فند أهل البيت (عليهم السلام) هذه الفكرة الباطلة حيث حذروا الآباء ودعوهم إلى حفظ أبنائهم منهم: " بادروا أولادكم بالأدب قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة " (١). فالاعتماد على الإيمان مجردا عن العمل فعل النوكى والحمقى، وهو لا يفيد

(١) الكافي ٦: ٤٧ / ٥.

ولا ينفع أبدا.

ولقد كانت لهذه الفكرة الباطلة صيغة أخرى عند اليهود، فهم كانوا يعتمدون على مسألة الانتساب إلى الآباء وبيت النبوة، فزعموا أن الثواب لهم والعقاب على غيرهم حيث قالوا: {نحن أبناء الله وأحباؤه} (١) أو قالوا: {لن تمسنا النار إلا أياما معدودة} (٢)، وفي ظل هذه الفكرة اقترفوا المنكرات واستحلوا سفك دماء غيرهم من الأقوام والأمم والاستيلاء على أموالهم.

والحق الذي عليه الكتاب والسنة هو: أن المنجي هو الإيمان المقترن بالعمل الصالح، كما أن التسوية في إتيان الفرائض باطل جدا، وهو أن يؤخر الإنسان الواجب ويقول سوف أحج مثلا، ويقول ذلك كل سنة ويؤخر الفريضة. وهذا هو الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يؤكد في خطبته على العمل إذ يقول: " وإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل " (٣).

ويقول: " ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار، أفلا تائب من خطيئته قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم يؤسه " (٤). وهذا هو ما اتفقت عليه الأمة الإسلامية وتضافرت عليه الأحاديث والأخبار.

انتفاع الإنسان بعمله ويعمل غيره

لكنه سبحانه بفضلته وجوده الواسعين وسع على الإنسان دائرة الانتفاع بالأعمال بحيث شمل الانتفاع بعد الموت، بالأعمال التي تتحقق بعد الموت، وهي

(١) المائدة: ١٨.

(٢) آل عمران: ٢٤.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.

على نوعين:

الأول: ما إذا قام الإنسان بعمل مباشرة في زمانه ومات ولكن بقي العمل يستفيد منه الناس كصدقة جارية أجراها، أو إذا ترك علما ينتفع به، ويقرب منه ما إذا ربي ولدا صالحا يدعو له، فهو ينتفع بصدقاته وعلومه، لأنها أعمال مباشرة باقية بعد موته وليست كسائر أعماله الفانية بفنائها الزائلة بموته، فالجسر الذي بناه، والنهر الذي أجراه، والمدرسة التي شيدها، والطريق الذي عبده، إنما تحقق بسعيه، فهو ينتفع به.

وقد وردت في هذا المجال روايات كثيرة، قام بنقل بعضها ابن القيم في المسألة السادسة في كتاب له باسم "الروح" قال:

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لا يصل إلى الميت شيء البتة لا بدعاء ولا غيره، ثم قال: فالدليل على انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه): أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: "إذا مات

الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له" فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنها منه، فإنه هو الذي تسبب إليها.

وفي سنن ابن ماجه في حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "إنما

يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علم علمه ونشره، أو ولد صالح تركه، أو مصحف ورثه، أو مسجد بناه، أو بيت لابن السبيل بناه، أو نهر أكرهه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته".

وفي صحيح مسلم أيضا من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

"من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر

من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " .
وهذا المعنى روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) من عدة وجوه صحاح وحسان.
وفي المسند عن حذيفة قال: سأل رجل على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)
فأمسك

القوم، ثم إن رجلا أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): " من سن
خييرا فاستن به

كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئا، ومن سن شرا
فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا " .
وقد دل على هذا قوله (صلى الله عليه وآله): " لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم
الأول

كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل " فإذا كان هذا في العذاب والعقاب ففي الفضل
والثواب أولى وأحرى (١).

ويؤيده ما ورد في شأن صلاة الجماعة حيث تفضل بسبع وعشرين درجة أو
خمس وعشرين درجة على صلاة بغير جماعة (٢).

فكيف ينتفع المصلون بعضهم ببعض؟ وكلما زاد المصلون ازدادوا انتفاعا.
الثاني: فيما إذا لم يكن للميت في العمل سعي ولا تسبيب، فهل يصل ثواب
عمل الغير إليه؟

الظاهر من الكتاب والسنة هو أنه سبحانه بعميم فضله وواسع جوده يوصل
ثواب عمل الغير إلى الميت، فيما إذا قام الغير بعمل صالح نيابة عن الميت، وبعث
ثوابه إليه، ويدل على ذلك طائفة كبيرة من الآيات والأحاديث والأخبار.
عرض المسألة على الكتاب:

لقد صرحت الآيات بأن الإنسان المؤمن ينتفع بعمل غيره، وإن لم يكن له فيه

(١) كتاب الروح، المسألة السادسة عشرة، ونقلها برمتها محمد الفقي من علماء الأزهر في كتابه التوسل
والزيارة: ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) صحيح مسلم ٢: ١٢٨، باب فضل صلاة الجماعة.

سعي، ونحن نشير إلى بعض هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر:
١ - استغفار الملائكة للمؤمن، قال تعالى:

{الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به
ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا
واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم} (١).
وقال تعالى أيضا:

{تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم
ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم} (٢).

٢ - دعاء المؤمنين للذين آمنوا:

{والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا
بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم} (٣).
الأحاديث الدالة على انتفاع الميت بفعل الحي:

تدل روايات كثيرة على أن الميت ينتفع بعمل الغير، إما بدعائه فيكفي في ذلك
ما تواتر عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) من زيارته لأهل بقيع الغرقد ودعائه لهم،
وزيارته

لشهداء أحد وتعميمهم بالدعاء، وتكرار ذلك منه، ولو لم ينتفعوا بدعائه لما
قام به (عليه السلام)، وقد عرفت الآيات الدالة على انتفاع الميت بدعاء الحي.
إنما الكلام فيما إذا قام بعمل (لا بدعاء) قربي نيابة عن الميت، فالروايات
المتضاربة تدل على صحة العمل ووصول ثوابه إليه وانتفاع الميت به، وقد وزعت

(١) غافر: ٧.

(٢) الشورى: ٥.

(٣) الحشر: ١٠.

الروايات في الصحاح والمسانيد في مختلف الأبواب كالصوم والحج والعتق والنذر والتصدق والسقي وقراءة القرآن، فنحن نذكر هذه الروايات على هذا الترتيب، ولعل المتتبع في الصحاح والمسانيد يقف على أكثر من ذلك.

أ - انتفاع الميت بصوم الغير نيابة عنه:

١ - روى الشيخان عن عائشة: أن رسول الله قال: " من مات وعليه صيام، صام عنه وليه " .

٢ - روى الشيخان أيضا عن ابن عباس، قال: جاء رجل إلى النبي وقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضي عنها؟ قال: " نعم فدين الله أحق أن يقضى " .

٣ - وفي رواية: جاءت امرأة إلى رسول الله وقالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: " أفرايت لو كان على أمك دين فقضيتيه أكان يؤدي ذلك عنها؟ قالت: نعم قال: " فصومي عن أمك " .

٤ - روى بريدة قال: بينا أنا جالس عند رسول الله إذ أتته امرأة وقالت: " إني تصدقت على أمي بجارية وإنها ماتت، فقال: " وجب أجرك، وردها عليك الميراث " . فقالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: " صومي عنها " قالت: إنها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: " حجي عنها " .

ب - انتفاع الميت بحج الغير نيابة عنه:

٥ - قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، إن أم سعد في حياتها كانت تحج من مالي وتتصدق وتصل الرحم وتنفق من مالي، وإنها ماتت فهل ينفعها أن أفعل ذلك عنها؟ قال: " نعم " (١).

(١) هذه الروايات (١ - ٥) رواها مسلم في صحيحه، ج ٣، باب قضاء الصيام عن الميت: ص ١٥٥ - ١٥٦.

٦ - وقال (صلى الله عليه وآله): " لو كان مسلما فأعتقتم عنه أو حججتم عنه بلغه ذلك "

وقد مضى جواز الحج نيابة في الرواية الرابعة.

ج - انتفاع الميت بعنق الغير عنه:

٧ - عن عطاء بن رباح قال: قال رجل: يا رسول الله أعتق عن أمي؟ قال: " نعم " قال: أينفعها؟ قال: " نعم " .

٨ - عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري: أن أمه أرادت أن تعتق فأخرت ذلك إلى أن تصبح فماتت؟ قال عبد الرحمن: قلت للقاسم بن محمد: أينفعها أن أعتق عنها؟ قال القاسم: أتى سعد بن عبادة رسول الله فقال: إن أمي هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟ فقال رسول الله: " نعم " .

وقد مضى في الرواية السادسة ما يدل على جواز العنق عن الغير.

د - انتفاع الميت بعمل الغير فيما إذا نذر ولم يعمل:

٩ - جاء سعد بن عبادة إلى رسول الله فقال: إن أمي كان عليها نذر، أفأقضيه؟ قال: " نعم " قال: أينفعها؟ قال: " نعم " .

ورواه مسلم بلفظ آخر قال: استفتى سعد بن عبادة رسول الله في نذر كان على أمه توفيت قبل أن تقضيه؟ قال رسول الله: " فاقضه عنها " .

ه - انتفاع الميت بصدقة الغير نيابة عنه:

١٠ - عن أبي هريرة: أن رجلا قال للنبي: إن أبي مات وترك مالا ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: " نعم " .

١١ - عن معاذ قال: " أعطاني رسول الله (صلى الله عليه وآله) عطية، فبكيت فقال: " ما يبكيك

يا معاذ؟ " قلت: يا رسول الله كان لأمي من عطاء أبي نصيب تتصدق به وتقدمه لآخرتها وإنما ماتت ولم توص بشيء قال: " فلا يبك الله عينك يا معاذ، أتريد أن

تؤجر أمك في قبرها؟ " قلت: نعم يا رسول الله، قال: " فانظر الذي كان يصيها من عطاءك فامضه لها، وقل اللهم تقبل من أم معاذ ".
فقال قائل: يا رسول الله لمعاذ خاصة أم لأمتك عامة؟ قال: " لأمتي عامة ".
١٢ - عن سعد أنه سأل النبي (صلى الله عليه وآله) قال: يا نبي الله إن أُمِّي قد افتلتت وأعلم أنها

لو عاشت لتصدقت، أفإن تصدقت عنها أينفعها ذلك؟ قال (صلى الله عليه وآله): " نعم فسأل

النبي (صلى الله عليه وآله): أي الصدقة أنفع يا رسول الله؟ قال: " الماء "، فحفر بئرا، وقال: هذه لأم سعد.

واللام في قوله: " هذه لأم سعد " هي اللام الداخلة على الجهة التي وجهت إليه الصدقة، وليست من قبيل اللام الداخلة على المعبود المتقرب إليه، مثل قولنا: نذرت لله، وإن شئت قلت: اللام في قوله " لأم سعد " مثل اللام الواردة في قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء} (١).

١٣ - وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنه): " إن رجلا أتى النبي

فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن أُمِّي افتلتت نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت

تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم ".

١٤ - وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنه): " إن سعد بن عبادة

توفيت أمه وهو غائب، فأتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله إن أُمِّي توفيت وأنا غائب

عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: " نعم "، قال: فإني أشهدك إن حائطي المخراف صدقة عنها. والمراد بالحائط البستان، والمخراف عبارة عن اسم ذلك الحائط.

١٥ - وعن عبد الله بن عمر: إن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة

(١) التوبة: ٦٠.

بدنة، وإن هشام بن العاص نحر خمسا وخمسين، وإن عمرا سأل النبي (صلى الله عليه وآله) عن ذلك فقال: "أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك". ورواه الإمام أحمد.

و - انتفاع الميت بالذكر والدعاء والقراءة والتحية:

١٦ - روى ابن ماجة في صحيحه: إن رسول الله قال: "اقرأوا (يس) على موتاكم".

١٧ - وعن أبي هريرة: "زوروا موتاكم ب (لا إله إلا الله)".

١٨ - "ما من رجل يزور قبر حميمه فيسلم عليه ويقعد عنده إلا رد عليه السلام وأنس به حتى يقوم من عنده".

١٩ - "ما من رجل يمر بقبر كان فيه (من) يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام".

٢٠ - "ما الميت في قبر إلا شبه الغريق المتغوث ينتظر دعوة من أب أو أم أو ولد أو صديق ثقة، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن الله عز وجل ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الدنيا أمثال الجبال، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم والصدقة عنهم".

٢١ - من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه): قال: قال رسول الله: "إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء".

٢٢ - وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) على

جنازة، فحفظت دعاءه وهو يقول: "اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله وأوسع مدخله، وأغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من

أهله، وزوجا خيرا من زوجته، وأدخله الجنة وأعدّه من عذاب القبر وعذاب النار".

٢٣ - وفي السنن عن واثلة بن الأسقع قال: صلى رسول الله على رجل من المسلمين فسمعته يقول: " اللهم إن فلانا ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك، فقه فتنة القبر وعذابه، وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم".

٢٤ - وفي السنن من حديث عثمان بن عفان (رض) كان النبي (صلى الله عليه وآله) إذا فرغ من

دفن الميت وقف عليه فقال: " استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل".

ولو استقصيت الصحاح والسنن لوقفت على روايات كثيرة من هذا القسم. أضف إلى ذلك ما نقله عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) عندما زار بقيع الغرقد، من دعائه

لأهله وترحمه لهم.

إلى غير ذلك من الأحاديث والأخبار الواردة في هذا المجال، ومن أراد التبسط فليرجع إلى مظانها (١).

موقف المذاهب الإسلامية من هذه المسألة

وهؤلاء هم أئمة المذاهب الثلاثة (الحنبلي والشافعي والحنفي) يفتون بانتفاع الميت بعمل الحي حتى إذا لم يوص به ولم يكن له فيه سعي.

فهؤلاء هم فقهاء الحنابلة يقولون: ومن توفي قبل أن يحج الواجب عليه سواء

(١) لاحظ للوقوف على مصادر هذه الروايات: صحيح مسلم، كتاب النذر: ٥ - ٧٣ - ٧٨ وكنز العمال ٦:

٥٩٨ -

٦٠٢ / ١٧٠٥٠ - ١٧٠٧١، والروح لابن القيم: ص ١١٨ - ١٢١ وغيره، والتوسل والزيارة في الشريعة الإسلامية للشيخ الفقيه: ص ٢٢٩ وغيرها.

أكان ذلك بعذر أو بغير عذر، وجب عليه أن يخرج من جميع ماله نفقة حجة وعمرة ولو لم يوص (١).

وهذا هو الفقه الحنفي يقول: أما إذا لم يوص وتبرع أحد الورثة أو غيرهم فإنه يرجى قبول حجتهم عنه إن شاء الله (٢).

وهذا هو الشافعي يقول: فإن عجز عن مباشرة الحج بنفسه يحج عنه الغير بعد موته من تركته (ولم يقيد بالإيصاء وعدمه) (٣).

وقال ابن القيم: واختلفوا في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر: فذهب الإمام أحمد وجمهور السلف إلى وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة، نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن أحمد الكحال قال: قيل لأبي عبد الله: الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو أمه، قال: أرجو، أو قال: الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها، وقال: أيضا اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات وقل هو الله أحد وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.

وقال: فقد أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه والخلال في جامعه عن الشعبي بسند صحيح، قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره، يقرأون القرآن. وقال النووي في شرح المذهب: يستحب (أي للزائر للأموات) أن يقرأ ما تيسر ويدعو لهم عقبها، نص عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب. وقال في الأذكار: قال الشافعي والأصحاب: يستحب أن يقرأوا عند الميت شيئا من القرآن قالوا: فإن ختموا القرآن كله كان حسنا.

(١) الفقه على المذاهب الأربعة للجزري ١: ٥٧١.

(٢) المصدر نفسه ١: ٥٦٧.

(٣) المصدر نفسه ١: ٥٦٩.

ثم قال: وقد روي عن بعض الشافعية أنه لا يصل ثوابها للميت.
ونقل عن جماعات من الشافعية أنهم أولوه بحمله على ما إذا لم يقرأ بحضرة
الميت، أو لم ينو ثواب قراءته له، أو نواه ولم يدع (١).
وهذه الروايات وإن أمكن المناقشة في إسناد بعضها، لكن المجموع متواتر
مضمونا، فلا يمكن رد الكل.

أضف إلى ذلك وجود روايات صحيحة قاطعة للنزاع، والفقهاء إذا لاحظ مع
ما أفنى به أئمة المذاهب الثلاثة ينتزع ضابطة كلية، وهو وصول ثواب كل عمل
قربى إلى الميت إذا أتى به نيابة عنه، سواء كان العمل داخلا فيما ذكر من الموضوعات
أو خارجا عنها، لأن الظاهر أن الموضوعات كالصوم والحج وغيرهما من باب
المثال، لا من باب الحصر.

فتلك الآيات والروايات وهذه الفتاوى صريحة في جواز القيام بعمل ما عن
الميت من دون إيضاء، وبعبارة أخرى: من دون سعي له فيه، فإذا لم ينتفع الميت
بعمل الغير فكيف جاز الحج عنه أو وجب، وكذا في سائر الأمور الأخرى
كالاستغفار والدعاء له وشفاعته والتصدق والعتق عنه.
وقال الدكتور عبد الملك السعدي: لم يثبت أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقرأ
شيئا من

القرآن إذا زار المقابر سوى ما ورد أنه (صلى الله عليه وآله) قال: "يس قلب القرآن
أقرأوها على
موتاكم" إذا حملنا لفظ الموتى على المعنى الحقيقي وهو خروج الروح من الجسد،
لأن

حمله على حالة النزاع حمل اللفظ على معناه المجازي، والحمل على الحقيقة أولى،
ومع هذا فلا مانع من قراءة القرآن في المقبرة لعدم ورود المنع من ذلك، ولأن
الأموات يسمعون القراءة فيستأنسون بها، ولأن الإمام أحمد كان يرى ذلك حيث
قد نهى ضريرا يقرأ عند القبور ثم أذن له بعد أن سمع أن ابن عمر (رضي الله عنه)
أوصى أن يقرأ

(١) الروح: ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

إذا دفن عنده بفاتحة البقرة وخاتمتها، كما جاء في المغني لابن قدامة في مسألة زيارة القبور (١).

أما القول بأن القراءة عند القبور بدعة، فغير مسلم، لأن البدعة هي التي لم يرد بها نص خاص أو لم تدخل تحت القواعد العامة للإسلام، والقراءة مشروعة على الإطلاق في الإسلام بغض النظر عن مكان القراءة وزمانها ما لم يرد نهي عنها بوقت معين وزمان معين أو مكان معين (٢).

(١) المغني ٢: ٥٦٧.

(٢) البدعة: ص ١٣٦.

المبحث السادس

حول الشبهات المطروحة

لقد وقفت بفضل الآيات الكريمة الناصعة، والسنة النبوية المطهرة، وكلمات العلماء الأبرار على أن الموت ليس بمعنى فناء الإنسان وبطلانه، أو القضاء على حقيقته وشخصيته، بل هو قنطرة تعبر بالإنسان من دار إلى أخرى إما محفوفة بالنعمة والراحة، أو ملفوفة بالنقمة والتعذيب.

كما وقفت على أن الصلة بين الدارين غير منقطعة، وأن هناك مبادلة كلام بكلام حتى إن البرزخيين يسمعون خفق نعال المشيعين. كما اتضح أن المؤمنين ينتفعون بخير الأعمال التي يقوم بها أقرباؤهم وأصدقائهم.

كل ذلك بفضل منه سبحانه على عباده حتى ينتفعوا بما يقدم لهم إخوانهم - بعد انتقالهم من الدنيا - من أدعية صالحة، وأعمال طيبة تهدى ثوابها إلى آبائهم وإخوانهم وأسائدتهم الذين وجبت حقوقهم عليهم. غير أن تبعية الأهواء ربما تصد الإنسان عن البخوع للحق، والخضوع أمام الحقيقة فيقدم رأيه الساقط على البراهين الواضحة، فتارة ينكر الحياة البرزخية،

وأخرى يرد الصلة بين الدارين، وثالثة يجحد انتفاع البرزخيين بأعمال إخوانهم المؤمنين، كل ذلك في قوالب شبه ضئيلة نمقته الأهواء والتقليد الأعمى ولا يقام له في سوق الاعتبار وزن ولا في مباء الحق مقيل، " فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر " وإليك تلکم الشبهات مع أجوبتها:
الشبهة الأولى

إن الحياة البرزخية حياة لا يعلمها إلا الله، فهي حياة مستقلة تؤمن بها ولا نعلم ماهيتها، وإن بين الأحياء والأموات حاجزا يمنع الاتصال فيما بينهم، وعلى هذا فيستحيل الاتصال بينهم لا ذاتا ولا صفات، والله سبحانه يقول: {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} (١).

الجواب: هذه العبارة تتضمن أمرين قد خلط الكاتب بينهما:

أ - إن الحياة البرزخية لا نعلم حقيقتها.

ب - إن البرزخ حاجز مانع عن الاتصال.

فعلى هامش الأمر الأول نقول: إن حقيقة الحياة مطلقا - مادية كانت أم برزخية - أمر مجهول لا يعلمها إلا خالقها، والذي يعود إلى إمكاننا هو التعرف على آثارها وخصوصياتها، فكما أن الحياة المادية معلومة لنا ببعض آثارها، وكلما يتقدم العلم يتقدم الإنسان في ميادين التعرف على آثارها، فهكذا الحياة البرزخية فهي مجهولة الحقيقة ولكنها معلومة بآثارها، وقد ذكر الكتاب العزيز بعضها، وأن الشهداء الأحياء بحياتهم البرزخية يرزقون، يفرحون بما آتاهم الله، يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، ويستبشرون بنعمة من الله، وأنهم ربما يتمنون أمورا كتمني

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٢٦٧، سورة المؤمنون: ١٠٠.

حبيب النجار عرفان قومه بمصيره كما قال سبحانه: {قال يا ليت قومي يعلمون* بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين} (١).

إن الحياة البرزخية لا تختص بالمؤمنين، بل هناك من المذنبين الكافرين من تعمهم كآل فرعون إذ يعرضون على النار غدوا وعشيا، قال سبحانه: {وحاق بآل فرعون سوء العذاب* النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} (٢).

وهذا المقدار من المعرفة يكفينا في القضاء بأن لهم شعورا واستشعارا ودركا وتعقلا وظواهر نفسية من الفرح والألم وغير ذلك، ولا تتطلب مسألة التوسل سوى كون المتوسل به عاقلا حيا مدركا شاعرا ملتفتا إلى الدنيا وما يجري فيها. وعلى هامش الأمر الثاني نقول: إن البرزخ بمعنى الحاجز لا بمعنى انقطاع الصلة بين أهل الدنيا وأهل الآخرة ومن فسره بالمعنى الثاني فإنما أراد دعم مذهبه، وإنما هو مانع من رجوع الناس إلى حياتهم الدنيا.

ويدل على ذلك: أنه سبحانه ذكر أمر البرزخ بعدما ذكر تمنى العصاة الرجوع إلى الدنيا، قال سبحانه: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون* لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها} (٣).

فقوله: {كلا} ردع لتمنى رجوعهم، يعني لا يستجاب دعاؤهم، ثم عاد سبحانه يؤكد بقوله: {ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} أي حائل مانع من الرجوع إلى الدنيا إلى يوم يبعثون.

إن اتخاذ موقف مسبق في المسألة يشكل مانعا من الوصول إلى الحقيقة، ويعد

(١) يس: ٢٦ - ٢٧.

(٢) غافر: ٤٥ - ٤٦.

(٣) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠.

من موانع المعرفة الصحيحة، فيما أن القائل يقتفي أثر من يقول لا يصح التوسل بدعاء النبي الأكرم في البرزخ، فقد أراد نحت دليل لقوله، ففسر البرزخ في الآية بمعنى المانع عن الاتصال لا المانع عن انتقال أهل البرزخ إلى الدنيا، فكأنه يصور أن بين الحياتين ستارا حديديا أو جدارا ضخما يمنع من اللقاء والسماع، وليس لما يتخيله دليل، بل الدليل على خلافه، ترى أنه سبحانه يحكي عن ماء البحرين أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ثم يقول: {بينهما برزخ لا يبغيان} أي مانع يمنع عن اختلاط المائتين، يقول سبحانه: {مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان} (١) ولم يكشف العلم عن وجود سد مادي بين البحرين. الشبهة الثانية

إن الله سبحانه يقول: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} (٢) فالآية تحصر الانتفاع في العمل الذي سعى فيه الإنسان قبل موته، ومعه كيف ينتفع بعمل الغير الذي لم يسع فيه؟

والجواب على هذه الشبهة من وجوه متعددة، ولكننا نذكر قبل الجواب ما يفيد القارئ في المقام، وهو: أنه لو كان ظاهر الآية هو ما يرومه المستدل وهو: أن الغير لا ينتفع بعمل الغير ما لم يكن قد تسبب إليه في الحياة، لعارض هذا ظاهر الآيات الأخر والروايات المتضاربة في ذلك المجال، إذ لو كان كذلك فما معنى استغفار

المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان؟! وما معنى استغفار حملة العرش ومن حوله لأهل الإيمان؟! وما معنى هذه الروايات الواردة في مجالات مختلفة، الدالة على انتفاع الميت بعمل الغير؟

(١) الرحمن ١٩ - ٢٠.

(٢) النجم: ٣٩.

كل ذلك يعرب عن أن للآية مفادا آخر وهو غير ما يرومه المستدل، وإليك تفسير الآية بالإمعان فيها، وذلك بوجوه:
الوجه الأول:

إن سياق الآيات المحيطة بهذه الآية سياق ذم وتنديد، وسياق إنذار وتهديد، فإن الله سبحانه يبدأ كلامه العزيز بقوله: {أفأريت الذي تولى* وأعطى قليلا وأكدى* أعنده علم الغيب فهو يرى* أم لم ينبا بما في صحف موسى* وإبراهيم الذي وفى* ألا تزر وازرة وزر أخرى* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى* وأن سعيه سوف يرى* ثم يجزاه الجزاء الأوفى* وأن إلى ربك المنتهى} (١). فإنك ترى أن الآيات الحاضرة مثل سبيكة واحدة صيغت لغرض الإنذار والتهديد، خصوصا قوله: {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} فإن هذه الآية وقعت بين آيتين صريحتين في التهديد المتقدمة قوله: {ألا تزر وازرة وزر أخرى} والمتأخرة قوله: {وأن سعيه سوف يرى} ثم قوله: {وأن إلى ربك المنتهى}. فإن كل ذلك يعطي أن موضوع هذه الآية والآيات السابقة واللاحقة هو العقاب لا الثواب، والسيئة لا الحسنة، فالآية تصرح بأن كل إنسان يحمل وزر نفسه ويعاقب بالعمل السيئ الذي سعى فيه، وأما العمل السيئ الذي اقترفه الغير ولم يكن للإنسان سعي فيه فلا يؤخذ به ولا يعاقب عليه. وعلى ذلك فاللام في قوله: "للإنسان" ليس للانتفاع بل اللام لبيان الاستحقاق، وهو أحد معانيها (٢) مثل قوله: {ويل للمطففين} (٣) وقوله: {لهم في

(١) النجم: ٣٣ - ٤٢.

(٢) قال ابن هشام في مغني اللبيب ١: ٢٠٨ وللأم الجارة اثنان وعشرون معنى، أحدها: الاستحقاق، وهي الواقعة بين معنى وذات.. مثل: * (لهم في الدنيا خزي) *.

(٣) المطففين: ١.

الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} (١) وقوله (صلى الله عليه وآله): " الولد للفراش وللعاهر الحجر "

وعلى ذلك فالموضوع الذي تركز عليه الآيات هو العقاب لا الثواب، ولهذا تكون الآية خارجة عن مصب البحث، وهذا ظاهر لمن أمعن النظر.
الوجه الثاني:

لو فرضنا أن محور البحث في هذه الآيات هو الأعم من الثواب والعقاب، وأن اللام في الآية للانتفاع، ولكن الآية مع ذلك لا تنفي انتفاع الإنسان بعمل غيره إذا كان للإنسان المنتفع سعي فيه ولو بإيجاد أرضية صالحة للانتفاع به في ذاته، في قبيل من لا توجد في نفسه وذاته مثل هذه الأرضية والاستعداد والقابلية والمقتضى. فمثلا الإنسان ينتفع بشفاعة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يوم القيامة باتفاق جميع المسلمين

حتى الوهابيين، ولكن انتفاعه هذا ناشئ من أنه سعى لهذا الانتفاع حيث دخل في حظيرة الإيمان بالله وآياته.

وكذلك الأمر في استغفار المؤمنين للمؤمن بعد موته، وكذا الأعمال الصالحة التي يهدى ثوابها إلى أحد وتكون على وجه يرتبط بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين.

ولذلك لو كان مشركا أو ممن تحبط أعماله، لا يصل إليه ذلك الثواب ولا ينتفع بعمل الغير.

وقد تفتن لهذا الجواب بعض أئمة أهل السنة.

قال أبو الوفاء بن عقيل: إن الإنسان بسعيه وحسن معاشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد وتزوج وأسدى الخير وتودد للناس، فنشأ عن ذلك أنهم ترحموا عليه وأهدوا له العبادات، وقد كان ذلك من آثار سعيه كما قال (صلى الله عليه وآله): " إن

(١) البقرة: ١١٤.

أطيب ما أكل الرجل من كسبه " ويدل على ذلك الحديث الآخر: " وإذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث.. ".

وقال الشيخ الفقي: " هذا جواب يحتاج إلى إتمام، فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله، كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عمله، فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها، كالصلاة في جماعة، فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبع وعشرين ضعفا لمشاركة غيره له في الصلاة، فعمل غيره كان سببا لزيادة أجره، كما أن عمله كان سببا لزيادة أجر الآخر.

أضف إلى ذلك أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره، وإنما نفى ملكه لسعيه، وبين الأمرين فرق كبير، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه، فهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى (١).
الوجه الثالث:

إن الآية بصدد بيان أن عمل كل إنسان راجع إليه دون غيره، وأين هذا من عدم انتفاع الإنسان بعمل الغير؟ فإنه غير داخل في منطوق الآية ولا في مفهومها، ولا الآية ناظرة إلى نفيه.

وإن شئت قلت: إن الآية بصدد بيان أن كل إنسان رهن عمله، فإن عمل شرا فلا يتحملة غيره {ولا تزر وازرة وزر أخرى} (٢)، وإن عمل خيرا فيسعد به ويرى عمله وسعيه ف " الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر " و {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها} (٣)، {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا

(١) التوسل والزيارة: ٢٣٤.

(٢) الإسراء: ١٥.

(٣) الحاثية: ١٥.

يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره { (١)، وهذه هي الضابطة الأصلية في حياة الإنسان عاجلا وآجلا، وليس لأحد رفضها والاعتماد على غيرها، ولكن هذا لا ينافي جواز أن يهدي العامل ثواب عمله إلى غيره ويسعد الغير به، فهو خارج عن مفاد الآية إيجابا وسلبا.

وهذا مثل قول الوالد لولده: إنما تنتفع بتجارتك وسعيك، وإن سعي كل إنسان له نفسه لا للغير، وهذا لا ينافي أن ينتفع هذا الولد بعمل غيره إذا أهدى إليه ذلك الغير شيئا من الطعام والفواكه والألبسة بنيات مختلفة، فليس للولد حينئذ أن يعترض على والده ويقول: إنك قلت إنك تنتفع بسعيك مع أنني انتفعت بسعي الغير، إذ للوالد أن يقول: إن كلامي في نفس العمل الصادر منك ومن غيرك، فكل يملك عمل نفسه ولا يتجاوزها، ولكن كلامي هذا ليس ناظرا إلى ما لو وهب أحد حصيلة سعيه إليك بطيبة نفسه.

وكيف يمكن أن نقول بما يقوله هذا الوهابي ونظراؤه وقد تضافرت الآيات والأحاديث - كما مر عليك بعضها - بانتفاع الإنسان بعمل الغير في ظروف معينة، وتحت شرائط خاصة وإن لم يكن له أدنى سعي فيها.

هذه الآية تشير إلى نكتة وهي: أنه يجب على الإنسان الاعتماد على السعي والعمل لا على الحسب والنسب، وإلا يكون المسلم مثل اليهود الذين كانوا يتمنون تمني الحمقى إذ كانوا يعتمدون على صلتهم وانتمائهم إلى الأنبياء بقولهم: {نحن أبناء الله وأحباؤه} (٢) أو قولهم: {لن تمسنا النار إلا أياما معدودة} (٣).

(١) الزلزلة: ٧ - ٨.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) البقرة: ٨٠.

نعم، هذه - كما قلنا - ليست ضابطة أصلية في سعادة الإنسان في دنياه وأخراه، وليس له أن يعتمد عليها ويتخذها سندا، وإن كان أمرا صحيحا في نفسه، وليس كل أمر صحيح يصح أن يعتمد عليه الإنسان ويعيش عليه كشفاعات الأنبياء والأولياء، فلا يجوز ترك العمل بحجة أنهم يشفعون.
الشبهة الثالثة

دلت السنة على أن الإنسان ينقطع عمله بعد موته إلا عن أمور ثلاثة، إذ يقول (صلى الله عليه وآله):

" إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له " وليس عمل الغير أحد هذه الأمور الثلاثة، فلا ينتفع به. يلاحظ عليه:

أن الحديث يدل على أن عمل الإنسان ينقطع بموته إلا عن ثلاثة، ولا يدل على أنه لا ينتفع بشئ من غير هذه الثلاثة، وكم فرق بين القول بالانقطاع وعدم الانتفاع، فإن الأول ناظر إلى الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حال حياته، فإنها تنقطع بالموت بالضرورة إلا ما كان له وجود استمراري كالأمور الثلاثة، وأما الثاني فهو تعبير أعم مما يقوم به الإنسان بنفسه، أو يقوم به الغير، فلا ينفي الحديث انتفاع الإنسان بعمل قام به الغير وأهدى ثوابه إليه.

بعبارة أخرى: الموضوع في الحديث هو الأعمال التي للإنسان فيها دور مباشر، أو تسببيا كالولد، وأما الأعمال الخارجة عن هذا الإطار، التي ليست للإنسان فيها أية مدخلية إلا بإيجاد الأرضية الصالحة فهي خارجة عن موضوع الحديث.

الشبهة الرابعة

الحوالة إنما تكون بحق لازم، وهي تتحقق في حوالة المخلوق على المخلوق، وأما حوالة المخلوق على الخالق فأمر آخر، لا يصح قياسه على حوالة العبيد بعضهم على بعض.

الجواب: إن هذا الموقف وهذا الكلام اجتهاد في مقابل النص، فقد تضافرت الأدلة على أن الميت ينتفع بعمل الحي، وقد عرفت نصوصه كتاباً وسنة، وبعد هذا فما معنى هذا الاستدلال؟

أضف إليه أنه ليس هناك حوالة مخلوق على الخالق، وإنما هو امتثال لأمره سبحانه بأن نستغفر للمؤمنين ونصوم ونصلي عنهم ونحج ونحرم عنهم، وإنا لو فعلنا ذلك لانتفع الأموات، ونحن نقوم بذلك حسب أمر النبي، وليس هناك حوالة مخلوق على الله.

ثم هب أن الثواب على العمل تفضلي لا استحقاقى وله سبحانه أن لا يعطي شيئاً للعامل، ولكنه سبحانه تفضل وجعل ثواباً على العمل ثم رخص في أن يؤتى العمل بنية الميت ومن جانبه وأنه سيصل إليه الثواب، بل وتبرأ ذمته، فلا يصح لنا اللجاج والعناد في مقابل النصوص تعصبا للمنهج.

الشبهة الخامسة

أن العبادات على قسمين: قسم يمكن فيه النيابة كالصدقة والحج، وقسم لا يمكن فيه النيابة كالإسلام والصلاة وقراءة القرآن والصيام، فهذا النوع يختص ثوابه بفاعله لا يتعداه ولا ينتقل عنه لغيره.

والجواب: إن هذا أيضا اجتهاد في مقابل النص، فما الدليل على هذه التفرقة وقد شرع النبي الصوم عن الميت مع أن الصوم لا تدخله النيابة؟ والله الذي وعد الثواب للحج والصدقة والعتق يتفضل بإيصال ثواب الصيام والصلاة والقراءة وغيرها مما يصح أن يفعله الغير تبرعا إلى الميت.

وماذا تقولون في قوله (صلى الله عليه وآله): "أيما ميت مات وعليه صيام فليصمه عنه وليه" (١)

وهو حديث صحيح.

وقال البيهقي: قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، عن ابن عباس، وفي رواية بعضهم: "صومي عن أمك".

وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس: جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت، وعليها صيام شهر أفأقضي عنها؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله): "لو كان عليها دين أكنت قاضيه عنها؟" قال: نعم، قال: "فدين الله أحق أن يقضى".

وأخرج أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم في المستدرک، والبيهقي في "الشعب" والإمام أحمد عنه (صلى الله عليه وآله): "يس قلب القرآن ولا يقرأها رجل يريد الله

والدار الآخرة إلا غفر له وأقرأوها عند موتاكم".

وروى البيهقي: أن ابن عمر استحب أن يقرأ على القبر بعد الدفن أول سورة البقرة وخاتمتها.

الشبهة السادسة

إن اللام في قولهم: هذا للنبي أو للإمام أو للولي أو للوالد، هو نفس اللام الموجودة في قولنا: نذرت لله، أو لله علي.

(١) مسند أحمد ٦: ٦٩.

وعلى ذلك فإن النذر للأموال شرك وعبادة لهم، بحجة اشتراك العاملين في الصورة.

ولكن المتوهم غفل عن اختلاف معنى اللام في الموردين: فاللام في قوله هذا للنبي، نفس اللام الواردة في قوله تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين...} (١) ويختلف معناها مع الموجود في قوله: {رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً} (٢)، فإن اللام فيه للغاية، وبين المعنيين بون بعيد، والذي يضيف على العمل لون العبادة كون الشخص هو الغاية والمقصد لا المهدى إليه. ثم يجب أن لا نحصر جواز إهداء الثواب في الأعمال المذكورة في الروايات، بل نعمم الجواز بحيث يشمل جميع الأعمال، وذلك بإلغاء الخصوصية، فكما يجوز إهداء ثواب الصدقة والحج والعتق يجوز إهداء ثواب قراءة القرآن إلى الموتى. خاصة وأن هناك أحاديث مروية عن أهل البيت (عليهم السلام) جوزت مثل هذا العمل، وسوغت إهداء ثواب قراءة القرآن إلى الميت، وصرحت بوصوله إليه وانتفاعه به، فلماذا يترك رأي أهل البيت (عليهم السلام) ويكتفى بقول أحد أئمة المذاهب الأربعة؟!

أفلا ينبغي الرجوع إلى قول أهل البيت (عليهم السلام) إلى جنب أقوال أئمة المذاهب الأربعة على قدم المساواة؟! وأظن إن للقوم وراء هذا الإنكار أهدافا خطيرة، وهو: أن القول بعدم انتفاع الموتى من عمل الأحياء ذريعة لإنكار حياتهم، وبالتالي فإن الأنبياء والأولياء أموات لا ينتفعون بشيء مما يقدم إليهم من أحبائهم وشيعتهم. فإذا كانوا كذلك فما معنى التوسل والاستغاثة بهم وندائهم؟

(١) التوبة: ٦٠.

(٢) آل عمران: ٣٥.

كلمة في النذور
قد تفضل رسول الله (صلى الله عليه وآله) فضحي عن أمته أحياء وأمواتا وضحي
الصحابة

والتابعون عن نبيهم، فقد أخرج ابن ماجة وعبد الرزاق وغيرهما عن عائشة وأبي
هريرة: أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان إذا أراد أن يضحي اشترى كبشين عظيمين
سميين

أقرنين... فذبح أحدهما عن محمد وآل محمد والآخر عن أمته من شهد لله
بالتوحيد وله بالبلاغ.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي: أن النبي ذبح بيده وقال: " اللهم هذا عني
وعمن لم يضح من أمتي " وصريح ذلك وصول الثواب إليهم وانتفاعهم.
روى أبو داود بسنده في باب الأضحية عن الميت، عن علي بن أبي طالب: إنه
كان يضحي عن النبي بكبش وكان يقول: " أوصاني أن أضحي عنه فأنا أضحي
عنه " (١).

ما يترتب على هذا الأصل:

ويترتب على هذا الأصل صحة عمل المسلمين، حيث يقومون بأعمال حسنة
صالحة، وربما أهدوا ثوابها إلى أحبائهم وأعزتهم الموتى، وهو أمر يوافق عليه
الكتاب والسنة، بل صرحا به تصريحاً.

فما يقوم به المسلمون لموتاهم من إهداء ثواب الأعمال الصالحة لهم، أو ما
يفعلونه عند قبور الأنبياء والأولياء من إطعام الطعام، وتسجيل الماء بنية أن يصل
ثوابها إليهم إنما يقتدون فيها بسعد بن عباد الذي سأل النبي عن حكم الصدقة عن

(١) سنن أبي داود ج ٢ ص ٩٤ رقم الحديث ٢٧٩٠، كتاب الضحايا.

أمه أينفعها؟ فقال (صلى الله عليه وآله): " نعم "، فقال: فأبي الصدقة أفضل؟ قال: " الماء "، فحفر
بئرا، وقال: هذه لأم سعد.
فهم في هذا سعديون لا وثنيون، لا يريدون عبادة الموتى، بل يريدون إيصال
الثواب إليهم كما فعل سعد.

الفصل السادس
الشفاعة
في الكتاب والسنة

تمهيد

يتسم الدين الإسلامي في أبرز ما يتسم به، بأنه دين الدنيا والآخرة، ومن هنا يجب على المسلم أن يهتم بالجانبين، فيعمل لآخرفته كما يعمل لدنياه، ويتزود من حياته الحاضرة لحياته الأبدية المستقبلية كما قال تعالى: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ (١)

ولهذا كان من الواجب على المسلم أن يعمل بالفرائض الدينية، ويتجنب المحرمات الإلهية، ويلتزم بقواعد الشرع الحنيف، جهد إمكانه، فيصلّي الخمس، ويصوم شهر رمضان، ويزكي ماله، ويحج بيت الله الحرام، ويأمر بكل خير قدر عليه، ويعتمد في تحصيل السعادة الأخروية على العمل الصالح، والطاعة لله تعالى، كيف وقد نصت الآيات القرآنية على أن كل امرئ مرهون بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر؟!!

كما نصت الأحاديث الشريفة المأثورة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعترته الطاهرة

وصرحت بضرورة العمل والطاعة للحصول على النجاة والسعادة الأخرويتين.

(١) القصص: ٧٧.

فقد روي أن الإمام الصادق (عليه السلام) أمر بحضور جميع أقربائه قبيل وفاته، ثم التفت إليهم وأكد على أهمية الصلاة. وإليك الحديث بأكمله:

روى أبو بصير عن أصحاب الإمام قال: دخلت على أم حميدة (زوجة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)) أعزبها بأبي عبد الله (عليه السلام) فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) عند الموت لرأيت عجبا، فتح عينيه، ثم قال: "اجمعوا كل من بيني وبينه قرابة".

قالت: فما تركنا أحدا إلا جمعناه، فنظر إليهم ثم قال: "إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة" (١).

فليس للمسلم أن يعول على شيء إذا أهمل الواجبات وترك الفرائض، أو استهان بها.

نعم، خلق الإنسان ضعيفا - بحكم جبلته - محاصرا بالشهوات، محاطا بالغرائز، ولذلك ربما سها ولها، وربما بدرت منه معصية، واستحوذ عليه الشيطان، ووقع في شباكه وشراكه، فعصى من حيث لا يريد، وخالف من حيث لا يجب، ثم تعرض لضغط الوجدان، ووخز الضمير، فهل له أن ييأس في هذه الحالة ويقنط، وقد قال رب العزة: { لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون } (٢)

كلا ليس له إلا الرجاء في رحمة الله، والأمل في عفوه ولطفه، وقد فتح الإسلام نوافذ الأمل والرجاء أمام العاصي النادم، ليعود إلى ربه، ويواصل مسيرة تكامله في ثقة وطمأنينة.

ومن هذه النوافذ: التوبة والإنابة والاستغفار، ومنها: الشفاعة للمذنبين، الشفاعة التي تنالهم وفق معايير وردت في الكتاب والسنة، الشفاعة التي يبعث

(١) الوسائل ٣: ٧١.

(٢) يوسف: ٨٧.

الأمل فيها بصيصا من الرجاء في نفوس العصاة، ويمنع من قنوطهم ويأسهم، ويبعث فيهم روح العمل والنشاط.
وهذا لا يعني تمهيد الطريق للعصاة، لما للشفاعة من شروط وقيود، بل هي عملية زرع الأمل، والرجاء في النفوس، ما دام الأصل هو العمل والإتيان بالواجبات واجتناب المحرمات.
وتوضيحا لهذه الحقيقة، وتبيينا لهذا المفهوم القرآني الإسلامي أعدنا هذا الفصل، آمليين أن نلقي الضوء على إحدى السبل الإسلامية لمعالجة اليأس والقنوط الذي يصيب المذنبين ويقع الكلام في مباحث.

المبحث الأول

موقف علماء الإسلام من الشفاعة

أجمع علماء الأمة الإسلامية على أن النبي (صلى الله عليه وآله) أحد الشفعاء يوم القيامة مستدلين على ذلك بقوله سبحانه: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} (١) والذي أعطي هو حق الشفاعة الذي يرضيه، وبقوله سبحانه: {عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً} (٢) واتفق المفسرون على أن المقصود من المقام المحمود، هو مقام الشفاعة.

إن الشفاعة من المعارف القرآنية التي لا يصح لأحد من المسلمين إيجاد الخلاف والنقاش في أصلها، وإن كان يمكن لهم الاختلاف في بعض فروعها، فها نحن نورد آراء كبار علماء الإسلام - من القدامى والجدد - حتى يعلم موقفهم من هذا الأصل:

١ - أبو منصور الماتريدي السمرقندي (ت ٣٣٣ هـ)، إمام أهل السنة في المشرق الإسلامي، قال بعد أن أورد قوله سبحانه: {ولا يقبل منها شفاعة} (٣)،

(١) الضحى: ٥.

(٢) الإسراء: ٧٩.

(٣) البقرة: ٤٨.

وقوله تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} (١) قال: إن الآية الأولى وإن كانت تنفي الشفاعة، ولكن هنا شفاعة مقبولة في الإسلام وهي التي تشير إليها هذه الآية (٢).

٢ - تاج الإسلام أبو بكر الكلاباذي (ت ٣٨٠ هـ) قال: إن العلماء قد أجمعوا على أن الإقرار بجملته ما ذكر الله سبحانه وجاءت به الروايات عن النبي (صلى الله عليه وآله) في الشفاعة

واجب، لقوله تعالى: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} (٣) ولقوله: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} (٤) وقوله: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} (٥). وقال النبي (صلى الله عليه وآله): "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" (٦).
٣ - الشيخ المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ) قال: اتفقت الإمامية على أن رسول الله (صلى الله عليه وآله)

يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وإن أمير المؤمنين (عليه السلام) يشفع

في أصحاب الذنوب من شيعته، وإن أئمة آل محمد: كذلك، وينجي الله بشفاعتهم كثيرا من الخاطئين (٧).

وقال في موضع آخر: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يشفع يوم القيامة في مذنب أئمة

فيشفعه الله عز وجل، ويشفع أمير المؤمنين فيشفعه الله عز وجل، وتشفع الأئمة في مثل ما ذكرناه فيشفعهم الله، ويشفع المؤمن البر لصديقه المؤمن المذنب فتشفعه شفاعته، ويشفعه الله. وعلى هذا القول إجماع الإمامية إلا من شذ منهم، وقد نطق

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) تفسير الماتريدي المعروف ب " تأويلات أهل السنة " : ص ١٤٨، والمشار إليه هي الآية الثانية.

(٣) الضحى: ٥.

(٤) الإسراء: ٧٩.

(٥) الأنبياء: ٢٨.

(٦) التعرف لمذهب أهل التصوف: ص ٥٤ - ٥٥ تحقيق د. عبد الحلیم محمود، شيخ الأزهر الأسبق.

(٧) أوائل المقالات، ص ١٥.

به القرآن، وتظاهرت به الأخبار، قال الله تعالى في الكفار عند إخباره عن حسراتهم وعلى الفئات لهم مما حصل لأهل الإيمان: {فما لنا من شافعين* ولا صديق حميم} (١)، وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) "إني أشفع يوم القيامة فأشفع، ويشفع علي (عليه السلام) فيشفع، وإن أدنى المؤمنين شفاعة يشفع في أربعين من إخوانه" (٢).
٤ - الشيخ الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠ هـ) قال: حقيقة الشفاعة عندنا أن يكون في إسقاط المضار دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبي (صلى الله عليه وآله) فيشفعه الله تعالى ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصراط لما روي من قوله (عليه السلام):
" ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، والشفاعة ثبت عندنا للنبي، وكثير من أصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين" (٣).
٥ - الإمام أبو حفص النسفي (ت ٥٣٨ هـ) قال: والشفاعة ثابتة للرسول والأخيار في حق الكبائر بالمستفيض من الأخبار (٤).
وقد أيد التفتازاني في " شرح العقائد النسفية " هذا الرأي وصدقه دون أي تردد أو توقف (٥).
٦ - الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) قال في تفسير قوله تعالى: {ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل} (٦): كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا.
ثم أتى بكلام في حد الشفاعة وأنها للمطيعين لا للعاصين، وسنوافيك عن ذلك

-
- (١) الشعراء: ١٠٠ - ١٠١.
(٢) أوائل المقالات: ص ٥٣.
(٣) التبيان ١: ٢١٣ - ٢١٤.
(٤) العقائد النسفية: ص ١٤٨.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) البقرة: ٤٨.

في فصل خاص (١).

٧ - القاضي عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ) قال: مذهب أهل السنة هو جواز الشفاعة عقلا ووجودها سمعا بصريح الآيات وبخبر الصادق، وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبى المؤمنين، وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة عليها (٢).

٨ - الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي قال في كتابه " الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ": وأما من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادخرت لهم، وليس في الآية دليل لمنكريها، لأن قوله {يوما} في قوله: (٣) {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة} أخرجه منكرا. ولا شك أن في القيامة مواطن، يومها معدود بخمسين ألف سنة. فبعض أوقاتها ليس زمانا للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود، وفيه المقام المحمود لسيد البشر، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقد وردت آيات كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها، منها قوله تعالى: {فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} (٤)، مع قوله: {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} (٥)، فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتتين متغايرين، أحدهما محل للتساؤل، والآخر ليس له، وكذلك الشفاعة، وأدلة

(١) الكشاف ١: ٣١٤ - ٣١٥.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٣: ٣٥، ط دار إحياء التراث العربي.

(٣) البقرة: ٤٨.

(٤) المؤمنون: ١٠١.

(٥) الصافات: ٢٧.

ثبوتها لا تحصى كثرة (١).

٩ - البيضاوي قال في تفسير قوله تعالى: {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة} (٢): ربما تجعل الآية ذريعة على نفي الشفاعة لأهل الكبائر. وأجيبوا بأنها مخصوصة بالكفار، للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة. ويؤيده أن الخطاب هنا مع الكفار، والآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم (٣).

١٠ - الفتال النيسابوري - من علماء القرن السادس الهجري - قال: لا خلاف بين المسلمين أن الشفاعة ثابتة مقتضاها إسقاط المضار والعقوبات (٤).

١١ - الرصاص - من علماء القرن السادس الهجري - قال في كتابه "مصباح العلوم في معرفة الحي القيوم": إن شفاعة النبي (صلى الله عليه وآله) يوم القيامة ثابتة قاطعة (٥).

١٢ - ابن تيمية الحراني الدمشقي (ت ٧٢٨ هـ) قال: للنبي (صلى الله عليه وآله) في يوم القيامة

ثلاث شفاعات - إلى أن قال: - وأما الشفاعة الثالثة فيشفع في من استحق النار وهذه الشفاعة له (صلى الله عليه وآله) ولسائر النبيين والصدّيقين وغيرهم في من استحق النار أن لا

يدخلها ويشفع في من دخلها (٦).

١٣ - ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٣ هـ) قال في تفسير قوله سبحانه: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} (٧): هذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا

(١) الانتصاف المطبوع بهامش الكشاف ١: ٢١٤، ط ١٣٦٧ هـ.

(٢) البقرة: ٤٨.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١: ١٥٢.

(٤) روضة الواعظين: ٤٠٦.

(٥) مصباح العلوم في معرفة الحي القيوم المعروف ب (ثلاثين مسألة).

(٦) مجموعة الرسائل الكبرى ١: ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٧) البقرة: ٢٥٥.

يتحاصر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة عن الرسول (صلى الله عليه وآله): " آتي تحت العرش فأخر ساجدا، فيدعني ما شاء الله

أن يدعني، ثم يقال: إرفع رأسك وقل تسمع، واشفع تشفع. قال: فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة " (١).

١٤ - نظام الدين القوشجي (ت ٨٧٩ هـ) قال في شرحه على " تجريد الاعتقاد ": اتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة لقوله تعالى: { عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا } وفسر بالشفاعة (٢).

١٥ - المحقق الدواني قال: الشفاعة لدفع العذاب، ورفع الدرجات حق لمن أذن له الرحمن من الأنبياء، والمؤمنين بعضهم لبعض، لقوله تعالى: { يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا } (٣).

١٦ - الشعراني قال في المبحث السبعين: إن محمدا هو أول شافع يوم القيامة، وأول مشفع وأولاه فلا أحد يتقدم عليه، ثم نقل عن جلال الدين السيوطي: إن للنبي (صلى الله عليه وآله) يوم القيامة ثمان شفاعات، وثالثها: فيمن استحق دخول النار أن يدخلها (٤).

١٧ - العلامة المجلسي (ت ١١١٠ هـ) قال: أما الشفاعة فاعلم أنه لا خلاف فيها بين المسلمين بأنها من ضروريات الدين وذلك بأن الرسول يشفع لأمته يوم القيامة، بل للأمم الأخرى، غير أن الخلاف إنما هو في معنى الشفاعة وآثارها هل هي بمعنى الزيادة في المثوبات، أو إسقاط العقوبة عن المذنبين؟ والشريعة ذهبت إلى

(١) تفسير ابن كثير ١: ٣٠٩. والحديث مروى في صحيح البخاري في تفسير سورة الإسراء، ج ٦، لكن بلفظ آخر.

(٢) شرح التجريد: ص ٥٠١، ط ١٣٠٧ هـ.

(٣) شرح العقائد العضدية: ص ٢٠٧، ط مصر.

(٤) اليواقيت والجواهر ٢: ١٧٠.

أن الشفاعة تنفع في إسقاط العقاب وإن كانت ذنوبهم من الكبائر، ويعتقدون أيضا بأن الشفاعة ليست منحصرة في النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة من بعده، بل للصالحين أن

يشفعوا بعد أن يأذن الله لهم بذلك (١).

١٨ - محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) قال: وثبتت الشفاعة لنبينا محمد (صلى الله عليه وآله) يوم القيامة ولسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد،

ونسألها من المالك لها والآذن فيها بأن نقول: اللهم شفّع نبينا محمدا فينا يوم القيامة أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك، أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم - إلى أن قال: - إن الشفاعة حق في الآخرة، ووجب على كل مسلم الإيمان بشفاعته، بل وغيره من الشفعاء إلا أن رجاءها من الله، فالمتعين على كل مسلم صرف وجهه إلى ربه، فإذا مات استشفع الله فيه نبيه (٢).

١٩ - السيد سابق قال: المقصود بالشفاعة سؤال الله الخير للناس في الآخرة. فهي نوع من أنواع الدعاء المستجاب، ومنها الشفاعة الكبرى، ولا تكون إلا لسيدنا محمد رسول الله، فإنه يسأل الله سبحانه أن يقضي بين الخلق ليستريحوا من هول الموقف، فيستجيب الله له فيغبطه الأولون والآخرون، ويظهر بذلك فضله على العالمين وهو المقام المحمود الذي وعد الله به في قوله سبحانه: ﴿ومن الليل فتهدج به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ (٣). ثم نقل الآيات والروايات الخاصة بالشفاعة والمثبتة لها وقد ذكر بعض شروط قبولها (٤).

٢٠ - الدكتور سليمان دنيا قال: والشفاعة لدفع العذاب ورفع الدرجات حق

(١) بحار الأنوار ٨: ٢٩ - ٦٣، حق اليقين: ص ٤٧٣.

(٢) الهدية السنوية، الرسالة الثانية: ص ٤٢.

(٣) الإسراء: ٧٩.

(٤) العقائد الإسلامية: ص ٧٣.

لمن أذن له الرحمن من الأنبياء: والمؤمنين بعضهم لبعض لقوله تعالى: {يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا} (١) وقوله: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} (٢) (٣).

٢١ - الشيخ محمد الفقي قال: وقد أعطى الله الشفاعة لنبه ولسائر الأنبياء والمرسلين وعباده الصالحين وكثير من عباده المؤمنين، لأنه وإن كانت الشفاعة كلها لله كما قال: {لله الشفاعة جميعا} (٤) إلا أنه تعالى يجوز أن يفضل بها على من اجتباهم من خلقه واصطفاهم من عباده وكما يجوز أن يعطي من ملكه ما شاء لمن شاء ولا حرج (٥).

هذا نزر من كثير، وغيض من فيض أوردناه ليكون القارئ على بصيرة من موقف علماء الإسلام من هذه المسألة المهمة. والاستقصاء لكلمات المفسرين والمحدثين والمتكلمين، يدعوننا إلى تأليف مفرد في خصوص هذا الفصل والغرض إراءة نماذج من كلماتهم. وهي نصوص وتصريحات لا تترك ريبا لمرتاب، ولا شكاً لأحد بأن الشفاعة أصل من أصول الإسلام نطق بها الكتاب الكريم، وصرحت بها السنة النبوية والأحاديث المعتبرة من العترة الطاهرة، وأن الاختلاف إنما هو في معناها وبعض خصوصياتها وسنوافيك بالتفاصيل.

(١) طه: ١٠٩.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) محمد عبده، بين الفلاسفة والكلاميين ٢: ٦٢٨.

(٤) الزمر: ٤٤.

(٥) التوسل والزيارة في الشريعة المقدسة، ص ٢٠٦، ط. مصر.

المبحث الثاني

الشفاعة في القرآن الكريم

وردت مادة الشفاعة في القرآن الكريم بصورها المتنوعة ثلاثين مرة في سور شتى، ووقعت فيها موردا للنفي تارة والإثبات أخرى. هذا وينم كثرة ورودها والبحث حولها عن مدى اهتمام القرآن بهذا الأصل سواء في مجال النفي أو في مجال الإثبات. غير أن الاستنتاج الصحيح من الآيات يحتاج إلى جمع الآيات على صعيد واحد، حتى يفسر بعضها بعضا ويكون البعض قرينة على الأخرى. ومن الواضح أن الآيات المتعلقة بالشفاعة على أصناف، يرمي كل صنف إلى هدف خاص كالاتي:

١ - الصنف الأول: ما ينفي الشفاعة

وهو آية واحدة، يقول سبحانه وتعالى: { يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون } (١):

(١) البقرة: ٢٥٤.

إلا أن الآية اللاحقة لهذه الآية تصرح بوجود الشفاعة عند الله سبحانه، إلا أنها مشروطة بإذنه: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} (١).
قال العلامة الطباطبائي: "إن لوازم المخالة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهام أموره، فإذا كانت لغير وجه الله كان نتيجتها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى بشأن الظالمين يوم القيامة: {يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ٢٨ لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني} (٢). أما الأخلاء من المتقين فإن خلتهم تتأكد وتنفعهم يومئذ. وفي الخبر النبوي: إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلت الأنساب وذهبت الإخوة إلا الإخوة في الله، وذلك قوله: {الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين} (٣) (٤).
وعلى ذلك، فكما أن المنفي هو قسم خاص من المخالة دون مطلقها، فهكذا الشفاعة، فالمنفي بحكم السياق، قسم خاص من الشفاعة. أضف إلى ذلك أن الظاهر هو نفي الشفاعة في حق الكفار بدليل ما ورد في ذيل الآية، حيث قال: {والكافرون هم الظالمون}.

٢ - الصنف الثاني: ما يفند عقيدة اليهود في الشفاعة وهو الآيات التي خاطبت اليهود الذين كانوا يعتقدون بأن أنبياءهم وأسلافهم يشفعون لهم وينجوهم من العذاب سواء كانوا عاملين بشريعتهم أو عاصين، وأن مجرد الانتماء والانتساب يكفيهم في ذلك المجال. يقول تعالى: {يا بني إسرائيل

-
- (١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) الفرقان: ٢٨ - ٢٩.
(٣) الزخرف: ٦٧.
(٤) تفسير الميزان: ١٨: ١٢٨.

اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ٤٧ واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون} (١).

إن وحدة السياق تقضي بأن الهدف من نفي قبول الشفاعاة هو الشفاعاة الخاطئة التي كانت تعتقدها اليهود في تلك الفترة من دون أن يشترطوا في الشفييع والمشفوع له شرطا أو أمرا. ولا صلة لها بالشفاعاة المحدودة المأذونة.

٣ - الصنف الثالث: ما ينفي شمول الشفاعاة للكفار

وهو الآيات التي يستشف منها نفي وجود الشفييع يوم القيامة للكفار الذين انقطعت علاقتهم عن الله لأجل الكفر به وبرسله وكتبه، كما انقطعت علاقتهم الروحية عن الشفعاء الصالحين لأجل انهماكهم في الفسق والأعمال السيئة، فإنه ما لم يكن بين الشفييع والمشفوع له، ارتباط روحي لا يقدر أو لا يقوم الشفييع على إنقاذه وتطهيره وتزكيتة. يقول تعالى: {يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون} (٢) ويقول تعالى أيضا: {إذ نسويكم برب العالمين* وما أضلنا إلا المجرمون* فما لنا من شافعين* ولا صديق حميم} ويقول أيضا: {وكنا نكذب بيوم الدين* حتى أتانا اليقين* فما تنفعهم شفاعاة الشافعين} (٣).

(١) البقرة: ٤٧ - ٤٨.

(٢) الأعراف: ٥٣.

(٣) المدثر: ٤٦ - ٤٨.

- ٤ - الصنف الرابع: ما ينفي صلاحية الأصنام للشفاعة وهذا الصنف يرمي إلى نفي صلاحية الأصنام للشفاعة، وذلك لأن عرب الجاهلية كانت تعبد الأصنام لاعتقادها بشفاعتها عند الله، وهذه الآيات هي:
- أ - {وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون} (١).
- ب - {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون} (٢).
- ج - {ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين} (٣).
- د - {أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون} (٤).
- هـ - {أتأخذ من دونه آلهة إن يردني الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون} (٥).
- والحاصل أن القرآن مع أنه فند العقائد الجاهلية وعقائد الوثنيين في باب الشفاعة، وأبطل كون النظام السائد في الآخرة عين النظام السائد في الدنيا، لم ينكر الشفاعة بالمرّة، بل أثبتها لأوليائها، في إطار خاص وبمعايير خاصة. وعلى ذلك فالآيات النافية نزلت بشأن تلك العقيدة السخيفة التي التزمت بها الوثنية وزعمت

-
- (١) الأنعام: ٩٤.
(٢) يونس: ١٨.
(٣) الروم: ١٣.
(٤) الزمر: ٤٣.
(٥) يس: ٢٣.

بموجبها وحدة النظامين، وأن تقديم القرابين والصدقات إلى الأصنام والخشوع والبكاء لديهم، يصح قيامهم بالشفاعة وأنهم قادرون على ذلك بتفويض منه سبحانه إليهم، بحيث صاروا مستقلين في الفعل والترك.
والآيات المثبتة تشير إلى الشفاعة الصحيحة التي ليست لها حقيقة سوى جريان فيضه سبحانه ومغفرته من طريق أوليائه إلى عباده بإذنه ومشيعته تحت شرائط خاصة.

٥ - الصنف الخامس: يخص الشفاعة به سبحانه

وهذه الآيات تبين أن الشفاعة مختصة بالله سبحانه لا يشاركه فيها غيره، والآيات الكريمة هي:

أ - {وأُنذِرُ به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون} (١).

ب - {وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع} (٢).

ج - {الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون} (٣).

د - {قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون} (٤).
وجدير بالذكر أن الله سبحانه لا يشفع لأحد عند أحد، فإنه فوق كل شيء،

(١) الأنعام: ٥١.

(٢) الأنعام: ٧٠.

(٣) السجدة: ٤.

(٤) الزمر: ٤٤.

وذلل كل شئ لديه، وبذلك يصبح معنى قوله سبحانه: {لله الشفاعة جميعا} رفضا لعقيدة المشركين التي أشار إليها سبحانه في آية سابقة، أعني: {أم اتخذوا من دون الله شفعاء} (١)، فيكون المراد أن كل شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل

شئ ومنه شفاعتهم، فلا يشفع أحد إلا بإذنه. فهنا شفاعتان: إحداهما لله، والأخرى لعباده المأذونين. فما لله فمعناها: مالكيته لكل شفاعة مأذونة بالأصالة لا أنه سبحانه يشفع لأحد لدى أحد. وأما ما لعباده المأذونين، فهي شفاعتهم لمن ارتضاه سبحانه: وسنوافيك توضيحه في الصنف السادس من الآيات.

٦ - الصنف السادس: يثبت الشفاعة لغيره سبحانه بشروط إن هذا الصنف من الآيات يصرح بوجود شفيع غير الله سبحانه وأن شفاعته تقبل عند الله تعالى في إطار خاص وشرائط معينة في الشفيع والمشفوع له. وهذه الآيات وإن لم تتضمن أسماء الشفعاء، أو أصناف المشفوع لهم، إلا أنها تحدد كلا منهما بحدود واردة في الآيات:

- أ - {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} (٢).
ب - {ما من شفيع إلا من بعد إذنه} (٣).
ج - {لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا} (٤).
والضمير في قوله {لا يملكون} يرجع إلى الآلهة التي كانت تعبد، وأشير إليه

(١) الزمر: ٤٣.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) يونس: ٣.

(٤) مريم: ٨٧.

في قوله سبحانه: {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا* كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} (١).

د - {يؤمنون ولا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا} (٢).

ه - {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} (٣).

و - {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} (٤).

والضمير المتصل في {يدعون} يرجع إلى الآلهة الكاذبة كالأصنام فهؤلاء لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون، أي شهد بعبودية ربه ووحدانته كالملائكة والمسيح.

ويستفاد من هذه الآيات الأمور التالية:

١ - إن هذه الآيات تصرح بوجود شفعاء يوم القيامة يشفعون بشروط خاصة وإن لم تصرح بأسمائهم وسائر خصوصياتهم.

٢ - إن شفاعتهم مشروطة بإذنه سبحانه، حيث يقول: {إلا بإذنه}.

٣ - يشترط في الشفيع أن يكون ممن يشهد بالحق، أي يشهد بالله سبحانه ووحدانته وسائر صفاته.

٤ - أن لا يظهر الشفيع كلاما يبعث غضب الله سبحانه، بل يقول قولا مرضيا عنده، ويدل عليه قوله: {ورضى له قولا}.

(١) مريم: ٨١ - ٨٢.

(٢) طه: ١٠٩.

(٣) سبأ: ٢٣.

(٤) الزخرف: ٨٦.

٥ - أن يعهد الله سبحانه له بالشفاعة كما يشير إليه قوله: {إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا}.

ثم إن هناك سؤالاً يطرح في هذا المقام، وهو كيف يصح الجمع بين هذا الصنف من الآيات التي تثبت الشفاعة لغيره سبحانه، والصنف الخامس الذي يخصها بالله سبحانه؟

والجواب: أن مقتضى التوحيد في الأفعال، وأنه لا مؤثر في عالم الكون إلا الله سبحانه، ولا يوجد في الكون مؤثر مستقل سواه، وأن تأثير سائر العلل إنما هو على وجه التبعية لإرادته سبحانه ومشيئته، والاعتراف بمثل العلل التابعة لا ينافي انحصار التأثير الاستقلالي في الله سبحانه، ومن ليس له إمام بالمعارف القرآنية يواجه حيرة كبيرة تجاه طائفتين من الآيات، إذ كيف يمكن أن تنحصر شؤون وأفعال، كالشفاعة، والمالكية، والرازقية، وتوفي الأرواح، والعلم بالغيب، والإشفاء بالله سبحانه، كما عليه أكثر الآيات القرآنية، بينما تنسب هذه الأفعال في آيات أخرى إلى غير الله من عباده. فكيف ينسجم هذا الانحصار مع هذه النسبة؟ غير أن الملمين بمعارف الكتاب العزيز يدركون أن هذه الأمور على وجه الاستقلال والأصالة قائمة بالله سبحانه، مختصة به، في حين أن هذه الأمور تصدر من الغير على وجه التبعية وفي ظل القدرة الإلهية.

وقد اجتمعت النسبتان في قوله تعالى: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} (١). فهذه الآية عندما تنسب الرمي بصراحة إلى النبي الأعظم، تسلبه عنه وتنسبه إلى الله سبحانه، ذلك لأن انتساب الفعل إلى الله (الذي منه وجود العبد وقوته وقدرته) أقوى بكثير من انتسابه إلى العبد، بحيث ينبغي أن يعتبر الفعل فعلاً

(١) الأنفال: ١٧.

لله، ولكن شدة الانتساب لا تسلب المسؤولية عن العبد. وعلى ذلك فإذا كانت الشفاعة عبارة عن سريان الفيض الإلهي (أعني: طهارة العباد عن الذنوب وتخلصهم عن شوائب المعاصي) على عباده، فهي فعل مختص بالله سبحانه لا يقدر عليه أحد إلا بقدرته وإذنه. وبذلك تصح نسبته إلى الله سبحانه بالأصالة وإلى غيره بالتبعية، ولا منافاة بين النسبتين، كالملكية، فالله سبحانه مالك الملك والملكوت، ملك السماوات والأرض بإيجاده وإبداعه، ثم يملكه العبد منه بإذنه ولا منافاة في ذلك، لأن الملكية الثانية على طول الملكية الأولى. ونظيرها كتابة أعمال العباد، فالكاتب هو الله سبحانه، حيث يقول: {والله يكتب ما يبيتون} (١) وفي الوقت نفسه ينسبها إلى رسله وملائكته، ويقول: {بلى ورسلنا لديهم يكتبون} (٢). فإذا كانت الملائكة والأنبياء والأولياء مأذونين في الشفاعة، فلا مانع من أن تنسب إليهم الشفاعة، كما تنسب إلى الله سبحانه، غير أن أحدهما يملك هذا الحق بالأصالة والآخر يملكها بالتبعية.

الصف السابع: يسمى من تقبل شفاعته ويتضمن هذا الصف أسماء وخصوصيات من تقبل شفاعته يوم القيامة. وهذه الآيات هي:

أ - {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} (٣).

(١) النساء: ٨١.

(٢) الزخرف: ٨٠.

(٣) الأنبياء: ٢٦ - ٢٨.

وهذه الآيات تصرح بأن الملائكة التي اتخذها المشركون أولادا لله سبحانه، معصومون من كل ذنب لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون، ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله سبحانه، وهم مشفقون من خشيته.

ب - {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} (١).

وهذه الآية كالأية السابقة تفيد كون الملائكة ممن ترضى شفاعتهم بإذن الله سبحانه في حق من يشاء الله ويرضاه.

ج - {الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا} (٢).

وهذه الآية تعد حملة العرش ومن حوله ممن يستغفرون للذين آمنوا. والآية مطلقة، تشمل ظروف الدنيا والآخرة. وهل طلب المغفرة إلا الشفاعة في حق المؤمنين؟ هذه هي الأصناف السبعة من الآيات الواردة في الشفاعة. فهي غير نافية على وجه الإطلاق، ولا مثبتة كذلك، بل تثبتتها تحت شروط خاصة وتصرح بوجود شفعاء مأذونين ولا يذكر أسماءهم سوى الملائكة وذلك للمصلحة الكامنة في هذا الإبهام، ولأجل أن يتميز المقبول من المرفوض نورد خلاصة الآيات: الشفاعات المرفوضة:

١ - الشفاعة التي كانت تعتقدها اليهود الذين رفضوا كل قيد وشرط في جانب الشافع والمشفوع له، واعتقدوا أن الحياة الأخروية كالحياة

(١) النجم: ٢٦.

(٢) غافر: ٧.

الدينوية، حيث يمكن التخلص من عذاب الله سبحانه بالفداء. وقد رد القرآن في كثير من الآيات وقال: {ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون} (١) وقد أوردنا هذا في الصنف الثاني من الأصناف السبعة المذكورة.

٢ - الشفاعة في حق من قطعوا علاقاتهم الإيمانية مع الله سبحانه فلم يؤمنوا به أو بوحدانيته أو بقيامته، أو أفسدوا في الأرض، وظلموا عباده، أو غير ذلك مما يوجب قطع رابطة العبد مع الله سبحانه حتى صاروا أوضح مصداق لقوله سبحانه: {نسوا الله فأنساهم أنفسهم} (٢)، وقوله سبحانه: {قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} (٣)، وقوله سبحانه: {فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا} (٤) إلى غير ذلك من الآيات الواردة في حق المشركين والكافرين والظالمين والمفسدين، وهؤلاء كما قطعوا علاقاتهم الإيمانية مع الله سبحانه كذلك قطعوا صلاتهم المعنوية مع الشافع، فلم تبق بينهم وبين الشافعين أية مشابهة تصحح شفاعتهم له.

وقد ورد في الصنف الثالث من الأصناف السبعة المذكورة ما يوضح هذا الأمر. ٣ - الأصنام التي كانت العرب تعبدها كذبا وزورا، وقد نفى القرآن أن تكون هذه الأصنام قادرة على الدفاع عن نفسها فضلا عن الشفاعة في حق عباده. (لمزيد من التوضيح راجع الصنف الرابع من الأصناف المذكورة). هذه هي الشفاعات المرفوضة في القرآن الكريم.

(١) البقرة: ٤٨.

(٢) الحشر: ١٩.

(٣) طه: ١٢٦.

(٤) الأعراف: ٥١.

الشفاعات المقبولة:

أما الشفاعات المقبولة فهي:

- ١ - الشفاعة التي هي من حق الله سبحانه، وليس للمخلوق أن ينازعه في هذا الحق أو يشاركه فيه (لاحظ الصنف الخامس من الأصناف السبعة).
- ٢ - شفاعة فئة خاصة من عباد الله سبحانه، الذين تقبل شفاعتهم عند الله بشروط خاصة ذكرت في الآيات الواردة في الصنف السادس وإن لم تذكر أسماءهم وخصوصياتهم.
- ٣ - شفاعة الملائكة وحملة العرش ومن حوله، حيث يستغفرون للذين آمنوا، فهؤلاء يقبل استغفارهم الذي هو قسم من الشفاعة، والفرق بين هذا وما تقدم، هو أنه قد ذكرت أسماء الشفعاء وخصوصياتهم في هذه الآيات دون ما تقدمها. وبالوقوف على هذه الأصناف السبعة بإمكاننا تمييز الشفاعة المرفوضة عن المقبولة كما نص عليها القرآن الكريم.

المبحث الثالث

حقيقة الشفاعة

إن الشفاعة في القرآن الكريم على معان أو أقسام ثلاثة:

أ - الشفاعة التكوينية.

ب - الشفاعة القيادية.

ج - الشفاعة المصطلحة.

أ - الشفاعة التكوينية

اتفق الواعون من المسلمين على أنه لا مؤثر مستقل في الوجود غيره سبحانه، وأن غيره مفتقر في الوجود والتأثير إليه سبحانه، ولأجل ذلك صار شعار القرآن في حق الإنسان وفي حق غيره قوله: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد* إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز﴾ (١)

(١) فاطر: ١٥ - ١٧.

وقوله سبحانه: {والله الغني وأنتم الفقراء} (١) وقال سبحانه على لسان نبيه الكريم موسى (عليه السلام): {رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير} (٢).
فبما أن عالم الكون عالم إمكاني لا يملك من لدن ذاته وجودا ولا كمالا، بل كل ما يملك من وجود وكمال فقد أفيض إليه من جانبه سبحانه فهو بحكم الإمكان موجود مفتقر في عامة شؤونه وتأثيره وعليته.

ونظرا لتوقف تأثير كل ظاهرة كونية على إذنه سبحانه كما جاء في قوله تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون} (٣) فإن الآية بعدما تصف الله سبحانه بأنه خالق السماوات والأرض في ستة أيام وأنه استوى بعد ذلك على العرش، وأنه يدبر أمر الخلق، تعلن بأن كل ما في الكون من العلل الطبيعية والظواهر المادية يؤثر بعضه في البعض بإذنه سبحانه، وأنه ليست هناك علة مستقلة في التأثير، بل كل ما في الكون من العلل، ذاته وتأثيره، قائمان به سبحانه وبإذنه، فالمراد من الشفيع في الآية هو الأسباب والعلل المادية وغيرها، الواقعة في طريق وجود الأشياء وتحققها وإنما سميت العلة شفيعا، لأن تأثيرها يتوقف على إذنه سبحانه، فهي (مشفوعة إلى إذنه سبحانه) تؤثر وتعطي ما تعطي.

وعلى ذلك تخرج الآية عن الدلالة على الشفاعة المصطلحة بين المفسرين وعلماء الكلام، وإنما اخترنا هذا المعنى لوجود قرائن في نفس الآية، فإنها تبحث في صدرها عن خلق السماوات والأرض وتحديد مدة الخلق والإيجاد بستة أيام، ثم

(١) محمد: ٣٨.

(٢) القصص: ٢٤.

(٣) يونس: ٣.

ترجع الآية، وتنص على سعة قدرته على جميع ما خلق وإحاطته بهم، وأنه بعدما خلق السماوات والأرض، استوى على عرش القدرة وأخذ يدبر العالم. وعند ذلك يتساءل القارئ: إذا كان الله جل وعلا هو المدبر والمؤثر فما حال سائر المدبرات والمؤثرات التي يلمسها البشر في حياته؟ فللإجابة على هذا السؤال قال سبحانه: {ما من شفيح إلا من بعد إذنه} مصرحا بأن كل تأثير وتغيير في سبب من الأسباب إنما هو بإذنه ومشيئته، ولولا إذنه ومشيئته لما قام السبب بالسببية، ولا العلة بالعلية، وهذه القرائن توجب حمل هذه الجملة على ما يجري في عالم الكون والوجود من التأثير والعلية، وتفسيرها بالشفاعة التكوينية، وأن كل ظاهرة مؤثرة كالشمس والقمر والنار والماء لا تؤثر إلا بالاستمداد من قدرته سبحانه والاعتماد على إذنه ومشيئته حتى يتم بذلك التوحيد في الخالق والتدبير.

ب - الشفاعة القيادية

وهو قيام قيادة الأنبياء والأولياء والأئمة والعلماء والكتب السماوية مقام الشفيح والشفاعة في تخليص البشر من عواقب أعمالهم وآثار سيئاتهم. والفرق بين الشفاعة المصطلحة والشفاعة القيادية هو أن الشفاعة المصطلحة توجب رفع العذاب عن العبد بعد استحقاقه له، والشفاعة القيادية توجب أن لا يقع العبد في عداد العصاة حتى يستحق. والظاهر أن إطلاق الشفاعة على هذا القسم ليس إطلاقا مجازيا، بل إطلاق حقيقي. وقد شهد بذلك القرآن والأخبار، قال سبحانه: {وأندر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيح لعلهم يتقون} (١). والضمير المجرور في {به} يرجع

(١) الأنعام: ٥١.

إلى القرآن (١).
ولا شك أن ظرف شفاعه هذه الأمور إنما هو الحياة الدنيوية، فإن
تعاليم الأنبياء وقيادتهم الحكيمه وهداية القرآن وغيره، إنما تتحقق في
هذه الحياة الدنيوية، وإن كانت نتائجها تظهر في الحياة الأخروية، فمن عمل
بالقرآن وجعله أمامه في هذه الحياة، قاده إلى الجنة في الحياة الأخروية.
ولأجل ذلك نرى أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يأمر الأمة بالتمسك بالقرآن
ويصفه

بالشفاعة ويقول: " فإذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن
فإنه شافع مشفع وماحل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله
خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل
وبرهان " (٢).

فإن قوله: " ومن جعله أمامه "، تفسير لقوله: " فإنه شافع مشفع ".
والحاصل: أن الشفاعة القيادية شفاعه بالمعنى اللغوي، فإن المكلفين بضم
هداية القرآن وتوجيهات الأنبياء والأئمة إلى إرادتهم وطلباتهم، يفوزون بالسعادة
ويصلون إلى أرقى المقامات في الحياة الأخروية ويتخلصون عن تبعات المعاصي
ولوازمها.

فالمكلف وحده لا يصل إلى هذه المقامات، ولا يتخلص من تبعات المعاصي،
كما أن خطاب القرآن والأنبياء وحده - من دون أن يكون هناك من يسمع قولهم
ويلبي نداءهم - لا يؤثر ما لم ينضم عمل المكلف إلى هدايتهم، وهدايتهم إلى عمل
المكلف فعندئذ تتحقق هذه الغاية.

(١) مجمع البيان ٢: ٣٠٤.

(٢) الكليني الكافي ٢: ٢٣٨.

ج - الشفاعة المصطلحة

وحقيقة هذه الشفاعة تعني أن تصل رحمته سبحانه ومغفرته وفيضه إلى عباده عن طريق أوليائه وصفوة عباده، وليس هذا بأمر غريب، فكما أن الهداية الإلهية التي هي من فيوضه سبحانه، تصل إلى عباده في هذه الدنيا عن طريق أنبيائه وكتبه، فهكذا تصل مغفرته سبحانه وتعالى إلى المذنبين والعصاة يوم القيامة من عباده عن ذلك الطريق.

ولا يبعد في أن يصل غفرانه سبحانه إلى عباده يوم القيامة عن طريق خيرة عباده، فإن الله سبحانه قد جعل دعاءهم في الحياة الدنيوية سبباً، ونص بذلك في بعض آياته. فنرى أن أبناء يعقوب لما عادوا خاضعين، رجعوا إلى أبيهم، وقالوا له: { قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين } (١) فأجابهم يعقوب بقوله: { سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم } (٢). ولم يقتصر الأمر على يعقوب فحسب، بل كان النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) ممن يستجاب

دعاؤه أيضاً في حق العصاة، قال سبحانه: { ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً } (٣). وهذه الآيات ونظائرها مما لم نذكرها مثل قوله: { وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم } (٤) تدل على أن مغفرته سبحانه قد تصل إلى عباده بتوسيط واسطة كالأنبياء، وقد تصل بلا توسيط واسطة، كما يفصح عنه سبحانه بقوله: { يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى

(١) يوسف: ٩٧.

(٢) يوسف: ٩٨.

(٣) النساء: ٦٤.

(٤) التوبة: ١٠٣.

الله توبة نصوحا} (١) وقوله: {واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود} (٢). إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عن أن توبة العبد تجلب المغفرة بلا واسطة أحد وقد تصل بتوسيط واسطة هي من أعز عبادته وأفضل خليقته وبريته. وتتضح هذه الحقيقة إذا وقفنا على أن الدعاء بقول مطلق - وبخاصة دعاء الصالحين - من المؤثرات الواقعة في سلسلة نظام العلة والمعلول، ولا تنحصر العلة في العلة الواقعة في إطار الحس فإن في الكون مؤثرات خارجة عن إحساسنا وحواسنا، بل قد تكون بعيدة حتى عن تفكيرنا، يقول سبحانه: {والنازعات غرقا* والناشطات نشطا* والسابحات سبحا* فالسابقات سبقا* فالمدبرات أمرا} (٣).

فما المراد من هذه {المدبرات أمرا} أهي مختصة بالمدبرات الطبيعية المادية، أو المراد هو الأعم منها؟ فقد روي عن علي (عليه السلام) تفسيرها بالملائكة الأقوياء الذين

عهد الله إليهم تدبير الكون والحياة بإذنه سبحانه، فكما أن هذه المدبرات يجب الإيمان بها وإن لم تعلم كيفية تدبيرها وحقيقة تأثيرها، فكذلك الدعاء يجب الإيمان بتأثيره في جلب المغفرة، ودفع العذاب وإن لم تعلم كيفية تأثيره.

(١) التحريم: ٨.

(٢) هود: ٩٠.

(٣) النازعات: ١ - ٥.

المبحث الرابع ميررات الشفاعة

هناك ميررات لجعل الشفاعة من أسباب المغفرة ورفع العذاب، نورد بعضها على سبيل المثال:

أ - ابتلاء الناس بالذنب والتقصير

ربما يقال: إذا كان المنقذ الوحيد للإنسان يوم القيامة هو عمله الصالح كما صرح به في الآيات فلماذا جعلت الشفاعة وسيلة للمغفرة وسببا لرفع العذاب، أوليس الله بقائل: {وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى} (١)، {فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين} (٢)، {ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا} (٣) وعلى ذلك فلماذا أدخلت الشفاعة في سلسلة العلل لجلب المغفرة؟

(١) الكهف: ٨٨.

(٢) القصص: ٦٧.

(٣) القصص: ٨٠.

الإجابة على هذا السؤال واضحة بالفوز بالسعادة وإن كان يعتمد على العمل أشد الاعتماد، غير أن صريح الآيات الأخر هو أن العمل بنفسه ما لم تنضم إليه رحمته الواسعة لا ينقذ الإنسان من تبعات تقصيره، قال سبحانه: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ (١)، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ (٢).

ب - سعة رحمته لكل شيء

إن التدبر في الآيات القرآنية يعطي أن رحمة الله سبحانه واسعة تسع كل الناس، إلا من بلغ حدا لا يقبل التطهر ولا الغفران. قال سبحانه حاكيا عن حملة العرش: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ (٣) نرى أن حملة العرش يدلون طلب غفرانه سبحانه للتائبين والتابعين لسبيله، بكون رحمته واسعة وسعت كل شيء.

كما نرى أنه سبحانه يأمر نبيه أن يواجه الناس كلهم - حتى المكذبين لرسالته - بقوله: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ (٤) ونرى في آية ثالثة يعد الذين يجتنبون الكبائر بالرحمة والمغفرة ويقول: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش

(١) النحل: ٦١.

(٢) فاطر: ٤٥.

(٣) غافر: ٧.

(٤) الأنعام: ١٤٧.

إلا اللهم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم} (١) وهذه الآيات توضح مضامين الأدعية الإسلامية من قوله (عليه السلام): " يا من سبقت رحمته غضبه ".
 كيف لا! ونحن نرى أن الله سبحانه يعد القانط من رحمة الله والآيس من روحه كافرا وضالا، ويقول: {ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون} (٢)، ويقول تعالى أيضا: {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} (٣)، ويقول سبحانه: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم} (٤).
 فإذا عرفنا القرآن أن الله سبحانه ذو رحمة واسعة تفيض على كل شيء، فعند ذلك لا مانع من أن تفيض رحمته وغفرانه عن طريق أنبيائه ورسله وأوليائه، فيقبل أدعيتهم في حق عباده بدافع أنه سبحانه ذو رحمة واسعة، كما لا مانع أن يعتقد العصاة في شرائط خاصة بغفرانه سبحانه من طرق كثيرة لأجل أنه عد القانط ضالا والآيس كافرا.
 وإجمالا: فكما يجب على المربي الديني أن يذكر عباد الله بعقوبته وعذابه وما أعد للعصاة والكفار من سلاسل ونيران، يجب عليه أيضا أن يذكرهم برحمته الواسعة ومغفرته العامة التي تشمل كل شيء، إلا من بلغ من الخبث والرداءة درجة لا يقبل معها التطهير كما قال سبحانه: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (٥).

(١) النجم: ٣٢.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) الحجر: ٥٦.

(٤) الزمر: ٥٣.

(٥) النساء: ٤٨.

ج - الأصل هو السلامة
دلت التجارب والبراهين العقلية على أن الأصل الأولي في الخليقة هو
السلامة، وأن المرض والانحراف أمران يعرضان على المزاج، ويزولان بالمداداة
والمعالجة، وليس هذا الأصل مختصا بالسلامة من حيث العيوب الجسمانية، بل
الأصل هو الطهارة من الأقدار والأدران المعنوية، فقد خلق الإنسان على الفطرة
النقية السليمة من الشرك والعصيان التي أشار إليها القرآن بقوله: ﴿فطرة الله التي
فطر الناس عليها﴾ (١)، وقال النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله): " كل مولود يولد
على الفطرة ثم
أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " (٢).

وعلى ذلك فلا غرو في أن تزول آثار العصيان عن الإنسان بالعلاج والمداداة
الخاصة في مواقف شتى حتى تظهر الخليقة الأولى التي فطر عليها، فقد جعل الله
سبحانه المواقف التي يمر بها الإنسان بعد موته في البرزخ ويوم القيامة، وسائل
لتطهير الإنسان وتصفيته من آثار الذنوب وتبعاتها. ولا غرو في أن يكون الشفاء
المرضيون عند الله، أطباء يعالجون أولئك المرضى، بتصرفاتهم ونفوسهم القوية
حتى يزيلوا عنهم غبار المعصية، ودرن الذنب حتى تعود الجوهرة الإنسانية نقية
صافية ناصعة، فيستحق الإنسان نعيم الآخرة ودخول الجنة إلا من بلغ حدا لا
يقبل العلاج والتداوي، لأجل أن ذاته قد انقلبت إلى ما يضاد الجوهرة الإنسانية
النقية التي لا تقبل أية مداداة أو علاج، كما لو اتخذ لربه شريكا فاستحق الخلود في
النار.

(١) الروم: ٣٠.

(٢) التاج الجامع للأصول ٤: ١٨٠، تفسير البرهان ٣: ٢٦١ / ٥.

فليس التوقف في البرزخ ولا في المراحل المتنوعة في يوم القيامة ولا الدخول في النار مدة محدودة ولا شفاعة الأنبياء والأولياء في حقهم، إلا تصرفا تكوينيا في حقهم حتى تعود الجوهرة الأولية إلى حالتها الطبيعية الأولى وتصفو من كل شائبة تعلق بها نتيجة العصيان والتمرد.

د - الآثار البناءة والتربوية للشفاعة

إن تشريع الشفاعة، والاعتراف بها في النظام الإسلامي إنما هو لأجل غايات تربوية تترتب على ذلك التشريع والاعتقاد به، ذلك لأن الاعتقاد بالشفاعة المقيدة بشروط معقولة، من شأنه بعث الأمل في نفوس العصاة وأفئدة المذنبين، يدفعهم إلى العودة عن سلوكهم الإجرامي، وإعادة النظر في منهج حياتهم.

ولكن هناك من يعترض ويقول: إن الشفاعة توجب الجرأة وتحيي روح التمرد في العصاة والمجرمين. إلا أن الواقع يفصح أن الشفاعة سبب في إصلاح سلوك المجرم ووسيلة لتخليه عما يرتكبه من آثام وما يقترفه من ذنوب.

وتظهر حقيقة الحال إذا لاحظنا مسألة التوبة، وهي التي اتفقت عليها الأمة ونص عليها الكتاب المجيد والحديث الشريف، فإنه لو كان باب التوبة موصدا في وجه العصاة والمذنبين، واعتقد المجرم بأن عصيانه مرة واحدة أو مرات سيخلده في عذاب الله، ولا مناص له منه، فلا شك أن هذا الاعتقاد يوجب التماسا في اقتراف السيئات وارتكاب الذنوب، لأنه يعتقد بأنه لو غير وضعه وسلوكه في مستقبل أمره لا يقع ذلك مؤثرا في مصيره وخلوده في عذاب الله، فلا وجه لأن يترك المعاصي ويغادر اللذة المحرمة، ويتحمل عناء العبادة والطاعة، بل يستمر في وضعه السابق حتى يوافيه الأجل.

وهذا بخلاف ما إذا وجد الطريق مفتوحا، والنوافذ مشرعة واعتقد بأنه سبحانه سيقبل توبته إذا كانت نصوحا، وأن رجوعه هذا سيغير مصيره في الآخرة، وينقذه من تبعات أعماله، وأليم العذاب، فعند ذلك سيترك العصيان ويرجع إلى الطاعة ويستغفر لذنوبه ويطلب الإغضاء عن سيئاته. فهذا الاعتقاد له الأثر البناء في تهذيب الناس والشباب خاصة، وكم من شباب اقترفوا السيئات وأمضوا الليالي في اللذة المحرمة، ثم عادوا إلى خلاف ما كانوا عليه في ظل التوبة والاعتقاد بأنها تجدي المذنبين، وبأن أبواب الرحمة والفلاح مفتوحة لم تغلق بعد، فعادوا يسهرون الليالي في العبادة، ويحيونها بالطاعة.

وليس هذا إلا أثر ذلك الاعتقاد، وذاك التشريع. ومثل ذلك، الاعتقاد بالشفاعة المحدودة، فإنه إذا اعتقد العاصي بأن أولياء الله سبحانه قد يشفعون في حقه في شرائط خاصة إذا لم يهتك الستر، ولم يبلغ حدا لا تنفع معه شفاعة الشافعين، فعند ذلك سوف يعيد النظر في سيرته الشخصية، ويحاول تطبيق سلوكه على شرائط الشفاعة حتى يستحقها، ولا يحرمها. نعم، إن الاعتقاد بالشفاعة المطلقة، المحررة من كل قيد، من جانب الشفيع والمشفوع له، هو الذي يوجب التجري والتمادي في العصيان. وهذه الشفاعة مرفوضة في منطق العقل والقرآن، وكأن المعترض قد خلط بين الشفاعة المحدودة والشفاعة المطلقة من كل قيد، ولم يميز بينهما وبين آثارهما. فالشفاعة الموجبة للتجري ومواصلة العناد والتمرد، هي الاعتقاد بأن الأنبياء والأولياء سيشفعون في حقه يوم القيامة على كل حال وفي جميع الشرائط وإن فعل ما فعل، وارتكب ما ارتكب. وعند ذلك سيستمر في عمله الإجرامي إلى آخر حياته رجاء تلك الشفاعة التي لا تخضع لضابط ولا قانون، ولا تقيد بقيد ولا شرط.

وأما الشفاعة التي نطق بها الكتاب وأقرت بها الأحاديث واعترف بها العقل فهي الشفاعة المحدودة بشرائط في المشفوع له والشافع. ومجمل تلك الشرائط هو أن لا يقطع جميع علاقات العبودية مع الله، ولا يفصم وشائجه الروحية مع الشافعين، ولا يصل تمرد به إلى حد القطيعة ونسف الجسور. فالاعتقاد بهذا النوع من الشفاعة مثل الاعتقاد بتأثير التوبة في الغفران ماهية وأثره.

هـ - الأمر بيده سبحانه أولاً وآخراً

ما ذكرناه من الوجوه هي مبررات الشفاعة والجهات التعليلية لجعلها في صميم العقائد الإسلامية، ومع ذلك كله فالأمر إليه سبحانه فهو إن شاء أذن في الشفاعة وإن لم يشأ لم يأذن، وهو القائل سبحانه: { ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم } (١).
وصفوة القول: أن الشفيع إنما يشفع بإذنه، وفي إطار مشيئته، وتحت الشروط التي يرتضيها، إذ هو الذي يبعث الشفيع على أن يشفع في حق المشفوع له. وعند ذلك فلا تستلزم شفاعة الشافعين خروج الأمر عن يده، وتحديد سلطته (تعالى) وملكه.

(١) فاطر: ٢.

المبحث الخامس

أثر الشفاعة

هل هو إسقاط العقاب أو زيادة الثواب؟

هل إن نتيجة الشفاعة هو حط ذنوب المذنبين وإسقاط العقاب والمضار عنهم والعتو عن العصاة، أم هي زيادة الثواب ورفع الدرجات للمطيعين؟ لقد ذهب جمهور المسلمين إلى الأول، والمعتزلة إلى الثاني. إن فكرة الشفاعة كانت عند اليهود والوثنيين قبل الإسلام، إلا أن الإسلام طرحها مهذبة مما علق بها من الخرافات. وغير خفي على من وقف على آراء اليهود والوثنيين في أمر الشفاعة، أن الشفاعة الدارجة بينهم - خصوصا اليهود - كانت مبنية على رجائهم لشفاعة أنبيائهم وآبائهم في حط ذنوبهم وغفران آثامهم، ولأجل هذا الاعتقاد كانوا يقتربون المعاصي، ويرتكبون الذنوب تعويلا على ذلك الرجاء. وفي هذا الموقف يقول سبحانه ردا على تلك العقيدة الباعثة على الجرأة: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} (١). ويقول أيضا رفضا لتلك الشفاعة المحررة من

(١) البقرة: ٢٥٥.

كل قيد: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} (١). وحاصل الآيتين أن أصل الشفاعة التي يدعيها اليهود ويلوذ بها الوثنيون حق ثابت في الشريعة السماوية، غير أن لها شروطاً أهمها إذنه سبحانه للشافع ورضاءه للمشفوع له. ولعل أوضح دليل على عمومية الشفاعة في الإسلام ما اتفق على نقله المحدثون من قوله (صلى الله عليه وآله): " ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (٢). فكان دافع المعتزلة بتخصيص آيات الشفاعة بأهل الطاعة دون العصاة هو الموقف الذي اتخذوه في حق العصاة ومقترفي الذنوب في أبحاثهم الكلامية، فإنهم قالوا بخلود أهل العصيان في النار. ومن الواضح أن من يتخذ مثل هذا الموقف لا يصح له أن يعمم آيات الشفاعة إلى العصاة، وذلك لأن التخليد في النار لا يجتمع مع التخلص عنها بالشفاعة. قال الشيخ المفيد: اتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار موجهة إلى الكفار خاصة، دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى، والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة. وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك، وزعموا أن الوعيد بالخلود في النار عام في الكفار وجميع فساق أهل الصلاة. واتفقت الإمامية على أن من عذب بذنبه من أهل الإقرار والمعرفة والصلاة لم يخلد في العذاب وأخرج من النار إلى الجنة، فينعم فيها على الدوام ووافقهم على ذلك من عددناهم، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعموا أنه لا يخرج من النار أحد دخلها للعذاب (٣). نعم، نسب العلامة الحلي في " كشف المراد " تلك العقيدة إلى بعض المعتزلة لا

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤١ وغيرها.

(٣) أوائل المقالات: ص ١٤.

إلى جميعهم (١)، وكذلك نظام الدين القوشجي في شرحه على التجريد (٢). وقد خالفهم أئمة المسلمين وعلمائهم في هذا الموقف وقالوا بجواز العفو عن العصاة عقلا وسمعا.

أما العقل فلأن العقاب حق لله تعالى فيجوز تركه. وأما السمع، فلآيات الدالة على العفو فيما دون الشرك، قال سبحانه: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} (٣). والآية واردة في حق غير التائب، لأن الشرك مغفور بالتوبة أيضا، وقال سبحانه: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} (٤) أي تشملهم المغفرة مع كونهم ظالمين.

وقال سبحانه: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا} (٥)، إلى غير ذلك من النصوص المتضاربة على العفو في حق العصاة. ومع ذلك لا مانع من شمول أدلة الشفاعة لهم. وأوضح دليل على العفو بدون التوبة قوله سبحانه: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات} (٦) فإن عطف قوله: {ويعفو عن السيئات} على قوله: {يقبل التوبة} ب " واو العطف " يدل على التغير بين الجملتين، وإن هذا العفو لا يرتبط بالتوبة وإلا كان اللازم عطفه بالفاء. وقال سبحانه: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٢٦١، ط صيدا.

(٢) شرح التجريد: ص ٥٠١.

(٣) النساء: ٤٨.

(٤) الرعد: ٦.

(٥) الزمر: ٥٣.

(٦) الشورى: ٢٥.

كثير} (١). فإن الآية واردة في غير حق التائب، وإلا فإن الله سبحانه يغفر ذنوب التائب جميعها لا كثيرها مع أنه سبحانه يقول: {ويعفو عن كثير}. فتلخص من ذلك أنه لا مانع من القول بجواز العفو في حق العصاة كما لا مانع من شمول آيات الشفاعة لهم. نعم، يجب إلفات النظر إلى نكتة وهي أن بعض الذنوب الكبيرة ربما تقطع العلائق الإيمانية بالله سبحانه، كما تقطع الأواصر الروحية مع النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) فصاحب هذه المعصية لا تشملها الشفاعة، فيجب عليه دخول النار حتى يتطهر بالعذاب وتصفو روحه من آثار العصيان، ويليق لشفاعة الشافعين.

(١) الشورى: ٣٠.

المبحث السادس
طلب الشفاعة من المأذونين بالشفاعة
قد تجلت الحقيقة بأجلى مظاهرها وتبين أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) ولفيفا
من
الأولياء والصالحين يشفعون عند الله في ظروف خاصة وأنهم مأذونون من جانبه
سبحانه يوم القيامة.

كما تبين أن المفهوم الواضح لدى العامة من الشفاعة، هو دعاء الرسول وطلبه
من الله غفران ذنوب عباده، إذا كانوا أهلا لها. إذن يرجع طلب الشفاعة من الشفيح
إلى طلب الدعاء منه لتلك الغاية، وهل ترى في طلب الدعاء من الأخ المؤمن
إشكالا؟! فضلا عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، الذي يستجاب دعاؤه ولا يرد
بنص الذكر

الحكيم (١).
فعندما كان النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) حيا في دار هجرته، كان طلب أصحابه
الدعاء

منه، راجعا إلى طلب الشفاعة منه والاختلاف في الاسم لا في الواقع والحقيقة.
وبعد انتقاله من الدنيا إلى عالم البرزخ، يرجع طلب الشفاعة منه أيضا إلى

(١) النساء: ٦٤، المنافقون: ٥.

طلب الدعاء منه لا غير.
فلو أن أعرايبا جاء إلى مسجده فطلب منه أن يستغفر له، فقد طلب منه
الشفاعة عند الله. ولو جاء ذلك الرجل بعد رحيله، وقال له: يا أيها النبي، استغفر
لي عند الله. أو قال: اشفع لي عند الله، فالجميع بمعنى واحد لبا وحقيقة، وإنما
يختلفان
صورة وظاهرا. فالإذعان بصحة أحدهما، والشك في صحة الآخر كالتفكيك بين
المتلازمين.
نعم، هناك سؤال يطرح نفسه وهو أنه إذا كان النبي (صلى الله عليه وآله) حيا يرزق في
هذه

الدنيا ويسمع كلام السائل، فلا فرق بين طلب الدعاء وطلب الشفاعة.
وأما بعد رحيله وانتقاله إلى رحمة الله الواسعة، فلا يسمع كلام السائل، بأي
صفة خاطبه وكلمه سواء أقال: استغفر لي، أم قال: إشفع لي.
والإجابة واضحة، لأن الكلام مركز في تبين معنى طلب الشفاعة منه حيا
وميتا وأن حقيقته أمر واحد بجميع صورته، وأما أنه يسمع أو لا يسمع، أو أن
الدعوة تنفع أو لا تنفع، فهو أمر نرجع إليه بعد الفراغ من صميم البحث. ولإيضاح
الأمر نورد بعض النصوص من المفسرين في تفسير الشفاعة:
قال الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: ﴿الذين يحملون العرش ومن
حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت
كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب
الجحيم﴾ (١) إن الآية تدل على حصول الشفاعة للمذنبين، والاستغفار طلب
المغفرة، والمغفرة لا تذكر إلا في إسقاط العقاب، أما طلب النفع الزائد فإنه لا يسمى
استغفارا. وقوله تعالى: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ يدل على أنهم يستغفرون

(١) غافر: ٧.

لكل أهل الإيمان، فإذا دللنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن، وجب دخوله تحت هذه الشفاعة (١).

نرى أن الإمام الرازي جعل قول الملائكة في حق المؤمنين والتائبين، من أقسام الشفاعة، وفسر قوله: {فاغفر للذين تابوا} بالشفاعة. وهذا دليل واضح على أن الدعاء في حق المؤمن، شفاعة في حقه، وطلبه منه طلب الشفاعة. ونقل نظام الدين النيسابوري، في تفسير قوله تعالى: {من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها} (٢) عن مقاتل: إن الشفاعة إلى الله إنما هي دعوة الله لمسلم، لما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله): "من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استحيب له،

وقال الملك: ولك مثل ذلك" (٣).

والذي يوضح أن شفاعة النبي عبارة عن دعائه في حق المشفوع له، ما رواه مسلم في "صحيحه" عن النبي الأكرم أنه قال: "ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه" (٤). وفسر الشارح قوله (صلى الله عليه وآله): "يشفعون له" بقوله: أي يدعون له، كما فسر

قوله (صلى الله عليه وآله): "إلا شفعوا فيه" بقوله: أي قبلت شفاعتهم. وروي أيضا عن عبد الله بن عباس أنه قال: سمعت رسول الله يقول: "ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعم الله فيه" (٥) أي قبلت شفاعتهم في حق ذلك الميت فيغفر له. فإذا كان مرجع الاستشفاع من الصالحين إلى طلب الدعاء، فكل من يطلب

(١) مفاتيح الغيب ٧: ٢٨٥ - ٢٨٦، ط. مصر، الجزء ٢٧: ٣٤ ط دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت.

(٢) النساء: ٨٥.

(٣) غرائب القرآن بهامش تفسير الطبري: ٥: ١١٨.

(٤) صحيح مسلم ٤: ٥٣، ط. مصر، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده.

(٥) المصدر نفسه.

من النبي الشفاعة لا يقصد منه إلا المعنى الشائع (١).
إلى هنا تبين أن طلب الشفاعة يرجع إلى طلب الدعاء، وهو أمر مطلوب في
الشرع من غير فرق بين طلبه من الشفيع في حال حياته أو مماته، فهو لا يخرج عن
حد طلب الدعاء، وأما كونه ناجعا أو لا؟ فهو أمر آخر نرجع إليه كما مر.
والذي يحقق هذا الأمر هو صدور مثله من السلف الصالح في العصور المتقدمة
وإليك نورا منه:

السلف وطلب الشفاعة من النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)
١ - الأحاديث الإسلامية وسيرة المسلمين تكشfan عن جواز هذا الطلب،
ووجوده في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) فقد روى الترمذي في " صحيحه " عن
أنس قوله:

سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: " أنا فاعل "، قال: قلت: يا رسول الله
فأنى أطلبك، فقال: " اطلبني أول ما تطلبني على الصراط " (٢).
فالسائل يطلب من النبي الأعظم، الشفاعة دون أن يخطر بباله أن هذا الطلب
يصطدم مع أصول العقيدة.

٢ - هذا سواد بن قارب، أحد أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) يقول مخاطبا إياه:
فكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة * بمغن فتिला عن سواد بن قارب (٣)
٣ - روى أصحاب السير والتاريخ، أن رجلا من قبيلة حمير عرف أنه سيولد

(١) لو كان للشفاعة معنى آخر من التصرف التكويني في قلوب المذنبين، وتصفيتهم في البرزخ، ومواقف
القيامة فهو أمر عقلي لا يتوجه إليه إلا الأوحدي من الناس.
(٢) صحيح الترمذي ٤: ٦٢١، كتاب صفة القيامة، الباب ٩.
(٣) الإصابة ٢: ٩٥، الترجمة ٣٥٧٦، وقد ذكر طرق روايته البالغة إلى ست، وراجع أيضا الروض الأنف ١:
١٣٩، بلوغ الإرب ٣: ٢٩٩، عيون الأثر ١: ٧٢.

في أرض مكة نبي الإسلام الأعظم (صلى الله عليه وآله)، ولما خاف أن لا يدركه،
كتب رسالة
وسلمها لأحد أقاربه حتى يسلمها إلى النبي (صلى الله عليه وآله) حينما يبعث، ومما
جاء في تلك
الرسالة قوله: " وإن لم أدرك فاشفع لي يوم القيامة ولا تنسني " (١) ولما وصلت
الرسالة إلى يد النبي (صلى الله عليه وآله) قال: " مرحبا بتبع الأخ الصالح " فإن وصف
النبي (صلى الله عليه وآله)
لطالب الشفاعة بالأخ الصالح، أوضح دليل على أنه أمر لا يتعارض وأصول العقيدة.
٤ - وروى المفيد عن ابن عباس أن أمير المؤمنين (عليه السلام) لما غسل النبي (صلى
الله عليه وآله) وكفنه
كشف عن وجهه وقال: " بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا... اذكرنا عند
ربك " (٢).
وروى الشريف الرضي في " نهج البلاغة " : أن عليا (عليه السلام) قال عندما ولي غسل
رسول الله (صلى الله عليه وآله): " بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك
" (٣).
٥ - روي أنه لما توفي النبي (صلى الله عليه وآله) أقبل أبو بكر فكشف عن وجهه ثم
أكب عليه
فقبله وقال: " بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من
بالك " (٤).
وهذا استشفاع بالنبي (صلى الله عليه وآله) في دار الدنيا بعد موته.
٦ - وختاماً نذكر ما ذكره الدكتور عبد الملك السعدي في كتابه " البدعة في
مفهومها الإسلامي الدقيق " : أما طلب الشفاعة من رسول الله (صلى الله عليه وآله)
بصورة عامة
وبدون قيد بعد أذان أو غيره فقد ورد في السنة، حيث قد طلبها منه بعض
الصحابة - رضي الله عنهم - دون نكير من رسول الله (صلى الله عليه وآله).
والأحاديث الواردة بهذا

(١) ابن شهر آشوب ١ : ١٢ ، السيرة الحلبية: ٢ : ٨٨ .

(٢) مجالس المفيد، المجلس الثاني عشر: ص ١٠٣ .

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥ .

(٤) السيرة الحلبية ٣ : ٤٧٤ ، ط دار المعرفة بيروت .

الخصوص وبمواضع ومناسبات عديدة كثيرة جدا نذكر منها:
عن مصعب الأسلمي قال: انطلق غلام منا فأتى النبي (صلى الله عليه وآله) وقال: إني
سألك

سؤالاً قال: " وما هو؟ " قال: أسألك أن تجعلني ممن تشفع له يوم القيامة، قال: " من
أمرك هذا؟ " أو " من علمك هذا؟ " أو " من ذلك على هذا؟ " قال: ما أمرني به أحد
إلا نفسي، قال: " فإنك ممن أشفع له يوم القيامة ". أوردته الهيثمي في مجمع الزوائد
وقال: رواه الطبراني.

وقد أورد الهيثمي بهذا الموضوع كثيراً من الأحاديث (١). هذا في حياته (صلى الله
عليه وآله).

أما بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى فهل يصح طلب الشفاعة منه لا سيما أمام قبره
الشريف وعند السلام عليه؟ بما أنه ثبت بما لا يقبل الشك أن الأموات يسمعون
ويتكلمون ويدعون في عالم البرزخ وبخاصة هو (صلى الله عليه وآله) عندما يسلم عليه
ترد إليه

روحه الشريفة، فلا موجب للتفرقة في طلب الشفاعة بين حياته قبل انتقاله وبين
حياته، الحياة البرزخية بعد انتقاله. ومن ادعى المنع فعليه بالدليل والله الموفق (٢).
كل هذه النصوص تدل على أن طلب الشفاعة من النبي (صلى الله عليه وآله) كان أمراً
جائزاً

وشائعاً، وذلك لأنهم يرونه مثل طلب الدعاء منه، ولا فرق بينها وبينه إلا في
اللفظ، وقد عرفت صحة إطلاق لفظ الشفاعة على الدعاء، والاستشفاع على
طلب الدعاء، ومما يدل على ذلك أن البخاري عقد بابين بهذين العنوانين، وهما:
١ - إذا استشفعوا ليستسقى لهم لم يردهم.

٢ - وإذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط (٣).
فنرى أن البخاري يطلق لفظ الاستشفاع على الدعاء وطلبه من الإمام في

(١) مجمع الزوائد ١٠: ٣٦٩، صحيح مسلم ١: ٢٨٩.

(٢) البدعة في مفهومها الإسلامي: ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) البخاري الصحيح: الجزء ٢، كتاب الاستسقاء، الباب ١١ - ١٢.

العام المجذب، من دون أن يخطر بباله أن هذا التعبير غير صحيح.
وعلى العموم أن طلب الشفاعة من النبي (صلى الله عليه وآله) داخل فيما ورد من الآيات التالية:

{ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا} (١)، {قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين} (٢).
وقوله سبحانه: {وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون} (٣) فكل ما يدل على جواز طلب الدعاء من المؤمن الصالح يمكن الاستدلال به على صحة ذلك.

(١) النساء: ٦٤.

(٢) يوسف: ٩٧ - ٩٨.

(٣) المنافقون: ٥.

المبحث السابع أسئلة حول طلب الشفاعة

قد اتضح أن طلب الشفاعة بمعنى طلب الدعاء، ليس مما يرتاب في جوازه مؤمن واع، عارف بالكتاب والسنة، نعم ربما تثار هنا شبهات أو أسئلة يجب رفعها أو الإجابة عليها وليست الأسئلة مطروحة على صعيد واحد، ولأجل ذلك نذكر كل واحد بعنوان يعرف مغزاه، والجميع يرجع إلى طلب الدعاء من الشفيع بعد رحيله بعد تجويزه في حياته.

السؤال الأول: الشفيع ميت كيف يطلب منه الدعاء؟
إن طلب الشفاعة وإن كان طلب الدعاء لكنه لا جدوى فيه لكون الشفيع بعد الموت لا يستطيع أن يقوم بالدعاء.

على هامش السؤال:
السؤال جدير بالدراسة والتحليل، وهو عالق في ذهن لفييف من الناس فهم يناجون في أنفسهم كيف يطلب الدعاء والشفاعة من النبي الأكرم وهو ميت

لا يستطيع على إجابة طلب الطالب؟
أولاً: إن الرجوع إلى القرآن المجيد، واستنطاقه في هذا المجال يوقفنا على
جلية الحال، وهو يعترف بموتهم مادياً لا موتهم على الإطلاق، بل يصرح بحياة
لفيف من الناس الذين انتقلوا من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة من صالح وطالح،
وسعيد وشقي، وها نحن نتلو على القارئ الكريم قسماً منها ليقف على أن الموت أمر
نسبي، وليس بمطلق، ولو صار بدن الإنسان جماداً، ليس معناه بطلانه وانعدام
شخصيته، وليس الموت إلا انتقالاً من دار إلى دار، ومن ضيق الدنيا إلى سعة
الآخرة وإليك لفيفا من الآيات:

١ - قال سبحانه: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء
عند ربهم يرزقون* فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم
يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون} (١).
والآية صريحة في المقصود، صراحة لا تتصور فوقها صراحة، حيث أخبرت
الآية عن حياتهم ورزقهم عند ربهم وتبشيرهم لمن لم يلحقوا بهم، وما يتفوهون به
في حقهم بقولهم: {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.
وعلى ذلك فلو كان الشفيح أحد الشهداء في سبيل الله تعالى فهل يكون هذا
المطلب لغوا؟!!

٢ - إن القرآن يعد النبي شهيداً على الأمم جمعاء، ويقول سبحانه: {فكيف إذا
جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً} (٢).
فالآية تصرح بأن النبي (صلى الله عليه وآله) شاهد على الشهود الذين يشهدون على
أممهم فإذا
كان النبي (صلى الله عليه وآله) شاهداً على الأمم جمعاء، أو على شهودهم فهل تعقل
الشهادة بدون

(١) آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) النساء: ٤١.

الحياة، وبدون الاطلاع على ما يجري فيهم من الأمور من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان؟! ولا يصح لك أن تفسر شهادة النبي (صلى الله عليه وآله) بشهادته على معاصريه فقط، وذلك

لأنه سبحانه عد النبي شاهدا في عداد كونه مبشرا ونذيرا، وهل يتصور أحد أن يختص الوصفان الأخيران بمن كان يعاصر النبي؟! كلا. فإذن لا وجه لتخصيص كونه شاهدا على الأمة المعاصرة للنبي (صلى الله عليه وآله).

٣ - الآيات القرآنية صريحة في امتداد حياة الإنسان إلى ما بعد موته، يقول سبحانه في حق الكافرين: {حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون* لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون} (١).

فهذه الآية تصرح بامتداد الحياة الإنسانية إلى عالم البرزخ، وإن هذا العالم وعاء للإنسان يعذب فيها من يعذب وينعم فيها من ينعم. أما التنعم فقد عرفت التصريح به في الآية الواردة في حق الشهداء. وأما العقوبة، فيقول سبحانه: {النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب} (٢).

٤ - هذا هو الذكر الحكيم ينقل بيانا عن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة، وأيد رسل المسيح، فلما قتل خوطب باللفظ التالي: {قيل ادخل الجنة} فأجاب بعد دخوله الجنة: {يا ليت قومي يعلمون* بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين} (٣) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على امتداد الحياة، واستشعار لفيف

(١) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠.

(٢) غافر: ٤٦.

(٣) يس: ٢٦ - ٢٧.

من عباد الله لما يجري هنا وهناك، غير أنا لا نسمع بيانهم ولا نفهم خطابهم، وهم سامعون، عارفون بإذن الله سبحانه.

ثانياً: إن الأحاديث الواردة في هذا المورد فوق الحصر فحدث عنها ولا حرج، وقد روى المحدثون عنه (صلى الله عليه وآله): " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله روحي حتى أرد عليه السلام " (١). كما نقلوا قوله: " إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام " (٢).

ثالثاً: نرى أنه سبحانه يسلم على أنبيائه في آيات كثيرة، ويقول: {سلام على نوح في العالمين}، {سلام على إبراهيم}، {سلام على موسى وهارون}، {سلام على إيل ياسين}، {وسلام على المرسلين} (٣). كما يأمرنا بالتسليم على نبيه والصلوات عليه ويقول بصريح القول: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً} (٤)، فلو كان الأنبياء والأولياء أمواتاً غير شاعرين بهذه التسليمات والصلوات فأى فائدة في التسليم عليهم وفي أمر المؤمنين في الصلاة، بالسلام على النبي (صلى الله عليه وآله)؟ والمسلمون أجمع يسلمون على النبي في صلواتهم بلفظ

الخطاب، ويقولون: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وحمل ذلك على الشعار الأجوف والتحية الجوفاء، أمر لا يجترئ عليه من له إمام بالقرآن والحديث.

(١) وفاء الوفا ٤: ١٣٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٣٥٠.

(٣) الصفات: ٧٩، ١٠٩، ١٢٠، ١٣٠، ١٨١ على الترتيب.

(٤) الأحزاب: ٥٦.

السؤال الثاني: الشفيح ميت وهو لا يسمع؟
هذا هو السؤال الثاني الذي ربما يطرح في المقام، وهو أيضا جدير بالدراسة،
ولكنه في التحقيق صورة صغيرة من السؤال السابق، فالتركيز - هنا - على
خصوص عدم السماع، ولكنه في السابق على معنى أعم وهو عدم الاستطاعة على
شئ سماعا كان أو غيره.

ونقول: ربما يقال: ظاهر الذكر الحكيم على أن الموتى لا يسمعون، حيث شبه
المشركين بهم. ووجه الشبه هو عدم السماع. قال: {إنك لا تسمع الموتى ولا
تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين} (١)، فالآية تصف المشركين بأنهم أموات
وتشبههم بها، ومن المعلوم أن صحة التشبيه تتوقف على وجود وجه الشبه في
المشبه به بوجه أقوى وليس وجه الشبه إلا أنهم لا يسمعون، فعند ذلك تصبح
النتيجة: إن الأموات مطلقا غير قابلين للإفهام، ويدل على ذلك أيضا قوله
سبحانه: {إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور} (٢).
ووجه الدلالة في الآيتين واحد.

على هامش السؤال

القرآن الكريم منزّه عن التناقض والاختلاف وكيف لا يكون كذلك وهو
يقول: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا} (٣) وهو يصرح في

(١) النمل: ٨٠.

(٢) فاطر: ٢٢.

(٣) النساء: ٨٢.

غير واحد من آياته على أن الأنبياء كانوا يكلمون الموتى ويخاطبونهم. ونلمس ذلك بوضوح في قصتي صالح وشعيب.
أما الأولى: فالقرآن يحكي خطابه لقومه - بعد هلاكهم وأخذ الرجفة لهم - فيقول: { فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين } (١).

أمعن النظر في قوله: { فتولى } حيث تصدر بالفاء الدالة على الترتيب: أي بعدما عمهم الهلاك أعرض صالح بوجهه عنهم وخاطبهم بقوله: يا قوم... أما الثانية فهي أيضا قرينة الأولى ونظيرتها قال سبحانه: { فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعبيا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعبيا كانوا هم الخاسرين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين } (٢).

إن الأوليين من الآيات صريحتان في نزول البلاء عليهن وإبادتهن وإهلاكهن جميعا - فبعد ذلك - يخاطبهن نبيهم شعيب معرضا بوجهه عنهم، مشعرا بالتبيري ويقول: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي... وليس لنا، ولا لغيرنا تأويل القرآن لأخذ موقف مسبق في الموضوع، بل يجب عرض الرأي عليه لا عرض القرآن على الفكر الإنساني.
ونكتفي من الآيات بما تلوناه عليك وهناك آيات أخرى موحدة في المضمون نترك نقلها للاختصار.

(١) الأعراف: ٧٨ - ٧٩.

(٢) الأعراف: ٩١ - ٩٣.

السنة لا تتفق مع عدم السماع
إن السنة الكريمة، عدل القرآن، يحتج بها كما يحتج به، فقد أخذت موقف
الإيجاب فهي لا تتفق مع عدم السماع وإليك نورا يسيرا منها:

١ - ما أنتم بأسمع منهم
هذه الكلمة ألقاها النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) عندما كان بمقربة من قتلى قريش،
وقد

تقدم ذكرها مفصلا في فصل: الحياة البرزخية فراجع (١).

٢ - رواية الصحابي الجليل: عثمان بن حنيف

روى الحافظ الطبراني عن الصحابي الجليل عثمان بن حنيف: أن رجلا كان
يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، وكان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته،
فلقي ابن حنيف فشكا إليه ذلك، فقال له ابن حنيف: إئت الميضاة، فتوضأ ثم ائت
المسجد فصل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي
الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن تقضي حاجتي، وتذكر حاجتك.
فانطلق الرجل فصنع ما قال، ثم أتى باب عثمان فجاءه البواب حتى أخذ بيده،
فادخل على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته وقضى
له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة
فاذكرها، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي ابن حنيف فقال له: جزاك الله خيرا، ما

(١) إن تكلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع رؤوس الشرك الموتى الذين ألقيت أجسادهم في البئر
من مسلمات التاريخ
والحديث، وقد أشار إلى هذا من بين المحدثين والمؤرخين: صحيح البخاري ٥: ٧٦ و ٧٧ - ٨٧ في
معركة بدر، صحيح مسلم ٨: ١٦٣ كتاب الجنة باب مقعد الميت، سنن النسائي ٤: ٨٩ و ٩٠ باب أرواح
المؤمنين،
مسند الإمام أحمد ٢: ١٣١، السيرة النبوية ١: ٦٣٩، المغازي ١: ١١٢ غزوة بدر، بحار الأنوار ١٩:
٣٤٦.

كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في.
فقال ابن حنيف: والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله، وأتاه ضرير فشكا
إليه ذهاب بصره، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): إن شئت دعوت أو تصبر، فقال:
يا رسول الله

إنه ليس لي قائد وقد شق علي، فقال له النبي: ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم
ادع بهذه الدعوات. قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل
علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر (١).

قال الترمذي: هذا حديث حق حسن صحيح.

وقال ابن ماجه: هذا حديث صحيح.

وقال الرفاعي: لا شك أن هذا الحديث صحيح ومشهور (٢).

السؤال الثالث: الشفاعة فعل الله

الشفاعة فعل الله سبحانه، ولا يطلب فعله من غيره، قال سبحانه: {قل لله

الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون} (٣).

فإذا كانت الشفاعة مملوكة لله وهو المالك لها، فكيف يطلب ما يرجع إليه من
غيره؟

على هامش السؤال

لا شك أن الشفاعة لله كما هو صريح الآية وما يرجع إليه سبحانه لا يطلب من
غيره. مثلا إن الرزق والإحياء والإماتة له لا تطلب من عباده. غير أن المهم

(١) صحيح الترمذي ج ٥ كتاب الدعوات، الباب ١١٩، رقم ٣٥٧٨، سنن ابن ماجه ١: ٤٤١ / ١٣٨٥،
مسند

أحمد ٤: ١٣٨ وغير ذلك.

(٢) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ١٥٨.

(٣) الزمر: ٤٤.

تشخيص ما يرجع إليه سبحانه، وتمييزه ما أعطاه لعباده الصالحين. إن الشفاعة المطلقة ملك لله سبحانه، فلا شفيع ولا مشفوع له، بلا إذنه ورضاه، فهو الذي يسن الشفاعة ويأذن للشافع، ويبعث المذنب إلى باب الشافع ليستغفر له، إلى غير ذلك من الخصوصيات. فلا يملك الشفاعة بهذا المعنى إلا هو، وبذلك يرد القرآن على المشركين الذين كانوا يزعمون أن أربابهم يملكون الشفاعة المطلقة فالشفاعة بهذا المعنى غير مسؤولة ولا مطلوبة من النبي (صلى الله عليه وآله). والمسؤول والمطلوب من النبي والصالحين هو الشفاعة المرخصة المحددة، من الله سبحانه، أي ما رخص لهم في أن يشفعوا ويطلبوا لعباده الغفران، فمثل هذه الشفاعة المرخصة المأذونة ليست له، لأنه سبحانه فوق كل شيء، لا يستأذن ولا يؤذن ولا يحدد فعله.

وبعبارة واضحة: المراد من قوله سبحانه: {قل لله الشفاعة جميعا} (١) ليس أنه سبحانه هو الشفيع دون غيره، إذ من الواضح أنه سبحانه لا يشفع عند غيره، بل المراد أن المالك لمقام الشفاعة هو سبحانه وأنه لا يشفع أحد في حق أحد إلا بإذنه للشفيع وارتضائه للمشفوع له، ولكن هذا المقام ثابت لله سبحانه بالأصالة والاستقلال، ولغيره بالاكْتساب والإجازة، قال سبحانه: {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون} (٢).

فالآية صريحة في أن من شهد بالحق يملك الشفاعة ولكن تمليكا منه سبحانه وفي طول ملكه.

وعلى ذلك فالآية أجنبية عن طلب الشفاعة من الأولياء الصالحين الذين شهدوا بالحق وملكوا الشفاعة، وأجيزوا في أمرها في حق من ارتضاهم لها.

(١) الزمر: ٤٤.

(٢) الزخرف: ٨٦.

وأنت أيها الأخ المتحرر من كل رأي مسبق، إذا لاحظت ما ذكرته سابقا في تفسير الآية، يتضح لك، أن طلب الشفاعة من الصالحين، ليس طلب فعله سبحانه من غيره.

السؤال الرابع: طلب الشفاعة يشبه عمل المشركين إن طلب الشفاعة يشبه عمل عبدة الأصنام في طلبهم الشفاعة من آلهتهم الكاذبة الباطلة، وقد حكى القرآن ذاك العمل منهم، قال سبحانه: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله} (١) وعلى ذلك فالاستشفاع من غيره سبحانه عبادة لهذا الغير.

على هامش السؤال

ما كنت أفكر أيها الأخ أن تغتر بظواهر الأعمال وتقضي بالبساطة والسذاجة، مع أن القرآن أمر بالتدبر والتفكير والدقة في مصادر الأعمال وجذورها، لا بالاغترار بظواهرها.

فالفرق واضح بين عمل المسلم والمشرك لأنك إذا أمعنت النظر في مضمون الآية تقف على أن المشركين كانوا يقومون بعملين:

١ - عبادة الآلهة ويدل عليه: {ويعبدون...}.

٢ - طلب الشفاعة ويدل عليه: {ويقولون...}.

وكان علة اتصافهم بالشرك هو الأول لا الثاني، إذ لو كان الاستشفاع بالأصنام عبادة لها بالحقيقة، لما كان هناك مبرر للإتيان بجملة أخرى، أعني قوله:

(١) يونس: ١٨.

{ويقولون هؤلاء شفعاؤنا} بعد قوله: {ويعبدون...} إذ لا فائدة لهذا التكرار، وتوهم أن الجملة الثانية توضيح للأولى بخلاف الظاهر، فإن عطف الجملة الثانية على الأولى يدل على المغايرة بينهما.

إذا لا دلالة للآية على أن الاستشفاع بالأصنام كان عبادة، فضلا عن كون الاستشفاع بالأولياء المقربين عبادة لهم.

وهناك فرق واضح بين طلب شفاعته الموحدة من أفضل الخليفة - عليه أفضل التحية - وطلب شفاعته المشرك، حيث إن الأول يطلب الشفاعة منه بما أنه عبد صالح أذن له سبحانه ليشفع في عباده تحت شرائط خاصة، بخلاف المشرك، فإنه يطلب الشفاعة منه، بما أنه رب يملك الشفاعة يعطيها من يشاء ويمنعها عن من يشاء. أفصبح عطف أحدهما على الآخر والحكم بوحدهما جوهرًا وحقيقة؟! كيف يصح لمسلم واع اتخاذ المشابهة دليلاً على الحكم، فلو صح ذلك لزم عليه الحكم بتحريم أعمال الحج والعمرة فإنها مشابهة لأعمال المشركين، أمام أربابهم وآلهتهم.

{إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} (١).

السؤال الخامس: إن طلب الشفاعة دعاء الغير، وهو عبادة له

طلب الحاجة من غيره سبحانه حرام، فإن ذلك دعاء لغير الله وهو حرام. قال سبحانه: {فلا تدعوا مع الله أحدا} (٢) وإذا كانت الشفاعة ثابتة لأولياءه وكان طلب الحاجة من غيره حراما فالجمع بين الأمرين يتحقق بانحصار جواز طلبها

(١) ق: ٣٧.

(٢) الجن: ١٨.

من الله سبحانه خاصة، ويوضح ذلك قوله سبحانه: { ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين } (١)، فقد عبر عن العبادة في الآية بلفظ الدعوة في صدرها ولفظ العبادة في ذيلها، وهذا يكشف عن وحدة التعبيرين في المعنى. وقد ورد قوله (صلى الله عليه وآله): " الدعاء مخ العبادة " .
على هامش السؤال

لا أظن أن أحدا على وجه البسيطة يجعل الدعاء مرادفا للعبادة. وإلا لم يمكن تسجيل أحد من الناس - حتى الأنبياء - في ديوان الموحدين، فلا بد أن يقترن بالدعاء شيء آخر، ويصدر الدعاء عن عقيدة خاصة في المدعو وإلا فمجرد دعوة الغير حيا كان أو ميتا، لا يكون عبادة له.

هل ترى أن الشاعرعة التي تخاطب شجر الخابور بقولها:
أيا شجر الخابور ما لك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف
أنها عبدته؟ كلا ثم كلا.

إن العمل لا يتسم بالعبادة إلا إذا كانت في نية الداعي عناصر تضيء عليه صفة العبادة وحدها، وهو الاعتقاد بألوهية المدعو وربوبيته وإنه المالك لمصيره في عاجله وآجله، وإن كان مخلوقا أيضا. والمراد من الدعاء في قوله تعالى: { فلا تدعوا مع الله أحدا } ليس مطلق دعوة الغير، بل الدعوة الخاصة المضيق المترادفة للعبادة، ويدل عليه قوله سبحانه في نفس هذه الآية: { وأن المساجد لله } .
وما ورد في الحديث من " أن الدعاء مخ العبادة " فليس المراد منه مطلق الدعاء، بل المراد دعاء الله مخ العبادة. كما أن ما ورد في الروايات من أنه: من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان ينطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان ينطق عن غير

(١) غافر: ٦٠.

الله فقد عبد غير الله. (١) فليس المراد من العبادة هنا: العبادة المصطلحة، بل استعيرت في المقام لمن يجعل نفسه تحت اختيار الناطق.

وعلى ذلك فيكون المراد من النهي عن دعوة الغير هو الدعوة الخاصة المقترنة بالاعتقاد، أي كون المدعو ذا اختيار تام في التصرف في الكون وقد فوض إليه شأن من شؤونه سبحانه.

فإذا كان طلب الشفاعة مقترنا بهذه العقيدة فإنه يعد عبادة للمشفوع إليه. وإلا فيكون طلب الحاجة كسائر الطلبات من غيره سبحانه الذي لا يشك ذو مسكة في عدم كونه عبادة.

وبعبارة أخرى: طلب الشفاعة إنما يعد عبادة للشفيع إذا كان مقرونا بالاعتقاد بألوهيته وربوبيته، وأنه مالك لمقام الشفاعة أو مفوض إليه، يتصرف فيها كيف يشاء، وأما إذا كان الطلب مقرونا باعتقاد أنه عبد من عباد الله الصالحين يتصرف بإذنه سبحانه للشفاعة، وارتضائه للمشفوع له، فلا يعد عبادة للمدعو، بل يكون وزانه وزان سائر الطلبات من المخلوقين، فلا يعد عبادة بل طلبا محضاً، غاية الأمر لو كان المدعو قادراً على المطلوب يكون الدعاء - عقلاً - أمراً صحيحاً، وإلا فيكون لغواً.

فلو تردى إنسان وسقط في قعر بئر وطلب العون من الواقف عند البئر القادر على نجاته وإنقاذه، يعد الطلب أمراً صحيحاً، ولو طلبه من الأحجار المنضودة حول البئر يكون الدعاء والطلب منها لغواً مع كون الدعاء والطلب هذا في صورتين غير مقترن بشئ من الألوهية والربوبية في حق الواقف عند البئر، ولا الأحجار المنضودة حولها.

(١) الكافي ٦: ٤٣٤ / ٤.

إن الآية تحدد الدعوة التي تعد عبادة بجعل المخلوق في رتبة الخالق سبحانه كما يفصح عنه قوله: {مع الله} (١) وعلى ذلك فالمنهي هو دعوة الغير، وجعله مع الله، لا ما إذا دعا الغير معتقدا بأنه عبد من عباده لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا ولا حياة ولا بعثا ولا نشورا إلا بما يتفضل عليه بإذنه ويقدر عليه بمشيئته، فعند ذلك فالطلب منه بهذا الوصف يرجع إلى الله سبحانه.

وبذلك يبدو أن ما تدل عليه الآيات القرآنية من أن طلب الحاجة من الأصنام كان شركا في العبادة، إنما هو لأجل أن المدعو عند الداعي كان إلها أو ربا مستقلا في التصرف في شأن من شؤون وجوده أو فعله. قال سبحانه: {الذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون} (٢) ترى أنه سبحانه يستنكر دعاءهم بقوله: {لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون} وقوله: {عباد أمثالكم} (٣) مذكرا بأن عقيدتهم في حق هؤلاء عقيدة كاذبة وباطلة فالأصنام لا تستطيع نصره أحد، وهذا يكشف عن أن الداعين كانوا على جانب النقيض من تلك العقيدة وكانوا يعتقدون بتملك الأصنام لنصرهم وقضاء حوائجهم من عند أنفسهم.

وحصيلة البحث: أن الدعاء ليس مرادفا للعبادة، وما ورد في الآية والحديث من تفسير الدعاء بالعبادة لا يدل على ما يراه المستدل، فالمراد من الدعاء فيهما قسم خاص منه، وهو الدعاء المقترن باعتقاد الألوهية في المدعو والربوبية في المطلوب منه كما عرفت.

(١) النمل: ٦٠ وغيرها.

(٢) الأعراف: ١٩٧.

(٣) الأعراف: ١٩٤.

المبحث الثامن

الشفاعة في الأحاديث الإسلامية

لقد اهتم الحديث بأمر الشفاعة وحدودها وشرائطها وأسبابها وموانعها اهتماما بالغاً لا يوجد له مثيل إلا في موضوعات خاصة تتمتع بالأهمية القصوى، وأنت إذا لاحظت الصحاح والمسانيد والسنن وسائر الكتب الحديثية لوقفت على جمهرة كبرى من الأحاديث حول الشفاعة بحيث تدفع الإنسان إلى الإذعان بأنها من الأصول المسلمة في الشريعة الإسلامية. ولأجل هذا التظافر نرى أنفسنا في غنى عن المناقشة في الإسناد.

نعم لو كانت هناك رواية اختصت بنكته خاصة غير موجودة في الروايات الأخر فإثبات النكته الخاصة يحتاج إلى ثبوت صحة سندها كما هو المحقق في علم الحديث.

ولما كانت الأحاديث حول الشفاعة وفروعها كثيرة جداً، ومبثوثة في الكتب جمعناها في هذه الصحائف تحت عناوين خاصة، ولسنا ندعي أننا قد أحطنا بكل الأحاديث في هذا المجال، وإنما ندعي أننا قد جئنا بقسم كبير من الأحاديث (١).

(١) لقد جمع العلامة المجلسي أحاديث الشفاعة الواردة من طرق أئمة أهل البيت في موسوعته "بحار الأنوار" فلاحظ ٨: ٢٩ - ٦٣ كما أنه أورد بعضها في الأجزاء التالية من موسوعته: بحار الأنوار ١٠٠: ١١٦، ١٦٢، ١٧٠، ٢٦٥، ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥١، ٣٧٦، ٣٧٩، ولاحظ ١٠١: ٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢٩٣، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٧٢، ٣٧٤، ولاحظ ١٠٢: ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٤٤، ٤٧، ١٧١، ٧١، ١٨١، ١٨٣، إلى غير ذلك من الموارد. وعقد أحمد بن محمد بن خالد البرقي باباً للشفاعة في موسوعته "المحاسن" فلاحظ ١: ١٨٤.

أحاديث الشفاعة عند أهل السنة: (١)
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي
دعوته
وأني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله
شيئاً " (٢).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أعطيت خمسا... وأعطيت الشفاعة
فادخرتها
لأمتي فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً " (٣).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " شفاعتي نائلة إن شاء الله من مات ولا يشرك
بالله
شيئاً " (٤).

(١) وقد عقد العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (المتوفى ٩٧٥ هـ) بابا خاصا للشفاعة
نقل فيه طائفة من الأخبار، فلاحظ كنز العمال ٤: ٦٣٨ - ٦٤٠.
كما عقد الشيخ منصور علي ناصف في كتابه التاج الجامع للأصول أبوابا للشفاعة لاحظ التاج ٥:
٣٤٨ - ٣٦٠ وقد جاء فيها بأحاديث طوال قد أخذنا موضع الحاجة منها. غير أن ملاحظة مجموع
الأحاديث لا تخلو عن فائدة. وعقد النسائي في سننه أبوابا أربعة خاصة للشفاعة لاحظ ٣: ٦٢٢ ط دار
إحياء التراث الإسلامي.
(٢) سنن ابن ماجه ٢: ١٤٤٠، وبهذا المضمون راجع مسند أحمد ١: ٢٨١، وموطأ مالك ١: ١٦٦، وسنن
الترمذي ٥: ٢٣٨، وسنن الدارمي ٢: ٣٢٨، وصحيح مسلم ١: ١٣٠، وصحيح البخاري ٨: ٨٣ و ٩:
١٧٠.
(٣) مسند أحمد ١: ٣٠١ و ٤: ٤١٦ و ٥: ١٤٨ وبهذا المضمون سنن النسائي ١: ١٧٢، وسنن الدارمي
٣٢٣: ١
و ٢: ٢٢٤، وصحيح البخاري ١: ٩٢ و ١١٩.
(٤) مسند أحمد ٢: ٤٢٦.

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في تفسير قوله: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا}: " هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه " (١).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أنا أول شافع وأول مشفع " (٢).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه " (٣).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي " (٤).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " رأيت ما تلقى أمتي بعدي (أي من الذنوب) فسألت الله أن يوليني شفاعته يوم القيامة فيهم ففعل " (٥).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه " (٦).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أنا أول شافع في الجنة " (٧).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " شفاعتي لكل مسلم " (٨).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر " (٩).

- (١) مسند أحمد ٢: ٥٢٨، ٤٤٤، ٤٧٨، سنن الترمذي ٣: ٣٦٥.
- (٢) سنن الترمذي ٥: ٤٤٨، سنن الدارمي ١: ٢٦ و ٢٧.
- (٣) مسند أحمد ٢: ٣٠٧ و ٥١٨.
- (٤) سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤١، وبهذا المضمون مسند أحمد ٣: ٢١٣، وسنن أبي داود ٢: ٥٣٧، وسنن الترمذي ٤: ٤٥.
- (٥) مسند أحمد ٦: ٤٢٨.
- (٦) صحيح البخاري ١: ٣٦.
- (٧) صحيح مسلم ١: ١٣٠، سنن الدارمي ١: ٢٧.
- (٨) سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٤.
- (٩) سنن الترمذي ٥: ٢٤٧، سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٣.

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أنا سيد ولد آدم وأول شافع وأول مشفع ولا فخر " (١).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة " (٢).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ليخرجن قوم من أمتي من النار بشفاعتي يسمون
الجهنميين " (٣).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي
الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين
الخطائين المتلوثين " (٤).
- وحكى أبو ذر: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) صلى ليلة فقرأ آية حتى أصبح
يركع بها
ويسجد بها: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} (٥)
فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها
وتسجد بها، قال: " إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها فهي نائلة
إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عز وجل شيئاً " (٦).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " يشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول
الجبار:
بقيت شفاعتي " (٧).

(١) سنن ابن ماجة ٢ : ١٤٤٠، وبهذا المضمون صحيح مسلم ٧ : ٥٩، ومسند أحمد ٢ : ٥٤٠.

(٢) مسند أحمد ٥ : ٣٤٧.

(٣) سنن الترمذي ٤ : ١١٤، سنن ابن ماجة ٢ : ١٤٤٣، بهذا المضمون مسند أحمد ٤ : ٤٣٤، وسنن أبي داود ٢ : ٥٣٧.

(٤) سنن ابن ماجة ٢ : ١٤٤١.

(٥) المائدة: ١١٨.

(٦) مسند أحمد ٥ : ١٤٩.

(٧) صحيح البخاري ٩ : ١٦٠، وبهذا المضمون مسند أحمد ٣ : ٩٤.

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن الله يخرج قوما من النار بالشفاعة " (١).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " (٢).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " فإذا فرغ الله عز وجل من القضاء بين خلقه وأخرج من النار من يريد أن يخرج، أمر الله الملائكة والرسول أن تشفع فيعرفون بعلاماتهم: إن النار تأكل كل شئ من ابن آدم إلا موضع السجود " (٣).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ... فيؤذن للملائكة والنبیین والشهداء أن يشفعوا فيشفعون ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان " (٤).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إذا ميز أهل الجنة وأهل النار، فدخل أهل الجنة، وأهل النار النار قامت الرسل وشفعوا " (٥).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " يشفع الأنبياء في كل من يشهد أن لا إله إلا الله مخلصا، فيخرجونهم منها " (٦).
- ذكرت الشفاعة عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: " إن الناس يعرضون على جسر جهنم... وبجنبتيه الملائكة يقولون: اللهم سلم سلم... " (٧).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث: " أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم نار بذنوبهم أو بخطاياهم فأماتتهم إماتة،

(١) صحيح مسلم ١: ١٢٢ وبهذا المضمون صحيح البخاري ٨: ١٤٣.

(٢) سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٣.

(٣) سنن النسائي ٢: ١٨١.

(٤) مسند أحمد ٥: ٤٣ بتلخيص منا.

(٥) مسند أحمد ٣: ٣٢٥.

(٦) مسند أحمد ٣: ١٢.

(٧) مسند أحمد ٣: ٢٦.

- حتى إذا كانوا فحما أذن في الشفاعة فيخرجون ضبائر ضبائر " (١).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث: "... فيشفعون حتى يخرج من قال لا إله إلا الله ممن في قلبه ميزان شعيرة " (٢).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " يشفع الشهيد في سبعين إنسانا من أهل بيته " (٣).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من تعلم القرآن (من قرأ القرآن) فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت له النار " (٤).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث: " إذا بلغ الرجل التسعين غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمي أسير الله في الأرض، وشفع في أهله " (٥).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم " (٦).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر " (٧).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين أو مثل أحد الحيين ربيعة ومضر " (٨).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن الرجل من أمتي ليشفع للفئام من الناس

(١) مسند أحمد ٣: ٧٩، وبهذا المضمون سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤١، وسنن الدارمي ٢: ٣٣٢، ومسند أحمد ٣: ٥.

(٢) مسند أحمد ٣: ٣٤٥.

(٣) سنن أبي داود ٢: ١٥، وبهذا المضمون مسند أحمد ٤: ١٣١، وسنن الترمذي ٣: ١٠٦.

(٤) سنن الترمذي ٤: ٢٤٥، سنن ابن ماجة ١: ٧٨، مسند أحمد ١: ١٤٨ و ١٤٩.

(٥) مسند أحمد ٢: ٨٩، وبهذا المضمون ما في ٣: ٢١٨.

(٦) سنن الدارمي ٢: ٣٢٨، سنن الترمذي ٤: ٤٦، سنن ابن ماجة ٢: ١٤٤٤، مسند أحمد ٣: ٤٧٠ و ٥: ٣٦٦.

(٧) مسند أحمد ٤: ٢١٢.

(٨) مسند أحمد ٥: ٢٥٧.

(२३१)

فيدخلون الجنة، وإن الرجل ليشفع للقبيلة، وإن الرجل ليشفع للعصبة، وإن الرجل ليشفع للثلاثة، وللرجلين، وللرجل " (١).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " يصف الناس (أهل الجنة) صفوفاً فيمر الرجل من أهل النار على الرجل فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استقيت فسقيتك شربة؟ قال: فيشفع له، ويمر الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهوراً؟ فيشفع له " (٢).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث: " لا يصبر على لأوائها (أي المدينة) وشدتها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة " (٣).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لخادمه: " ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة، قال: ومن ذلك على هذا؟ قال: ربي، قال: أما فأعني بكثرة السجود " (٤).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من صلى على محمد وقال: اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي " (٥).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من قال حين يسمع النداء: " اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته " حلت له شفاعتي يوم القيامة " (٦).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله عز وجل لي

-
- (١) مسند أحمد ٣: ٢٠ و ٦٣، سنن الترمذي ٤: ٤٦.
- (٢) سنن ابن ماجه ٢: ١٢١٥.
- (٣) موطأ مالك ٢: ٢٠١، مسند أحمد ٢: ١١٩ و ١٣٣ ومواقع آخر من هذا الكتاب.
- (٤) مسند أحمد ٣: ٥٠٠، وبهذا المضمون ما في ٤: ٥٩.
- (٥) مسند أحمد ٤: ١٠٨.
- (٦) صحيح البخاري ١: ١٥٩، وبهذا المضمون ما في مسند أحمد ٣: ٣٥٤، وسنن ابن ماجه ١: ٢٣٩، وسنن الترمذي ١: ١٣٦، وسنن النسائي ٢: ٢٢، وسنن أبي داود ١: ١٢٦.

الوسيلة، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة " (١).
 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من غش العرب، لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي " (٢).
 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن اللعائين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة " (٣).
 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " تعلموا القرآن، فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة " (٤).
 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي: تبارك الذي بيده الملك " (٥).
 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربي منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان " (٦).
 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن أقربكم مني غدا وأوجبكم علي شفاعة: أصدقكم لسانا وأداكم لأمانتكم، وأحسنكم خلقا، وأقربكم من الناس " (٧).

-
- (١) سنن أبي داود ١: ١٢٤، صحيح مسلم ٢: ٤، سنن الترمذي ٥: ٢٤٦ و ٢٤٧، سنن النسائي ٢: ٢٢،
 ومسنند أحمد ٢: ١٦٨.
- (٢) مسند أحمد ١: ٧٢. ولا يتوهم أن هذا الحديث تكريس للقومية المبعوضة في الإسلام، لأن من المعلوم أن المراد من العرب المسلمين فيكون بمنزلة " من غش مسلما فليس بمسلم " لأن المسلم يوم ذاك كان منحصرا في العرب.
- (٣) مسند أحمد ٦: ٤٤٨، صحيح مسلم ٨: ٢٤.
- (٤) مسند أحمد ٥: ٢٥١.
- (٥) مسند أحمد ٢: ١٩٩ و ٣٢١، سنن الترمذي ٤: ٢٣٨.
- (٦) مسند أحمد ٢: ١٧٤.
- (٧) تيسير المطالب في أمالي الإمام علي بن أبي طالب، تأليف السيد يحيى بن الحسين من أحفاد الإمام زيد (المتوفى ٤٢٤ هـ)، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

- روى أنس بن مالك عن أبيه قال: سألت النبي (صلى الله عليه وآله) أن يشفع لي يوم القيامة فقال: "أنا فاعل"، قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟ قال: "اطلبي أول ما تطلبني على الصراط"، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: "فاطلبي عند الميزان"، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: "فاطلبي عند الحوض فإنني لا أخطأ هذه الثلاث المواطن" (١).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث: "أنا سيد الناس يوم القيامة... ثم يقال: يا

محمد إرفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا ربي أمتي يا ربي أمتي يا ربي أمتي، فيقول: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة" (٢).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً" (٣).

- أخرج ابن مردويه عن طلق بن حبيب: كنت أشد الناس تكديبا بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق أترأى لكتاب الله وأعلم لسنة رسول الله مني؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعذبوا ثم أخرجوا منها ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال: صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله يقول: يخرجون من النار بعدما دخلوا، ونحن نقرأ كما قرأت.

وعن ابن أبي حاتم عن يزيد الفقير، قال: جلست إلى جابر بن عبد الله وهو يحدث، فحدث أن ناساً يخرجون من النار، قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت

(١) سنن الترمذي ج ٤ الباب التاسع، الحديث ٢٥٥٠.

(٢) سنن الترمذي ج ٤ الباب العاشر، الحديث ٢٥٥١.

(٣) صحيح مسلم ١: ١٣٠.

وقلت: ما أعجب من الناس ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يخرج ناسا من النار والله يقول: {يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها} (١) فانتهرني أصحابه وكان أحلمهم، فقال: دعوا الرجل إنما ذلك للكفار، فقرأ: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة} حتى بلغ {ولهم عذاب مقيم} (٢) أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعته، قال: أليس الله يقول: {ومن الليل فتهدد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} (٣) فهو ذلك المقام فإن الله تعالى يحتبس أقواما بخطاياهم في النار ما شاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم قال: فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به... (٤).

هذه خمسون حديثا رواها أهل السنة عن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) ولو أضفنا إليها

الصور المختلفة لكل حديث لتجاوز عدد الأحاديث المائة حديث، ولكن اكتفينا بهذا المقدار وأشرنا إلى المواضع التي نقلت فيها صورها المختلفة والناظر فيها يدعن بأن الاعتقاد بالشفاعة كان أمرا مسلما بين جماهير المسلمين كما يدعن بأنها لم تكن عندهم مطلقة عن كل قيد، بل لها شرائط خصوصا في جانب المشفوع له، وأن هناك شفعا وسنشير في خاتمة المطاف إلى فذلكة الروايات وعصارتها في المواضع المختلفة.

هلم معي نقرأ ما روته الإمامية في هذا الباب من الأحاديث الكثيرة عن النبي

(١) المائة: ٣٧.

(٢) المائة: ٣٦ - ٣٧.

(٣) الإسراء: ٧٩.

(٤) تفسير ابن كثير ٢: ٥٤ كما في حياة الصحابة للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ٣: ٤٧١ - ٤٧٢.

الأكرم والأئمة المعصومين، ولأجل سهولة الإرجاع إليها نحافظ على التسلسل المذكور في الأحاديث السابقة.

أحاديث الشفاعة عند الشيعة الإمامية

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إني لأشفع يوم القيامة وأشفع، ويشفع علي فيشفع، ويشفع أهل بيتي فيشفعون " (١).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أعطيت خمسا... أعطيت الشفاعة " (٢).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن الله أعطاني مسألة فادخرت مسألتني لشفاعة المؤمنين من أمتي يوم القيامة ففعل ذلك " (٣).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن من أمتي من سيدخل الله الجنة بشفاعته أكثر من مضر " (٤).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (٥).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونيبكم، وأهل بيت نبيكم " (٦).

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " يقول الرجل من أهل الجنة يوم القيامة: أي ربي عبدك فلان سقاني شربة من ماء في الدنيا، فشفعني فيه فيقول: اذهب فأخرجه

-
- (١) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٥، وبهذا المضمون في مجمع البيان ١: ١٠٤.
- (٢) من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٥.
- (٣) أمالي الطوسي: ص ٣٦.
- (٤) مجمع البيان ١٠: ٣٩٢.
- (٥) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٧٦.
- (٦) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٤.

- من النار فيذهب فيتجسس في النار حتى يخرج منه منها " (١).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " (٢).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " إن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في أربعين من إخوانه " (٣).
- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أيما امرأة صلت في اليوم واللييلة خمس صلوات، وصامت شهر رمضان، وحجت بيت الله الحرام، وزكت مالها، وأطاعت زوجها، ووالت عليا بعدي دخلت الجنة بشفاعة بنتي فاطمة " (٤).
- أحاديث الشفاعة عن الإمام علي (عليه السلام):
- قال علي (عليه السلام): " لنا شفاعة ولأهل مودتنا شفاعة " (٥).
- قال علي (عليه السلام): " ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل فيشفعون: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء " (٦).
- قال علي (عليه السلام) لولده محمد الحنفية: " اقبل من متصل عذره، فتنالك الشفاعة " (٧).
- قال علي (عليه السلام): " اعلموا أن القرآن شافع ومشفع، وقائل ومصدق، وأنه من شفيع له القرآن يوم القيامة شفيع فيه " (٨).

(١) مجمع البيان ١٠ : ٣٩٢ .

(٢) مجمع البيان ١ : ١٠٤ ، ويقول الطبرسي: إن هذا الحديث مما قبلته الأمة الإسلامية.

(٣) مجمع البيان ١ : ١٠٤ .

(٤) أمالي الصدوق: ص ٢٩١ .

(٥) خصال الصدوق: ص ٦٢٤ .

(٦) خصال الصدوق: ص ١٥٦ .

(٧) من لا يحضره الفقيه ٤ : ٢٧٩ .

(٨) نهج البلاغة: الخطبة ١٧١ .

- قال علي (عليه السلام): " قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا قمت المقام المحمود تشفعت في أصحاب الكبائر من أمتي فيشفعني الله فيهم، والله لا تشفعت فيمن آذى ذريتي " (١).

- قال أمير المؤمنين (عليه السلام): " إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا فلم أزل واقفا على الصراط أدعو وأقول: رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش: قد أجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربنى بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت " (٢).

- قال أمير المؤمنين (عليه السلام): " سمعت النبي يقول: إذا حشر الناس يوم القيامة ناداني مناد: يا رسول الله إن الله جل اسمه قد أمكنك من مجازاة محبيك ومحبي أهل بيتك الموالين لهم فيك والمعادين لهم فيك فكافهم بما شئت فأقول: يا رب الجنة فأبوئهم منها حيث شئت، فذلك المقام المحمود الذي وعدت به " (٣).

- عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: " قالت فاطمة (عليها السلام) لرسول الله (صلى الله عليه وآله): يا أبتاه

أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ويوم الأهوال ويوم الفزع الأكبر؟ قال: يا فاطمة عند باب الجنة ومعني لواء الحمد وأنا الشفيح لأمتي إلى ربي. قالت: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟ قال: ألقيني على الحوض وأنا أسقي أمتي، قالت: يا أبتاه إن لم

(١) أمالي الصدوق: ص ١٧٧.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٩ نقلاً عن أمالي الصدوق: ص ٣٩.

(٣) بحار الأنوار ٨: ٣٩ - ٤٠ نقلاً عن أمالي الصدوق: ص ١٨٧.

ألقك هناك؟ قال: ألقيني على الصراط وأنا قائم أقول: رب سلم أمتي، قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: ألقيني وأنا عند الميزان، أقول: ربي سلم أمتي، قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: ألقيني على شفير جهنم أمتع شررها ولهبها عن أمتي فاستبشرت فاطمة بذلك، صلى الله عليها وعلى أبيها وبعلمها وبنيتها " (١).

أحاديث الشفاعة عن سائر أئمة أهل البيت (عليهم السلام):

- قال الحسن (عليه السلام): " إن النبي قال في جواب نفر من اليهود سألوه عن مسائل: وأما شفاعتي ففي أصحاب الكبائر ما خلا أهل الشرك والظلم " (٢).

- عن الحسين (عليه السلام) وهو ينقل كلام جده معه في منامه قائلا: " حبيبي يا حسين كأنني أراك عن قريب مرملا بدمائك مذبوحا بأرض كربلاء على أيدي عصابة من أمتي وأنت مع ذلك عطشان لا تسقى، وظمآن لا تروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة " (٣).

- قال علي بن الحسين (عليهما السلام) في الدعاء الثاني من صحيفته: " عرفه في أهله الطاهرين، وأمتة المؤمنين من حسن الشفاعة، أجل ما وعدته " (٤).

- قال علي بن الحسين (عليهما السلام): " اللهم صل على محمد وآل محمد وشرف بنيانه وعظم برهانه، وثقل ميزانه، وتقبل شفاعته " (٥).

- قال علي بن الحسين (عليهما السلام): " فإنني لم آتك ثقة مني بعمل صالح قدمته: ولا

شفاعة مخلوق رجوته إلا شفاعة محمد وأهل بيته عليه وعليهم سلامك " (٦).

(١) بحار الأنوار ٨: ٣٥ نقلا عن أمالي الصدوق: ص ١٦٦.

(٢) خصال الصدوق: ص ٣٥٥.

(٣) مكاتيب الأئمة ٢: ٤١.

(٤) الصحيفة السجادية، الدعاء الثاني.

(٥) الصحيفة السجادية، الدعاء الثاني والأربعون.

(٦) الصحيفة السجادية: الدعاء الثامن والأربعون.

- قال علي بن الحسين (عليهما السلام): " إلهي ليس لي وسيلة إليك إلا عواطف رأفتك، ولا ذريعة إليك إلا عوارف رحمتك، وشفاعة نبيك نبي الأمة " (١).
- قال علي بن الحسين (عليهما السلام): " صل على محمد وآله واجعل توسلي به شافعا يوم القيامة نافعا إنك أنت أرحم الراحمين " (٢).
- قال محمد بن علي الباقر (عليهما السلام): " إن لرسول الله (صلى الله عليه وآله) شفاعة في أمته " (٣).
- قال محمد بن علي الباقر (عليهما السلام): " من تبع جنازة مسلم أعطي يوم القيامة أربع شفاعات " (٤).
- قال محمد بن علي الباقر (عليهما السلام): " يشفع الرجل في القبيلة، ويشفع الرجل لأهل البيت، ويشفع الرجل للرجلين على قدر عمله، فذلك المقام المحمود " (٥).
- قال محمد بن علي الباقر (عليهما السلام): " إن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنسانا، فعند ذلك يقول أهل النار: فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم " (٦).
- سئل محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) عن أرجى آية في كتاب الله؟ فقال الإمام (عليه السلام) للسائل (بشر بن شريح البصري): " ما يقول فيها قومك "؟ قال: قلت: يقولون:
- {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله}، قال: " لكننا أهل البيت لا نقول بذلك "، قال السائل: قلت: فأى شيء تقولون فيها؟ قال:
- " نقول: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} الشفاعة، والله الشفاعة، والله الشفاعة " (٧).

(١) ملحقات الصحيفة: ص ٢٥٠.

(٢) ملحقات الصحيفة: ص ٢٢٩.

(٣) المحاسن للبرقي: ص ١٨٤.

(٤) التهذيب ١: ٤٥٥.

(٥) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٤.

(٦) الكافي ٨: ١٠١، وبهذا المضمون في تفسير فرات الكوفي: ص ١٠٨.

(٧) تفسير فرات الكوفي: ص ١٨.

- دخل مولى لامرأة علي بن الحسين (عليهما السلام) على أبي جعفر (الباقر) يقال له أبو

أيمن فقال: يغرون الناس فيقولون شفاعة محمد، قال: فغضب أبو جعفر حتى تبرد وجهه، ثم قال: " ويحك يا أبا أيمن أغرك أن عف بطنك وفرجك، أما والله لو قد رأيت أفراع يوم القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد، ويلك وهل يشفع إلا لمن قد وجبت له النار " (١).

- عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: " لفاطمة وقفة على باب جهنم فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كل رجل مؤمن أو كافر فيؤمر بمحب قد كثرت ذنوبه إلى النار، فتقرأ بين عينيه محبا، فتقول: إلهي وسيدي سميتني فاطمة وفضمت بي من تولاني وتولى ذريتي من النار ووعدك الحق وأنت لا تخلف الميعاد، فيقول الله عز وجل: صدقت يا فاطمة إني سميتك فاطمة وفضمت بك من أحبك وتولاك وأحب ذريتك وتولاهم من النار ووعدني الحق، وأنا لا أخلف الميعاد وإنما أمرت بعدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفعك ليتبين لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي فمن قرأت بين عينيه مؤمنا فحذبت بيده وأدخلته الجنة " (٢).

- قال جعفر بن محمد (عليهما السلام): " والله لنشفعن لشيعتنا، والله لنشفعن لشيعتنا، والله لنشفعن لشيعتنا حتى يقول الناس فما لنا من شافعين ولا صديق حميم " (٣).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " لكل مؤمن خمس ساعات يوم

القيامة

يشفع فيها " (٤).

(١) المحاسن ١: ١٨٣.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٥١ نقلا عن علل الشرائع: ص ١٧٨.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ٢: ١٦٤.

(٤) صفات الشيعة: ص ٣٦.

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا،
وأما

التائبون فإن الله عز وجل يقول: ما على المحسنين من سبيل " (١).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " من أنكر ثلاثة أشياء فليس من
شيعتنا:

المعراج، والمسألة في القبر، والشفاعة " (٢).

- قال معاوية بن عمار لجعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " من ذا الذي يشفع
عنده إلا بإذنه؟ قال: " نحن أولئك الشافعون " (٣).

- سئل جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) عن المؤمن هل يشفع في أهله؟ قال:
" نعم المؤمن يشفع فيشفع " (٤).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " إذا كان يوم القيامة نشفع في
المدنب

من شيعتنا وأما المحسنون فقد نجاهم الله " (٥).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " نمجد ربنا ونصلي على نبينا ونشفع
لشيعتنا فلا يردنا ربنا " (٦).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " إن المؤمن ليشفع لحميمه، إلا أن
يكون ناصبا، ولو أن ناصبا شفّع له كل نبي مرسل وملك مقرب ما شفّعوا " (٧).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " إن الجار ليشفع لجاره والحميم
لحميمه، ولو أن الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين شفّعوا في ناصب

(١) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٧٦.

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق: ص ١٧٧.

(٣) تفسير العياشي ١: ١٣٦، وبهذا المضمون في المحاسن: ص ١٨٣.

(٤) المحاسن: ص ١٨٤.

(٥) فضائل الشيعة للشيخ الصدوق: ص ١٠٩ ح ٤٥.

(٦) المحاسن: ص ١٨٣، وبهذا المضمون في البحار ٨: ٤١ عن الإمام الكاظم (عليه السلام).

(٧) ثواب الأعمال: ص ٢٥١.

ما شفّعوا " (١).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " إن المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفع فيهم حتى يبقى خادمه فيقول - فيرفع سبابتيه - يا رب خويديمي كان يقيني الحر والبرد، فيشفع فيه " (٢).

- كتب جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) إلى أصحابه: " واعلموا أنه ليس يغني عنهم من الله أحد من خلقه شيئا، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك، فمن سره أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه " (٣).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقف بين يدي الله عز وجل قيل للعابد: انطلق إلى الجنة، وقيل للعالم: قف تشفع للناس بحسن تأديك لهم " (٤).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) في تفسير قوله سبحانه: " { لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا } " لا يشفع ولا يشفع لهم ولا يشفعون إلا من أذن له بولاية أمير المؤمنين والأئمة من ولده فهو العهد عند الله " (٥).

- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام): " يا معشر الشيعة فلا تعودون وتتكلمون على شفاعتنا، فوالله لا ينال شفاعتنا إذا ركب هذا (الزنا) حتى يصيبه ألم العذاب ويرى هول جهنم " (٦).

(١) المحاسن: ص ١٨٤.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٥٦ و ٦١ نقلا عن الإختصاص للمفيد وتفسير العياشي بتفاوت يسير.

(٣) الكافي ٨: ١١.

(٤) بحار الأنوار ٨: ٥٦ نقلا عن عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق.

(٥) تفسير علي بن إبراهيم القمي ص ٤١٧، ونقل عن الإمام الباقر أيضا كما في البحار ٨: ٣٧.

(٦) الكافي ٥: ٤٦٩، من لا يحضره الفقيه ٤: ٢٨.

- سئل جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) عن المؤمن هل له شفاعة؟ قال: " نعم "

فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد؟ قال: " نعم، إن للمؤمنين خطايا وذنوبا وما من أحد إلا يحتاج إلى شفاعة محمد يومئذ " (١).
- قال جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) أو محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) في تفسير

قوله: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} قال: " هي الشفاعة " (٢).
- عن سماعة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن شفاعة النبي (صلى الله عليه وآله) يوم

القيامة؟ قال: " يلجم الناس يوم القيامة العرق ويقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا عند ربه، فيأتون آدم فيقولون: إشفع لنا عند ربك فيقول: إن لي ذنبا وخطيئة فعليكم بنوح، فيأتون نوحا فيردهم إلى من يليه، وكل نبي يردهم إلى من يليه حتى ينتهون إلى عيسى فيقول: عليكم بمحمد رسول الله - صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء - فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنة ويستقبل باب الرحمن ويخر ساجدا فيمكث ما شاء الله، فيقول عز وجل: إرفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط وذلك قوله: {عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا} " (٣).

- عن عيسى بن القاسم، عن أبي عبد الله (عليه السلام): " إن أناسا من بني هاشم أتوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشي وقالوا: يكون لنا هذا

السهم الذي جعله للعاملين عليها فنحن أولى به، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا بني عبد

المطلب إن الصدقة لا تحل لي ولا لكم ولكني وعدت الشفاعة ثم قال: والله

(١) تفسير العياشي المعاصر للشيخ الكليني ٢: ٣١٤، وفي المحاسن ١: ١٨٤ ومع زيادات في بحار الأنوار ٨: ٤٨.

(٢) تفسير العياشي ٢: ٣١٤.

(٣) بحار الأنوار ٨: ٣٥ - ٣٦ نقلا عن تفسير علي بن إبراهيم: ص ٣٨٧. الذنب الذي ورد في الحديث

بمعنى ما يتبع الإنسان لا بمعنى المعصية، وعلى كل حال فحسنت الأبرار سيئات المقربين.

أشهد أنه قد وعدنا فما ظنكم يا بني عبد المطلب إذا أخذت بحلقة الباب أتروني مؤثرا عليكم غيركم، ثم قال: إن الجن والإنس يجلسون يوم القيامة في صعيد واحد فإذا طال بهم الموقف طلبوا الشفاعة فيقولون: إلى من؟ فيأتون نوحا فيسألونه الشفاعة، فقال: هيهات قد رفعت حاجتي، فيقولون إلى من؟ فيقال: إلى إبراهيم... " (١).

- عن سماعة، عن أبي إبراهيم (عليه السلام) في قول الله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك

مقاما محمودا﴾ قال: " يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاما ويؤمر الشمس فيركب على رؤوس العباد ويلجمهم العرق، ويؤمر الأرض لا تقبل من عرقهم شيئا، فيأتون آدم فيتشفعون منه فيدلهم على نوح، ويدلهم نوح على إبراهيم، ويدلهم إبراهيم على موسى، ويدلهم موسى على عيسى، ويدلهم عيسى فيقول: عليكم بمحمد خاتم البشر، فيقول محمد: أنا لها، فينطلق حتى يأتي باب الجنة فيدق فيقال له: من هذا - والله أعلم - فيقول: محمد! فيقال: افتحوا له، فإذا فتح الباب استقبل ربه فيخر ساجدا فلا يرفع رأسه حتى يقال له: تكلم وسل تعط واشفع تشفع، فيرفع رأسه فيستقبل ربه فيخر ساجدا فيقال له مثلها فيرفع رأسه حتى أنه ليشفع من قد أحترق بالنار، فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد (صلى الله عليه وآله) وهو قول الله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ " (٢).

- قال موسى بن جعفر الكاظم (عليهما السلام): " لما حضر أبي (جعفر بن محمد) الوفاة قال لي: يا بني إنه لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة " (٣).

(١) بحار الأنوار ٨: ٤٧ - ٤٨ وذيل الحديث موافق لما تقدمه ولأجل ذلك تركناه.
(٢) بحار الأنوار ٨: ٤٨ - ٤٩ نقلا عن تفسير العياشي، والمراد من " استقبل ربه ": استقبل رضوانه أو باب رحمته أو ما يناسب ذلك كما ورد في الحديث المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام).
(٣) الكافي ٣: ٢٧٠ و ٦: ٤٠١، التهذيب ٩: ١٠٧، بهذا المضمون في من لا يحضره الفقيه ١: ١٣٣، ونقله الشيخ في التهذيب ٩: ١٠٦ عن الإمام الصادق (عليه السلام).

- قال موسى بن جعفر الكاظم (عليهما السلام): " كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: لا تستخفوا بفقراء شيعة علي، فإن الرجل منهم ليشفع بعدد ربيعة ومضر " (١).

- قال موسى بن جعفر الكاظم (عليهما السلام): " شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجون البيت الحرام ويصومون شهر رمضان ويوالون أهل البيت ويتبرأون من أعدائهم، وإن أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر فيشفعه الله فيهم لكرامته على الله عز وجل " (٢).

- قال علي بن موسى الرضا (عليهما السلام) ناقلا عن علي (عليه السلام): " من كذب بشفاعته رسول الله لم تنله " (٣).

- قال علي بن موسى الرضا (عليهما السلام): " مذنبو أهل التوحيد لا يخلدون في النار ويخرجون منها والشفاعة جائزة لهم " (٤).

- قال علي بن موسى الرضا (عليهما السلام) ناقلا عن آبائه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): " أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحِبُّ لهم بقلبه ولسانه " (٥).

- قال علي بن موسى الرضا (عليهما السلام)، ناقلا عن آبائه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): " من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله شفاعتي، ثم قال (عليه السلام): إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أممي فأما المحسنون فما عليهم من سبيل "، قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا (عليه السلام): يا بن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل: {ولا يشفعون إلا لمن

-
- (١) بحار الأنوار ٨: ٥٩، وبهذا المضمون في أمالي الشيخ الطوسي: ص ٦٣، وبشارة المصطفى: ص ٥٥.
(٢) صفات الشيعة: ص ١٦٤، الحديث الخامس.
(٣) عيون أخبار الرضا ٢: ٦٦.
(٤) عيون أخبار الرضا ٢: ١٢٥.
(٥) عيون أخبار الرضا ٢: ٢٤، وباختصار يسير في بشارة المصطفى: ص ١٤٠.

ارتضى}؟ قال: " لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه " (١).
- قال علي بن محمد الهادي (عليهما السلام) كما في الزيارة الجامعة: " ولكم المودة الواجبة والدرجات الرفيعة والمقام المحمود، والمقام المعلوم عند الله عز وجل والجاه العظيم، والشأن الكبير والشفاعة المقبولة " (٢).
- قال الحسن بن علي العسكري (عليهما السلام) ناقلا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في ضمن حديث: " لا يزال المؤمن يشفع حتى يشفع في جيرانه وخلطائه ومعارفه " (٣).
- قال الحجة بن الحسن (عليهما السلام) في الصلوات المنقولة عنه: " اللهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين وحجة رب العالمين، المرتجى للشفاعة " (٤).
هذه هي الأحاديث الواردة عن طرق الشيعة الإمامية وأنت إذا أضفتها إلى ما رواه أصحاب الصحاح والمسانيد، يتجلى لك موقف الشفاعة في الشريعة الإسلامية وإنها من الأمور الثابتة والقطعية كما يتجلى لك معناها إلى غير ذلك من الخصوصيات التي مر بيان الخلاف فيها.
ثم بقيت في المقام روايات مبعثرة في الكتب والصحاح والمسانيد، يستلزم جمعها أفراد رسالة في المقام، ولأجل ذلك اكتفينا بما ذكرناه.

-
- (١) أمالي الصدوق: ص ٥.
(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٦١٦.
(٣) بحار الأنوار ٨: ٤٤.
(٤) مصباح المتهجد: ص ٢٨٤.

بحث وتمحيص: حول الروايات الواردة في الشفاعة
خاتمة المطاف:

بحث وتمحيص

حول الروايات الواردة في الشفاعة

قد وقفت على النصوص والروايات التي نقلناها من الصحاح والمسانيد لأهل
السنة والمجاميع الحديثية للشيعة الإمامية والواجب هنا هو الوقوف على مضمون
هذه الروايات على وجه الاختصار وإليك ما تدل عليه تلك المأثورات:

١ - يستفاد من الروايات المختلفة أن الشفاعة من ضروريات التشيع وأن أئمة
أهل البيت يجاهرون بذلك، فلاحظ الأرقام التالية من الأحاديث المتقدمة: ٨٦،
١٠٦، ١٠٩.

٢ - إن الدقة فيما مر من الروايات المتواترة يقضي ببطلان ما ذهب إليه المعتزلة
في معنى الشفاعة، وأن الحق في الشفاعة هو ما عليه جمهور المسلمين من أنه عبارة
عن غفران الذنوب الكبيرة ببركة شفاعة الشفيع ودعائه، فلاحظ الأرقام التالية
من الأحاديث المقدمة: ١، ٧، ١٥، ١٦، ٥٥، ٥٨، ٦٥، ٦٦، ٨٥، ١٠٩ وغيرها
من الروايات.

٣ - إن الشفاعة كما تحفظ من دخول النار توجب خروج المذنب من النار بعد
الدخول فيها، فلاحظ الأرقام التالية: ٢٦، ٥٠، ٥٧، ١٠٧ وغيرها.

٤ - إن شفاعة الشافعين مشروطة بوجود مؤهلات في المشفوع لهم وقد جاءت شروطها في الروايات. منها: أن لا يكون مشركا، ومنها: أن يكون مسلما، ومنها: أن يكون مؤمنا، ومنها: أن يكون محبا لأهل البيت لا ناصبا لهم العدا، ومنها: أن لا يكون مستخفا بالصلاة، نعم من كان مؤديا للأمانة، وحسن الخلق، وقريبا من الناس يشفع قبل كل أحد، فلاحظ في ذلك كله الأرقام التالية: ٢، ٣، ٦، ٩، ١١، ١٧، ٢٤، ٩١، ٩٢، ١٠٣.

٥ - إن القرآن وإن أجمل مسألة الشفيع ولم يصرح في ذلك إلا في مورد أو موردين، غير أن الأحاديث أعطت صورة مفصلة عن الشفعاء، وإليك أسماءهم مع الإشارة إلى الأحاديث الدالة عليها.
أ - الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التالية من الأحاديث

- الماضية: ٤، ٥، ٧، ٨، ١٠، ١٤، ٥٦، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ١٠٠، ١٠١.
ب - الملائكة من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التالية: ١٨، ٢١، ٢٢.
ج - الأنبياء من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التالية: ٢٠، ٢١، ٢٢.
د - أهل البيت من الشفعاء، فلاحظ الأرقام التالية: ٥١، ٥٦.
هـ - علي من الشفعاء، فلاحظ الرقم: ٦١.
و - فاطمة من الشفعاء، فلاحظ: ٦٠، ٨٢.
ز - العلماء من الشفعاء، فلاحظ: ٢٠، ٦٢، ٩٥.
ح - الشهداء من الشفعاء، فلاحظ: ٢٠، ٢٢، ٢٨، ٦٢.
ط - القرآن من الشفعاء، فلاحظ: ٤٣، ٤٤، ٥٦، ٦٤.
ي - متعلم القرآن والعامل به من الشفعاء، فلاحظ: ٢٩.
ك - المؤمن من الشفعاء، فلاحظ: ٧٧، ٧٨، ٨٨، ٩١، ٩٣، ١٠٥، ١١١.
ل - من بلغ التسعين يشفع، لاحظ: ٣٠.

م - من كان حافظا للرحم مؤديا للأمانة يشفع، لاحظ: ٥٦.
ما ذكرناه عصارة هذه الروايات، وأما الوقوف على الجزئيات فيتوقف على
ملاحظتها واحدة بعد الأخرى.

الفصل السابع
التوسل
مفهومه وأقسامه وحكمه
في الشريعة الإسلامية الغراء

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه وأفضل سفرائه محمد وآله الطاهرين وعلى عباد الله الصالحين.

أما بعد: فقد خلق الله سبحانه العالم التكويني على أساس الأسباب والمسببات، فلكل ظاهرة في الكون سبب عادي يؤثر فيها بإذنه سبحانه، وليس للعلم والعالم التجريبي شأن سوى الكشف عن تلك الروابط الموجودة بين الظواهر الكونية، وكلما تقدم العلم في ميادين الكشف، تتجلى تلك الروابط بأعمق صورة لدينا والكل يدل على أنه سبحانه خلق النظام الكوني على أساس وسائل وأسباب تتبنى مسبباتها بتنظيم منه سبحانه إذ {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا} (١) والماء سببا للحياة فالكل مؤثرات فيما سواه حسب مشيئته وإذنه، قال سبحانه: {وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم} (٢) والباء في الآية بمعنى السببية والضمير يرجع إلى الماء، وقال أيضا: {أولم يروا أنا نسوق

(١) يونس: ٥.

(٢) البقرة: ٢٢.

الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون { (١)، فالآية صريحة في تأثير الماء على الزرع، وأنه سبحانه أعطى له تلك المقدرة وكل من الأسباب جنود له سبحانه، قال: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} (٢) فإذا كانت الملائكة جنوداً لله تبارك وتعالى كما يقول سبحانه: {فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها} (٣) فالأسباب العادية التي تعتمد عليها الحياة الجسمانية للإنسان، جنوده سبحانه في عالم المادة ومظاهر إرادته ومشيعته. وهذا ليس بمعنى تفويض النظام لهذه الظواهر المادية، والقول بتأصلها في التأثير واستقلالها في العمل، بل الكل متدل بوجوده سبحانه، قائم به، تابع لمشيئته وإرادته وأمره.

هذا هو الذي نفهمه من الكون ويفهمه كل من أمعن النظر فيه، فكما أن الحياة الجسمانية قائمة على أساس الأسباب والوسائل، فهكذا نزول فيضه المعنوي سبحانه إلى العباد تابع لنظام خاص كشف عنه الوحي، فهدايته سبحانه تصل إلى الإنسان عن طريق ملائكته وأنبيائه ورسله وكتبه، فالله سبحانه هو الهادي، والقرآن أيضاً هاد، والنبي الأكرم أيضاً هاد ولكن في ظل إرادة الله سبحانه، قال سبحانه: {والله يقول الحق وهو يهدي السبيل} (٤) وقال سبحانه: {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم} (٥) وقال سبحانه في حق نبيه: {وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم} (٦).

(١) السجدة: ٢٧.

(٢) المدثر: ٣١.

(٣) التوبة: ٤٠.

(٤) الأحزاب: ٤.

(٥) الإسراء: ٩.

(٦) الشورى: ٥٢.

فهداية الله تعالى تصل إلى الإنسان عن طريق الأسباب والوسائل التي جعلها الله سبحانه طريقا لها وإلى هذا الأصل القويم يشير الإمام الصادق (عليه السلام) في كلامه

ويقول: "أبى الله أن تجري الأشياء إلا بأسباب فجعل لكل شئ سببا، وجعل لكل سبب شرحا" (١).

فعلى ضوء هذا الأساس فالعالم المعنوي يكون على غرار العالم المادي فلأسباب سيادة وتأثير بإذنه سبحانه، وقد شاء الله أن يكون لها دور في كلتا النشاطين، فلا ضير على من يطلب رضا الله أن يتمسك بالوسيلة، قال الله سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون} (٢).

فالله سبحانه حثنا للتقرب إليه على التمسك بالوسائل وابتغائها، والآية دعوة عامة لا تختص بسبب دون سبب، بل تأمر بالتمسك بكل وسيلة توجب التقرب إليه سبحانه، وعندئذ يجب علينا التبع في الكتاب والسنة، حتى نقف على الوسائل المقربة إليه سبحانه، وهذا مما لا يعلم إلا من جانب الوحي، والتنصيص عليه في الشريعة، ولولا ورود النص لكان تسمية شئ بأنه سبب للتقرب، بدعة في الدين، لأنه من قبيل إدخال ما ليس من الدين في الدين. ونحن إذا رجعنا إلى الشريعة نقف على نوعين من الأسباب المقربة إلى الله سبحانه:

النوع الأول: الفرائض والنوافل التي ندب إليها الكتاب والسنة، ومنها التقوى، والجهاد الواردان في الآية، وإليه يشير علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ويقول: "إن

أفضل ما توصل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به، وبرسوله،

(١) الكافي ١: ١٨٣.

(٢) المائدة: ٣٥.

والجهاد في سبيله، فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص، فإنها الفطرة، وإقام الصلاة، فإنها الملة، وإيتاء الزكاة، فإنها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان، فإنه جنة من العقاب، وحج البيت واعتماره، فإنهما ينفيان الفقر، ويرحضان الذنب، وصللة الرحم، فإنها مثرأة في المال، ومنسأة في الأجل، وصدقة السر، فإنها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية، فإنها تدفع ميتة السوء، وصنائع المعروف، فإنها تقي مصارع الهوان " (١).

غير أن مصاديق هذا النمط من الوسيلة لا تنحصر فيما جاء في الآية أو في تلك الخطبة بل هي من أبرزها.

النوع الثاني: وسائل ورد ذكرها في الكتاب والسنة الكريمة، وحث عليها الرسول وتوسل بها الصحابة والتابعون وكلها توجب التقرب إلى الله سبحانه، وهذا هو الذي نطلبه في هذا الأصل حتى يعلم أن الوسيلة لا تنحصر في الفرائض والمندوبات الرائجة بل هناك وسائل للتقرب دلت عليها السنة، وهي التوسل بالنبي الأكرم على أشكاله المختلفة التي سنذكرها، فهذا علي (عليه السلام) يقول في ذكر

النبي (صلى الله عليه وآله): " اللهم أعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك منزله، وشرف عندك

منزله وآته الوسيلة وأعطه السناء والفضيلة، واحشرنا في زمرة " (٢). فإذا وقفنا على أن النبي هو الوسيلة المقربة إلى الله، فتجب علينا مراجعة السنة لنطلع على كيفية التوسل به فهي تبين لنا تلك الكيفية. فعلى من يطلب استجابة دعائه، أن يتوسل إلى الله بأسباب جعلها الله سبحانه وسيلة لهذا المبتغى. * * *

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١١٠.

(٢) المصدر نفسه: الخطبة ١٠٦.

التوسل لغة واصطلاحاً

التوسل لغة واصطلاحاً

التوسل لغة من وسلت إلى ربي وسيلة: عملت عملاً أتقرب به إليه، وتوسلت إلى فلان بكتاب أو قرابة، أي تقربت به إليه (١).

وقال الجوهري في الصحاح: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير والجمع: الوسيل والوسائل (٢).

ونحن في غنى عن تحقيق معنى الوسيلة في اللغة، لأنها من المفاهيم الواضحة لدينا وحقيقتها لا تتجاوز اتخاذ شيء ذريعة إلى أمر آخر يكون هو المقصود والمبتغى، وهي تختلف حسب اختلاف المقاصد.

فمن ابتغى رضا الله تبارك وتعالى يتوسل بالأعمال الصالحة التي بها يكتسب رضاه، ومن طلب استجابة دعائه يتوسل بشيء جعل في الشريعة وسيلة لها، ومن أراد زيارة بيت الله الحرام يتوسل بما يوصله إليها، فوضوح معناه يبعثنا إلى أن نترك نقل أقوال اللغويين في ذلك المضمار وإن كانت أكثر كلماتهم في المقام متماثلة.

(١) الخليل، ترتيب العين، مادة "وسل".

(٢) الصحاح، ج ٥، مادة "وسل".

والمقصود من التوسل في المقام، هو أن يقدم العبد إلى ربه شيئا، ليكون وسيلة إلى الله تعالى لأن يتقبل دعاءه ويجيبه إلى ما دعا، وينال مطلوبه، مثلا إذا ذكر الله سبحانه بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا ومجده وقدسہ وعظمه، ثم دعا بما بدا له، فقد اتخذ أسماءه وسيلة لاستجابة دعائه ونيل مطلوبه، ومثله سائر التوسلات، والتوسل بالأسباب في الحياة أمر فطري للإنسان، فهو لم يزل يدق بابها ليصل إلى مسبباتها، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): "أبى الله أن تحجري الأشياء إلا بأسباب فجعل

لكل شئ سببا" (١).

إن الوسيلة إذا كانت وسيلة عادية للشئ وسببا طبيعيا له، فلا يشترط فيها إلا وجود الصلة العادية بين الوسيلة والمتوسل إليه، فمن يريد الشبع فعليه الأكل ولا يريحه شرب الماء، إذ لا صلة بين شرب الماء، وسد الجوع، فالعقلاء في حياتهم الدنيوية ينتهجون ذلك المنهج بوازع فطري، أو بعامل تجريبي، نرى أن ذا القرنين عندما دعي إلى دفع شر يأجوج ومأجوج اللذين كانوا يأتیان من وراء الجبل ويفسدان ويقتلان ويغيران عليهم، لبي دعوتهم وتمسك بالسبب الطبيعي القويم الذي يدفع به شرهم فخطبهم بقوله: {أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطرا* فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا} (٢).

ففي هذا الموقف العصيب توسل ذو القرنين - ذلك الإنسان الإلهي - بسبب طبيعي، إذ إنه وقف على الصلة بين الوسيلة وما يهدف إليه، وهو سد الوديان بقطع الحديد حتى إذا ساوى بين الجبلين أمر الحدادين أن ينفخوا في نار الحديد التي أوقدت فيه حتى جعله نارا، وعند ذلك قال: إئتوني نحاسا مذابا أو صفرا مذابا،

(١) الكافي ١: ١٨٣.

(٢) الكهف: ٩٦ - ٩٧.

حتى أصبه على السد بين الجبلين وينسد بذلك النقب ويصير جدارا مصمتا، فكانت حجارته الحديد وطينه النحاس الذائب.

ففي المورد وأضرابه التي بنيت عليها الحياة الإنسانية في هذا الكوكب، لا يشترط بين الوسيلة والهدف سوى الرابطة الطبيعية أو العادية التي كشف عنها العلم والتجربة وأما التوسل في الأمور الخارجة عن نطاق الأمور العادية، فيما أن التعرف على أسبابه خارج عن إطار العلم والتجربة بل يعد من المكونات الغيبية، فلا يقف عليها الإنسان إلا عن طريق الشرع وتنبه الوحي، وبيان الأنبياء والرسل وما ذاك إلا لأنهم هم الذين يرفعون الستار عن وجه الحقيقة ويصرحون بالوسيلة ويبينون بأن هناك صلة بينها وبين ما يبغيه الإنسان المتوسل.

وهذا الأصل يبعثنا إلى أن لا نتوسل بشئ فيما نبتغيه من رضا الرب، وغفران الذنوب واستجابة الدعاء ونيل المنى، إلا عن طريق ما عينه الشارع وصرح بأنه وسيلة لذلك الأمر، فالخروج عن ذلك الإطار يسقطنا في مهاوي التشريع ومهالك البدع التي تعرفت على مضاعفاتها.

فالمسلمون سلفهم وخلفهم، صحابيتهم وتابعيتهم، والتابعون لهؤلاء بإحسان في جميع الأعصار ما كانوا يخرجون عن ذلك الخط الذي رسمناه، فما ندب إليه الشرع في مجال التوسل يأخذون به، وما لم يذكره، أو نهى عنه يتركونه، ولا اعتبار بالبدع المحدثه التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وها نحن نتلو عليك التوسلات المشروعة التي ندب إليها الشرع، وحث عليها النبي الأكرم وخلفاؤه مجتنبين عن الإسهاب في الكلام، مقتصرين على اللب تاركين القشر.

(١)

التوسل بأسمائه وصفاته

أمر الله سبحانه عباده بدعائه بأسمائه الحسنی فقال تعالى: {ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون} (١).

إن الآية تصف أسماء كلها بالحسنی لحسن معانيها، من غير فرق بين ما يرجع إلى صفات ذاته كالعالم والقادر، والحي، وما يرجع إلى صفات فعله كالخالق والرازق والمحیی والممیت، ومن غير فرق بين ما يفيد التنزيه ورفع النقص كالغني والقدوس، وما يعرب عن رحمته وعفوه كالغفور والرحيم، فعلى المسلم دعاؤه سبحانه بها فيقول: يا الله يا رحمن يا رحيم، يا خالق السماوات والأرض، يا غافر الذنوب ويا رازق الطفل الصغير. وترك عمل الذين يعدلون بأسماء الله تعالى عما هي عليه فيسمون بها أصنامهم بالزيادة والنقصان، فيسمون أصنامهم باللات والعزى أخذاً من الله العزيز، سيجزون ما كانوا يعملون في الآخرة. فعندما يذكره العبد بأسمائه التي تضمنت كل خير وجمال، ورحمة ومغفرة

(١) الأعراف: ١٨٠.

وعزة وقدرة، ثم يعقبه بما يطلبه من مغفرة الذنوب وقضاء الحوائج فيستجيب له سبحانه، وقد دلت على ذلك، الآثار الصحيحة التي نذكر منها ما يلي:

١ - أخرج الترمذي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فقال النبي: " لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى " (١).

والحديث تضمن بيان الوسيلة، والتوسل بالأسماء، وإن لم يأت فيه الغرض الذي لأجله سأل الله تعالى بأسمائه.

٢ - عن أبي هريرة قال: جاءت فاطمة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) تسأله خادما، فقال لها:

" قولي: اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر " (٢).

٣ - وأخرج أحمد والترمذي عن أنس بن مالك، أنه كان مع رسول الله جالسا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم، فقال النبي: " تدرؤن بم دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى " (٣).

(١) الترمذي، الصحيح ٥: ٥١٥ برقم ٣٤٧٥، الباب ٦٥ من كتاب الدعوات.
(٢) الترمذي، الصحيح ٥: ٥١٨ برقم ٣٤٨١، الباب ٦٨ من كتاب الدعوات.
(٣) الترمذي، الصحيح ٥: ٥٤٩ - ٥٥٠ برقم ٣٥٤٤، الباب ١٠٠ من كتاب الدعوات.

وفي روايات أئمة أهل البيت: نماذج من هذا النوع من التوسل يقف عليها الذي يسبر رواياتهم وأحاديثهم.
٤ - فقد روى الإمام الرضا (عليه السلام) عن جده محمد الباقر (عليه السلام) أنه كان يدعو الله

تبارك وتعالى في شهر رمضان بدعاء جاء فيه: " اللهم إني أسألك بما أنت فيه من الشأن والجبروت، وأسألك بكل شأن وحده وجبروت وحدها، اللهم إني أسألك بما تجيبني به حين أسألك فأجبني يا الله " (١).
٥ - روى الشيخ الطوسي في مصباحه عن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) دعاء

باسم دعاء السمات مستهله:

" اللهم إني أسألك باسمك العظيم الأعظم، الأعز الأجل الأكرم، الذي إذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة، انفتحت، وإذا دعيت به على مضايق أبواب الأرض للفرج، انفرجت، وإذا دعيت به على العسير ليسر تيسرت... " (٢).

إن ثناء الله وتقديسه ووصفه بما وصف به في كتابه وسنة نبيه، يوجد أرضية صالحة لاستجابة الدعاء، ويكشف عن استحقاق الداعي لرحمته وعفوه وكرمه. وبما أن هذا القسم من التوسل اتفقت عليه الأمة سلفها وخلفها ولم يذكر فيه أي خلاف فلنقتصر فيه على هذا المقدار.

(١) إقبال الأعمال: ٣٤٨، ط ١٤١٦ هـ.

(٢) مصباح المتعبد: ص ٣٧٤.

(٢)

التوسل بالقرآن الكريم

إن الإنسان مهما كان مبدعا في الوصف والتعبير، لا يستطيع أن يصف كلام الله العزيز بمثل ما وصفه به سبحانه، فقد وصف هو كتابه بأنه نور، وكتاب مبين، وهدى للمتقين، نزل بالحق تبيانا لكل شيء، إلى غير ذلك من المواصفات الواردة فيه. وكتابه سبحانه، فعله، فالتوسل بالقرآن والسؤال به، توسل بفعله سبحانه ورحمته التي وسعت كل شيء، ومع ذلك كله يجب على المتوسل، التحقق من وجود دليل على جواز هذا النوع من التوسل، لما عرفت من أن كل ما يقوم به المسلم من التوسلات يلزم أن لا يחדش أصل التوحيد وحرمة التشريع، ولحسن الحظ أنك ترى وروده في الشرع.

روى الإمام أحمد، عن عمران بن الحصين، أنه مر على رجل يقص، فقال عمران: إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله يقول: " اقرأوا القرآن واسألوا الله تبارك وتعالى به قبل أن يجئ قوم يسألون به الناس " (١). فعموم لفظ الحديث

(١) الإمام أحمد، المسند ٤: ٤٤٥. ورواه في كنز العمال عن الطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان، لاحظ ج ١: ٦٠٨ / ٢٧٨٨.

يدل على جواز سؤاله سبحانه بكتابه المنزل ما شاء من الحوائج الدنيوية والأخروية.

والإمعان في الحديث يرشدنا إلى حقيقة واسعة وهي جواز السؤال بكل من له عند الله منزلة وكرامة، وما وجه السؤال بالقرآن إلا لكونه عزيزا عند الله، مكرما لديه، وهو كلامه وفعله، وهذا أيضا متحقق في رسوله الأعظم وأوليائه الطاهرين عليهم سلام الله أجمعين.

وورد عن أئمة أهل البيت: أنه يستحب في ليلة القدر أن يفتح القرآن فيقول: " اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه اسمك الأكبر وأسمائك الحسنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار " (١).

(١) إقبال الأعمال: ص ٤١. رواه حريز بن عبد الله السجستاني عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام).

(٣)

التوسل بالأعمال الصالحة

إذا كان التوسل بمعنى تقديم شيء إلى ساحة الله ليستجيب الدعاء، فلا شك في أن العمل الصالح أحسن شيء يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى، وأحسن وسيلة يتمسك بها فتكون نتيجة التقرب هي نزول رحمته عليه وإجابة دعائه، وفي بعض الآيات الكريمة تلميح إلى ذلك، وإن لم يكن فيها تصريح إلا أن السنة النبوية صرحت بذلك، أما الآيات فنأتي بنموذجين منها:

١ - {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم*} ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم} (١).

تري أن إبراهيم وولده الحلیم قدما إلى الله تبارك وتعالى وسيلة وهي بناء البيت، فعند ذلك طلبا من الله سبحانه عدة أمور تجمعها الأمور التالية: تقبل منا، واجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا.

(١) البقرة: ١٢٧ - ١٢٨.

والآية وإن لم تكن صريحة فيما نبتغيه غير أن دعاء إبراهيم في الظروف التي كان يرفع فيها قواعد البيت مع ابنه، ترشدنا إلى أن طلب الدعاء في ذلك الظرف، لم يكن أمرا اعتباطيا، بل كانت هناك صلة بين العمل الصالح والدعاء، وأنه في قرارة نفسه تمسك بالأول ليستجيب دعاءه.

٢ - قوله سبحانه: {الذين يقولون ربنا إنا آمنة فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار} (١).

ترى أنه عطف طلب الغفران بالفاء على قوله: {ربنا إنا آمنة}، ففاء التفرع تعرب عن صلة بين الإيمان وطلب الغفران.

وأنت إذا سبرت الآيات الكريمة تقف على نظير ذلك فكلها من قبيل التلميح لا التصريح، غير أن في السنة النبوية تصريح على أن ذكر العمل الصالح الذي أتى به الإنسان لله تبارك وتعالى، يثير رحمته، فتنزل رحمته على عبده ويستجاب دعاؤه، وقد روى الفريقان القصة التالية وفيها غنى وكفاية:

روى البخاري عن ابن عمران عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: " بينما ثلاثة نفر ممن

كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه.

فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرز، فذهب وتركه، وإني عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنني اشتريت منه بقرا، وأنه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها، فقال لي: إنما لي عندك فرق من أرز، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك

(١) آل عمران: ١٦.

الفرق، فساقها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك، ففرج عنا،
فانساحت عنهم الصخرة.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما
كل ليلة بلبن غنم لي فأبطأت عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلي وعيالي
يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما
وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر فإن كنت
تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى
نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي وأني
راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت، فأتيها
بها، فدفعتها إليها، فأمكنني من نفسها، فلما قعدت بين رجلها فقالت: اتق الله
ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقممت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أنني فعلت
ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا " (١).

لم تكن الغاية من تحديث النبي بما ذكر إلا تعليم أمته حتى يتخذوا ذكر العمل
الصالح وسيلة لاستجابة دعوتهم. ولو كان ذلك من خصائص الأمم الماضية
لصرح بها. وقد رواه الفريقان باختلاف في اللفظ.

٣ - روى البرقي أحمد بن خالد (ت ٢٧٤ هـ) في محاسنه، عن عبد الرحمن بن
أبي نجران، عن المفضل بن صالح، عن جابر الجعفي، يرفعه قال: قال رسول الله (صلى
الله عليه وآله):

" خرج ثلاثة نفر يسيحون في الأرض، فبينما هم يعبدون الله في كهف في قلة
جبل حتى بدت صخرة من أعلى الجبل حتى التقمت باب الكهف، فقال بعضهم

(١) البخاري، الصحيح ٤: ١٧٣، كتاب الأنبياء، الباب ٥٣، ورواه في كتاب البيوع، الباب ٩٨، واللفظ
لكتاب
الأنبياء.

لبعض: عباد الله والله ما ينجيكم مما وقعتُم إلا أن تصدقوا الله، فهلموا ما عملتم لله خالصا، فإنما أسلمتم بالذنوب.

فقال أحدهم: اللهم إن كنت تعلم أنني طلبت امرأة لحسنها وجمالها، فأعطيت فيها ما لا ضحما، حتى إذا قدرت عليها وجلست منها مجلس الرجل من المرأة وذكرت النار، فقامت عنها فزعا منك، اللهم فارفع عنا هذه الصخرة، فانصدعت حتى نظروا إلى الصدع.

ثم قال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنني استأجرت قوما يحرقون كل رجل منهم بنصف درهم، فلما فرغوا أعطيتهم أجورهم، فقال أحدهم: قد عملت عمل اثنين والله لا آخذ إلا درهما واحدا، وترك ماله عندي، فبذرت بذلك النصف الدرهم في الأرض، فأخرج الله من ذلك رزقا، وجاء صاحب النصف الدرهم فأراد، فدفعت إليه ثمن عشرة آلاف، فإن كنت تعلم أنما فعلته مخافة منك فارفع عنا هذه الصخرة، قال: فانفرجت منهم حتى نظر بعضهم إلى بعض.

ثم إن الآخر قال: اللهم إن كنت تعلم أن أبي وأمي كانا نائمين، فأتيتهما بقعب من لبن، فخفت أن أضعه أن تمج فيه هامة، وكرهت أن أوقظهما من نومهما، فيشق ذلك عليهما، فلم أزل كذلك حتى استيقظا وشربا، اللهم فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فارفع عنا هذه الصخرة، فانفرجت لهم حتى سهل لهم طريقهم، ثم قال النبي (صلى الله عليه وآله): من

صدق الله نجا " (١).

٤ - وقال الإمام الطبرسي: أصحاب الرقيم هم النفر الثلاثة الذين دخلوا في

(١) نور الثقلين: الجزء ٣ في تفسير قوله: * (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) * (الكهف: ٩) نقلا عن محاسن البرقي في تفسير الآية.

غار، فانسد عليهم، فقالوا: ليدع الله تعالى كل واحد منا بعمله حتى يفرج الله عنا، ففعلوا، فنجاهم الله. رواه النعمان بن بشر مرفوعا (١).
ولعل فيها غنى وكفاية ومن أراد التوسع فعليه السبر في غضون الروايات.

(١) مجمع البيان ٣: ٤٥٢.

(٤)

التوسل بدعاء الرسول الأكرم
إن للنبي الأكرم مكانة مرموقة عند ربه ليس لأحد مثلها، فهو أفضل الخليفة،
وقد بلغت عناية القرآن الكريم ببيان نواح من مناقبه إلى حد لا ترى مثل ذلك إلا
في حق القليل من أنبيائه، وربما يطول بنا الكلام إذا قمنا بعرض جميع الآيات
الواردة في حقه، وإنما نشير إلى بعضها.

فقد أشار الذكر الحكيم إلى مكانته المرموقة ولزوم توقيره وتكريمه وأنه لا
يصلح دعاؤه كدعاء البعض للبعض بقوله سبحانه: {يا أيها الذين آمنوا لا
ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض
أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} (١) وقال سبحانه أيضا: {لا تجعلوا دعاء
الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا} (٢).

وإلى كماله الرفيع وإمامته وكونه قدوة وأسوة للمؤمنين يتأسون به في قيمه
ومثله العليا، بقوله سبحانه: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان

(١) الحجرات: ٢.

(٢) النور: ٦٣.

يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا { (١) } .
وإلى عظمته وكرامته عند الله بحيث يصلي عليه سبحانه وملائكته فأمر
المؤمنين أن يصلوا عليه بقوله: { إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها
الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما } { (٢) } .
وإلى صفاء نفسه وقوة روحه وجمال خلقه بقوله: { وإنك لعلی خلق عظیم } { (٣) } .
وإلى عكوفه على عبادة ربه وتهجده في الليل وسهره في طريق طاعة الله بقوله:
{ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين
معك } { (٤) } .
وإلى غزارة علمه بقوله: { وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك
عظيما } { (٥) } .
وإلى أنه (صلى الله عليه وآله) أحد الأمانين في الأرض بقوله: { وما كان الله ليعذبهم
وأنت
فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون } { (٦) } .
وقد بلغت كرامة الرسول - عند الله - إلى حد يتلو اسمه اسم الله وينسب إليهما
فعل واحد ويقول: { وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب
والشهادة } { (٧) } .
وقال سبحانه: { ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما } { (٨) } .

(١) الأحزاب: ٢١ .

(٢) الأحزاب: ٥٦ .

(٣) القلم: ٤ .

(٤) المزمل: ٢٠ .

(٥) النساء: ١١٣ .

(٦) الأنفال: ٣٣ .

(٧) التوبة: ٩٤ .

(٨) الأحزاب: ٧١ .

وقال الله سبحانه: {وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله} (١). إلى غير ذلك من الآيات التي اقترن فيها اسم نبيه باسمه سبحانه ونسب إليهما فعل واحد وشهدت بكرامته عند الله وقربه منه، فإذا كانت هذه منزلته عند الله، فلا يرد دعاؤه، وتستجاب دعوته، فيكون دعاء مثل تلك النفس غير مردود، والمتمسك بدعائه متمسكا بركن وثيق وعماد رصين، ولأجل تلك الخصوصية نرى أنه سبحانه يأمر المذنبين من المسلمين بالتمسك بذيل دعائه، ويأمرهم بأن يحضروا الرسول الأعظم ويستغفروا الله في مجلسه ويسألوه أن يستغفر لهم أيضا، فكان استغفاره لهم سببا لنزول رحمته وقبوله توبتهم، قال سبحانه: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا} (٢).

كما نرى أنه سبحانه في آية أخرى يندد بالمنافقين بأنه، إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله، لووا رؤوسهم، يقول سبحانه: {وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون} (٣). وما هذا إلا لأن دعاء الرسول دعاء مستجاب، ودعوته مقبولة، واستغاثته مستجابة، لأنه نابع من نفس طاهرة مؤمنة راضية مرضية.

إن من الظلم الواضح تسوية دعاء النبي بدعاء سائر المسلمين والتعبير عن دعائه (صلى الله عليه وآله) بدعاء الأخ المؤمن! وجعل الجميع تحت عنوان واحد، فإن لدعاء الأخ

المؤمن مقاما رفيعا، ولكن أين هو من دعاء الرسول؟! إن التوسل بدعاء الإنسان الأمثل كان رائجا في الرسائل السابقة، فنرى أن

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) المنافقون: ٥.

أبناء يعقوب بعدما كشف أمرهم وبان ظلمهم توسلوا بدعاء أبيهم النبي وقالوا له: {يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين* قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم} (١).

ففي هذه الآيات دلالة واضحة على أن رحمة الله الواسعة تارة تنزل على العبد مباشرة وبدون واسطة، وأخرى تنزل عن طريق أفضل خلائقه وأشرف رسله، بل مطلق رسله وسفرائه.

وفي ذلك دلالة على وهن ما يلوكه بعض أشدق الناس فيقولون: إنه سبحانه أعرف بحال عبده وأقرب إليه من حبل الوريد يراه ويسمع دعاءه، فلا حاجة لتوسط سبب والتوسل بمخلوق... هذه الكلمات تصدر عن من ليس له إمام بالقرآن الكريم ولا بالسنة النبوية ولا بسيرة السلف الصالح، إذ ليس الكلام في علمه سبحانه، بل الكلام في أمر آخر وهو أن دعاء الإنسان الظالم لنفسه ربما لا يكون صاعداً إلى الله تبارك وتعالى ومقبولاً عنده، ولكنه إذا ضم إليه دعاء الرسول أصبح دعاؤه مستجاباً وصاعداً إليه سبحانه.

وللشيخ محمد الفقي - من علماء الأزهر الشريف - كلام في المقام نأتي بملخصه. لقد شرف الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بأسمى آيات التشريف، وكرمه بأكمل وأعلى

آيات التكريم، فأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وتوجه بأعظم أنواع التيجان قدرا وذكرا، وأرفع الأكاليل شأنا وخطرا. فذكر منزلته منه جل شأنه حيا وميتا في قوله تعالى: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما} (٢) فأبي تشريف أرفع وأعظم من صلاته سبحانه وتعالى هو وملائكته عليه (صلى الله عليه وآله)؟ وأي تكريم أسمى بعد ذلك من دعوة عباده وأمره لهم بالصلاة

(١) يوسف: ٩٧ - ٩٨.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

والسلام عليه (صلى الله عليه وآله)؟

ولم يقف تقدير الله تعالى له عند هذا التقدير الرائع، بل هناك ما يدعو إلى الإعجاب ويلفت الأنظار إلى تعظيم على جانب من الأهمية، ألم تر في قوله تعالى: {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون} (١) ما يأخذ بالألباب ويدهش العقول، فقد أقسم سبحانه وتعالى بنبيه في هذه الآية: {وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} (٢) قال ابن عباس (رضي الله عنه): ما خلق الله ولا ذراً ولا برأ نفساً أكرم على الله من محمد (صلى الله عليه وآله).

وما سمعت أنه تعالى أقسم بحياة أحد غيره، والقرآن الكريم تفيض آياته بسمو مقامه، وتوحي بعلو قدره، وجميل ذكره، فقد جعل طاعته (صلى الله عليه وآله) طاعة له

تعالى وقوله عز من قائل: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} (٣) وعلق حبه تعالى لعباده على اتباعه (صلى الله عليه وآله) فيما بعث به وأرسل للعالمين، إذ يقول سبحانه: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} (٤).

ومما يدل على مبلغ تقديره، ومدى محبة الله تعالى، وتشريفه لرسوله (صلى الله عليه وآله) قوله

تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه} (٥) الآية، قال علي (رضي الله عنه): "لم يبعث

الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد (صلى الله عليه وآله) لئن بعث وهو حي

ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد".

ففي ملازمة جبريل له (صلى الله عليه وآله) من مكة إلى بيت المقدس أكبر مظهر من مظاهر

الشرف والفخار، وأسمى آية من آيات التقدير للرسول الأعظم في حياة الأمم

(١) الحجر: ٧٢.

(٢) الواقعة: ٧٦.

(٣) النساء: ٨٠.

(٤) آل عمران: ٣١.

(٥) آل عمران: ٨١.

وتأريخها. فهذه الآيات التي قصصتها وجئتكم بها وإن كانت كلها بصائر وهدى ورحمة لقوم يؤمنون لا أرى مانعا من ذكر ما عداها، ففيها تنبيه الغافلين إلى مزيد من النظر فيما عساه أن يقنعهم ويهديهم إلى الإيمان بما جاءت به الآيات البيئات، وما يوحى به الدين وتعاليمه القويمة، فمن روائع ما يتمتع به من العظمة الصلاة عليه (صلى الله عليه وآله)

عند بدء الدعاء وختمه، فإن في ذلك القبول والاستجابة، فقد صح عن عمر وعلي - رضي الله عنهما - أنهما قالا لرجل دعا ولم يصل على النبي (صلى الله عليه وآله): " إن الدعاء

موقوف بين السماء والأرض لا يرفع ولا تفتح له الأبواب حتى يصلي الداعي على النبي (صلى الله عليه وآله) "، ومثل هذا لا يقال من قبيل الرأي فهو في حكم المرفوع، بل قد

ثبت هذا مرفوعا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله).

وأخيرا قد دل قوله تعالى: {ورفعنا لك ذكرك} (١) على علو مكانته وجليل قدره وعظم شأنه، إذ المعنى في ذلك أننا قرنا اسمك باسمنا، وجعلنا الإيمان لا يتحقق إلا بالنطق بالشهادتين، وغير ذلك من براهين الشريعة وأدلتها التي لا تحصى ولا يمكن أن تستقصى.

وإليك ما قاله حسان بن ثابت صاحب الرسول وشاعره:

أغر عليه للنبوة خاتم * من الله من نور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه * إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليحمله * فذو العرش محمود وهذا محمد (٢)

إن السبب الواقعي لاستجابة دعائه إنما هو روحه الطاهرة ونفسه الكريمة

(١) الانشراح: ٤.

(٢) التوسل والزيارة ص ١٥٦ - ١٦٠، وقد أورد في بحثه كثيرا من الآيات التي تشهد على عظمة رسول الله

ومكانته وقربه وقد لخصنا كلامه.

وقربها من الله سبحانه، وهي التي تضيء على الدعاء أثرا وتجعله صاعدا ومدعما
لدعاء الغير.

نعم هناك كلام في اختصاص ذلك الأمر بحياة النبي الجسمانية، أو يعم حياته
البرزخية التي فيها يرزق ويفرح ويستبشر، فهناك من يخص الآية بحياته الجسمانية
بحجة وروده فيها، ولكن الأدلة التي سنبينها توقفك على جلي الحال، فانتظر...

(٥)

التوسل بدعاء النبي في حياته البرزخية
ذكرنا لك دعوة القرآن الكريم المذنبين للتوسل بدعاء النبي الأكرم، وهناك
من يخص مفاد الآيات بحياة النبي الجسمانية قائلاً بانقطاعه عنا بموته وانتقاله إلى
الحياة البرزخية، وما ذلك إلا أخذًا بظاهر الآية الواردة في حياته الدنيوية، وهذه
الفكرة لها قيمتها لدى أصحابها، ولكن للمناقشة فيها مجال واسع. فإذا
دلت الآيات الكريمة والسنة النبوية على امتداد حياته بعد انتقاله إلى البرزخ
ووجود الصلة بينه وبيننا، لزم القول بعموم مفاد الآية وشمولها لما بعد الموت،
خصوصاً إذا دعمها عمل السلف الصالح والتابعين لهم بإحسان، فهناك مواضيع من
البحث لا يمكن القضاء البات فيها إلا بعد دراستها في ضوء الكتاب والسنة، وهذه
المواضيع هي:

- ١ - حياة الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ.
 - ٢ - وجود الصلة بيننا وبينهم، حيث يسمعون كلامنا ويجيبون دعوتنا.
 - ٣ - سيرة السلف الصالح على التوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) بعد انتقاله إلى
البرزخ.
- وإليك دراسة المواضيع واحداً تلو الآخر.

الأول: حياة الأنبياء والأولياء بعد انتقالهم إلى البرزخ:
هذا الموضوع هو المهم بين المواضيع التي ذكرت، ويمكن الاستدلال عليه من خلال أمور بعضها يدل على حياتهم بصورة مباشرة وأخرى غير مباشرة، وإذا لاحظنا مجموع الأدلة نقطع بحياتهم البرزخية بلا ريب، وإليك هذه الأمور:
أ - دلت الآيات الشريفة على حياة الشهداء، حياة حقيقية مقترنة بآثارها من الرزق والفرح والاستبشار ودرك المعاني والحقائق، قال سبحانه: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾* فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون* يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين} (١).

فالآية تدل على حياة الشهداء وارتزاقهم عند ربهم مقترنة بالآثار الروحية من الفرح والاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وتبشيرهم على أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، إلى غير ذلك مما جاء في الآيتين.
إن الله سبحانه يطرح حياتهم لأجل إظهار إكرامه ونعمته عليهم، وبذلك يرد الفكرة السائدة في صدر الرسالة من أن موت الشهيد انتهاء حياته. وإذا كان الشهداء أحياء لأجل استشهادهم في سبيل دين الله الذي جاء به النبي الأكرم، فهل يتصور أن يكون الشهداء أحياء، ولا يكون النبي - الأفضل - القائد حيا، وهذا ما لا تقبله الفطرة السليمة، وأي مسلم لهج بخلافه فإنما يلهج بلسانه وينكره بقلبه وعقله.

(١) آل عمران: ١٦٩ - ١٧١.

ب - هذا هو حبيب النجار لم يكن له شأن سوى أنه صدق المرسلين ولقي من قومه أذى شديدا حتى قضى نحبه شهيدا. فنرى أنه بعد موته خوطب بقوله سبحانه: { قيل ادخل الجنة } ثم إنه بعد دخوله الجنة يتمنى عرفان قومه مقامه ومصيره بعد الموت فيقول: { قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين } (١) فهو يتمنى في ذلك الحال لو أن قومه الموجودين في الدنيا علموا أن الله سبحانه غفر له وجعله من المكرمين، يتمنى ذلك لأجل أن يرغب قومه في مثل ثوابه وليؤمنوا لينالوا ذلك.

ومن المعلوم أن الجنة التي حل فيها حبيب النجار كانت قبل يوم القيامة، بشهادة أنه تمنى عرفان أهله مقامه وإكرام الله له وهم على قيد الحياة الدنيوية، وإن لحقهم العذاب بعد ذلك، قال: { وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون } (٢) فإذا كان الشهداء والصالحون - أمثال حبيب النجار المصدق للرسول - أحياء يرزقون فما ظنك بالأنبياء والصديقين المتقدمين على الشهداء، قال سبحانه: { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا } (٣) فلو كان الشهيد حيا يرزق فالرسول الأكرم الذي ربي الشهداء واستوجب لهم تلك المنزلة العليا، أولى بالحياة بعد الوفاة وبعدهم الصديقون.

ج - دلت الآيات الكريمة والبراهين العقلية على أن الموت ليس فناء للإنسان ونفاده، وإنما هو انتقال من عالم إلى آخر، نعم الماديون المنكرون لعالم الأرواح،

(١) يس: ٢٦ - ٢٧.

(٢) يس: ٢٨ - ٢٩.

(٣) النساء: ٦٩.

والنافون لما وراء الطبيعة يعتقدون بأن الموت فناء الإنسان وضلاله في الأرض بحيث لا يبقى شيء من بعد ذلك إلا الذرات المبعثرة في الأرض، ولهذا كانوا ينكرون إمكان إعادة الشخصية البشرية، إذ ليس هناك شيء متوسط بين المبتدأ والمعاد.

ولهذا جاء الوحي يندد بتلك الفكرة ويفند دليلهم المبني على قولهم: {أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد} فردهم بقوله: {قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون} (١).

وتوضيح الرد أن الموت ليس ضلالاً في الأرض وأن شخصية الإنسان ليست هي الضالة الضائعة في ثنايا التراب، وإنما الضال في الأرض هو أجزاء البدن المادي، فهذه الأجزاء هي التي تتبعثر في الأجواء والأرض، ولكن هذه لا تشكل شخصية الإنسان، بل شخصيته شيء آخر هو الذي يأخذه ملك الموت، وهو عند الله محفوظ، كما يقول: {قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون} فإذا لا معنى للتوفي إلا الأخذ وهو أخذ الأرواح والأنفس ونزعها من الأبدان وحفظها عند الله.

وهناك آية أخرى تفسر لنا معنى التوفي بوضوح وأنه ليس بمعنى الموت والفناء، بل الأخذ والقبض أي قبض شيء موجود وأخذ شيء واقعي، يقول سبحانه: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (٢) فمفاد الآية أن الله يقبض الأنفس ويأخذها في مرحلتين: حين الموت وحين النوم، فما قضى عليها بعدم الرجوع إلى الدنيا أمسكها، ولم يردها إلى الجسد، وما لم يقض

(١) السجدة: ١٠ - ١١.

(٢) الزمر: ٤٢.

عليها كذلك أرسلها إلى أجل مسمى. كل ذلك يكشف عن أن الموت ليس فناء الإنسان وآية العدم، بل هناك انخلاع عن الجسد وارتحال إلى عالم آخر. د - وهناك كلمة قيمة لأبي الشهداء الحسين بن علي (عليه السلام) توضح هذه الحقيقة إذ

قال لأصحابه في يوم عاشوراء: " صبرا يا بني الكرام فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء، إلى الجنان الواسعة والنعم الدائمة، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب، إن أبي حدثني عن رسول الله: أن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم، وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كذبت " (١).

وفي هذه الآيات غنى وكفاية لثبوت الحياة البرزخية للأنبياء والشهداء والصديقين، بل لغيرهم وقد شهدت بذلك الآيات الكريمة التي لا مجال لنقلها (٢)، وهذه الحقيقة مما أجمع عليها أئمة أهل السنة، فهذا الإمام الأشعري يقول: " ومن عقائدنا أن الأنبياء: أحياء " وقد ألف كتابا أسماه " حياة الأنبياء " (٣). فلنقتصر بهذا البيان في إثبات الموضوع الأول وقد تركنا الاحتجاج على حياتهم بما ورد في السنة النبوية وسيوافيك بعضها في المستقبل. الثاني: الصلة بين الحياة الدنيوية والحياة البرزخية: هذا هو الموضوع الثاني من المواضيع الثلاثة التي يتوقف عليها إثبات ما هو المقصود في هذا المبحث.

(١) بلاغة الحسين: ص ٤٧.

(٢) وقد أشبعنا الكلام في ذلك عند البحث في الحياة البرزخية فلاحظ.

(٣) طبقات الشافعية ٣: ٤٠٦.

القول بالحياة البرزخية للأنبياء والصديقين لا يفي وحده بما هو المهم هنا ما لم يثبت أن هناك صلة بيننا وبينهم في البرزخ، بحيث يسمعونا ويستطيعون أن يردوا علينا، وهذا هو الموضوع الثاني الذي أشرنا إليه وهنا نكتفي بأبرز الآيات الواردة في هذا المضممار التي تدل على إمكان الاتصال بالأرواح المقدسة الموجودة في عالم البرزخ، وهذا وإن أثبتته علم النفس بعد تجارب كثيرة، ولكننا أخذنا على أنفسنا أن نستدل بالكتاب والسنة، ولو كان هناك شيء في العلم فهو أيضا يدعم مدلول الكتاب والسنة.

إن الكتاب والسنة تضافرا على إمكان اتصال الإنسان الموجود في الدنيا بالإنسان الحي في عالم البرزخ وقد مرت البرهنة على وجود الصلة بين الحياتين عند البحث في الحياة البرزخية فراجع (١).

الثالث: سيرة السلف الصالح في التوسل بدعاء النبي بعد رحيله: النظر إلى سيرة المسلمين بعد لحوق النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) بالرفيق الأعلى يثبت أنهم كانوا يتوسلون بدعائه، كتوسلهم به قبل لحوقه به فما كانوا يرون فرقا بين الحاليتين، فمن تصفح سيرة المسلمين ورجع إلى غضون الكتب وشاهد عملهم في المسجد النبوي قرب مزاره الشريف، يلمس بسهولة استقرار السيرة على التوسل بدعائه من غير فرق بين حياته وانتقاله، وها نحن نذكر من أعمال بعض الصحابة والتابعين شيئا يسيرا ونترك الباقي للمتصفح في غضون الكتب.

إننا لا يمكننا تصديق جميع ما روي لكن بين المرويات قضايا صادقة صدرت

(١) يراجع ص ٤٣٠ من هذا الكتاب.

عن أناس صالحين ثم إنها بكثرتها تدل على أن التوسل كان أمراً رائجاً منذ عصر الصحابة إلى زماننا هذا، ولم يكن أمراً غريباً عند المسلمين. ولو فرضنا أن بعض هذه القضايا تخالف الواقع، فلا ريب أنه من باب استغلال الوضاعين لأصل مسلم صحيح بين المسلمين، وهو صحة التوسل بدعاء النبي الأكرم بعد رحيله، فإنهم نسجوا بعض القضايا في ظل ذلك الأصل. ولو فرضنا أنه لم يكن أمراً رائجاً بين المسلمين بل كان أمراً غريباً أو محظوراً لما تجرأ المستغل أن ينسج قضية كاذبة على نول الشرك أو المحرم، فإن الذي يحفز الوضاع على نسج الخرافة هو استعداد العامة لقبول تلك الخرافة ولولاه لما تجرأ عليه لعدم حصول الغاية المتوخاة من نسجها. فهذه القضايا الكثيرة تدل - على كلا التقديرين - على المطلوب، فإن كانت صادقة فبصدقها، وإن كانت كاذبة فلأجل حكايتها عن وجود أصل مسلم بين المسلمين وهو التوسل بدعاء النبي الأكرم قبل وبعد موته، وكان هذا الأصل ربما يستغل أحيانا من بعض المتاجرين بالدين. على أن بعضها مما رواه الإمام البخاري وسائر أصحاب الصحاح فلنذكر نماذج:

١ - هذا أبو بكر: أقبل على فرسه من مسكنه بالسبخ حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة - رضي الله عنها - فتيّم النبي (صلى الله عليه وآله) وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى، فقال: بأبي أنت يا نبي الله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها (١). فلو لم تكن هناك صلة بين الحياتين فما معنى قوله: " بأبي أنت يا نبي الله " لو لم يكن سماع فماذا قصد ذلك الصحابي من قوله: " لا يجمع الله عليك موتتين " .

(١) البخاري، الصحيح ٢: ١٧، كتاب الجنائز.

٢ - روى أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) في الروض الأنف:
" دخل أبو بكر على رسول الله في بيت عائشة ورسول الله مسجى في ناحية البيت،
عليه برد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم أقبل
عليه فقبله، ثم
قال: بأبي أنت وأمي أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها
موتة أبدا " (١).

٣ - روى الحلبي علي بن برهان الدين (٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ) في سيرته وقال:
" جاء أبو بكر من السنخ وعيناه تهملان فقبل النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: بأبي
أنت وأمي طبت
حيا وميتا " (٢).

٤ - روى مفتي مكة المشرفة زيني دحلان في سيرته فذكر ما ذكره، وقال: قال
أبو بكر: طبت حيا وميتا، وانقطع بموتك ما لم ينقطع للأنبياء قبلك، فعظمت عن
الصفة وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختيارا لجدنا لموتك بالنفوس،
اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن على بالك (٣).

٥ - قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام) عندما ولي غسل رسول الله (صلى الله عليه وآله)
وآله: " بأبي أنت
وأمي يا رسول الله لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والإنبياء
وأخبار السماء - إلى أن قال: - بأبي أنت وأمي اذكرنا عند ربك واجعلنا من
بالك " (٤).

وقد أوضح السبكي أمر الإجماع على الزيارة قولاً وفعلاً، وسرد كلام الأئمة
في ذلك، وبين أنها قرينة بالكتاب والسنة، والإجماع، والقياس.

(١) الروض الأنف ٤: ٢٦٠.

(٢) السيرة الحلبية ٣: ٤٧٤ ط. دار المعرفة، بيروت.

(٣) سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية ٣: ٣٩١، ط. مصر.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٥.

وأما الكتاب فقوله تعالى: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك} الآية دالة على الحث بالمجيئ إلى الرسول (صلى الله عليه وآله)، والاستغفار عنده، واستغفاره لهم وهذه رتبة

لا تنقطع بموته (صلى الله عليه وآله)، وقد حصل استغفاره لجميع المؤمنين، لقوله تعالى: {استغفر

لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات} فإذا وجد مجيئهم، فاستغفارهم، كملت الأمور الثلاثة الموجبة لتوبة الله ولرحمته. وقوله: {واستغفر لهم} معطوف عليه قوله: {جاءوك} فلا يقتضي أن يكون استغفار الرسول بعد استغفارهم مع أنا لا نسلم أنه لا يستغفر بعد الموت، لما سبق الدليل على حياته وعلى استغفاره لأمته بعد الموت عند عرض أعمالهم عليه، ويعلم من كمال رحمته أنه لا يترك ذلك لمن جاءه مستغفرا ربه.

والعلماء فهموا من الآية العموم لحالتي الموت والحياة، واستحبوا لمن أتى القبر أن يتلوها ويستغفر الله تعالى، وحكاية الأعرابي في ذلك نقلها جماعة من الأئمة عن العتبي، واسمه محمد بن عبد الله بن عمرو، أدرك ابن عيينة وروى عنه، وهي مشهورة حكاها المصنفون في المناسك من جميع المذاهب، واستحسنوها، ورأوها من أدب الزائر، وذكرها ابن عساكر في تاريخه، وابن الجوزي في مثير الغرام الساكن، وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي، قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي (صلى الله عليه وآله)، فزرته وجلست بحذائه، فجاء أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير

الرسول إن الله أنزل عليك كتابا صادقا قال فيه: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم - إلى قوله - رحيمًا} وإني جئتك مستغفرا ربك من ذنوبي، متشفعا بك، وفي رواية: وقد جئتك مستغفرا من ذنبي مستشفعا بك إلى ربي، ثم بكى وأنشأ يقول:
يا خير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم
ثم استغفر وانصرف، قال: فرقدت فرأيت النبي (صلى الله عليه وآله) في نومي وهو يقول: إلحق

الرجل وبشره بأن الله غفر له بشفاعتي، فاستيقظت، فخرجت أطلبه فلم أجده.
قلت: بل قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان في كتابه " مصباح
الظلام ": إن الحافظ أبا سعيد السمعاني ذكر فيما روينا عنه عن علي بن أبي طالب
(رضي الله عنه)

قال: قدم علينا أعرابي بعدما دفنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بثلاثة أيام، فرمى
بنفسه على قبر

النبي (صلى الله عليه وآله)، وحثا من تراه على رأسه، وقال: يا رسول الله قلت فسمعنا
قولك،

ووعيت عن الله سبحانه وما وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: {ولو أنهم إذ
ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله...} وقد ظلمت، وجئتك تستغفر لي،
فنودي من القبر: إنه قد غفر لك، انتهى.

وروى ذلك أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عبد الله الكرخي عن علي بن محمد
ابن علي، قال: حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم الطائي، قال: حدثني أبي، عن أبيه،
عن سلمة بن كهيل، عن ابن صادق، عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، فذكره،
ولا

منافاة بين النقلين، لإمكان التعدد، وعلى فرض الوحدة فأحد الناقلين اقتصر،
والآخر أسهب في النقل، فنقل جميع القصة. وقد أدرك ذلك الأعرابي بسلامة
فطرته أن الآية الكريمة التي تدعو المسلمين إلى المحجى إلى النبي حتى يطلبوا منه أن
يستغفر لهم، ليست خاصة بحياة النبي الدنيوية، بل تعم الحياة الأخروية، فلأجل
ذلك قام يطلب من النبي أن يستغفر له.

وقال عياض في الشفاء بسند جيد عن ابن حميد - أحد الرواة - عن مالك فيما
يظهر، قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله (صلى الله عليه
وآله)، فقال له

مالك: " يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما
فقال: { لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي } الآية، ومدح قوما فقال: { إن
الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله } الآية، وذم قوما فقال: { إن الذين
ينادونك من وراء الحجرات } الآية، وإن حرمة ميتا كحرمة حيا، فاستكان لها

أبو جعفر، فقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟
فقال: لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم (عليه السلام) إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعه الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ الآية (١).
فانظر هذا الكلام من مالك، وما اشتمل عليه من أمر الزيارة والتوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) واستقباله عند الدعاء وحسن الأدب التام معه.
وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين السامري الحنبلي في المستوعب "باب زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله)" وذكر آداب الزيارة، وقال: ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه، والقبلة خلف ظهره، والمنبر عن يساره، وذكر كيفية السلام والدعاء.
منه: اللهم إنك قلت في كتابك لنيك (عليه السلام): ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك﴾ الآية، وإني قد أتيت نبيك مستغفرا، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك (صلى الله عليه وآله) وذكر دعاء طويلا (٢).
هذه نماذج قدمناها إليك لتكون على بينة من هذا الأمر وأنه لم يكن هناك فرق بين الحياتين، وقد نقل المؤرخون أمورا كثيرة يضيق الوقت بنقلها ولو كنا شاكين في صدق بعض هذه التوسلات، ولكن نقل علماء السيرة والتاريخ المقدار الهائل من التوسلات بدعاء النبي - بعد رحيله - يكشف عن أن التوسل بدعاء النبي الأكرم كان أمرا رائجا بين المسلمين ولم يكن أمرا غريبا ولا محظورا وإلا لما صح أن ينقل المؤرخ ما يراه المسلمون أمرا مرغوبا عنه. وقد ذكرها بعض من المحققين في

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢: ٩٢.

(٢) وفاء الوفا ٤: ١٣٦٠ - ١٣٦٢.

كتبهم فراجعها (١).

وليس لنا أن نترك السيرة المستمرة الهائلة التي يلمسها من توقف هنيئة لدى القبر الشريف النبوي وقد قال سبحانه: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا} (٢). وقد نقل السمهودي نبذا مما وقع لمن استغاث بالنبى أو طلب منه شيئا عند قبره فأعطي مطلوبه ونال مرغوبه مما ذكره الإمام محمد بن موسى بن النعمان في كتابه " مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام " (٣).

التلون في الاستدلال

نرى أن المانعين عن التوسل بدعاء النبي في حياته البرزخية يتلونون في الاستدلال، فتارة ينفون حياة النبي بعد الموت، وأخرى ينفون إمكان الاتصال، وثالثة يدعون لغوية هذا العمل، ونعوذ بالله من قولهم الرابع إذ يعدون العمل شركا وعبادة للرسول، أما الثلاث الأول فقد ظهرت حالها، وأما الشرك فلا يدرى كيف يوصف به، مع أن هذا عمل واحد يطلب في حياة النبي ويطلب بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى أفيمكن أن يكون شئ واحد توحيدا في حالة وشركا في أخرى؟ مع أنه لا يسأل الرسول بما أنه إله أو رب، أو بيده مصير الداعي، وإنما يسأله بما أنه عبد صالح ذو نفس طاهرة وكريمة وهو أفضل الخلائق وأحد الأمانين في الأرض يستجاب دعاؤه ولا يرد.

(١) لاحظ شفاء السقام في زيارة خير الأنام للسبكي، والدرر السنية لزيني دحلان، والمبرد المبكي في رد الصارم المنكي لابن علان، ونصرة الإمام السبكي برد الصارم المنكي للسمهودي.

(٢) النساء: ١١٥.

(٣) وفاء الوفا ٤: ١٣٨٠ - ١٣٨٧. طالع ذلك الفصل تجد فيه حكايات وقضايا كثيرة تدل على جريان السيرة

بين المسلمين على التوسل بدعاء النبي الأكرم.

(٦)

التوسل بدعاء الأخ المؤمن
التوسل بدعاء الأخ المؤمن تمسك بما جعله الله سبحانه سببا لاستجابة الدعاء،
وقد دلت الآيات على أن الملائكة يستغفرون للذين آمنوا، وأن المؤمنين اللاحقين
يستغفرون للسابقين، وهذا يدل على أن دعاء الأخ في حق أخيه، أمر مرغوب فيه
ومطلوب ومستجاب، فإذا كان كذلك فعلى المذنب أن يتوسل بهذا السبب
المشروع ويطلب من أخيه الدعاء له، قال سبحانه: {الذين يحملون العرش ومن
حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت
كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب
الجحيم} (١).

وقال سبحانه: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا
الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف
رحيم} (٢).

(١) غافر: ٧.

(٢) الحشر: ١٠.

فدعاء حملة العرش واللاحقين من المؤمنين سبب صالح لإجابة الدعاء، فعلى المسلم الواعي التمسك بمثل هذا السبب وطلب الدعاء منهم. وفي السنة الشريفة ما يدل على ذلك، روى مسلم والترمذي عن عبد الله عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله يقول: " إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة، صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة " (١).

فهذا الحديث يدل بظاهره على أن الرسول يتوسل إلى الله تعالى بدعاء أمته له، أن يؤتیه الوسيلة والمقام المحمود في الجنة، ويكون جزاؤه شفاعته في حقهم. فإذا كان هذا حال النبي فنحن من باب أولى يحق لنا أن نتمسك بهذه الوسيلة: وفي روايات أئمة أهل البيت تصاريح بذلك، نذكر بعضها لتتجلى الحقيقة بأجل مظاهرها، فإن العترة الطاهرة أحد الثقلين اللذين أمر النبي بالتمسك بهما والتمسك بهما لن يضل:

- ١ - روى أبو بصير، عن أبي جعفر، قال: " إن علي بن الحسين قال لأحد غلمانہ: يا بني اذهب إلى قبر رسول الله فصل ركعتين، ثم قل: اللهم اغفر لعلي بن الحسين خطيئته يوم الدين، ثم قال للغلام: اذهب فأنت حر لوجه الله " (٢).
- ٢ - روى محمد بن عجلان قال: سمعت أبا عبد الله يقول: " كان علي بن الحسين إذا دخل شهر رمضان لا يضرب عبدا له ولا أمة، وكان إذا أذنب العبد يكتب عنده: أذنب فلان، أذنب فلانة يوم كذا وكذا ولم يعاقبه، فيجتمع عليهم الأدب

(١) مسلم: الصحيح ٢: ٤، كتاب الصلاة، الباب ٦، الترمذي الجامع الصحيح ٥: ٥٨٩، كتاب المناقب، الباب الأول، واللفظ للأول.

(٢) البحار ٤٦: ٩٢، نقلا عن كتاب الزهد لحسين بن سعيد الأهوازي.

حتى إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان دعاهم وجمعهم حوله ثم أظهر الكتاب، ثم قال يا فلان: فعلت كذا وكذا ولم أوذبك أتذكر ذلك؟ فيقول: بلى يا بن رسول الله، ويقررهم جميعا، ثم يقوم وسطهم ويقول لهم: ارفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين إن ربك قد أحصى عليك كل ما عملت كما أحصيت علينا... فاعف واصفح كما ترحو من المليك العفو، وكما تحب أن يعفو المليك عنك، فاعف عنا تجده عفوا ربك رحيمًا - إلى أن قال: - فيقول لهم: قولوا اللهم اعف عن علي بن الحسين كما عفا عنا، فأعتقه من النار كما أعتق رقابنا من الرق، فيقولون ذلك، فيقول: اللهم آمين رب العالمين، اذهبوا فقد عفوت عنكم وأعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتي " (١).

٣ - وكان أصحاب أئمة أهل البيت يتوسلون بدعائهم، وهذا هو علي بن محمد الحجال كتب إلى أبي الحسن الإمام الهادي وجاء في كتابه: " أصابتني علة في رجلي ولا أقدر على النهوض والقيام بما يجب فإن رأيت أن تدعو الله أن يكشف علتي ويعينني على القيام بما يجب علي وأداء الأمانة في ذلك... " (٢).

(١) البحار ٤٦: ١٠٢، نقلا عن كتاب الإقبال للسيد ابن طاووس المتوفى عام ٦٦٤ هـ.

(٢) كشف الغمة ٣: ٢٥١.

(٧)

التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم

هناك قسم آخر من التوسل وهو التوسل بذوات الأنبياء والصالحين وجعلهم وسيلة لاستجابة الدعاء، والتنويه بما لهم من المقام والمنزلة عند الله سبحانه، وهذا غير القسم الخامس، ففي القسم الماضي كنا نتوسل بدعاء النبي ونجعل دعاءه وسيلة إلى الرب وفي هذا القسم نجعل نفس الرسول وكرامته عند الله وسيلة إلى الرب.

ومن الإمعان في القسم السابق يعرف مفهوم هذا التوسل، لأن التوسل بدعائه لأجل أنه دعاء روح طاهرة، ونفس كريمة، وشخصية مثالية وأفضل الخلائق، ففي الحقيقة ليس الدعاء بما هو دعاء وسيلة، وإنما الوسيلة هي الدعاء النابع عن تلك الشخصية الإلهية التي كرمها الله وعظمها ورفع مقامها وذكرها وقال: {ورفعنا لك ذكرك} (١).

وأمر المسلمين بتكريمه وتعزيزه حيث قال: {فالذين آمنوا به وعزروه

(١) الانشراح: ٤.

ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون } (١) فقلوه {عزروه} بمعنى أكرموه.

فإذا كان رصيد استجابة الدعاء هو شخصيته الفذة المثالية، ومنزلته عند الله فالأولى أن يتوسل بها الإنسان كما يتوسل بدعائه، فمن اعترف بجواز الأول ومنع الثاني فقد فرق بين أمرين متلازمين، وما دعاهم إلى التفريق بينهما إلا صيانة لمعتقدهم. وبدورنا نغض النظر عن هذا الدليل ونذكر ما ورد في السنة النبوية مروياً عن طريق صحيح أقر به الأقطاب من أهل الحديث.

توسل الضرير بنبي الرحمة

عن عثمان بن حنيف أنه قال: إن رجلاً ضريراً أتى النبي فقال: أدع الله أن يعافيني فقال (صلى الله عليه وآله): " إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير ". قال: فادع، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: " اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى، اللهم شفعه في ". قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضر (٢).

إن الاستدلال بالرواية مبني على صحتها سنداً وتامة دلالتها مضموناً. أما الأول: فلم يناقش في صحتها إلا الجاهل بعلم الرجال، حتى أن ابن تيمية

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) الترمذي، الصحيح كتاب الدعوات، الباب ١١٩، برقم ٣٥٧٨، وسنن ابن ماجة ١: ٤٤١ برقم ١٣٨٥،

مسند

أحمد ٤: ١٣٨ إلى غير ذلك من المصادر وسيأتي في المتن نصوصهم حول وصف الحديث.

قال: قد روى الترمذي حديثا صحيحا عن النبي أنه علم رجلا أن يدعو فيقول:
اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك. وروى النسائي نحو هذا الدعاء " (١).
وقال الترمذي: هذا حديث حق حسن صحيح.
وقال ابن ماجة: هذا حديث صحيح.
وقال الرفاعي: لا شك أن هذا الحديث صحيح ومشهور (٢).
وبعد ذلك فلم يبق لأحد التشكيك في صحة سند الحديث إنما الكلام في دلالة
وإليك البيان:
إن الحديث يدل بوضوح على أن الأعمى توسل بذات النبي بتعليم منه (صلى الله عليه
وآله)
والأعمى وإن طلب الدعاء من النبي الأكرم في بدء الأمر إلا أن النبي علمه دعاء
تضمن التوسل بذات النبي، وهذا هو المهم في تبين معنى الحديث.
وبعبارة ثانية: أن الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران:
الأول: أن الرجل طلب من النبي (صلى الله عليه وآله) الدعاء ولم يظهر منه توسل بذات
النبي.
الثاني: أن الدعاء الذي علمه النبي، تضمن التوسل بذات النبي بالصرحة
التامة، فيكون ذلك دليلا على جواز التوسل بالذات.
وإليك الجمل والعبارات التي هي صريحة في المقصود.
١ - اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك:
إن كلمة " بنبيك " متعلقة بفعلين هما " أسألك " و " أتوجه إليك " والمراد من
النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاؤه.
وتقدير كلمة " دعاء " قبل لفظ " بنبيك " حتى يكون المراد هو " أسألك بدعاء
نبيك أو أتوجه إليك بدعاء نبيك " تحكم وتقدير بلا دليل، وتأويل بدون مبرر، ولو

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٣.

(٢) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ١٥٨.

أن محدثا ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجهمية والقدرية.
٢ - محمد نبي الرحمة:

لكي يتضح أن المقصود هو السؤال من الله بواسطة النبي (صلى الله عليه وآله) وشخصيته فقد

جاءت بعد كلمة " بنبيك " جملة " محمد نبي الرحمة " لكي يتضح نوع التوسل والمتوسل به بأكثر ما يمكن.

٣ - يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي:

إن جملة " يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي " تدل على أن الرجل الضير - حسب تعليم الرسول - اتخذ النبي نفسه، وسيلة في دعائه أي أنه توسل بذات النبي لا بدعائه (صلى الله عليه وآله).

٤ - وشفعه في:

إن قوله " وشفعه في " معناه يا رب اجعل النبي شفيعي، وتقبل شفاعته في حقي، وليس معناه تقبل دعائه في حقي، فإنه لم يرد في الحديث أن النبي دعا بنفسه حتى يكون معنى هذه الجملة: استجب دعائه في حقي.

ولو كان هناك دعاء من النبي لذكره الراوي، إذ ليس دعاؤه (صلى الله عليه وآله) من الأمور غير

المهمة حتى يتسامح الراوي في حقه.

وحتى لو فرضنا أن معناه " تقبل دعائه في حقي " فلا يضر ذلك بالمقصود أيضا،

إذ يكون على هذا الفرض هناك دعاء: دعاء الرسول ولم ينقل لفظه، والدعاء

الذي علمه الرسول للضير، وقد جاء فيه التصريح بالتوسل بذات النبي وشخصه

وصفاته، وليس لنا التصرف في الدعاء الذي علمه الرسول للضير، بحجة أنه كان

هناك للرسول دعاء.

لقد أورد هذا الحديث النسائي والبيهقي والطبراني والترمذي والحاكم في

مستدركه، ولكن الترمذي والحاكم ذكرا جملة " اللهم شفعه فيه " بدل " وشفعه في

."

إجابة عن سؤال

إن من يمنع التوسل بشخصية الرسول المثالية لما وقع أمام هذا الحديث تعجب عاضاً على أنملته، فحمل الحديث على أنه من قبيل التوسل بدعاء الرسول لا بشخصه وذاته الكريمة مستدلاً بقول الضرير " ادع الله أن يعافيني " وقد خلط بين أمرين:

الأول: المحاورة الابتدائية التي وقعت بين النبي والضرير، فكان المطلوب بلا شك هو طلب الدعاء من النبي، وهذا ما لا ينكره أحد، إنما الكلام فيما يأتي. الثاني: الدعاء الذي علمه الرسول للضرير، فإنه تضمن التوسل بذات النبي ولا يمكن لأحد أن ينكر التصريح الموجودة في الحديث. والتصرف في النص الثاني بحجة أن الموضوع في المحاورة الأولى هو طلب الدعاء، تصرف نابع من اتخاذ موقف مسبق قبل النظر إلى الحديث، فإن الأعمى لم يدر في خلده في البداية سوى دعاء الرسول المستجاب، ولكن الدعاء الذي علمه الرسول أن يدعو به بعد التوضؤ، مشتمل على التوسل بذات النبي. قال الدكتور عبد الملك السعدي: وقد ظهر في الآونة الأخيرة أناس ينكرون التوسل بالذات مطلقاً، سواء كان صاحبها حياً أو ميتاً، وقد أولوا حديث الأعمى وقالوا: إن الأعمى لم يتوسل ولم يأمره النبي (صلى الله عليه وآله) به بل قال له: صل ركعتين ثم اطلب مني أن أدعو لك ففعل. وأنت يا أخي عليك أن تقر أن نص الحديث هل يحتمل هذا التأويل، وهل فيه هذا المدعى؟ أم أنه أخذ يطلب من الله مستشفعاً بالنبي (صلى الله عليه وآله)، ولم يدع له (صلى الله عليه وآله). ولو أراد منه ذلك لاستجاب له أول مرة حيث طلب منه الدعاء بالكشف عن بصره فأبى إلا أن يصلي ويتولى الأعمى بنفسه الدعاء (١).

(١) البدعة في مفهومها الإسلامي الدقيق: ص ٤٦ ط بغداد.

التوسل بذات النبي بعد رحيله
إن الصحابي الجليل عثمان بن حنيف فهم من الحديث السابق أن التوسل بذات
النبي وشخصه يعم حياته ومماته، فلأجل ذلك عندما رجع إليه بعض أصحاب
الحاجة علمه نفس الدعاء الذي علمه الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) للضرير
لحسن الحظ
كان ما توصل إليه ناجحاً.

روى الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) عن أبي
أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف، أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان
بن عفان (رضي الله عنه) في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته،
فلقي ابن

حنيف فشكا ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضاة فتوضأ، ثم ائت
المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: " اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد (صلى
الله عليه وآله)

نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فتقضي لي حاجتي " فتذكر حاجتك
ورح إلي حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فجاء
البواب

حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فأجلسه معه على
الطنفسة، فقال:

ما حاجتك؟ فذكر حاجته، فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت
الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما
كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلي حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما
كلمته، ولكنني شهدت رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب
بصره فقال له

النبي (صلى الله عليه وآله): أفتبصر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي.
فقال النبي (صلى الله عليه وآله): ائت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه
الدعوات.

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط (١).

إن دلالة الحديث على جواز التوسل بذوات الصالحين وأخص منهم الأنبياء أمر لا سترة فيه، نعم بعض من لا يروقه هذا النوع من التوسل، أراد التشكيك في الرواية بوجهين، فقال:

أولاً: إن معنى التوسل عند الصحابة هو دعاء الشخص المتوسل به إلى الله تعالى بقضاء حاجة المتوسل لا كما يعرفه القوم في زماننا هذا من التوسل بذات المتوسل به.

ثانياً: لو كان دعاء الأعمى الذي علمه رسول الله دعاء ينفع في كل زمان ومكان لما رأينا أي أعمى على وجه البسيطة (٢).

يلاحظ على كلامه الأول: بأنه من غرائب الكلام فقد جعل من مذهبه دليلاً على ضعف الرواية، وهو أن معنى التوسل عند الصحابة هو التوسل بدعاء الشخص لا بذاته. فمن أين علم أنه مذهب الصحابة؟! وهل يعرف مذهبهم إلا من خلال أحاديثهم، مع أن الحديثين المرويين عن طريق الصحابي الجليل عثمان بن حنيف يدلان على خلافه؟

وأما الثاني: فهو إطراح للوحي، وازدراء به، ولو صح ما ذكره فلقائل أن يقول: لو صح قوله سبحانه: {ادعوني أستجب لكم} (٣) يجب أن لا يبقى على وجه البسيط ذو عاهة.

والجواب عن تلك الوسوسة في كلا المقامين واحد، وهو أن الدعاء مقتض

(١) المعجم الكبير ٩: ١٦ - ١٧، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف، برقم ٨٣١٠، والمعجم الصغير له أيضاً

١: ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٣٣٥.

(٣) غافر: ٦٠.

لنزول الرحمة ودفح الكربة ولكن ليس السبب تاما لنجاح المقصود، بل له شروط وله موانع وعوائق، ولأجل ذلك نرى أن بعض الأدعية لا تستجاب، مع أنه سبحانه يحث على الدعاء وأنه يستجيب دعاء من دعاه، ويقول: {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم} (١).

مناقشة في سند الرواية

لقد تعرفت على تمامية دلالة الرواية وهناك من يريد المناقشة في سندها، ولا يחדش فيها إلا لأن الرواية تضاد عقيدته فيقول:

إن في سند هذا الحديث رجلا اسمه روح بن صلاح وقد ضعفه الجمهور وابن عدي وقال ابن يونس: يروي أحاديث منكرة (٢).

أظن أن الكاتب لم يرجع إلى مصدرها وإنما تبع تقول الآخرين، ونحن نضع أمامك سند الحديث من المصدرين اللذين روي عنهما الحديث ولا ترى فيهما أثرا من روح بن صلاح وإليك السند:

روى الطبراني في المعجم الكبير، قال: حدثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصري المقرئ: ثنا أصبغ بن الفرخ: ثنا ابن وهب عن أبي سعيد المكي، عن روح ابن القاسم، عن أبي جعفر الخطمي المدني، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف (٣).

ورواه البيهقي بالسند التالي:

أخبرنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الزاهد (رحمه الله): أنبأنا الإمام أبو بكر محمد

ابن علي بن الشاشي القفال قال: أنبأنا أبو عروبة: حدثنا العباس بن الفرخ: حدثنا

(١) غافر: ٦٠.

(٢) التوصل إلى حقيقة التوصل: ص ٢٣٧.

(٣) المعجم الكبير ٩: ١٧، وفي المعجم الصغير له "أصبغ بن الفرخ" مكان "أصبغ بن الفرخ".

إسماعيل بن شبيب: حدثنا أبي، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر المدني... إلخ
السند (١).

وأنت ترى أنه ليس في طريق الرواية روح بن صلاح بل هو روح بن القاسم
والكاتب صرح بأن الرواية رواها الطبراني والبيهقي، وهذا يعرب عن أن الكاتب
لم يرجع إلى المصدرين وإنما اعتمد على تقول الآخرين.

نحن نفترض أنه ورد في سند الرواية روح بن صلاح ولكن ما ذكره من أن
الجمهور ضعفوه أمر لا تصدقه المعاجم الموجودة فيما بين أيدينا، وإنما ضعفه ابن
عدي وفي الوقت نفسه وثقه ابن حبان والحاكم. قال الذهبي: روح بن صلاح
المصري يقال له ابن سيابة ضعفه ابن عدي، يكنى أبا الحارث وقد ذكره ابن حبان
في الثقات وقال الحاكم: ثقة مأمون (٢).

سيرة الأمم في توسلهم بالذوات الطاهرة

لم يكن التوسل بالصالحين والطيبين والمعصومين والمخلصين من عباد الله
أمرا جديدا في زمن النبي وبعده، بل كان ذلك امتدادا للسيرة الموجودة
قبل الإسلام، ونحن نضع أمامك قسما من هذه التوسلات لتكون على علم بأن
الفطرة السليمة تدعو الإنسان إلى التوسل بالموجودات الطاهرة لجلب رحمته
تعالى.

١ - استسقاء عبد المطلب بالنبي وهو رضيع

إن عبد المطلب استسقى بالنبي الأكرم وهو طفل صغير، حتى قال ابن حجر: إن

(١) دلائل النبوة ٦: ١٦٨.

(٢) ميزان الاعتدال ٢: ٨٥ / ٢٨٠١.

أبا طالب يشير بقوله:
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه* ثمال اليتامى عصمة للأرامل
إلى ما وقع في زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش والنبي معه غلام (١).
٢ - استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام
أخرج ابن عساكر عن أبي عرفة، قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت
قريش، يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو
طالب ومعه غلام يعني النبي (صلى الله عليه وآله) كأنه شمس دجى تجلت عن سحابة
قتماء، وحوله
أغيلمه، فأخذ النبي أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ إلى الغلام وما في السماء
قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق وأغدوق، وانفجر له الوادي،
وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه* ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٢)
وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام، بل استسقاء عبد المطلب به
وهو صبي أمرا معروفا بين العرب، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة مما يحفظه
أكثر الناس.
ويظهر من الروايات أن استسقاء أبي طالب بالنبي (صلى الله عليه وآله) كان موضع
رضا
منه (صلى الله عليه وآله) فإنه بعدما بعث للرسالة استسقى للناس فجاء المطر وأخصب
الوادي فقال
النبي: لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه، ومن ينشدنا قوله؟ فقام علي (عليه السلام)
وقال: يا
رسول الله (صلى الله عليه وآله) كأنك أردت قوله:

(١) فتح الباري ٢: ٣٩٨، دلائل النبوة ٢: ١٢٦.
(٢) فتح الباري ٢: ٤٩٤، السيرة الحلبية ١: ١١٦.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل (١)
إن التوسل بالأطفال في الاستسقاء أمر ندب إليه الشارع، قال الدكتور عبد
الملك السعدي: من السنة أن نخرج معنا إلى الصحراء الشيوخ والصبيان والبهائم
لعل الله يسقينا بسببهم (٢).

وهذا هو الإمام الشافعي يقول في آداب صلاة الاستسقاء: " وأحب أن يخرج
الصبيان، ويتنظفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبة منهن، ولا أحب
خروج ذات الهيبة، ولا أمر بإخراج البهائم " (٣).
فما الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات في السن، إلا استنزال الرحمة
بهم وبقداستهم وطهارتهم؟ كل ذلك يعرب عن أن التوسل بالأبرياء والصلحاء
والمعصومين مفتاح استنزال الرحمة وكأن المتوسل يقول: ربي وسيدي!! الصغير
معصوم من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرك في أرضك، وكلتا الطائفتين
أحق بالرحمة والمرحمة. فلأجلهم أنزل رحمتك علينا، حتى تعمنا في ظلهم.
إن الساقى ربما يسقي مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة، وفي ظلها تسقى
الأعشاب وسائر الخضراوات غير المفيدة.

٣ - توسل الخليفة بعم النبي: العباس

روى البخاري في صحيحه قال: كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا استسقى
بالعباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) وقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتنسقيننا،
وإنا
نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون (٤).

(١) إرشاد الساري ٢: ٣٣٨.

(٢) البدعة: ص ٤٩.

(٣) الأم ١: ٢٣٠.

(٤) البخاري، الصحيح ٢: ٣٢ باب صلاة الاستسقاء.

والحديث صحيح السند، فما ظنك برواية رواها الإمام البخاري، لكن من لا يروق له التوسل بالذوات الطاهرة أخذ يؤول الحديث بأن الخليفة توسل بدعاء العباس لا بشخصه ومنزلته عند الله. وأضاف على ذلك أنه لو كان قصده ذات العباس لكانت ذات النبي (صلى الله عليه وآله) أفضل وأعظم وأقرب إلى الله من ذات العباس، بلا

شك ولا ريب، فثبت أن القصد كان الدعاء (١).

لا أظن أن أحدا يحمل شيئاً من الإنصاف، يسوغ لنفسه أن يفسر الحديث بما ذكره أي التوسل بالدعاء، لأن في الموضوع نصوصاً ترد ذلك، وإليك الإشارة إليها:
١ - قول الخليفة عند الدعاء... قال: " اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ". وهذا ظاهر في أن الخليفة قام بالدعاء في مقام الاستسقاء، وتوسل بعم الرسول في دعائه، ولو كان المقصود هو التوسل بدعائه، كان عليه أن يقول: يا عم رسول الله كنا نطلب الدعاء من الرسول فيسقيننا الله، والآن نطلب منك الدعاء فادع لنا.

٢ - روى ابن الأثير كيفية الاستسقاء فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط، فسقاهم الله تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه. وقال حسان:
سأل الإمام وقد تتابع جدبنا * فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي * ورث النبي بذاك دون الناس
أحيى الإله به البلاد فأصبحت * مخضرة الأجناد بعد الياس
ولما سقي طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين (٢).

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٢٥٣.

(٢) أسد الغابة ٣: ١١١ ط مصر.

أمعن النظر في قول الخليفة: هذا والله الوسيلة.
٣ - ويظهر من شعر حسان أن المستسقي كان هو نفس الخليفة وهو الداعي
حيث قال: " سأل الإمام... " وكان العباس وسيلته لاستجابة الدعاء.
قال الدكتور عبد الملك السعدي: وقد أولوا حديث العباس بأن عمر طلب من
العباس أن يدعو لأنهم كانوا إذا أجدبوا طلبوا من رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن
يدعو لهم فكذا

هنا طلب الدعاء من العباس. وهذا التأويل غير مقبول لوجهين:
الوجه الأول: إن السنة أن يدعو الإمام نفسه والقوم يؤمنون وهذا ما حصل
حيث كان الداعي هو سيدنا عمر لا العباس.
الوجه الثاني: إن نص الحديث لا يدل على أن عمر طلب الدعاء من العباس
بل كان هو الداعي، بدليل قوله: اللهم إنا كنا نتوسل... وهذا عين الدعاء ولم يرد
أي لفظ يشير إلى أنه قال للعباس: ادع لنا بالسقيا.
ومع ذلك فأي خلل يحصل في الدين أو العقيدة إذا أجرينا النص على ظاهره
وتركنا العناد والتعصب؟

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: ويستبين من قصة العباس استحباب
الاستسقاء بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة وفيه فضل العباس، وفضل عمر
لتواضعه للعباس ومعرفته بحقه (١).
وأظن أن هذه الروايات الصحيحة لا تبقي شكاً ولا ريباً في خلد أحد في جواز
التوسل بالصالحين.

وأما ما ذكره من أنه لو كان المقصود التوسل بذات العباس لكان النبي بذلك
أفضل وأعلم، فيلاحظ عليه أن الهدف من إخراج عم النبي إلى المصلى وضمه إلى

(١) البدعة: ص ٤٦.

الناس هو استنزال الرحمة، فكأن المصلين يقولون ربنا إذا لم نكن مستحقين لنزول الرحمة، فإن عم النبي مستحق لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحه من أزمة القحط والغلاء وعندئذ تعم الرحمة لغير العباس، ومن المعلوم أن هذا لا يتحقق إلا بالتوسل بإنسان حي يكون شريكا مع الجماعة في المصير وفي هناء العيش ورغده لا مثل النبي الراحل الخارج عن الدنيا والنازل في الآخرة، نعم يجوز التوسل بشخصه أيضا ولكن لا بهذا الملاك بل بملاك آخر لم يكن مطروحا للخليفة في المقام.

ولو افترضنا صحة ما يدعى من أن الخليفة توسل بدعاء عم النبي (صلى الله عليه وآله) فهو عبارة أخرى عن التوسل بذات النبي لبا، إذ لولا صلته به لما قدم للدعاء.

(٨)

التوسل بحق الصالحين وحرمتهم ومنزلتهم
إن من التوسلات الرائجة بين المسلمين منذ وقعوا في إطار التعليم الإسلامي،
التوسل بمنازل الصالحين وحقوقهم على الله، وهناك سؤال يطرح نفسه وهو أنه:
كيف يمكن أن يكون لإنسان حق على الله؟

بل الحقوق كلها لله على العباد، ولكن الإجابة على السؤال واضحة، إذ ليس
معنى ذلك أن للعباد أو لبعضهم على الله سبحانه حقا ذاتيا يلزم عليه سبحانه
الخروج عنه، بل لله سبحانه الحق كله، فله على الناس حق العباد والطاعة إلى
غير ذلك، بل المراد المقام والمنزلة التي منحها سبحانه عباده تكريما لهم، وليس
لأحد على الله حق إلا ما جعله الله سبحانه حقا على ذمته لهم تفضلا وتكريما، قال
سبحانه: {وكان حقا علينا نصر المؤمنين} (١).

روى مسلم عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: قال لي رسول الله (صلى الله عليه
 وآله): "هل تدري ما

حق الله على العباد؟" قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فإن حق الله على العباد
أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا"، ثم سار ساعة قال: "يا معاذ" قلت: لبيك رسول الله

(١) الروم: ٤٧.

وسعديك قال: " هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ " قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: " أن لا يعذبهم " (١).

وروى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف " (٢).

فهذان الحديثان قد ثبت بهما وجود حق للعباد على الله تعالى، إلا أنه حق تكريم لا حق إلزام وإيجاب.

إن للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كلمة قيمة في تفسير حق العباد على الله، وأن هذا الحق مما منحه سبحانه تفضلا على عباده، قال: " فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت صروف قضائه، ولكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسعا بما هو من المزيد أهله " (٣).

وقد أوضح الإمام معنى حق الناس على الله وأنه ليس حقا ذاتيا للناس عليه بل كلها تفضل منه سبحانه: وترى مثله في سائر المواضع حيث نرى أنه يقتض من العباد وهو مالك للعباد وما في أيديهم ويقول: { من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له } (٤).

(١) الترغيب والترهيب ٣: ٤٣، وشرح النووي على صحيح مسلم ١: ٢٣١.
(٢) الترغيب والترهيب ٣: ٤٣، وشرح النووي على صحيح مسلم ١: ٢٣١.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٢١٦.
(٤) البقرة: ٢٤٥ والحديد: ١١.

فبعد هذه التصاريح على أن حق الناس على الله مقتضى تفضله سبحانه وتكرمه على عباده ليس لنا أن نستشكل في تصوير حق الناس على الله. على أن هذا النوع من التوسل لا يفترق عن التوسل بذات النبي وشخصه فإن المنزلة والمقام مرآة لشخصه، وإن حرمة الشخص وكرامته نابعة من كرامة ذاته وفضيلتها، فلو صح التوسل بالأول كما تعرفت عليه من خلال الأحاديث يصح بالثاني بدون إشكال، ويدل عليه من الأحاديث ما ذكره:

١ - التوسل بحق السائلين

روى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: " من خرج

من بيته إلى الصلاة فقال: " اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة إنما خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أن تعيذني من النار وأن تغفر ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت "، إلا أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك (١). إن دلالة الحديث واضحة لا يمكن لأحد التشكيك فيها، وسند الحديث صحيح ورجاله كلهم ثقات، نعم اشتمل السند على عطية العوفي وقد وثقه لفيف من أهل الجرح والتعديل.

قال أبو حاتم: يكتب حديثه، وقال ابن معين: صالح، وقال ابن حجر: عطية بن سعيد بن جنادة العوفي الجدلي الكوفي أبو الحسن صدوق، قال ابن عدي: قد روى عن جماعة من الثقات، توفي سنة إحدى عشرة ومائة، قال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سب علي - إلى

(١) ابن ماجه، السنن ١: ٢٥٦ / ٧٧٨، الإمام أحمد، المسند ٣: ٢١.

أن قال: - كان ثقة، وله أحاديث صالحة، وكان أبو بكر البزاز يعده في التشيع، روى عن جلة الناس (١).

نعم، هناك من ضعفه لا لأنه غير صدوق، بل لأنه كان يتشيع، وليس تشيعه إلا ولاؤه لعلي وأهل بيته، وهل هذا ذنب؟!!

إن لوضع الحديث دوافع خاصة توجد أكثرها في أبواب المناقب والمثالب وخصائص البلدان والقبائل، أو فيما يرجع إلى مجال العقائد، كالبدع الموروثة من اليهود والنصارى في أبواب التجسيم والجهة وصفات الجنة والنار، وأما مثل هذا الحديث الذي يعرب بوضوح عن أنه كلام إنسان خائف من الله سبحانه ترتعد فرائضه من سماع عذابه فبعيد عن الوضع.

٢ - التوسل بحق النبي وبحق من سبقه من الأنبياء

روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنه لما ماتت فاطمة بنت أسد أم

علي - رضي الله عنها - دخل عليها رسول الله فجلس عند رأسها فقال: " رحمك الله يا

أمي كنت أمي بعد أمي تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسينني، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعمينني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة "

ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكب رسول الله بيده، ثم خلع رسول الله قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقها، ثم دعا رسول الله أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه وقال: " الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت

(١) تقريب التهذيب ٢: ٢٤ / ٢١٦، وتهذيب التهذيب ٧: ٢٢٧ / ٤١٣.

اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين " وكبر عليها أربعا وأدخلها اللحد والعباس وأبو بكر.

والاستدلال بالرواية يتوقف على تمامية الرواية سنداً ومضموناً. أما المضمون فلا مجال للخدشة فيه، وأما السند فصحيح، رجاله كلهم ثقات، لا يغمز في حق أحد منهم، نعم فيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم، وقد عرفت كلام الذهبي فيه (١).

وقد رواه أئمة الحديث وأساتذته، وإليك أسماء من وقفنا على روايتهم:
١ - رواه الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في المعجم الأوسط ص ٣٥٦ - ٣٥٧.

٢ - رواه أبو نعيم عن طريق الطبراني في حلية الأولياء ٣: ١٢١.

٣ - رواه الحاكم في مستدركه ٣: ١٠٨ وهو لا يروي في هذا الكتاب إلا الصحيح على شرط الشيخين البخاري ومسلم.

٤ - رواه ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ٤: ٣٨٢.

٥ - نقله الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢: ١١٨ برقم ٧.

٦ - رواه الحافظ نور الدين الهيثمي المتوفى ٧٠٨ في معجم الزوائد ومنبع الفوائد ٩: ٢٥٦ - ٢٥٧، وقال: ورواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم.

٧ - رواه المتقي الهندي في كنز العمال ١٣: ٦٣٦ برقم ٣٧٦٠٨.

هؤلاء الحفاظ نقلوا الحديث في جوامعهم، وصرحوا بأن رجال السند رجال الصحيح، ولو كان هناك شيء ففي روح بن صلاح وقد عرفت توثيقه من أساتذة

(١) لاحظ للوقوف على حال روح بن صلاح المصري ميزان الاعتدال ٢: ٨٥ / ٢٨٠١.

الفن كابن حبان والحاكم.

وأما التوسل بحق الأولياء والشخصيات الإلهية ففي أدعية أئمة أهل البيت نماذج من أدعية التوسل، وهي كثيرة وموزعة في الصحيفة العلوية (١) ودعاء عرفة (٢) والصحيفة السجادية (٣) وغيرها من كتب الدعاء. وفيما يلي نذكر نماذج من تلك الأدعية:

١ - يقول الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في دعاء له: "... بحق محمد وآل محمد عليك، وبحقك العظيم عليهم أن تصلي عليهم كما أنت أهلهم، وأن تعطيني أفضل ما أعطيت السائلين من عبادك الماضين من المؤمنين وأفضل ما تعطي الباقيين من المؤمنين.. " (٤).

٢ - ويقول الإمام سيد الشهداء الحسين (عليه السلام) في دعاء عرفة: "... اللهم إنا نتوجه إليك - في هذه العشية التي فرضتها وعظمتها - بمحمد نبيك ورسولك وخيرتك من خلقك ".

٣ - ويقول الإمام زين العابدين (عليه السلام) في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان: "... اللهم إني أسألك بحق هذا الشهر وبحق من تعبد فيه " (٥).

إلى هنا تمت بعض الأدلة على جواز التوسل بالشخصيات الطاهرة التي لها منزلة ومكانة، وهناك روايات أخرى في هذا الصدد نتركها لئلا يطول بنا الكلام، فإن الغرض الإيجاز لا الإطناب.

-
- (١) وهي المجموعة التي تضم بعض أدعية الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) جمعها الشيخ عبد الله السماهيجي.
- (٢) وهو دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في عرفات، يوم عرفة.
- (٣) هي بعض أدعية الإمام زين العابدين (عليه السلام).
- (٤) الصحيفة العلوية: ٥١.
- (٥) الصحيفة السجادية: دعاء رقم ٤٤.

٣ - توسل آدم بحق النبي
 قد تعرفت على حقيقة حق العبد على الله وربما يحتمل أن يراد منه منزلته
 وجاهه عند الله وكرامته لديه قال نور الدين السمهودي:
 اعلم أن الاستغاثة والتشفع بالنبي (صلى الله عليه وآله) وبجاهه وبركته عند ربه تعالى
 من فعل
 الأنبياء وسير السلف الصالح، واقع في كل حال، قبل خلقه (صلى الله عليه وآله) وبعد
 خلقه (صلى الله عليه وآله) في
 حياته الدنيوية ومدة البرزخ وعرصات القيامة.
 " وإذا جاز السؤال بحق الأعمال - كما في حديث الغار الصحيح وهي مخلوقة -
 فالسؤال بالنبي (صلى الله عليه وآله) أولى. وفي العادة أن من له عند شخص قدر
 فتوسل به إليه من
 غيبته فإنه يجيب إكراما للمتوسل به وقد يكون ذكر المحبوب أو المعظم سببا
 للإجابة " (١).
 قال الدكتور عبد الملك السعدي: " إذا قلت: اللهم إني توسلت إليك بجاه فلان،
 لنبي أو صالح فهذا أيضا مما ينبغي أن لا يحصل بجوازه خلاف، لأن الجاه ليس له
 ذات المتوسل به بل مكانته ومرتبته عند الله وهي حصيلة الأعمال الصالحة، لأن الله
 تعالى قال عن موسى - عليه الصلاة والسلام - {وكان عند الله وجيها} (٢) وقال عن
 عيسى - عليه الصلاة والسلام - {وجيها في الدنيا والآخرة} (٣) فلا ينكر على من
 يتوسل
 بالجاه إذا كنا منصفين، لأنه لا يحتمل نسبة التأثير إلى المتوسل به إذ ليس هو
 المقصود بل المتوسل به جاهه ومكانته عند الله لا غير (٤).

(١) وفاء الوفا ٤: ١٣٧٢.

(٢) الأحزاب: ٦٩.

(٣) آل عمران: ٤٥.

(٤) البدعة: ص ٤٥.

وقال أيضا في قصة استسقاء الخليفة بالعباس: " إن عمر لم يقل واليوم نستسقي بالعباس بن عبد المطلب بل قال: بالعباس عم نبيك، فالوجهة حصلت له لأنه عم النبي (صلى الله عليه وآله) الميت، وهذا اعتراف بأن جاه النبي (صلى الله عليه وآله) بعد موته ما زال باقيا حتى سرى إلى عمه العباس (١).

ونحن نضيف إلى ذلك: أنه إذا جاز التوسل بالقرآن - كما مر في الفصل الثاني - لمكائنه عند الله ومنزلته لديه وهو كلام الله الصامت، فالتوسل بالنبي الأكرم وهو كلام الله الناطق بطريق أولى. عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): " اقترب آدم الخطيئة قال: ربي

أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال الله عز وجل: يا آدم، كيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله عز وجل: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد لما خلقتك " (٢).

يقع الكلام في سند الحديث أولا وامتته ثانيا. أما الأول: فرجاله ثقات، نعم وقع الكلام في واحد منهم وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فقد قال البيهقي: وهو ضعيف، ولكن الحاكم صحح الحديث على شرط الشيخين، ولو قلنا بأنه لا يعتمد على تصحيح الحاكم وحده فتكون الرواية مؤيدة، إذ ليس معنى كون الراوي ضعيفا أن الرواية مكذوبة.

(١) المصدر نفسه: ٤٩.
(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ٥: ٤٨٩ ط دار الكتب العلمية بيروت. لاحظ الدر المنثور ١: ٥٩، ونقله كثير من المفسرين في قصة توبة آدم.

وهناك نكتة أشرنا إليها سابقا، وهي أن لو كان التوسل بشخص النبي أمرا منكرا بين المسلمين لما تجرأ الواضع بوضع الحديث الذي يتضمن ذلك الأمر المنكر، لأن هدفه من الوضع إقبال الناس إلى كلامه وتسليمهم بالرواية، وهذا لا يجتمع مع كون المضمون أمرا مخالفا لما عليه المسلمون في ظرف النقل، وبذلك يعلم أن الرواية سواء أكانت صحيحة أم لا، تثبت ما بيناه في جواز التوسل بذات النبي. نعم هنا شبهات حول الرواية، تجب الإجابة عنها:

الشبهة الأولى

إن الحديث يتضمن الإقسام على الله بمخلوقاته، فالإقسام على الله بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأن حلف المخلوق لمخلوق حرام، فالحلف لله

بمخلوقاته من باب أولى.

يلاحظ عليه: أن ما استدل به على حرمة الإقسام على الله بمخلوقاته عن طريق أن الحلف بمخلوق لمخلوق حرام، مردود جدا، لأن القرآن ملئ بالحلف بمخلوق لمخلوق، قال سبحانه:

{والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين} (١).

{والليل إذا يغشى* والنهار إذا تجلى} (٢).

{والفجر* وليال عشر* والشفع والوتر* والليل إذا يسر} (٣).

ففي هذه الآيات حلف بمخلوق على مخلوق، والحالف هو الله والمحلوف به هو هذه الموجودات والمحلوف لهم هم الناس أو المسلمون قاطبة. فلو كان الحلف بمخلوق لمخلوق أمرا خطيرا وبمقربة من الشرك أو هو نفسه كما

(١) التين: ١ - ٣.

(٢) الليل: ١ - ٢.

(٣) الفجر: ١ - ٤.

يقوله بعض الناس (١) لما حلف به سبحانه، لأن ماهية العمل إذا كانت ماهية شركية فلا يفرق بينه وبين عباده كما أنه إذا كانت ماهية الشيء ظلما وتجاوزا على البرئ، فالله وعباده فيه سيان، قال الله تعالى: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ (٢).

إن الحلف بهذه العظائم ذات الأسرار إنما لأجل أحد الأمرين: إما للدعوة إلى التدبر والدقة في صنعها والنواميس السائدة عليها واللطائف الموجودة فيها، أو لإظهار عظمة المحلوف به وكرامته عند الله كما هو الحال في حلفه سبحانه بحياة النبي، قال: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ (٣).

ولا عتب علينا إذا عرضنا المسألة على السنة النبوية، فقد جاءت فيها موارد قد ورد فيها الحلف بمخلوق على مخلوق، نكتفي بما رواه مسلم في صحيحه، وما ظنك برواية مسلم في جامعه!

١ - روى مسلم في صحيحه:

جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ فقال: " أما وأبيك لتنبأته: أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل البقاء " (٤).

٢ - روى مسلم أيضا:

وجاء رجل إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) - من نجد - يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله:

" خمس صلوات في اليوم والليل "

فقال: هل علي غيرهن؟

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٢١٧.

(٢) الأعراف: ٢٨.

(٣) الحجر: ٧٢.

(٤) صحيح مسلم ٣: ٩٤ كتاب الزكاة، باب أفضل الصدقة.

قال: " لا... إلا أن تطوع، وصيام شهر رمضان ".
فقال: هل علي غيره؟
قال: " لا... إلا أن تطوع "، وذكر له رسول الله الزكاة.
فقال الرجل: هل علي غيرها؟
قال: " لا... إلا أن تطوع ".
فأدبر الرجل وهو يقول: لا أزيد علي هذا ولا أنقص.
فقال رسول الله: " أفلح وأبيه (١) إن صدق ".
أو قال: " دخل الجنة - وأبيه - إن صدق " (٢).
فإذ بطل الأصل: حرمة الحلف بمخلوق على مخلوق، بطل ما بني عليه من
حرمة الإقسام على الله بحق مخلوقه.
إلى هنا تم بيان أن الشبهة شبهة غير صحيحة، وإنما دعا القائل إلى التمسك بها
لدعم رأيه المسبق.

الشبهة الثانية

إن الحوار الوارد في الحديث كان بعد اقرار الخاطئة ولكنه قبل أن يخطأ،
علمه الله الأسماء كلها، ومن جملة الأسماء اسم محمد وعلم أنه نبي ورسول وأنه خير
الخلق أجمعين، فكان أحرى أن يقول آدم: ربي إنك أعلمتني به أنه كذلك لما
علمتني الأسماء كلها (٣).

نقول على هامش الشبهة: إن رد السنة الشريفة بمثل هذه التشكيكات جرأة
عليها، إذ أي مانع أن يكون هنا علمان: علم جزئي وقف عليه عندما فتح عينيه على

(١) أي حلفا بأبيه، فالواو للقسم.

(٢) صحيح مسلم ١: ٣٢، باب ما هو الإسلام.

(٣) التوصل إلى حقيقة التوصل: ص ٢١٨.

الحياة في الجنة، وعلم واسع علمه سبحانه بعد ذلك الظرف، عندما أراد سبحانه إثبات كرامته على الملائكة.

إن هذا النوع من التشكيك يستمد من إثبات الرأي والضمود على العقيدة وإن كان الحديث على خلافها. وهناك نكتتان ننبه عليهما:

الأولى: إن أحاديث التوسل وإن كانت تتراوح بين الصحيح والحسن والضعيف، لكن المجموع يعرب عن تضافر المضمون وتواتره، فعند ذلك تسقط المناقشة في أسنادها بعد ملاحظة ورود كمية كبيرة من الأحاديث في هذا المجال، وأنت إذا لاحظت ما مضى من الروايات، وما يوافيك تدعن بتضافر المضمون أو تواتره.

الثانية: نحن نفترض أن الحديث الراهن مجعول موضوع، ولكنه يعرب عن أن التوسل بالمنخلوق والإقسام على الله بمخلوقاته ليس شركاً ولا ذريعة إليه، بل ولا حراماً. وذلك لأنه لو كان شركاً وذريعة إليه أو حراماً، لما رواه الثقات واحد عن واحد، وهم أعرف بموازن الشرك ومعاييره، ولما أورده الأكابر من العلماء في المعاجم الحديثية، كالبيهقي في دلائل النبوة والحاكم في مستدركه، والسيوطي في تفسيره، والطبراني في المعجم الصغير، وأكابر المفسرين في القرون الغابرة، لأن الشرك أمر بين الغي، فلا معنى ولا مسوغ لنقله بحجة أنه رواية. فكل ذلك يعرب عن الفكرة الخاطئة في الحكم على الحلف على الله بمخلوقاته شركاً.

(٩)

التوسل بمقام النبي ومنزلته عند الله
إن هذا النوع من التوسل ليس قسما آخر بل يرجع إلى التوسل بحقهم، بل
التحقيق هو: أن التوسل ليس له إلا قسم واحد وهو توسيط قداسة النبي
وشخصيته وحرمة عند الله تبارك وتعالى، حتى يستجيب دعاء الإنسان لأجلها،
ولو كان دعاء النبي أثر هو الإجابة فإنما هو في ظل قداسته وشخصيته، وهناك
كلمة قيمة للشيخ محمد الفقي على هذا الصعيد تأتي بنصها:
يمتاز الأنبياء والرسل عن سواهم بمميزات لها خطورتها وعظم شأنها،
ويتمتعون بخصوصيات تجل عن التقدير والتعبير، فهم يتفاوتون عن الخلائق بشتى
الحوارق، ويختصون بأنواع رائعة من المعجزات وأسمى المقامات: { ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم } (١).
والذي وهبهم هذه العطايا وأنعم عليهم بهذه الامتيازات، كتب لهم في سجل
الحوائج قضاء ما يطلبون وما يرجون، لأنهم رسله إلى خلقه يلجأ إليهم عند
الشدائد، ويستغاث بهم في الملمات، وقد أكرم الله كذلك من بين خلقه رجالا لا

(١) الحديد: ٢١.

تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، وهم أولياؤه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلهم الحظوة لديه، والقبول عنده بتفضيل عليهم بالاستجابة لدعائهم وقبول الاستغاثة منهم.

وفي جواز التشفع والاستغاثة بجاهه تواترت الأحاديث، واستفاضت الأخبار، خصوصاً عندما يطول الموقف ويشد الكرب ويعظم الهول، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. فتطلب الخلائق في هذا الموقف من الأنبياء إغاثتهم، والاستشفاع بهم، فيحيلونهم كل بدوره إلى خير شفيع، وأعظم مغيث فيقصدون كعبة الشفاعة وقبلة الإغاثة، فيستجيب لرغباتهم ويسارع لإغاثتهم وإنقاذهم ويهم لمرضاتهم بما عهد فيه من فضل، وما عرف عنه من كرم (١).

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: " أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون بم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ويسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح.

(١) التوسل والزيارة: ص ١٦١.

فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعد مثله (وإنني قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن أبو حيان (١) - في الحديث)، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنني قد قتلت نفسا لم أوامر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله (ولم يذكر ذنبا)، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد (صلى الله عليه وآله).

فيأتون محمدا (صلى الله عليه وآله) فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد

(١) ما تفرد به أبو حيان مخالف للكتاب والعقل فلا عبرة به.

غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربي عز وجل ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه علي أحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا رب أمّتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحميرا وكما بين مكة وبصرى " (١).

فالحديث يدل على جواز التوسل بالمقام والمنزلة لقولهم: يا من أنت رسول وخاتم الأنبياء، كما أن فيه دلالة على طلب الشفاعة منه لقولهم اشفع لنا إلى ربك. إن التوسل بالأنبياء والأولياء ليس بملاك جسمانيتهم فإنهم وغيرهم في ذلك المجال سواسية، وإنما يتوسل بهم بروحانيتهم العالية، وهي محفوظة في حال الحياة وبعد الارتحال إلى البرزخ وإلى الآخرة.

فالتفريق في التوسل بين الحياة والممات ينشأ من نظرة مادية تعطي الأصالة للجسم والمادة ولا تقيم للمعنى والروحانية وزنا ولا قيمة. فالنبي الأكرم مدار الفضائل والكمالات وهو يتمتع بأروع الكرامات وكلها ترجع إلى روحانيته ومعنويته القائمة المحفوظة في جميع الحالات. فما هذا التفريق بين الحياة المادية والبرزخية والأخروية؟

فمن اتخذ الأنبياء والأولياء وغيرهم ممن باتوا لربهم سجدا وقياما، أسبابا حال حياتهم أو بعد مماتهم، ووسائل لقضاء حوائجهم ووسائل لجلب الخير ودفن

(١) البخاري، الصحيح ٦: ٨٤ - ٨٥، صحيح مسلم ١: ١٢٧ - ١٣٠، مسند أحمد ٢: ٤١٢.

الشر، لم يحددوا عما تهدف إليه الشريعة ولم يتجاوزوا الخط المشروع ولم يتعدوا مقصود الرسالة النبوية وغاياتها.
فالأسباب لا يمكن إنكارها، ولا يعقل تجاهلها، ولا يتأتى جحودها، لأنه تعالى هو الذي خلق الأسباب والمسببات ورتب النتائج على المقدمات فمن تمسك بالأسباب فقد تمسك بما أمر الله سبحانه.
خاتمة المطاف: آيتان على مائدة التفسير

خاتمة المطاف: آيتان على مائدة التفسير
قد تعرفت على أدلة جواز التوسل بالأنبياء والصالحين، بأقسامه المختلفة،
وربما تثار شبهة حول التوسل يتمسك لها ببعض الآيات، فإكمال البحث يقتضي
توضيح بعض هذه الآيات التي وقعت ذريعة للشبهة لأجل التفسير بالرأي،
فحاشا أن يكون بين الآيات تهافت واختلاف بأن يدل بعضها على جواز التوسل
وبعضها الآخر على المنع، وحاشا أن تكون السنة المتواترة على جواز التوسل
مضادة للقرآن الكريم وإنما استغلها القائل إذ ولج في تفسير الآية من غير بابها
وإليك بعض هذه الآيات:

الآية الأولى

قوله سبحانه: {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر
عنكم ولا تحويلاً* أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب
ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا} (١).
وتوضيح الآيتين على وجه يقلع الشبهة من رأس:
ترد الآيتان على الذين كانوا يعبدون الوسائط والوسائل بتخيل أنها تستطيع
كشف الضر وتحويله عنهم، وأنها تملك ذلك، فلأجل تلك الغاية كانوا يعبدون
الجن والملائكة وغيرهم، وكانوا يسمونهم آلهة، والآيتان تحتجان على نفي
ألوهيتهم بحجة أن الإله المستحق للعبادة يجب أن يكون قادرا على إيصال النفع
ودفع الضرر، إذ هو لازم ربوبية الرب، لكن الذين يدعون هؤلاء ويعبدونهم لا

(١) الإسراء: ٥٦ - ٥٧.

يستطيعون ذلك، أي كشف ضرر مسهم أو تحويله عنهم إلى غيرهم، فعند ذلك تبطل ربوبيتهم فلا يستحقون العبادة، وإلى ذلك المعنى يشير سبحانه بقوله: {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً}. هذا هو الدليل الأول الذي أبطل به سبحانه ألوهيتهم وربوبيتهم واستحقاقهم للعبادة.

ثم إنه سبحانه عاد إلى الاحتجاج عليهم بدليل آخر وحاصله: أن الذين تعبدونهم وتزعمون أنهم يستطيعون كشف الضر وتحويله - نفس هؤلاء - يدعون الله تعالى ويطلبون القربة إليه بفعل الخيرات حتى أن الأقرب منهم يتبغي الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب، والجميع يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، إن عذاب ربك كان محذورا، فإذا كان الحال كذلك فاللازم عليكم ترك عبادة هؤلاء ورفضهم والإقبال على عبادة الله تبارك وتعالى وإلى ذلك يشير قوله سبحانه في الآية الثانية:

{ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون

رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا }.

فأشار { بأولئك } إلى آلهتهم، وبقوله: { الذين يدعون } إلى عبادتهم لهم، ثم وصف آلهتهم بالجمل التالية وهي، هؤلاء الآلهة:

١ - يبتغون إلى ربهم الوسيلة.

٢ - الذي هو أقربهم إلى الله يبغي الوسيلة فكيف بغير الأقرب.

٣ - والجميع الأقرب وغير الأقرب { يرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا } فالآيتان بصدد إبطال إلهية هؤلاء وعدم استحقاقهم للعبادة لعدم ثبوت ملاك العبادة فيهم.

فأي صلة للآيتين بنفي التوسل، أي التوسل بعباد صالحين لا يعتقد المتوسل

فيهم شيئاً من الربوبية ولا استطاعة لكشف الضر وتحويله، بل هم عباد صالحون تستجاب دعوتهم، فلو كانت الآية عامة لصورة التوسل بدعائهم يلزم التهافت بينها وبين قوله سبحانه: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً} (١).

فالإنسان المصّر على عقيدته الذي لا يريد أن يعدل عنها أمام الآيات البيّنات ليس له إلا إخراج الآية عن مفادها وتفسيرها لأجل رأي مسبق، فشتان بين مفاد الآية، أي عبادة الوسائط بزعم أنهم آلهة يستطيعون كشف الضر وتحويله وقضاء الحاجة، وبين توسيط الشخصيات الصالحة بما هم عباد الله، وبما لهم من منزلة وكرامة عند الله حتى يدعوا للمتوسل أو يستجيب الله تعالى دعاءه لأجل قربهم وكرامتهم عنده، فالآية ناظرة إلى المعنى الأول دون الثاني.

الآية الثانية

قال سبحانه: {إياك نعبد وإياك نستعين} (٢).

ربما يقال: إن التوسل نوع من الاستعانة بغير الله سبحانه، وهو ينافي الحصر الموجود في قوله: {إياك نستعين}.

والجواب: أن الاستعانة بالناس والاستغاثة بهم لا يتنافى مع حصر الاستعانة بالله في قوله: {إياك نعبد وإياك نستعين} لأن الاستعانة بهم (باعتماد أنه سبحانه هو الذي جهزهم بالقوة، فلو قاموا بعمل فإنما يقومون به بحوله وقوته سبحانه) يؤكد حصر الاستعانة فيه عز وجل.

وإنما ينافي الحصر لو اعتقدنا بأن للأسباب والوسائط أصالة واستقلالاً في

(١) النساء: ٦٤.

(٢) الفاتحة: ٥.

العمل والتصرف، وهذا ما لا يليق أن ينسب إلى موحد أبداً.
إن القرآن حافل بحصر أفعال بالله سبحانه، فينسبها إليه في صورة الحصر،
ولكنه يعود فينسبها في نفس الوقت إلى غيره وليس هناك تهافت وتضاد بين
الإسنادين والنسبتين، لأن المحصور في الله سبحانه غير المنسوب إلى غيره.
يقول سبحانه: {إياك نستعين} وفي الوقت نفسه يقول عز وجل: {واستعينوا
بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين} (١).
قال الدكتور عبد الملك السعدي: أما من يمنع ذلك ويستدل بقوله: {إياك نعبد
وإياك نستعين} وبقوله (صلى الله عليه وآله) لابن عباس: " وإذا استعنت فاستعن بالله "
وبقوله: " لا
يستغاث بي وإنما المغيث هو الله ".
فالجواب عنه: أن الإعانة تكون حقيقية ومجازية، فالمعين الحقيقي هو الله
وطلب الإعانة من غيره مجاز، ولولا إمداد الله له بالعون والقوة لما استطاع أن
يعينك، فالاستعانة بالإنسان هي استعانة بالقوة والملكة والسلطة التي منحها الله
إياه إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، فالآية حصرت الاستعانة الحقيقية بالله تعالى،
وكذا وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لابن عباس من هذا القبيل، والآية والحديث
فيهما توجيه
للعبد، أن لا ينسب إلى المخلوق حولاً ولا قوة، ولو طلب العون المجازي منه وإذا لم
توجه الآية والحديث هذا التوجيه فإنه ستتعارض مع قوله تعالى: {وتعاونوا على
البر والتقوى} (٢) وقوله (صلى الله عليه وآله): " والله في عون العبد ما دام العبد في
عون أخيه ".
أما الحديث الأخير فإنه ضعيف، لأن في سنده ابن لهيعة فلا يقاوم الأحاديث
الصحاح ولا مدلول الآية (٣).

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) البدعة في مفهومها الإسلامي الدقيق: ص ٥٣ - ٥٤.

والأولى أن يعبر عن الحقيقي والمجازي بالاستقلال وعدم الاستقلال،
بالأصالة والتبع، فالله سبحانه يملك كل شيء استقلالا وأصالة والعبد يملك العون
والقدرة، ولكن بإذنه ومشئته في كل آن، فهو الذي أراد أن يقدر العبد ويستطيع
على إقامة الفرائض والسنن.

فالعون القائم بالذات غير المفاض هو عون الله سبحانه، وأما العون المفاض
المحدود فهو عون العبد، فلو استعان بالعبد بما أنه معين مستقل وبالأصالة فهو
مشرك، لأنه جعل المخلوق مكان الخالق، ولو طلب منه بما أنه أقدر الله عليه وأجاز
له أن يعين أخاه، فقد طلب شيئا مشروعاً وهو نفس التوحيد.

هذا من غير فرق بين من يستعين بالأحياء وبالأموات، غاية الأمر إذا كان
الميت غير مستطيع على الإعانة تكون الاستعانة لغواً، وإن كان قادراً فتكون
الاستعانة عقلائية، فالحياة والموت ليسا ملاكاً للتوحيد والشرك، بل ملاكاً
للجدوى وعدمها.

(١٠)

التوسل بالنبي متواتر إجمالاً

إن هناك لفيفا من التوسلات الموثقة في كتب التاريخ والتفسير والسيرة وغيرها، وهي بأجمعها تدل على جريان السيرة على التوسل بالرسول، وهي تدل على جواز التوسل بدعاء الرسول أو بذاته أو بمنزلته حيا وميتا، والكل يعرب عن كونه أمراً رائجاً بين المسلمين غير منكر، وإنما حدث الإنكار في الآونة الأخيرة أي بعد سبعة قرون متكاملة، فلم ينبس فيها أحد ببنت شفة بالإنكار أبداً.

نعم هناك بعض يمنعون التوسل، ولكنهم لما وقعوا أمام هذه الروايات الهائلة الدالة على جواز التوسل بدعائه أو بذاته وشخصه حيا وميتا، حاولوا أن يناقشوا في أسناد هذه الروايات، غافلين عن أن هذه الروايات مستفيضة، بل متواترة في مفادها الإجمالي، أي جواز التوسل بنفسه، ولا وجه للمناقشة في إسنادها وقال ابن تيمية: " والمراسيل إذا تعددت طرقها وخلت عن المواطأة قصداً أو الاتفاق بغير قصد كانت صحيحة قطعاً " (١).

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٢٤.

وأنت إذا لاحظت ما سبق من الصراح والحسان وما ذكره الآن تدعن لتواترها الإجمالي:

١ - توسل الأعرابي بالنبي نفسه

روى جمع من المحدثين أن أعرابيا دخل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: لقد أتيناك

وما لنا بغير يئط، ولا صغير يغط، ثم أنشأ يقول:

أتيناك والعذراء تدمي لبانها * وقد شغلت أم الصبي عن الطفل

ولا شئ مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامي والعلهز الفسل

وليس لنا إلا إليك فرارنا * وأين فرار الناس إلا إلى الرسل؟

فقام رسول الله (صلى الله عليه وآله) يجر رداءه حتى صعد المنبر، فرفع يديه وقال: اللهم اسقنا

غيثا مغيثا... فما رد النبي يديه حتى ألفت السماء... ثم قال: لله در أبي طالب، لو كان حيا لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟

فقام علي بن أبي طالب (عليهما السلام) وقال: كأنك تريد يا رسول الله قوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك من آل هاشم * فهم عنده في نعمة وفواضل

فقال النبي (صلى الله عليه وآله): أجل.

فأنشد علي (عليه السلام) أبياتا من القصيدة، والرسول يستغفر لأبي طالب على المنبر،

ثم قام رجل من كنانة وأنشد يقول:

لك الحمد والحمد ممن شكر * سقينا بوجه النبي المطر (١)

(١) السيرة الحلبية ١: ١١٦. لاحظ فتح الباري ٢: ٤٩٤، والقصيدة مذكورة في السيرة النبوية لابن هشام
:١

دلالة الحديث:

إن الإمعان في مجموع الرواية يعرب عن أن الأعرابي توسل بشخص النبي وطلب منه قضاء حاجته، والدليل على ذلك الأمور الآتية:

أ - أتيناك وما لنا بغير يئط.

ب - أتيناك والعدراء تدمى لبانها.

ج - وليس لنا إلا إليك فرارنا.

د - وأين فرار الناس إلا إلى الرسل؟

ه - إنشاء علي بن أبي طالب شعر والده، وهو يتضمن قوله: وأبيض يستسقي الغمام بوجهه.

٢ - شعر صافية في رثاء النبي

أنشدت صافية بنت عبد المطلب عممة النبي قصيدة بعد وفاة النبي في رثائه (صلى الله عليه وآله)

وجاء فيها قولها:

ألا يا رسول الله أنت رجاؤنا * و كنت بنا برا ولم تك جافيا

و كنت بنا برا رؤوفا نبينا * لبيك عليك اليوم من كان باكيا (١)

إننا نستنتج من هذه المقطوعة الشعرية - التي أنشدت على مسمع من الصحابة وسجلها المؤرخون وأصحاب السير - أمرين:

الأول: إن مخاطبة الأرواح - وبالخصوص مخاطبة رسول الله بعد وفاته - كان

(١) ذخائر العقبى: ص ٢٥٢، مجمع الزوائد ٩: ٣٦، ونشير إلى أن جملة: "أنت رجاؤنا" في الشطر الأول جاءت في هذا المصدر هكذا (كنت رجاؤنا).

أمرا جائزا وجاريا وقولها: " يا رسول الله " لم يكن لغوا ولا شركا.
الثاني: إن قولها: " أنت رجاؤنا " يدل على أن النبي (صلى الله عليه وآله) هو أمل
المجتمع
الإسلامي في كل العصور والأحوال، ولم تنقطع الروابط والعلاقات معه (صلى الله عليه
وآله) حتى
بعد وفاته.

٣ - خبر العتيق

روى الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية: وقف أعرابي على قبره
الشريف (صلى الله عليه وآله) وقال: اللهم إنك أمرت بعق العبيد وهذا حبيبي وأنا
عبدك فأعتقني

من النار على قبر حبيبي، فهتف به هاتف: يا هذا سألت العتق لك وحدك؟ هلا
سألت العتق لجميع المؤمنين اذهب فقد أعتقتك.

ثم أنشد القسطلاني البيتين المشهورين وهما:

إن الملوك إذا شابت عبيدهم* في رقهم أعتقوهم عتق أحرار
وأنت يا سيدي أولى بذا كرما* قد شبت في الرق فأعتقني من النار (١)

٤ - خبر حاتم الأصم

نقل في المواهب عن الحسن البصري، قال: وقف حاتم الأصم على قبره (صلى الله
عليه وآله)

فقال: يا رب إنا زرنا قبر نبيك (صلى الله عليه وآله) فلا تردنا خائبين، فنودي: يا هذا
ما أذن لك في

زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفورا لكم.
ثم ذكر في المواهب كثيرا من البركات التي حصلت له ببركة توصله بالنبي (٢).

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٤: ٥٨٤ ط. دار الكتب الإسلامية.

(٢) المصدر نفسه.

٥ - اللهم رب جبرئيل وميكائيل
روى النووي أن النبي أمر أن يقول العبد بعد ركعتي الفجر: " اللهم رب
جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ومحمد أجزني من النار " (أو) " أعوذ بك من
النار ". وخص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم في قبول الدعاء وإلا فهو سبحانه رب
جميع المخلوقات.

والحديث صححه الحاكم، وقال ابن حجر: إنه حسن (١).

٦ - حديث السؤال بالأنبياء

يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنتره عن أبيه عن جده أن أبا بكر
الصديق أتى النبي (صلى الله عليه وآله) قال: إني أتعلم القرآن وينفلت مني. فقال رسول
الله (صلى الله عليه وآله):

" قل: اللهم إني أسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وبموسى نجيك،
وعيسى روحك وكلمتك، وبتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وفرقان محمد وبكل
وحي أوحيته وقضاء قضيته... "

قال ابن تيمية: هذا الحديث ذكره زرير بن معاوية العبدري في جامعه. ونقله
ابن الأثير في جامع الأصول، ولم يعزه لا هذا، ولا هذا إلى كتاب من كتب
المسلمين، لكنه رواه من صنف في عمل يوم وليلة كابن السني، وأبي نعيم. وقد
رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب " فضائل الأعمال " (٢).

(١) الدرر السنية: ص ٣٠، التوصل إلى حقيقة التوسل: ٣٠٦ عن كتاب الأذكار للنووي.

(٢) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٣١٠.

٧ - حديث دعاء حفظ القرآن

ذكر موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً، أنه قال: من سره أن يوعيه الله القرآن فليكتب هذا الدعاء: "... اللهم إني أسألك بأنك مسؤول لم يسأل مثلك ولا يسأل وأسألك بمحمد نبيك، وإبراهيم خليلك، وبموسى نجيك، وعيسى روحك وكلمتك ووجيهاك..." (١).

٨ - حديث استفتاح اليهود على المشركين بمحمد (صلى الله عليه وآله) يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنتره، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان... فكلما التقوا هزمت يهود، فعازت بهذا الدعاء: " اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان... فلما بعث النبي (صلى الله عليه وآله) كفروا به فأنزل الله تعالى: {وكانوا من قبل

يستفتحون على الذين كفروا...} (٢).

٩ - توسل الشافعي بآل البيت
ذكر ابن حجر المكي في كتابه المسمى بـ "الصواعق المحرقة" من أشعار الإمام الشافعي هذين البيتين:

(١) التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٣١٠.
(٢) المصدر نفسه، نقلاً عن الحاكم في المستدرک علی الصحیحین. ولم نعثر عليه فيه بعد الفحص الأكيد.
والآية في سورة البقرة: ٨٩.

آل النبي ذريعتي * وهم إليه وسيلتي
أرجو بهم أعطى غدا * بيدي اليمين صحيفتي (١)

١٠ - استسقاء بلال بن حرث

روى البيهقي وابن أبي شيبة أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر (رضي الله عنه)، فجاء

بلال بن الحرث (رضي الله عنه) وكان من أصحاب النبي إلى قبر النبي، وقالوا: يا رسول الله

استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المنام وأخبره بأنهم

سيسقون (٢) ففيه النداء بعد وفاته (صلى الله عليه وآله) والخطاب بالطلب منه أن يستسقي لأمته.

ومراد من الاستسقاء بقرينة الحال دعاؤه سبحانه أن ينزل رحمته، إليهم، لا أن يصلي صلاة الاستسقاء، وليس العبرة بنوم بلال، وإنما العبرة بعمل ذلك الصحابي الذي كان في بعض غزواته (٣).

قال زيني دحلان: ومن تتبع أذكار السلف والخلف وأدعيتهم وأورادهم وجد فيها شيئا كثيرا في التوسل ولم ينكر عليهم أحد في ذلك حتى جاء هؤلاء المنكرون، ولو تتبعنا أكابر الأمة في التوسل لامتلأت بذلك الصحف، وفيما ذكر كفاية ومقنع لمن كان بمرأى من التوفيق ومسمع (٤).

تلك عشرة كاملة

ونلفت نظر القارئ بأن الاحتجاج بهذه الأحاديث العشرة الكاملة وما قبلها مبني على أمرين أشير إليهما فيما سبق:

(١) الصواعق المحرقة: ص ١٨٠، ط. مكتبة القاهرة، تحقيق عبد الوهاب.

(٢) الدرر السنية: ص ١٨.

(٣) تهذيب الكمال ٤: ٢٨٢، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ٣: ٣٠١ - ٣٠٣.

(٤) الدرر السنية: ص ٣١.

١ - إن أصل التوسل إذا كان شركاً أو محرماً لم يتجرأ الوضع على أن يجعله أساساً لما يريده من الوضع والدس، فهذا يعرب عن أن أساس (جواز التوسل) كان أمراً مسلماً فبنى عليه ما بنى من القصص والروايات لو افترضنا عدم صحتها، لكن أنى لنا هذه الفرية.

٢ - إن مجموع الروايات العشرة وما تقدم عليها من الصحاح والحسان يثبت كون التوسل بالنبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) بعامه صورته أمر استفيض جوازه من النبي

والصحابه، بل تواتر إجمالاً وإن كانت الخصوصيات غير متواترة. وليس المورد مما يقبل الجرح والدقة في إسناد الروايات، إذ ليس المقصود الإذعان بصحة كل ما جاء فيها من الخصوصيات، وإنما المقصود ثبوت جواز التوسل بصورة عامة ببركة هذه الحكايات والقصص وإن كان بعضها ضعيف السند عند البعض وصحيحاً عند آخر. ومن أراد رد هذه الروايات بضعف السند، فقد ولج البيت من غير باب. * * *

ما ألف حول التوسل بقلم علماء الإسلام
لقد ألف حول التوسل بخير الأنام وأولياء الله الكرام كتب ورسائل قام بتأليفها لفيف من علماء الإسلام وأكابرهم الذين يعتمد على أقوالهم وآرائهم، فأحببت أن أنوه ببعض أسمائها حتى يقف القارئ عليها، وإذا أراد التوسع فعليه الرجوع إليها:
١ - كتاب الوفا في فضائل المصطفى: لابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) وقد أفرد باباً حول التوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) وباباً حول الاستشفاء بقبره الشريف.
٢ - مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام: تأليف محمد بن نعمان

- المالكي (المتوفى سنة ٦٧٣ هـ) وقد نقل السمهودي في كتاب وفاء الوفا، باب التوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) عن هذا الكتاب نقلا كثيرا.
- ٣ - البيان والاختصار: لابن داود المالكي الشاذلي، وقد ذكر فيه توسل العلماء والصلحاء بالرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) في المحن والأزمات.
- ٤ - شفاء السقام: لتقي الدين السبكي (المتوفى عام ٧٥٦ هـ) وقد تحدث عن التوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) بشكل تحليلي رائع من ص ١٢٠ - ١٣٣.
- ٥ - وفاء الوفا لأخبار دار المصطفى: للسيد نور الدين السمهودي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) وقد بحث عن التوسل بحثا واسعا في الجزء الرابع من ص ٤١٣ - ٤١٩.
- ٦ - المواهب اللدنية: لأبي العباس القسطلاني (المتوفى سنة ٩٣٢ هـ) وسيوافيك كلامه في التوسل.
- ٧ - شرح المواهب اللدنية: للزرقاني المالكي المصري (المتوفى سنة ١١٢٢ هـ) في الجزء الثامن، ص ٣١٧.
- ٨ - صلح الإخوان: للخالدي البغدادي (المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ) وله أيضا رسالة خاصة في الرد على الألوسي حول موضوع التوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) وقد طبعت الرسالة في سنة ١٣٠٦ هـ.
- ٩ - كنز المطالب: للعدوي الحمزاوي (المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ).
- ١٠ - فرقان القرآن: للعزامي الشافعي القضاعي، وقد طبع هذا الكتاب مع كتاب الأسماء والصفات للبيهقي في ١٤٠ صفحة.
- أيها القارئ الكريم: إن مطالعة هذه الكتب - وخاصة تلك التي تحدثت بالتفصيل عن التوسل، ويأتي كتاب صلح الإخوان وفرقان القرآن في طليعتها - تثبت جريان سيرة المسلمين - في كل عصر ومصر - على التوسل بالنبي (صلى الله عليه وآله) ولنقتصر على هذا المقدار ففيه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد.

كلام لابن حجر حول التوسل
قال: وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل به (صلى الله عليه وآله) فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه. واعلم أن الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ: الاستغاثة أو التوسل أو التشفع أو التجوه أو التوجه، لأنهما من الجاه والوجهة، ومعناه: علو القدر والمنزلة. وقد يتوسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه، ثم إن كلا من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبي (صلى الله عليه وآله) كما ذكره في "تحقيق النصرة" و "مصباح الظلام" واقع في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة. فأما الحالة الأولى فحسبك ما قدمته في المقصد الأول من استشفاع آدم (عليه السلام) به

لما أخرج من الجنة، وقول الله تعالى له: "يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماوات والأرض لشفعناك".
وفي حديث عمر بن الخطاب عند الحاكم والبيهقي وغيرهما: وإن سألتني بحقه فقد غفرت لك. ويرحم الله ابن جابر حيث قال:
به قد أجاب الله آدم إذ دعا* ونجا في بطن السفينة نوح
وما ضرت النار الخليل لنوره* ومن أجله نال الفداء ذبيح
وصح أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: "لما اقترب آدم الخطيئة قال: يا رب، أسألك

بحق محمد لما غفرت لي، قال الله تعالى: يا آدم، وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب إنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت قوائم العرش مكتوبا عليها لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعرفت أنك

لا تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، وإذ سألتني بحقه، فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك". ذكره الطبري، وزاد فيه: "وهو آخر الأنبياء من ذريتك" (١). وأما التوسل بعد خلقه في مدة حياته، فمن ذلك الاستغاثة به (صلى الله عليه وآله) عند القحط

وعدم الأمطار، وكذلك الاستغاثة به من الجوع ونحو ذلك مما ذكرته في مقصد المعجزات ومقصد العبادات في الاستسقاء، ومن ذلك استغاثة ذوي العاهات به، وحسبك ما رواه النسائي والترمذي عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو

بهذا الدعاء: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في حاجتي لتقضى، اللهم شفعه في" وصححه البيهقي وزاد: "فقام وقد أبصر".

وأما التوسل به (صلى الله عليه وآله) بعد موته في البرزخ وهو أكثر من أن يحصى أو يدرك

باستقصاء وفي كتاب "مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام" للشيخ أبي عبد الله ابن النعمان طرف من ذلك.

إن لابن حجر العسقلاني مقاما شامخا عند أهل الحديث، لا يعدل عنه إلى غيره إلا بدليل وهو خريت فن الحديث وأستاذه، فكلامه يعرب عن تسليمه صحة ما نقل من الأحاديث التي تقدمت في الفصول السابقة.

أخي العزيز: لقد عالجت في هذا الفصل مسألة التوسل التي قد أثارت في بعض الأجواء قلقا واضطرابا، ولو أن إخواننا نظروا إلى كتاب الله وسنة نبيه نظرة

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٤: ٥٩٣ - ٥٩٥.

فاحصة متجردة عن كل رأي مسبق لوجدوا فيهما بيانا شافيا، لا يدع شكا لشاك ولا ريبا لمرتاب، وبما أن بعضهم - سامحه الله - ربما يرمي المتوسل بتأليه المتوسل به، أو يعد عمله بدعة، وضعنا أمامك بحثا موجزا حول التوسل ليقف القارئ على أن المتوسل بالأسباب - مادية كانت أم معنوية - يؤمن بالتوحيد في العبادة وحرمة البدعة أتم الإيمان، وأنه مع إيمانه وتسليمه بهما يتوسل بما سوغ في الشريعة الإسلامية التمسك به.

نسأله سبحانه أن يرزقنا توحيد الكلمة، كما تفضل علينا بكلمة التوحيد إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

تم الكتاب بيد مؤلفه الفقير إلى الله الغني
جعفر السبحاني
عفي عنه